المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالى
جامعة أم القرى - مكة المكرمة
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا الشرعية
شعبة الاقتصاد الاسلامي

التطور الاقتصادى خلال العصر العباسى الأول

دراسة مقارنة مع الأوضاع الاقتصادية الأوربية فى تلك الفترة

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه فى الاقتصاد الاسلامى

إعداد الطالب
عادل سباعى متولى إبراهيم

إشـراف

الاستاذ الدكتور
أحمد فريد مصطفى عبدالرحمن

الاستاذ الدكتور
الشافعى عبدالرحمن السيد عوض



المجلد الأول

١٤١٥هـ/١٤١٦هـ

١٩٩٤م/١٩٩٥م



بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده .. وأشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله ....

وبعد :

فإن دراسة التاريخ الاقتصادي للدولة الإسلامية من أهم الدراسات التي يجب على طلاب العلم أن يهتموا بها ويولوها عناية ورعاية ، وذلك لأن هذه الدراسات مازالت تحتاج الى جهد كبير وبحث ، كما أن الأمة الإسلامية في وقتنا المعاصر تحتاج لأن تستفيد من وقائع وإحداث الماضي لتتفادى الأخطاء وتسعى قدماً نحو التطور . من هذا المنطلق اختار الباحث هذا الموضوع وهو بعنوان « التطور الاقتصادي خلال العصر العباسي الأول دراسة مقارنة مع الأوضاع الاقتصادية الأوربية في تلك الفترة » وهي فترة تاريخية هامة في حياة المسلمين شهدت تطوراً وإزدهاراً لامثيل له في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، كما أنها في نفس الوقت شهدت تدهوراً خطيراً على مستوى المجتمعات الأوربية ، وفي هذا البحث بيان وتوضيح لأهمية التمسك بمنهج الله عز وجل كسبب رئيسي في تحقيق التطور الاقتصادي ، وقد وقعت هذه الدراسة في مقدمة ، وفصل تمهيدي ، وبابين وخاتمة ومجموعة من الملاحق ثم الفهارس ، قام الباحث في الباب الأول منها بدراسة الأنشطة الاقتصادية المختلفة لهذه الدولة (الزراعية - الصناعية - والتجارية) كل نشاط في فصل مستقل ، ثم أردف ذلك بفصل تحدث فيه عن أوضاع هذه الأنشطة في أوربا ومقارنتها بما كان سائداً في العصر العباسي الأول ، وفي الباب الثاني تحدث فيه الباحث عن مالية الدولة العباسية من إيرادات ونفقات وموازنة عامة وخدمات ونقود وذلك في ثلاثة فصول ثم أردفها بفصل قارن فيه الباحث أوضاع اقتصاديات الدولة في أوربا على النحو الذي تم في الباب الأول . وفي النهاية ختم الباحث بحثه بخاتمة جمع فيها أهم النتائج التي توصل إليها ، وكان من أهمها مايلي :

١ - ظهر من خلال البحث تنوع نظام الأراضي في الدولة العباسية الأولى ، وتنوع أساليب استغلالها وتنميتها ، وأن الدولة اتخذت في سبيل ذلك سياسات كثيرة أسهمت مساهمة فعلية في إزدهار النشاط الزراعي .

٢ - أسهم التركيب السكاني والمهني في الدولة العباسية في تطور كثير من الصناعات والحرف .

٣ - عرف الفكر الاقتصادي الإسلامي كثيراً من القضايا الاقتصادية كتقسيم الأنشطة الاقتصادية ، وتقسيم العمل وتخصصه ، وقد انعكس ذلك على تطور كافة الأنشطة الاقتصادية .

٤ - ازدهرت حركة التجارة الداخلية والخارجية ، وكان من نتيجة ذلك ظهور بعض المدن التجارية وظهور الشركات والمؤسسات المصرفية ، وتبعاً لذلك زادت حركة الاستثمار والأسواق داخليا وخارجياً .

٥ - ظهر من خلال هذه الدراسة تدهور كافة الأنشطة الاقتصادية في أوربا ، حتى في النشاط الغالب عليها ، بسبب الإنحراف عن منهج الله ، والتبعية الفكرية . إذ إنعكس ذلك كله علي مختلف الأوضاع الاقتصادية الأوربية .

٦ - ثبت من خلال البحث تدخل الدولة العباسية الأولى في تنظيم النشاط الاقتصادي ورقابته وفق مقاصد الشريعة وأهدافها العامة .

وبعد فهذا جهد المقل أسأل الله عز وجل أن يكون في ميزان حسناتي يوم القيامة ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .. آمين .

الطالب	المشرف الاقتصادي	المشرف الفقهي	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
عادل سباعي متولي	د . احمد فريد مصطفى	أ.د . الشافعي عبد الرحمن السيد	د . محمد بن صامل السلمي

٢١/٢/١٤١٥هـ

شكر وتقدير

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده - وبعد فاننى تحدثا بنعمة الله على وشكرا له على فضله وكرمه، وامتثالا لقول الله عز وجل : ﴿ومن شكر فانما يشكر لنفسه، ومن كفر فان ربي غني كريم﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان الله غني حميد﴾(٢)، وقوله ﷺ : «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(٣).

فاننى اتقدم بخالص شكرى وتقديرى للقائمين على جامعة أم القرى ممثلة فى معالى مدير الجامعة وأسرة كلية الشريعة ممثلة فى عميدها ووكيلها كما أقدم خالص الشكر لسعادة الدكتور رئيس قسم الدراسات العليا الشرعية وسعادة الدكتور رئيس قسم الاقتصاد الاسلامى والعاملين فى القسم لما يقدمونه من جهد وعناء للنهوض به والسمو بشأنه.

ألا وان من عظيم مَنّ الله علي أن حبانى بعالمين فاضلين تشرفت باشرافهما على هذا البحث وهما سعادة الاستاذ الدكتور أحمد فريد مصطفى، وسعادة الاستاذ الدكتور الشافعى عبدالرحمن فاليهما يرجع الفضل بعد الله عز وجل فى اخراج هذا البحث فلهما منى خالص شكرى وتقديرى لما قدماه لى من جهد وعناء منذ أن كان البحث اطروحة وحتى صار حقيقة واقعة، فلم يبخلا على بوقت أو علم فى الجامعة وخارجها، وإذا كان هناك من خطأ أو تقصير أو غفلة فاننى أتحمله واسأل الله عز وجل الصفح والعفو عنه. كما أقدم خالص شكرى وتقديرى لزملائى طلاب قسم الاقتصاد الاسلامي وغيرهم ممن ساعدني بتوجيه أو تنويه أو ملاحظة، فجزى الله عنى الجميع خير الجزاء وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم آمين.

---

(١) - سورة النمل الآية رقم ٤٠

(٢) - سورة لقمان الآية رقم ١٢

(٣) - رواه أحمد، انظر المسند حـ٢ ص٢٥٨/٣٠٣/٤٦١

المقدمـــة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وأشهد أن لا اله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وبعد.

فان التاريخ الاقتصادي من الدراسات الاقتصادية الهامة، التى يجب على طلاب الاقتصاد أن يهتموا بها ويولوها عناية ورعاية، وبصفة خاصة التاريخ الاقتصادي للدولة الاسلامية، ذلك لأن الدراسات الاقتصادية التاريخية الاسلامية لاتزال قليلة. وقد فطن قسم الاقتصاد الاسلامي بكلية الشريعة جامعة أم القرى لهذه الحقيقة، فوجه طلابه الى أهمية هذه الدراسات سواء فى المجال الفكري أو التطبيقي، فقاموا باعداد بحوث علمية فى هذا المجال تحسب للقسم وطلابه.

والتاريخ الاقتصادى - كما هو معلوم - يهتم بدراسة الأحداث والتطورات، والمشكلات الاقتصادية التى تعترض سبيل مسيرة تقدم الأمم على مر العصور والازمان كما يهتم بالوقوف على مدى تأثير هذه الأحداث على متطلبات الحياة، ولما كانت دراسة التاريخ الاقتصادى تمثل محصولا وفيرا من الخبرات والتجارب الفكرية والتطبيقية، فإن دراسة وتحليل هذه التجارب من شأنه أن ينير الطريق أمام الأمة نحو التطور والازدهار، إذ تستطيع الدولة المعاصرة التى تبتغى الخير والتقدم أن تستفيد من وقائع واحداث الأمم السابقة، فتتفادى الأخطاء وتسعى قدما نحو مستقبل أفضل، ولهذا فان كثيرا من آيات الكتاب تتضمن أمر المسلمين بأن ينظروا فى سير السابقين وما حل بالمعاندين والغافلين عن الأخذ بأسباب التقدم والابتعاد عن أسباب الانحدار والسقوط قال تعالى : ﴿أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب﴾(١)، وقال تعالى ﴿أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾(٢).

---

(١) - سورة غافر الآية رقم ٢١/٢٢

(٢) - سورة غافر الآية رقم ٨٢/٨٣

ولهذه الأسباب وغيرها أختار الباحث هذه الدراسة وهى بعنوان **«التطور الاقتصادى خلال العصر العباسى الأول، دراسة مقارنة مع الأوضاع الأوربية فى تلك الفترة»** وهى فترة تاريخية هامة فى حياة المسلمين حيث شهدت تطورا وازدهارا فى كافة المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وتتميما للفائدة ولما كانت بضدها تتميز الاشياء فقد قام الباحث بمقارنتها بالأوضاع الاقتصادية الأوربية فى تلك الفترة، والتى شهدت تدهورا وانحطاطا فى كافة المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية لذا فاننى ارجو مخلصا أن تكون هذه الدراسة محققة الهدف المبتغى منها وهو القاء الضوء على مدى التطور الاقتصادى للدولة الاسلامية فى تلك الفترة، ثم اعطاء تصور حي للوضع السيء الذى ساد أوربا إبان تلك الفترة كما تحاول الدراسة توضيح الاستفادات التى اكتسبتها الشعوب الأوربية من التطور الذى عم بلاد المسلمين فى كافة مناحى المعرفة وعلى الخصوص الفوائد الاقتصادية.

والى جانب هذه الأسباب كانت هناك أسباب أخرى دعت الباحث الى اختيار الموضوع ومنها ما يلى :-

١ - القصور الواضح فى الدراسات التاريخية الاقتصادية الاسلامية

فبرغم ما كتب قديما وحديثا فى التاريخ الاقتصادى للدولة الاسلامية، فان الأمر فيه مازال قاصرا عن اعطاء تصور كامل للتاريخ الاقتصادى للمسلمين، فما زالت هناك أمور غامضة تحتاج الى ايضاح، وبيان خاصة فيما يتعلق بالمجال التطبيقي لمختلف الأنشطة الاقتصادية، إذ ان بيانها وتحليلها يعكس لنا تطور الفكر الاقتصادي الاسلامي، ومدى مواءمته للتطبيق فى مختلف الازمان والعصور، وبالتالى فان هذه الدراسة محاولة جادة - إن شاء الله - من الباحث لتوضيح مدى المرونة التشريعية والتطبيقية للتشريع الاسلامى فى هذا المجال، الأمر الذى يكشف لنا بجلاء عن التفاعل القوي بين الفكر والواقع التطبيقي للنظام الاقتصادي الاسلامي.

٢ - تصحيح المفاهيم الخاطئة والتى نتجت عن القصور فى دراسة التاريخ الاقتصادى للدولة الاسلامية وعدم تطبيقه، مما حدا بالبعض أن يتصور خطأ أن رواد الفكر الاقتصادى الأوربى هم أول من قاموا بوضع نظام اقتصادى متكامل وشامل لمختلف نواحى الحياة الاقتصادية، وأن الفكر الاقتصادى الاسلامي ما هو إلا آراء متفرقة حول بعض الجوانب الاقتصادية لأنشطة الفرد المختلفة، وفى هذه الدراسة محاولة من الباحث للإسهام فى الكشف عن أهمية الفكر الاقتصادى الاسلامى من ناحية، وأهميته التطبيقية فى تصحيح هذه المفاهيم الخاطئة من ناحية أخرى - فمن الله أرجو التوفيق والتسديد.

٣ - ترجع أهمية هذه الدراسة الى أنها فى مجملها دراسة تطبيقية لوقائع وأحداث دولة اسلامية قد مضت، لكن المنهج العلمي يتطلب منا تحليل الوقائع الماضية والحاضرة بحيث يصبح المستقبل امتدادا منطقيا وتطورا إيجابيا نحو الأفضل بحيث يكون وريثا شرعيا للماضى، لأنه إذا انقطعت الجذور التاريخية التى تربط بين الماضى والحاضر فان دراسة التاريخ الاقتصادى عندئذ تصبح عديمة الجدوى فلا خير يرجى من ورائها، لذا فقد اختار الباحث هذه الفترة الزمنية التى تميزت بالتطور الفكرى من ناحية والازدهار الاقتصادي من ناحية أخرى، كما وجدت فيه كثير من الوقائع والأحداث التى تتطلب الحلول العاجلة من فقهائنا لكثير من المشكلات التى واجهت المجتمع فى تلك الفترة كالتخفيف من الاعباء المالية والتحول من نظام المساحة الى نظام المقاسمة، واصلاح الانحرافات المالية والادارية فى الدولة.... الخ والتى سيأتى تفصيلها - ان شاء الله -، وبالتالى تبدو أهمية دراسة التاريخ الاقتصادى لتلك الفترة ليتسنى لنا معرفة ما يمكن أن نستفيده من اجتهادات فقهائنا القدامى فى واقعنا المعاصر فتتحقق بذلك الآصالة والمعاصرة.

٤ - ان هذه الدراسة تعتبر من الدراسات الاقتصادية المزدوجة إذ انها تجمع بين واقع مجتمعين أحدهما تمسك بمنهج الله فجنى ثمار تمسكه تطورا

وازدهارا فى شتى المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وآخر وهو المجتمع الأوربى الذى ابتعد عن منهج الله فجنى ثمار بعده انحطاطا وتخلفا فى جميع المجالات الاقتصادية وغير الاقتصادية. وهنا سيجد القارىء لهذا البحث ومن واقع هذه الدراسة التطبيقية مدى العلاقة الوطيدة بين التمسك بمنهج الله، والتطور الاقتصادى كنتيجة طبيعية وأكيدة لهذا التمسك.

٥ - تبرز أهمية دراسة هذه الحقبة التاريخية - محل الدراسة - ان الدولة التى كانت موجودة أثناءها قد تميزت بموقع جغرافى جعلها معبرا لتجارات الشرق والغرب، فضلا عن خصوبة أرضها وطيب مناخها، ووفرة محاصيلها واستقرار أوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكثرة عائداتها المالية، وتسخيرها على وجه الاجمال لتحقيق التنمية الاقتصادية، وبالاضافة الى ذلك فقد تميزت هذه الفترة بأنها مرت بأوضاع اقتصادية مختلفة كالرواج والكساد وغلاء الاسعار...الخ مما يجعل دراسة هذه الفترة ذات أهمية اقتصادية حيث ان وجود مثل هذه الاوضاع يعد أمرا هاما فى الدراسات الاقتصادية، ليرى رجال الفكر الاقتصادي الاسلامي المعاصر كيف كانت الدولة الاسلامية وفقهاؤها يتصرفون فى القضايا والاحداث التى تستجد مع تطور الزمن وكثرة الفتوحات الاسلامية، للاستفادة مما يمكن الاستفادة منه فى واقعنا المعاصر.

٦ - الاسهام فى اثراء المكتبة الاسلامية فى مجال التاريخ الاقتصادى الاسلامى بمرجع يتحدث عن تطبيق اقتصادى لمختلف الأنشطة الاقتصادية فى الدولة الاسلامية مع دراسة واقعية مقارنة لظروف وأوضاع المجتمع الأوربى فى تلك الفترة، مما يعنى اضافة بحث متكامل لفترة تقل فيها الدراسات الاقتصادية الاسلامية والأوروبية، وهى محاولة من الباحث يرجو من الله الثواب والأجر عليها.

منهج البحث ونطاقه

أولا منهج البحث :

١ - تتبع الباحث كل القضايا والوقائع المطروحة للبحث بالاستقراء قدر الوسع والطاقة ثم الاستنباط والتحليل والمقارنة، ان كان فى القضية أو الحدث مجالا للمقارنة، مع ابداء الرأى كلما كان ذلك فى مقدور الباحث مع بيان الاسبقية التاريخية للقضية أو الحدث كلما استطعت لذلك سبيلا.

٢ - حاولت التأريخ لكل نشاط اقتصادى كلما استطعت حيث اذكر بداية حدوث النشاط الاقتصادى فى الدولة الاسلامية، لأبين مدى التطور الذى حدث فيه، ولا أزعم أن ذلك كان فى كل قضية إذ ان المصادر لم تكن لتسعفنى فى كل الأحيان. لذا فاننى اكتفى فى هذه الحالة بالتأريخ لبعض الأنشطة الاقتصادية، فكنت أتحدث عن الواقع العباسى فقط.

٣ - وقفت فى مجال المقارنة موقف الحياد فكنت اجعل الوقائع التاريخية هى التى تقود الى النتائج، فلا افرض رأيا أو حكما مسبقا، وانما استنتج النتيجة من واقع القضايا والأحداث الموجودة بالفعل مشيرا الى ايجابيتها أو سلبيتها فى كلا المجتمعين ودون تعصب أو تحيز.

٤ - كان منهجى فى البحث تأصيل المسائل الفقهية والتاريخية، والرجوع فيها الى المصادر المعتمدة أولا ثم اتناول اشارات المحدثين فيها ثانيا مع الاشارة الى التطبيق الاسلامى لها بشكل عام والتطبيق العباسى لها بشكل خاص، وبيان مدى التقدم والتطور أو الانحراف فيها إن وجد.

٥ - التزمت فى المجال الفقهى بالمذاهب الأربعة دون غيرها فى عرض القضايا الفقهية، فكنت اعرض المسائل الفقهية التى يتطلبها البحث فقط، باختصار وبالقدر الذى يحقق الغرض وتقتضيه المناسبة ويؤدى الى نتائج اقتصادية.

ثانيا : نطاق البحث الزماني والمكاني:

أ - نطاقه الزمنى :

تشتمل هذه الدراسة على دراسة الوقائع والأحداث الاقتصادية لفترة الدولة العباسية الأولى وهى من عام [١٣٢هـ/٢٣٢هـ - ٧٥٠م/٨٤٧م]، وهى الفترة التى كان يتمتع الخليفة فيها بسلطة سياسية قوية.

وفيما يتعلق بالمقارنة فاننى التزمت فى معظم الأحيان بهذه الفترة إلا فى بعض الحالات التى كان الهدف منها بيان سبق اسلامى فى مجال فكرى أو تطبيقى، أو تطور اسلامى لم يظهر فى أوربا إلا فى فترة متأخرة عن الدولة العباسية، أو حتى عن الدول الاسلامية المتعاقبة بعد ذلك، فكنت أشير اليها باختصار حيث لا مجال للمقارنة ولكن اتماماللفائدة.

ب - النطاق المكانى :

شملت الدراسة معظم البلاد التى بسطت الدولة العباسية نفوذها عليها فى تلك الفترة كالعراق وبلاد الشام، وبلاد فارس، ومصر والجزيرة العربية مع الاشارة الى غير هذه البلاد من بلاد الاسلام كلما كانت هناك مناسبة أو فائدة، ولما كانت المساحة التى أجرى عليها الدراسة واسعة جدا فقد تسبب ذلك فى وجود شىء من التقصير فى بعض الاقاليم، لكننى أوكد أننى لم أفعل ذلك إهمالا أو تقاعسا، وانما كنت دائما أنشد الاحاطة، واتمام الفائدة ما وسعنى الجهد.

أما على النطاق الأوربى، فقد كانت المقارنة فى محيط بلاد أوربا الغربية والتى كانت تعيش حياة اقتصادية بائسة وفى غاية التدهور والانحطاط، كما هو معلوم، وقد اعتمدت فى غالب الأحيان على ما كتبه الأوربيون أنفسهم بصفة أساسية، ثم ما كتبه المسلمون عنهم، وكان منهجي دائما الحياد - كما سبق أن اشرت -، والله من وراء القصد وهو خير معين.

خطة البحث :

هذا وقد اشتمل البحث على مقدمة وفصل تمهيدي وبابين وخاتمة ومجموعة من الملاحق التوضيحية وفهرس لأهم المراجع وآخر للموضوعات، وكانت خطته على النحو التالى : -

مقدمة البحث : وقد اشتملت على أهمية البحث وأسباب اختياره ومنهجه ونطاقه الزمانى والمكانى.

أما الفصل التمهيدى، وقد اشرت فيه الى الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية فى العصر العباسى الأول وتأثيرها فى النشاط الاقتصادى وذلك فى مبحثين :

المبحث الأول : الأوضاع السياسية والاجتماعية فى العصر العباسى الأول.

المبحث الثانى : الفقه والقضاء وأثرهما فى النشاط الاقتصادي.

أما الباب الأول فهو بعنوان : تطور الأنشطة الانتاجية فى العصر العباسى الأول، وقد قدمت له بفصل تمهيدى بينت فيه أهم الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة، وأثرها على تطور الأنشطة الاقتصادية المختلفة فى العصر العباسى الأول وذلك فى أربعة فصول :

الفصل الأول : اقتصاديات النشاط الزراعى وتطوره

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نظام الأراضى وآثاره الاقتصادية.

المبحث الثانى : نظام الزراعة وتطور الفن الانتاجى.

المبحث الثالث : السياسات الزراعية ودورها فى النشاط الاقتصادى.

الفصل الثانى : اقتصاديات الصناعات والحرف وتطورها

وفيه ثلاثة مباحث : -

المبحث الأول : هيكل العمالة وتنظيمات العمل.

المبحث الثانى : أهم الصناعات والحرف فى العصر العباسى الأول ومراحل تطورها وأهمية ذلك فى النشاط الاقتصادى.

المبحث الثالث : الموازنة العامة للدولة العباسية.

الفصل الثانى : تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى

وفيه مبحثان : -

المبحث الأول : الحسبة وتنظيم النشاط الاقتصادى.

المبحث الثانى : الخدمات والمرافق العامة.

الفصل الثالث : اقتصاديات النقود

وفيه ثلاثة مباحث : -

المبحث الأول : ضوابط الاصدار النقدى.

المبحث الثانى : أنواع النقود المتداولة واسعار تبادلها وكيفية اصدارها، ومدى علاقتها بالنقود الحالية.

المبحث الثالث : أهم الأعمال المصرفية فى العصر العباسى الأول

الفصل الرابع : الاقتصاديات الأوربية فى العصور الوسطى سماتها ومقارنتها بمثيلتها فى العصر العباسى الأول.

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث : -

المبحث الأول : السمات الاساسية لاقتصاديات الدولة فى أوربا فى العصور الوسطى.

المبحث الثانى : مقارنة اقتصاديات الدولة فى العصر العباسى الأول بنظيرتها الأوربية فى العصور الوسطى.

المبحث الثالث : تقويم اقتصاديات الدولة فى العصر العباسى الأول.

الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث.

هذا ونظرا لتشعب أطراف البحث اذ تدخل فى مكوناته علوم كثيرة متفرقة فقد اعترضت الباحث عدة صعوبات أهمها ما يلى : -

١ - أن الكتب المتاحة فى مجال التاريخ الاقتصادى الاسلامى، وكذا الأوربى فى تلك الفترة ، تعتبر قليلة، كما أن الموجود منها صعب التعامل معه، إذ انها تعرض القضايا والأحداث الاقتصادية فى سطور قليلة، وغالبها قد طبع بطبعات قديمة صعبة القراءة.

٢ - كثرة اللغات الأوربية، وعدم المام الباحث بها، صحيح أن دول غرب أوربا فى تلك الفترة، كانت تتشابه فى كثير من أوضاعها الاقتصادية، والسياسية والاجتماعية إلا ان بعضها كان يختلف فى مشكلاته عن البعض الآخر، وقد بذلت فى ذلك ما استطعت من جهد ووقت اسأل الله عز وجل أن يجزينى عنه خير الجزاء.

٣ - تشعب الموضوع وكثرة فقراته وتعلقه باكثر من مادة علمية، فهو مزيج من كتب التاريخ والأدب والجغرافيا والاقتصاد بفروعه المختلفة والفقه والحديث والتفسير، ومصادر النظم والحضارة والفنون...وغيرها، وكان على الباحث ان يرجع الى المصادر المعتمدة لهذه العلوم فيغوص فى أعماقها ليستخرج منها ما يتفق وطبيعة بحثه ولا يخفى ما فى ذلك من صعوبات بالغة.

وفى الختام اسأل الله عز وجل أن يغفر لى زلاتى، وأن يعفو عن غفلاتى، وأن يتجاوز عن عثراتى فهذا جهد المقل، كما أسأله سبحانه أن ينفعنى وطلاب العلم بهذا البحث فى الدنيا والآخرة، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم آمين.

***

فصل تمهيدي

الأوضاع السياسية والإجتماعية والتشريعية وتأثيرها فى النشاط الاقتصادى فى العصر العباسى الأول ٠

ويشمل على مبحثين:

المبحث الأول : الأوضاع السياسية والإجتماعية فى العصر العباسى الأول وأثرها على النشاط الاقتصادى ٠

المبحث الثانى : الفقه والقضاء وأثرهما فى النشاط الاقتصادى ٠

المبحث الأول

الأوضاع السياسية والاجتماعية فى العصر العباسي الأول وأثرها فى النشاط الاقتصادى

أولا - الأوضاع السياسية :

تمهيد : تجدر الإشارة إلى أن دراسة الأوضاع السياسية لأي مجتمع من المجتمعات تعنى دراسة نظام الحكم فيه، وكيفية سياسة أمور الدولة، وتنفيذ تشريعاتها، ومن ثم الأوضاع الداخلية والخارجية للدولة ومدى الاستقرار فيها من عدمه وهى بلا شك موضوعات تهم دارسي الوضع الاقتصادي لأى دولة إذ هى تعكس الوضع الاقتصادي السائد داخل المجتمع، وبالتالى يتعرف الباحث من خلالها على النتائج الاقتصادية الممكنة لتلك الدولة. وبناء على ما تقدم يمكن لنا أن نوضح أهم هذه الموضوعات كالخلافة باعتبارها نظام الحكم المتبع فى تلك الفترة، ثم الوزارة باعتبارها السلطة الموكول اليها تنفيذ تشريعات ومشروعات تلك الدولة، ثم الأوضاع الداخلية، وكذا علاقة الدولة بالدول المجاورة لها باعتبار أن هذه الأوضاع ستشير الى حالة النشاط الاقتصادي في الداخل والخارج وتوضح هل كانت هناك معوقات أم لا؟ مما يعكس لنا ذلك بالطبع الوضع الاقتصادي السائد فى المجتمع العباسي الأول وفيما يلى محاولة لتوضيح ذلك بايجاز :

أ - نظام الحكم : (الخلافة وولاية العهد)

بدأ نظام الخلافة بعد وفاة النبي ﷺ، حيث اختير أبوبكر الصديق - رضي الله عنه - خليفة لرسول الله ﷺ، وهذه الخلافة قائمة على مبدأ النيابة عن رسول الله ﷺ، في تدبير أمور المسلمين وقيادتهم لا في النبوة والرسالة. وقد سارت الخلافة على ذلك النهج حتى خلافة علي - رضي الله عنه - حيث كان الأختيار ممن تتوفر لهم شروط معنية كالورع والخوف من الله والعلم والفقه والكفاءة، وحسن الرأى، وسلامة الحواس والأعضاء(١) وغيرها من الشروط التى نص عليها الفقهاء والمؤرخون.(٢)

وعندما انتقل الحكم الى بني العباس حدث تطور فى الدولة الاسلامية واصبح المسلمون عرب واعاجم أهل فقه بالدين فرأوا أن المجتمع الاسلامي كله عرب وعجم لابد ان يشتركوا فى حكم الدولة الاسلامية، وخاصة أن الدولة العباسية قامت على سواعد الفرس وكان من أثر ذلك، أن تأثر نظام الخلافة فى أمور كثيرة بما كان عليه الحال فى بلاد الفرس أيام آل ساسان(٣).

(١) - ابن حزم، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، المجلد الأول طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م الطبعة الثانية حـ٢ ص١١٣

(٢) - لمزيد من التفصيل عن هذه الشروط راجع ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية دار صادر - بيروت طبعة عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ص١٩/٢٤

(٣) - آل ساسان هم : أولاد بابك بن ساسان من بلاد الفرس وكان أولهم أدرشير بن بابك، أنظر الخوارزمى، مفاتيح العلوم مطبعة الشرق القاهرة ص٦٤.

أما ولاية العهد فقد سار العباسيون فيها على نظام تولية العهد أكثر من واحد وغالوا فيها حتى كانت مصدر القلق والاضطراب فى الدولة العباسية، ففى عهد المنصور(١)، كانت ولاية العهد لعيسى بن موسى(٢)، فلما كبر

---

(١) - المنصور هو : أبو جعفر عبدالله بن محمد بن على وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة سنة ٩٥هـ، ولما انتقل أبو العباس السفاح من الحميمة الى الكوفة كان فيمن معه، ولما افضت اليه الخلافة كان عضده وساعده الايمن فى تدبير الخلافة، ولما توفى أبو العباس السفاح سنة ١٣٦هـ عهد اليه بالخلافة وكان إذ ذاك أميرا على الحج، واستمر خليفة للمسلمين حتى توفي فى يوم الاحد السابع من ذي الحجة عام ١٥٨هـ، انظر محمد الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية،(الدولة العباسية) المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة عام ١٩٧٠م، حـ٢ ص٥٣، خير الدين الزركلى، الاعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمشتشرقين، الطبعة الثالثة حـ٤ ص٢٥٩.

(٢) - عيسى بن موسى هو : عيسى بن موسى بن محمد العباسى أبو موسى ولد سنة ١٠٢هـ وتوفى سنة ١٦٧هـ ولد ونشأ بالحميمة ولاه عمه أبو العباس السفاح الكوفة وسوادها سنة ١٣٢هـ وجعله ولى عهد المنصور، واستنزله المنصور من ولاية العهد سنة ١٤٧هـ وعزله عن الكوفة، وارضاه بمال وفير، وجعل له ولاية عهد ابنه المهدى، فلما ولى المهدى خلعه سنة ١٦٠هـ بعد تهديد ووعيد وكان ولى العهد لا يخلع مالم يخلع نفسه ويشهد الناس عليه فأقام بالكوفة الى ان توفى. أنظر الزركلى ، الاعلام، المرجع السابق حـ٥ ص٢٩٦/٢٩٧.

ابنه المهدى(١)، ولاه ولاية العهد وجعل عيسى بن موسى من بعده، ولما ولى المهدى الخلافة بايع ولديه الهادى(٢)، ثم الرشيد(٣)، وخلع عيسى بن موسى وكذا فعل الهادى بأخيه هارون الرشيد حيث أخذ البيعة لأبنه جعفرا وحاول خلعه منها لكنه لم يستطع ذلك فقد وافته المنية قبل أن يحقق ما كان يريده، فلما

---

(١) - المهدى هو : محمد بن عبدالله المنصور بن محمد بن على العباسى، أبو عبدالله المهدى بالله من خلفاء الدولة العباسية ولد بايذج من كور الاهواز سنة ١٢٧هـ وقد ولى الخلافة بعد وفاة أبيه وبعهد منه سنة ١٥٨هـ، وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهرا ومات فى ماسبذان، سنة ١٦٩هـ، كان محمود العهد والسيرة محببا الى الرعية حسن الخلق والخلق جوادا، انظر الزركلى الاعلام، المرجع السابق حـ٧ ص٩١

(٢) - الهادي هو : موسى الهادى بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور أبو محمد وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملكا للمهدى وفى سنة ١٥٩هـ اعتقها وتزوجها٠ ولد الهادى سنة ١٤٤هـ بالرى وولاه أبوه العهد وسنه يومئذ ستة عشر سنة وتولى الخلافة بعد أبيه سنة ١٦٩هـ، وكان غائبا بجرجان فأقام أخوه الرشيد بيعته، واستبدت أمه الخيزران بالأمر، واراد خلع أخيه هارون الرشيد من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر فلم تر أمه ذلك فزجرها فأمرت جواريها أن يقتلنه فخنقنه، ودفن سنة ١٧٠هـ فى بستانه بعيسى اباذ، ومدة خلافته سنة وثلاثة أشهر، انظر الزركلى الاعلام، المرجع السابق حـ٨/ ص٢٨٠

(٣) - الرشيد هو : هارون الرشيد بن محمد المهدى بن المنصور العباسى أبو جعفر خامس خلفاء الدولة العباسية واشهرهم ولد بالرى، لما كان أبوه اميرا عليها وعلى خراسان، ونشأ فى دار الخلافة ببغداد ولاه أبوه غزو الروم فى القسطنطينية فصالحته الملكة ايرينى وافتدت مملكتها بسبعين الف دينار تبعث بها الى دار الخلافة فى كل عام٠ بويع بالخلافة فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠هـ وسنه يومئذ خمسة وعشرون عاما ولم يزل خليفة الى أن توفى فى الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ فى سَناباذ من قرى طوس فكانت مدة خلافته ثلاث وعشرون سنة وشهران وثمانية عشر يوما، كان أديبا عالما بأخبار العرب والحديث والفقه فصيحا ورعا مجاهدا يحج عاما ويغزو عاما رحمه الله٠ أنظر الزركلى، الأعلام، المرجع السابق حـ٩ ص٤٣/٤٤

آلت الخلافة للرشيد جعل ولاية العهد فى أولاده الثلاثة الأمين(١)، والمأمون(٢) والمؤتمن(٣) وقسم البلاد بينهم.(٤)

---

(١) - الأمين هو : محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور، ولد سنة ١٧٠هـ وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣هـ بعهد منه، فولى أخاه المأمون خراسان وأطرافها، كان المأمون ولى العهد من بعده، فلما كانت سنة ١٩٥هـ أعلن الأمين خلع أخيه المأمون من ولاية العهد، فنادى المأمون بخلع الأمين فى خراسان وتسمى بأمير المؤمنين، وجهز الأمين جيشا بقيادة ابن ماهان لحربه وجهز المأمون جيشا بقيادة طاهر بن الحسين، فالتقى الجيشان، فقتل ابن ماهان وانهزم جيش الأمين، فتتبعه طاهر بن الحسين وحاصر بغداد حصارا طويلا حتى انتهى بقتل الأمين فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨هـ، فكانت مدة خلافته أربع سنوات إلا أربعة اشهر تقريبا.أنظر : الزركلى الأعلام، المرجع السابق حـ٧ ص٣٥٠، الخضري، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص١٥٧.

(٢) - المأمون هو : عبدالله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى وأمه أم ولد اسمها مراجل ولد سنة ١٧٠هـ، وهو سابع الخلفاء من بنى العباس كان أحد أعاظم الملوك فى سيرته وعلمه وسعة ملكه تولى الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ - كما سبق أن أشرنا - وكان له جهد كبير فى مجال ترجمة العلوم والمعارف، وقد استمر خليفة الى أن توفى غازيا بطرسوس فى ١٩ رجب سنة ٢١٨هـ، فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام. أنظر الزركلى، الأعلام، المرجع السابق حـ٤ ص٢٨٧، الخضري، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص١٧٤

(٣) - المؤتمن هو : القاسم بن هارون الرشيد العباسى هو أخو الأمين والمأمون عهد اليه أبوه الرشيد بولاية العهد بعدهما، ولقبه بالمؤتمن واقطعه الجزيرة والثغور والعواصم سنة ١٨٦هـ، وهو يومئذ فتى فى حجر عبدالملك بن صالح، فكان المأمون ينظر فى أمر هذه الاقطاعات باسم المؤتمن، الى أن شب واغزاه الرشيد ارض الروم سنة ١٨٧هـ واستخلفه على الرقة سنة ١٩٢هـ يريد تدريبه على الحكم، ولما مات الرشيد وولى الأمين عزل المؤتمن عن الجزيرة وأقره على قنسرين والعواصم سنة ١٩٣هـ، ولما اشتدت الفتنة بين الأمين والمأمون سار المؤتمن الى المأمون بخراسان فوجهه الى جرجان سنة ١٩٧هـ فأقام فيها، واعلن المأمون خلعه من ولاية العهد سنة ١٩٨هـ بعد قتل الأمين وتوفى سنة ٢٠٨هـ ولم يلى الخلافة. انظر الزركلى، الأعلام، المرجع السابق حـ٦ ص٢١

(٤) - حسن ابراهيمحسن، د/ على ابراهيم حسن،النظم الاسلامية طبعة مطبعة السنة المحمدية ونشر مكتبة النهضة المصرية الطبعة الرابعة عام ١٩٧٠م، ص٦٧

وخلاصة القول أن نظام الخلافة وولاية العهد فى عهد العباسيين قد تطور تطورا كبيرا، ولم تعد سلطة الخليفة هى حراسة الدين وسياسة الدنيا فقط - كما ذكر الماوردى -(١)، بل استمدت الكثير من النظم الفارسية، وأصبح الخليفة سلطان الله فى أرضه - كما عبر عن ذلك أبو جعفر المنصور بقوله -«إنما أنا سلطان الله فى أرضه»(٢)، وهذا يخالف ما كان عليه الحال فى سلف هذه الأمة الذين استمدوا سلطانهم من الأمة، ولا أدل على ذلك من قول أبى بكر الصديق - رضي الله عنه - عقب توليته الخلافة «أيها الناس انى قد وليت عليكم ولست بخيركم، فان أحسنت فأعينونى، وان اسأت فقومونى»(٣). ولذا ظل الخليفة فى العصر العباسى مصدر كل قوة، ومرجع جميع الأوامر المتعلقة بادارة الدولة.

وبهذا يتضح أن ولاية العهد كانت مصدرا من مصادر القلق، وعدم الاستقرار السياسي فى الدولة العباسية، لكنها لم تكن تمثل عائقا من العوائق التى أثرت بشكل أساسى فى النشاط الاقتصادى فى الدولة العباسية حيث ان هذه الخلافات كانت غالبا ما تحسم فى وقت قصير، ولا تستمر طويلا، فقد ازدهرت الدولة فى ذلك العصر وزادت ثروتها وقوتها الاقتصادية كقوة عالمية وهو ما سيتضح لنا فى فصول هذا البحث المتعاقبة وبالتالى يمكن ان يقال أن الخلافة وولاية العهد كانتا بشكل عام مستقرة استقرارا نسبيا برغم ما صاحب ولاية العهد من مشكلات وعدم الاستقرار فيها فقد كانت ولاية العهد لا تثمل سوى نقطة سوداء فى ثوب أبيض.

---

(١) - الماوردى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة الحلبى، الطبعة الأولى عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م ص٣

(٢) - الطبرى، تاريخ الرسل والملوك بتحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، طبعة دار المعارف بمصر حـ٨ ص٨٩

(٣) - ابن هشام، السيرة النبوية بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، مطبعة حجازى، نشر المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة حـ٤ ص٣٤٠/٣٤١

ب - الوزارة فى العصر العباسى الأول :

الوزير : كلمة مشتقة من الوزر بكسر الواو وسكون الزاى وهو الثقل، لأن الوزير يحمل اعباء الحكومة، أو من الوزر بالفتح وهو الملجأ أو المعتصم، بمعنى أنه يلجأ اليه ويرجع الى رأيه وتدبيره ومنه قوله تعالى : ﴿كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر﴾.(١)

والوزارة فارسية الأصل وليست من مستحدثات النظام الاسلامي، بل هى أقدم عهدا من ملوك آل ساسان فقد عرفت فى بنى اسرائيل ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا﴾(٢).

واذا أريد بالوزارة استعانة ولى الأمر بمن يشد ازره أو يعاونه، فهى وثيقة الصلة بالاسلام، وقد كان الرسول ﷺ يشاور أصحابه فى الأمور العامة والخاصة، ويخص أبابكر ببعض الأمور، وكان يسمى وزير النبى ﷺ.

كذلك كان حال عمر مع أبى بكر فقد كان يقوم بالقضاء وتوزيع الزكاة. وكذلك كان شأن عثمان وعلى مع عمر - رضى الله عنهم -، فكثيرا ما كان يستعين بهما ويستنير بآرائهما ويعهد اليهما القيام بكثير من شئون الدولة واعمال الرعية.

وقد كان هؤلاء الاعوان يعملون عمل الوزير، وان كان اسم الوزير لم يطلق عليهم، لأنه لم يكن معروفا عند العرب فى ذلك العصر لبساطة الاسلام وبعده عن أبهة الملك كما يقول ابن خلدون(٣)، ولما انتقلت الخلافة للعباسيين أخذوا نظم الحكم عن الفرس - كما سبق وأن أشرنا-، ومنها الوزارة، وقد مرت الوزارة فى تطورها بمراحل مختلفة مرحلة ضعف الوزارة وتمتد تلك الفترة من بداية العصر العباسى الأول حتى نهاية عهد الهادى سنة ١٦٩هـ، يدل

---

(١) - سورة القيامة الآية رقم ١٢/١١

(٢) - سورة الفرقان الآية رقم ٣٥

(٣) - ابن خلدون، المقدمة، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ص٢٠٦/٢٠٧

على ذلك قتل اكثر من وزير فى تلك الفترة، منهم أبو الجهم بن عطية الذى استوزره السفاح(١)، وأبو أيوب المورياني والربيع بن يونس الذى قتله الهادى فى خلافته وغيرهم.(٢)

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول حتى نهاية عهد الهادى ١٦٩هـ يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيرا بعد أن مات أبو الجهم على يد أبى جعفر المنصور، وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء.(٣) ويدل هذا الوضع - قتل الوزراء - على عدم استقرار الاوضاع السياسية فى تلك الفترة ايضا، والتنازع على السلطة، وهو أمر له آثاره البالغة على الناحية الاقتصادية، إذ إنه ينعكس بلاشك على الوضع الاقتصادى السائد فى المجتمع.

---

(١) - السفاح هو : أبو العباس عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب أول خلفاء الدولة العباسية، ولد سنة ١٠٤هـ ونشأ بالشراة (بين الشام والمدينة) وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني مقوض عرش الدولة الأموية، فبويع له بالخلافة جهرا فى الكوفة سنة ١٣٢هـ، كان شديد العقوبة عظيم الانتقام ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء وكانت اقامته بالانبار حيث بنى مدينة سماها الهاشمية وجعلها مقر خلافته، وهو أول من أحدث الوزارة فى الاسلام ولم يزل خليفة حتى توفى بمدينة الانبار يوم الأحد لثلاث عشر خلت من ذى الحجة سنة ١٣٦هـ فكانت خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من وقت مبايعته. انظر الزركلى، الأعلام، المرجع السابق حـ٤ ص٢٥٧/٢٥٨، الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٦

(٢) - ابن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية، المرجع السابق ص١٥٧/١٥٩، الجهشيارى، الوزراء والكتاب بتحقيق مصطفى السقا وآخرون، الطبعة الأولى، طبعة الحلبى، القاهرة ص١١٢ وما بعدها.

(٣) - يلاحظ أن هذه المرحلة بجملتها لم يكن الوزراء فيها ضعفاء بالجملة ولكن غالب الأمر كانوا كذلك، ولا يمنع ذلك من أنه وجد وزراء أقوياء كأبى عبيد معاوية بن يسار فى عهد المهدى وقد وكل اليه كل أمور الدولة وفوضه فيها وكان مما غيره نقل الخراج الى المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف فى ذلك كتابا سماه الخراج نظم فيه أحكامه ودقائقه وقواعده، وهو أول من صنف كتابا فى الخراج وتبعه العلماء بعد ذلك فصنفوا كتبا فى الخراج منها الخراج لأبى يوسف والخراج ليحيى بن آدم القرشى وغيرهما. انظر محمد الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٨٨/٨٩، الزركلى، الأعلام، المرجع السابق حـ٨ ص١٧٤، ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب ، المرجع السابق ص١٨٢.

أما المرحلة الثانية : وهى مرحلة قوة منصب الوزارة، فان الوزارة لم تبلغ غايتها إلا فى عهد هارون الرشيد ١٧٠هـ/٧٨٦م، حيث تطورت واتسعت سلطاتها، فأصبح الوزير من حقه أن يستعمل ويعزل من يريد، واصبحت له الحرية فى ادارة الدولة، يدل على ذلك ما قاله الرشيد عندما اتخذ يحيى بن خالد البرمكى وزيرا له، حيث قال له : قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي اليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت وامض على ما ترى ثم دفع اليه خاتمه الخاص، وسلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد فى كل شئون الدولة، ثم خلفه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى، وفى عهد هذا الوزير قبض البرامكة على أزمة الحكم وصار بيدهم الدخل والخرج.(١)

على أنه يمكن القول بأن الوزارة لم تتمهد وتتقرر إلا فى عهد الدولة العباسية يشير الى ذلك صاحب الفخرى فيقول : «لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة العباسيين، فأما قبل ذلك لم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين، بل كان لكل واحد من الملوك اتباع وحاشية، فاذا حدث أن استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة، فكل منهم يجرى مجرى الوزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة، وسمى الوزير وزيرا، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيرا».(٢)

وبهذا يتضح أن الوزارة نشأت فى العصر العباسى الأول وأن الوزير كان يستطيع فى بعض الأحيان التحكم فى دخل الدولة وخرجها كما حدث فى عهد الرشيد وقد كان ذلك سببا اساسيا فى نكتبهم فقبض الرشيد على أموال البرامكة لتسلطهم على أموال الدولة حتى قيل انه كان يطلب القليل من المال فلا يجاب(٣) وبالتالى فان الوزارة قد أثرت تأثيرا سيئاً على الأوضاع المالية للدولة العباسية.

---

(١) - حسن ابراهيم حسن، على ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص١٢٩/١٣٥

(٢) - ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية، المرجع السابق ص١٥٣

(٣) - ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية، المرجع السابق ص٢٠٩

ويبدو لى أن هذا الوضع كان بسبب استحداث هذا النظام وعدم استقراره بعد فلما استقر النظام، وعرفت مهام الوزير واعباؤه ومسئولياته استقر النظام وكان سمة من سمات التطور السياسى فى العصر العباسى الأول وفى الدولة الاسلامية بشكل عام.

حـ الأوضاع الداخلية والخارجية فى الدولة العباسية الأولى :

ينبغى أن نعلم أنه لم يخل عهد من عهود خلفاء الدولة العباسية الأولى إلا وكان لكل خليفة مناوئون ومناهضون، سواء فى الداخل أو على حدود الدولة وثغورها فمثلا فى عهد المنصور كان له فى الداخل منافسون كعبدالله بن على (عمه)، وأبو مسلم الخراسانى.(١) ولما قتل أبو مسلم الخراسانى ظهرت محاولات متعددة للثأر له تعبيرا عن سخط الفرس كحركة سنباذ(٢) وظهور طائفة الراوندية.(٣)

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص١٣٠، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ دار صادر - دار بيروت للطباعة والنشر بيروت عام ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م، حـ٥ ص١٧٧/٢١٥/٢١٦

(٢) - سنباذ كان من أصحاب أبى مسلم الخراسانى مجوسيا من قرى نيسابور فلما قتل أبو مسلم الخراسانى ثار سنباذ مع كثير من أهل الجبال وأراد الثأر لأبى مسلم حتى اضطر أبو جعفر المنصور أن يرسل اليه جيشا كبيرا لمحاربته حتى أن ابن الطقطقى ذكر أن عدد قتلى سنباذ بلغ حوالى ستين الفا. ابن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية، المرجع السابق ص١٧١، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، المرجع السابق حـ٥ ص٤٨١

(٣) - الراوندية : طائفة تنسب الى مدنية (راوند) وهى تقع بالقرب من اصفهان، وقد كانت هذه الطائفة تقصد الثأر لأبى مسلم الخراسانى فأتخذت طريقا ملتويا ترمى به التعمية على الخليفة، وأن تثير عليه سخط الناس فأظهرت له الاجلال والعبودية واعلنت الوهيته كما اعتقدت بتناسخ الأرواح الى غير ذلك من الأفكار الضالة، فجاؤا الى قصر الخليفة أبى جعفر المنصور وطافوا به وقالوا هذا قصر ربنا، فأخذ المنصور رؤساءهم وحبس منهم مائة رجل، وقد ثار الباقون عليه حتى كادوا أن يقتلوه بعد أن تظاهروا بأنهم لا يريدون قتله. انظر ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية، المرجع السابق ص١٦٠، ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٥ ص٥٠٢، أحمد شلبى، موسوعة التاريخ والحضارة الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السابعة عام ١٩٨٢م حـ٣ ص١١١/١١٢



وفى عهد المهدى ظهرت حركة المقنع الخراسانى كحركة مناوئة تريد التأثر لابى مسلم الخراسانى ايضا٠(١) أما عصر الرشيد فكان الى حد كبير عهد استقرار لكن لم يخل من بعض الفتن ايضا، فقد هاجت العصبية بين اليمنين والمضريين فى عهده فى بلاد الشام، كما ظهرت بعض الفتن فى مصر وافريقية وقامت بعض الحركات فى بلاد فارس بجرجان وأذربيجان(٢) من قبل الخرمية أو المحمرة فاسكتها وقضى عليها جميعا٠(٣)

أما عن الأوضاع الداخلية والخارجية فى عهد الأمين والمأمون، فانه من المعلوم أن الرشيد قد خطط قبل وفاته لولاية العهد لأبنائه الثلاثة من بعده،

---

(١) - ظهر المقنع الخراسانى فى مدنية مرو بخراسان، فادعى الالوهية وتناسخ الأرواح فبايعه خلق كثير، وكان ظهوره مصدر قلق للخليفة المهدى، فأرسل اليه جيشا كبيرا لمحاصرته فحاصره وطال حصاره حتى يئس من النجاة فاشعل النار والقى بنفسه فيها، ولحق به كثير من أهله والمؤمنين به٠ أنظر ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٦ ص٣٨/٣٩

(٢) - جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان قيل أول من أحدث بناءها يزيد بن المهلب بن أبى صفره وقد خرج منها خلق كثير من الأدباء والعلماء والفقهاء والمحدثين٠ انظر الحموى، معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت عام ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، حـ٢ ص١١٩

وأذربيجان : اقليم واسع ومن مشهور مدنه تبزير وهو صقع جليل، يغلب عليه الجبال وفيه قلاع كثيرة وخيرات واسعة، وهى بلاد فتنة وحروب، ما خلت قط منها، وقد فتحت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه٠ انظر الحموي، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١ ص١٥٨

(٣) - ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية، المرجع السابق ص١٩٥

لمزيد من التفصيل عن هذه الحروب والفتن واسبابها راجع : ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٦ ص١٢٦/١٥١/١٥٩، الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٨ ص٢٦٦/٢٦٨

والخرمية هى الحركة الدينية التى عرف بها اتباع مزدك وقد اصطلح على تسميتهم بالمحمرة وسمو بالمحمرة لاستعمالهم الملابس الحمراء وقد ظلت هذه الحركة منذ عهد المهدى وحتى عهد المعتصم وكانت تظهر بين الحين والآخر، وكان تدعو للارتداد عن الاسلام والعودة لدين الآباء والتخلص من الخراج والالتزامات المالية٠ انظر د/شاكر مصطفى، دولة بنى العباس، نشر وكالة المطبوعات الكويت، الطبعة الأولى عام ١٩٧٣م حـ٢ ص٢٣٧/٢٣٨

وبطريقة لم تؤلف لدى الخلفاء الآخرين، فقد عقد ولاية العهد من بعده لأبنه محمد ولقبه بالأمين ثم أخذ ولاية العهد من بعده لأخيه عبدالله ولقبه بالمأمون ثم من بعدهما لابنه القاسم ولقبه بالمؤتمن وكان لايزال صبيا. وقد وثق هذا العهد بتعليقه على الكعبة فى سنة ١٨٦هـ.(١)

وعلى أية حال فقد مات الرشيد، وخلفه ابنه الأمين، ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الصراع بين الأخوين، وانتهى بنهاية محزنة للأمين فقتل وبويع للمأمون بالخلافة فى ذات اليوم الذى مات فيه أخوه الأمين، وبقى خليفة قرابة العشرين عاما، حيث توفى ١٩ رجب سنة ٢١٨هـ. وفى عهد المأمون حدثت بعض الثورات الداخلية، واستطاع قواد المأمون أن يقضوا عليها، ومن تلك الفتن، فتنة اليمنين والقيسيين فى مصر والتى ظلت مشتعلة منذ أن نشب الخلاف بين الأمين والمأمون(٢) وفتنة بابك الخرمى فى اذربيجان، والتى بدأت منذ سنة ٢٠١هـ واستمرت سنوات طويلة. وفى عهد المعتصم ثار بابك الخرمى فأوفد اليه المعتصم سنة ٢٢٢هـ جيشا جرارا لتأديبه حتى انهزم وادخل بغداد مقيدا بالاغلال وقتل وعلق رأسه ليكون عبرة وتنتهى حركته.(٣) ولعل من أهم الأحداث فى عهد الواثق(٤) ثورة القيسية بدمشق حيث عاشوا

---

(١) - المسعودى، مروج الذهب ومعادن الجوهر بتحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م حـ٣ ص٣٦٤

(٢) - أحمد شلبى، موسوعة التاريخ والحضارة الاسلامية، الطبعة السابعة، طبعة مكتبة النهضة المصرية، القاهرة عام ١٩٨٢م حـ٣ ص١٧٨

(٣) - ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٦ ص٤٤٧/٤٦٢

(٤) - الواثق هو : أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة ١٨٦هـ ببغداد وبويع بالخلافة عقب وفاة والده في يوم الخميس الثامن من ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ، ولم يزل خليفة الى أن توفى لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ فكانت مدة خلافته خمس سنوات وتسعة اشهر وخمسة عشر يوما وسنه يومئذ ستة وثلاثون عاما.أنظر الخضري، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٢٤٨، الزركلى، الأعلام، المرجع السابق حـ٩ ص٤٤/٤٥

وافسدوا فى الأرض فارسل اليهم الواثق رجاء بن أيوب الحضارى فقاتلهم وهزمهم، ثم سار رجاء الى فلسطين لقتال أبى حرب المبرقع اليمانى الخارج فقاتله وهزمه.(١)

وأما علاقة الدولة العباسية مع أهم الدول المجاورة لها فقد كانت تجاورها دولتان مهمتان هامتين هما الدولة الأموية فى بلاد الأندلس بقيادة الأمير عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان ولم يكن هناك بالطبع علاقة حسنة بين الدولتين بسبب أن خلفاء الدولة العباسية كانوا ينظرون الى تلك الدولة على أنها جزء مقتطع من دولتهم. ودولة الروم وقد كانت هذه الدولة على خلاف مستمر مع الخلافة الاسلامية فى الشمال وكانت العلاقة بين الدولتين منقطعة لا تترك احداهما قتال الأخرى متى حانت الفرصة لهم.(٢) وطيلة فترة العباسية الأولى كان هناك قتال بين الطرفين.

ففى سنة ١٣٨هـ اغار الروم على ملطية(٣) وكانت إذ ذاك من الثغور الاسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولما علم المنصور بذلك اغزى عمه صالح بن على ومعه العباس بن محمد بن على فبنى ما كان ملك الروم هدمه ثم غزا ارض الروم حتى استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنفذ المنصور من الروم اسراء المسلمين، ولم تزل الصوائف(٤) بعد ذلك تتوالى الى سنة ١٥٥هـ وفيها طلب ملك الروم الصلح على أن يؤدى الجزية.(٥)

---

(١) - ابن الأثير، الكامل ، المرجع السابق حـ٦ ص٥٢٨/٥٢٩

(٢) - محمد الخضري، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية المرجع السابق حـ٢ ص٧٩

(٣) - ملطية : بفتح أوله وثانية وسكون الطاء وتخفيف الياء هى بلدة من بلاد الروم بناها الاسكندر تتاخم بلاد الشام. انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٥ ص١٩٢

(٤) - الصوائف تطلق على غزوات المسلمين على الروم فى فصل الصيف

(٥) - محمد الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٨٠

وكانت العلاقات ايضا مع ملك الروم فى عهد المهدى سيئة فلم تكن الاغارات من الطرفين تنتهى بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الاغارات من ملك الروم فى البر والبحر. وقد شهد عهد المهدى كثيرا من الغزوات الصائفة والتى انتهت بعقد صلح على أن تؤدى الروم جزية قدرها ٩٠،٠٠٠ دينار كل سنة ولكنهم نقضوا الصلح فارسل اليهم على بن سليمان بن على وهو والى الجزيرة وقنسرين(١) يزيد بن بدر البطال فى سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا، لكن مدة عهد المهدى كانت دائما مسرحا للقتال والحرب مع بلاد الروم وكان الفريقان فى موقف الدفاع أحيانا والهجوم أحيانا أخرى إلا أن الظفر كان فى الغالب للمسلمين.(٢)

وأما فى عهد الرشيد فقد حاول الروم أن يثيروه، فقد كتب اليه أمبراطور بيزنطة متحديا يطالبه بايقاف الجزية ورد ما دفعه الروم منها على مدى سنوات طويلة، فما كان من الرشيد إلا أن رد عليه هذا الرد القاطع وكتبه على ظهر كتاب الامبراطور يقول فيه : «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين الى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يا أبن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام».(٣)

وبالجملة فان قوة المسلمين كانت فى عهد الرشيد ظاهرة ظهورا بينا على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وعجم. أما علاقاته مع أوربا فقد كان شارلمان بن بابن ملكا على فرنسا وكانت تربطه به علاقات قوية خاصة بعد أن استولى على المانيا وايطاليا، وكان يرغب فى أن يكون له اسم كبير فى الديار الشرقية

---

(١) - قنسرين : هى بكسر أوله وفتح ثانية وتشديده مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص فهى بلدة شامية.

انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص٤٠٣/٤٠٤

(٢) - محمد الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٩٣

(٣) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٨ ص٣٠٧/٣٠٨

لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية(١)، كما كان يرغب أن يكون حاميا للنصارى فى البلاد الاسلامية، وخصوصا زائرى القدس، كما كان له غرض آخر وهو اضعاف الدولة الأموية الاسلامية بالاندلس بتوطيد علاقاته مع الرشيد، واثراء الحركة العلمية فى أوربا التى ترزح تحت الجهل والظلام ابان تلك الفترة.

أما علاقاته مع قرطبة فقد كانت على شر حال إذ ان الرشيد كان ينظر الى بنى أمية نظر الخارجين على دولته فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أكبر من ذلك وأقوى فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شرا.(٢) وفى عهد المأمون لم يكن بين المسلمين والروم، فى أول عهده حتى سنة ٢١٥هـ ، حروب وفى أوائل تلك السنة تقدم المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم، واستخلف على المدينة (مدينة السلام) اسحاق بن ابراهيم بن مصعب، وسلك طريق الموصل حتى صار الى منبج(٣) ثم دابق(٤) ثم انطاكية(٥) ثم المصيصة(٦)، ومنها خرج الى طرسوس(٧)، ومن طرسوس دخل الى بلاد الروم، ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه.

---

(١) القسطنطينة : كانت رومية دار ملك الروم واسمها اصطنول عمرها ملك من ملوك الروم يقال له قسطنطين فسميت باسمه، انظر الحموي، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٤ ص٣٤٧

(٢) - محمد الخضري، محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص١٣٣

(٣) - منبج : بلد قديم من بلاد الروم، انظر الحموي، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٥ ص٢٠٥

(٤) - دابق : قرية قرب حلب بينها وبين حلب أربعة فراسخ، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٢ ص٤١٦

(٥) - انطاكية : هى من الثغور الشامية بينها وبين حلب يوم وليلة ، انظر الحموي، معجم البلدان، المرجع السابق جـ١ ص٢٦٦

(٦) - المصيصة : مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس، وهى من ثغور المسلمين رابط بها الصالحون قديما.انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٥ ص١٤٥

(٧) - طرسوس : هى مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٤ ص٢٨

وفى سنة ٢١٦هـ كر المأمون الى أرض الروم، وذلك لقتل ملك الروم قوما من أهل طرسوس والمصيصة، ثم اعاد الكرة على بلاد الروم فافتتح ثلاثين حصنا ووجه يحيى بن اكثم من طوانة(١)، فأغار وغنم ورجع الى العسكر ثم خرج المأمون الى كيسوم(٢) ثم الى دمشق، ومنها الى مصر سنة ٢١٦هـ ثم عاد منها الى دمشق سنة ٢١٧هـ فدخل أرض الروم للمرة الثالثة.(٣) وظل المأمون فى ذلك الجهاد حتى توفى ببلاد الروم فى آخر غزواته وهو بالبدندون شمالى طرطوس اصابته حمى لم تمهله كثيرا فتوفى سنة ٢١٨هـ فحمل الى طرطوس ودفن بها.

وفى عهد المعتصم كان ملك الروم هو توفيل بن ميخائيل بن جورجوس(٤)، وقد كان صديقا لبابك الخرمى، فانتهز فرصة محاصرة الجيش الاسلامى لبابك الخرمى فزحف بجيشه على زبطرة(٥) وأغار عليها وعلى اعالى الفرات. فأعد المعتصم له العدة بجيش ضخم وقاده بنفسه فدخلوا ارض الروم، ودقوا حصون عمورية وفتحوها بعد أن اذاقوا الروم ذلا وهوانا.(٦)

وظلت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم، وفى سنة ٢٣١هـ فى عهد الواثق حدث تبادل للأسرى بين المسلمين وملك الروم مما يدل على أن الحرب ظلت بين المسلمين والروم حتى نهاية العصر العباسى الأول على أنه

---

(١) - طوانة : بلد بثغور المصيصة، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص٤٥/٤٦

(٢) - كيسوم : قرية من اعمال سميساط، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص٤٩٧

(٣) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٨ ص٦٢٥

(٤) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٩ ص٥٥

(٥) - زبطرة : مدينة بين ملطية وسميساط والحدث فى طرف بلد الروم، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٣ ص١٣٠/١٣١

(٦) - محمد الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامى، المرجع السابق حـ٢ ص٢٤٥، الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٩ ص٥٧

وعمورية : بلد من بلاد الروم فتحها المعتصم سنة ٢٢٣هـ، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص١٥٨

يجب أن ننبه بأن هذه الحروب التى كانت على ثغور الدولة الاسلامية، وكذا ما حدث فى الداخل من خروج بعض المناوئين والمناهضين للدولة العباسية لم تكن لتبعد المسلمين عن المسار الاقتصادى فلم تكن هذه الأحداث أو غيرها عائقا يعوق التطور الاقتصادى للدولة فظهرت الدولة العباسية قوية فى اقتصادها فى جميع الأنشطة الاقتصادية وكان الاهتمام باقتصاد الدولة، كالاهتمام بقيام الدولة فها هو المنصور يقتصد فى نفقات الدولة ابان قيامها حتى امتلأت خزائنه بالأموال، وترك لابنه المهدى ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفاذا ·

كما بدأ المهدى باصلاح اقتصادى، فأجرى الارزاق على المسجونين والمجذومين، وأمر بعمارة المسجد الحرام، ومسجد رسول الله ﷺ، وأمر ببناء القصور فى الطرق المؤدية الى مكة لحراسة المسافرين وأيوائهم، وأقام الأحواض ليستقى منها رجال القوافل وشيد البريد فى أشهر المدن الاسلامية· وقضى بأن يتحمل بيت المال نفقات الجباية، وكان الناس من قبل يتحملونها، وكتب الى جميع العمال برفع العذاب عن أهل الخراج·(١)

ومن المآثر الاقتصادية الهامة فى عصر الدولة العباسية الأولى ظهور كتاب الخراج، فقد طلب هارون الرشيد من أبى يوسف صاحب أبى حنيفة كتابة رسالة يشرح فيها موارد الدولة، وكيفية جبايتها، وواجبات ولى الأمر فيها وكذا اعماله عليها، وهذا الكتاب بحق كان ولازال مرجعا أساسيا للمسلمين فى تنظيم ايرادات الدولة ونفقاتها وكيفية سياستها، وهو بحق حسنة من حسنات هذا العصر كما أنه يعد وثيقة تاريخية وفقهية لمعد هذا البحث اعتمد عليه فى كثير من القضايا· وفى عهد الواثق ظهرت بعض الخيانات المالية والتى قام بها بعض الكتاب ممن عهد اليهم حفظها، فكان الخليفة الواثق إذا رأى مظاهر الثروة على عامل اكثر مما يجب صادرها منه(٢)·

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص١٤٢/١٤٣

(٢) - محمد الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٢٥٢، الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٩ ص١٢٥

وبالتالى فان الأوضاع الداخلية والخارجية فى الدولة العباسية، لم تكن عائقا لتطور الدولة ونهضتها الاقتصادية، ولم يكن النشاط الاقتصادى بعيدا عن مسار الأحداث وهو ما سيتضح لنا فى ثنايا هذا البحث.

ثانيا : الأوضاع الاجتماعية وعناصر المجتمع العباسى الأول

امتدت الدولة العباسية، وتوسعت حدودها، حيث شكلت أكبر دولة فى ذلك الوقت، وبامتدادها وسعة اطرافها شملت عناصر متعددة، وأجناسا متباينة. وبالتالى فان عناصرها قد تعددت وتنوعت ايضا وتكونت الدولة من عنصرين اساسيين هما :-

العنصر الأول : وهم العرب المسلمون

العنصر الثاني : وهم العجم المسلمون

ولما قامت هذه الدولة الجديدة كان العجم المسلمون - وخاصة الفرس - يشعرون بالاضطهاد، وذلك منذ عهد الدولة الأموية، فاستغل العباسيون تلك الفرصة فى الاعتماد على هذا العنصر فى اقامة الدولة، وأصبح الفرس ساعدهم الأيمن لتوطيد أركان الدولة، مماحدا بالكثير من المؤرخين الى القول أن الدولة العباسية قامت على اكتاف الفرس.(١) وهنا تجدر الإشارة الى أهم عناصر هذه الأمة بايجاز :

أ - العرب المسلمون :

اقصى العنصر العربى عن النفوذ، وضعف شأنه فى الدولة العباسية، وكان نفوذهم أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة، وكان طابعهم بشكل عام الزهو والفخر، والاعتداد بالنفس والاعتزاز بها، وحب الفضيلة - والميل الى الأدب والرغبة فى السيادة(٢).

---

(١) - محمد زكى العشماوى، موقف الشعر من الفن والحياة، دار النهضة العربية، بيروت عام ١٩٨١م

(٢) - محمد عبدالمنعم خفاجى، الحياة الأدبية فى العصر العباسى، نشر رابطة الأدب الحديث، طبعة دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٥٤م ص١٧

ب - العجم المسلمون :

أما العجم المسلمون فكانوا عدة اجناس منهم :-

١ - الفرس :

كان الفرس عماد الدولة فى نظامها السياسى والادارى، وقد تأثرت الدولة العباسية بهذا العنصر تأثرا مباشرا فى شتى مناحى الحياة العقلية والفكرية والعادات والتقاليد العامة والخاصة. وكان الفرس دعاة للترف والمجون والتطور، كما كان طابعهم العام حب السيادة والترف والبذخ، وتشجيع العلوم والآداب مما أثر تأثيرا بالغا على المجتمع العباسى.

٢ - الأتراك :

رأى العباسيون فى نمو النفوذ الفارسى المطرد خطرا على استقرار ولايتهم، فركنوا الى الأتراك، وقد وجدوهم اشد اخلاصا لهم. ففى ولاية المأمون كان نفر من العبيد الأتراك من جملة القادة وازداد دورهم فى عهد المعتصم الذى عهد اليهم بمراكز حساسة فى الجيش والادارة. كما أسندوا اليهم بعض شئون الدولة، بل وصل بهم الأمر الى أنهم أصبحوا يتحكمون فى تعيين الخلفاء، ويذكر المؤرخون أن القائدين التركيين واصف واتياخ قد نصبا المتوكل خليفة بعد أخيه الواثق.(١)

٣ - الزنج والروم :

كان لهذين العنصرين أثرهما على الحياة الاجتماعية وتطورها فى العصر العباسى، أما الروم فقد كان اكثر عددهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء. وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملؤون القصور، وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل افريقية الشرقية، وكانوا يعملون فى الزراعة والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة. اضف الى ذلك اليهود والنصارى والمجوس وقد كان لهذه العناصر المختلفة أثرها على النشاط الاقتصادى وعلى هيكل العمالة والصناعة فى المجتمع العباسى والذى سيظهر لنا فيما بعد(٢) ان شاء الله تعالى.

---

(١) - جميل جبر، الجاحظ، منشورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر عام ١٩٥٩م بيروت، ص ١٣٦

(٢) - سيأتى تفصيل لذلك فى ص١٨٠/٢٠٢ من هذا البحث

وبعد تتر كانت هذه هى أهم العناصر ، والشعوب التى تؤلف الدولة العباسية الأولى وقد تمازجت مع بعضها واختلطت على الرغم من اختلاف مميزاتها وعقائدها ومناهج تفكيرها وبالتالى تأثرت الحياة الاجتماعية فى الدولة العباسية، وتأثر النشاط الاقتصادى ايضا، ولم تعد الدولة عربية خالصة بل أصبحت خليطا فيها من كل لون، ومن كل عادة وجنس.(١) وحد بينهم الاسلام فأصبح الجميع جنسيتهم الاسلام.

حـ - طبقات المجتمع العباسى الأول

ومع تعدد الاجناس والعناصر فى المجتمع العباسى، تعددت ايضا طبقاته فكان المجتمع العباسى يتكون من طبقات اقتصادية وهي على النحو التالى :

الطبقة الأولى : وهى الطبقة العليا وهى طبقة تضم، الخلفاء، والأمراء، والقواد، كبار الرؤساء، والوزراء ، والكتاب، وكبار التجار، وزعماء القبائل.

الطبقة الثانية : وهى الطبقة الدنيا من الكادحين من الأكرة والرقيق وأصحاب المهن، والحرف الصغيرة. ولا يعنى ذلك انعدام الطبقة الوسطى.

بل يمكن القول بأن الطبقة الوسطى فى المجتمع العباسى، كانت تتكون من مجوعة من صغار التجار ومتوسطيهم، ومن صغار الموظفين فى الدواوين، ورجال الشرطة وغيرهم، ممن يحصلون على رواتب معلومة لسد حوائجهم تكاد تكفى حاجاتهم اليومية ولا فائض لديهم لحياة الدعة والترف.(٢)

والى جانب تقسيم هذا المجتمع الى طبقات مختلفة يمكن القول بأن المجتمع العباسى كان منقسما الى جذور وأصول مختلفة، ذات ثقافات وصناعات وتجارات متباينة أثرت تأثيرا مباشرا فى المجتمع العباسى، ولذلك فان الثقافات مثلا بعضها كان وافدا من الشرق وبعضها من الغرب، ولم تعد البيئة الاجتماعية عربية خالصة، بل اختلطت بغيرها من الحضارات الهندية والفارسية والصينية والتركية والافريقية، وغيرها مما كان له الأثر الكبير فى تطور الأوضاع الاقتصادية المختلفة.

---

(١) - جميل جبر، المرجع السابق ص١٣٧

(٢) - محمد زغلول سلام، دراسات فى الأدب العربي، العصر العباسى منشأة المعارف ص١٤/١٥

أثر الأوضاع الاجتماعية على النشاط الاقتصادى

مما لاشك فيه أن هذا العصر اتسم بالبذخ والترف، إذ كانت اقتصاديات البلاد ومواردهاواسعة جدا مما افسح المجال للترف والنعيم والرخاء وسعة العيش/وكان من نتائج تدفق الثروة ووفرة

الترف والنعيم والفراغ - عند الطبقة الخاصة، وبعض رجال الصناعة والتجارة - أن شاع اللهو، ومال الناس الى الغناء والتفنن فى المأكل والملبس، وانتشرت تجارة الرقيق، وعنى العباسيون بتعليم الجوارى وتلقينهن الغناء.

كذلك ظهر الثراء الفاحش، فالأموال تملأ خزائن الدولة التى كان يحمل اليها الخراج، وحمول الذهب والفضة من شتى انحاء الدولة.يدل على ذلك ما قيل أن المنصور خلف حين توفى أربعة عشر مليونا من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم، وأن دخل بيت المال فى عهد الرشيد كان نحو سبعين مليونا من الدنانير، وأن الخراج فى عهد المأمون قد بلغ ما يقرب ٣٩١ مليونا من الدراهم.(١) وقد امتلأت كتب الأدب والتاريخ بقصص الخلفاء والأمراء فى الاسراف فى العطاء، وأصبح مظهرا من مظاهر الأبهة فى هذا العصر، فقد قيل أن المهدى مثلا اعطى مروان بن أبى حفصة مائة الف درهم على مدحه له، وقد أطربه يوما أحد المغنيين فمنحه سبعمائة الف دينار، ومن هذا البذخ ايضا، ما كان من الرشيد فقد كان لايدانيه خليفة آخر فى بذل الأموال واغداق العطايا، فقد فاض على قاضيه أبى يوسف والأصمعى والكسائى، والأطباء

---

(١) - : محمد زكى العشماوى، موقف الشعر من الفن والحياة، المرجع السابق ص٥٦/٥٧

مثل جبرائيل بن بختشيوع بأموال لا حدود لها، ومنها أنه وصل سلما الخاسر وحده على مدائحه ما يقرب من عشرين الف دينار واعجبة غناء مخارق فاقطعه ضيعة، ودارا ووصله بثلاثة آلاف دينار. وكان طبيعيا أن تنعكس حياة النعيم والثراء هذه على ألوان الحياة فى الملبس والمسكن والمطعم.

ولعل من أبرز الأنشطة الاقتصادية التى ظهرت نتيجة للأوضاع الاجتماعية فى العصر العباسى الأول انتشار تجارة الرقيق بدرجة فاقت الحد المألوف، ولقد ساعد على ذلك كثرة الفتوحات والحروب واسترقاق الأسرى من سائر الأمم التى دخلها الاسلام. وكان لعظم هذه التجارة ان كان لها سوق فى بغداد بل شارع باسمها وما يجلب اليه الرقيق من اماكن عديدة من افريقيا الشرقية، ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوب أوربا، وكان أكثرهم يقوم بأعمال مختلفة منها زراعة الأرض أو الحرف اليدوية أو أعمال المنازل، وقد كان بعضهم يتبوءون مراكز عالية فى الدولة كالربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه، وقد شغف بهم الخلفاء واستكثروا منهم فى بلاطهم، وقد قيل أن الرشيد قد سار يوما وبين يديه أربعمائة منهم. أما المعتصم فقد كان شديد التعلق بهم وخاصة العنصر التركى يهواهم ويقتنى منهم اعدادا كبيرة.

والذى يهمنا هنا أن تجارة الرقيق كانت فى هذا العصر تعتبر ظاهرة اقتصادية عامة، وكانوا يشكلون مجتمعا يكاد يكون متميزا بملامح خاصة له تأثيراته القوية فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية.(١)

---

(١) - محمد زكى العشماوى، موقف الشعر من الفن والحياة، المرجع السابق ص٥٨/٦٢

المبحث الثاني

الفقه والقضاء وأثرهما في النشاط الاقتصادى

تمهيد :

يعتبر هذا العصر من أهم العصور الاسلامية وازهاها، فالحركة العلمية للمسلمين فى هذا العصر ازدادت ازديادا كبيرا، فقد نشطت فيها حركة تدوين واسعة النطاق، حيث دونت السنة، وفتاوى المفتين من الصحابة والتابعين وتابعيهم، وكتبت فيه موسوعات فى تفسير القرآن الكريم، وفقه الأئمة المجتهدين، كما أن رجالا كثيرين من المجتهدين ظهروا فيه، مما كان له الأثر الكبير على استنباط الأحكام مما وقع بالفعل، وما يحتمل أن يقع بعد ذلك. كما أن هذا العصر يعتبر العصر الذهبى لنمو حركة التأليف فى نواحى الشريعة المختلفة من فقه وغيره، زد على ذلك الاهتمام الكبير من قبل الخلفاء بالفقهاء والقضاة الذين تحملوا مسئولية الاجتهاد فى النصوص التشريعية من شتى جوانبها، مما يجعل هذا العصر بحق هو العصر الذهبى للأمة الاسلامية، وقد كان لذلك أسباب كثيرة ومتعددة لعل من أهما ما يلى :-

١ - اتساع رقعة الدولة الاسلامية :

فقد اتسعت الدولة الاسلامية فى هذا العصر اتساعا كبيرا، ووجد فيه خليط كبير من الاجناس المختلفة، والتى تختلف فى عاداتها وتقاليدها، واعرافها وكانت هذه الشعوب بحاجة الى تبيين أحكام معاملاتهم المالية وغيرها، فشجع هذا الأمر علماء المسلمين وفقهاءهم على روح البحث ودفعهم الى بذل كثير من الجهود لمجابهة الحياة الجديدة، وما طرأ عليها من تغير فى المعاملات، وصور العلاقات.(١)

---

(١) - عبدالوهاب خلاف، خلاصة التشريع الاسلامى، دار القلم للطباعة والنشر، الكويت ص٥٧/٥٨، ، عبدالرحمن الصابونى، خليفة بابكر، محمود محمد الطنطاوى، المدخل الفقهى، وتاريخ التشريع الاسلامى، نشر مكتبة وهبة، وطبع دار التوفيق للطباعة والجمع الآلى القاهرة عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ص٢٥٦

٢ - حرص أبناء الأمة على التمسك بالمنهج الاسلامي :

ساعد على ذلك ايضا أن المسلمين فى ذلك الوقت كانوا حريصين على أن تكون جميع اعمالهم ومعاملاتهم وفق المنهج الاسلامى من كتاب وسنة، وكان الولاة والقضاة يرجعون الى المفتين، ورجال الفقه فيما يعرض عليهم من مسائل وبذلك كان المجتهدون موردا لا ينضب، ولهذا اتصلت جهودهم ونمى نتاجهم وفكرهم.

٣ - مرونة الشريعة الاسلامية وتطورها مع الاحداث :

ومما ساعد على ازدهار الفقه والحركة العلمية فى تلك الفترة مرونة الشريعة الاسلامية وتطورها، واتساع نطاقها للأحداث الجديدة، والمعاملات المستحدثة، فوجد القضاة والمفتون المصادر التشريعية فى متناول أيديهم كالاجماع(١) والقياس(٢) والاستحسان(٣)

---

(١) - الاجماع : فى اللغة العزم والتصميم على الأمر، أو الاتفاق على أمر وفى اصطلاح الأصوليين : اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ فى عصر من العصور على حكم شرعى اجتهادى بعد وفاة الرسول ﷺ. بدران أبو العنين بدران، أصول الفقه الاسلامى، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية عام ١٩٨٤م ص١١١/١١٢

(٢) - القياس : فى اللغة التقدير أو التسوية يقال فلان لا يقاس بفلان أى لا يستوى به. وفى اصطلاح الأصوليين عرف بتعريفات كثيرة فقد عرفه الغزالى بأنه : حمل معلوم على معلوم فى اثبات حكم لهما أو نفيه عنهما بأمر جامع بينهما. انظر .. بدران أبو العنين، المرجع السابق ص١٤٠/١٤١، الغزالى، المستصفى من علم الأصول بتحقيق محمد مصطفى أبو العلا، مكتبة الجندى، القاهرة عام ١٣٩١هـ/١٩٧١م ص٣٩٤.
أو هو بيان حكم أمر غير منصوص على حكمه بالحاقه بأمر معلوم حكمه للاشتراك بينهما فى علة الحكم، أبو زهرة، أصول الفقه، دار الفكر العربى عام ١٣٧٧هـ ص٢٠٤

(٣) - الاستحسان : هو فى اللغة عد الشىء حسنا
وفى الاصطلاح له تعريفات متعددة منها ما عرفه الكرخى بقوله : هو أن يعدل الانسان عن أن يحكم فى المسألة بمثل ما حكم به فى نظائرها الى خلافة لوجه أقوى يقتضى العدول عن الأول. انظر : البزدوى، كشف الاسرار عن أصول فخر الاسلام البزدوى، دار الكتاب العربى بيروت عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م جـ٤ ص٣
وعرفه ابن رشد فقال : الأستحسان الذى يكثر استعماله حتى يكون أعم من القياس يؤدى الى غلو فى الحكم ومبالغته فيه عنه فى بعض المواضع لمعنى يؤثر فى الحكم يخص به ذلك الموضع، انظر الشاطبى، الاعتصام، المكتبة التجارية الكبرى القاهرة جـ٢ ص١٣٩

والمصالح المرسلة(١)، والعرف(٢) والاستصحاب(٣) وغيرها، مما جعلت الفقيه امام دائرة واسعة من المصادر المرنة، كما أن كثيرا من المشكلات قد عالجها سلفهم من قبلهم، وبالتالى فلم يكن هناك عناء أمامهم إلا اعمال الفكر فيما هو مستحدث مع توفر الأصول التى يمكن أن تبنى عليها أحكامهم. وهذا ما تحقق فعلا فقد تفاعل الفقه الاسلامى مع البيئة الجديدة، وتدرج معها بصورة تلقائية لا مثيل لها فى شتى التشريعات.(٤)

٤ - ظهور عدد كبير من الاعلام والفقهاء :

ظهر فى هذا العصر عدد كبير من الاعلام والفقهاء الذين كانت لهم مواهبهم واستعداداتهم، كما ساعدتهم البيئة التى عاشوا فيها على استثمار هذه المواهب والاستعدادات. فتكونت الملكة الفقهية عند الكثير من أفذاذهم من امثال أبى حنيفة، ومالك والشافعى وأحمد وأصحابهم وغيرهم من

---

(١) - المصالح المرسلة او الاستصلاح هى المصالح الملائمة لمقاصد الشارع الاسلامى، ولايشهد لها أصل خاص بالاعتبار أو الالغاء. انظر أبو زهرة، اصول الفقه ، المرجع السابق ص٢٦١

(٢) - العرف : ما اعتاده الناس من معاملات واستقامت عليه أمورهم ولا يخالف دليلا شرعيا ولا قاعدة شرعية ولا حكما ثابتا. بدران أبو العين أصول الفقه الاسلامى، المرجع السابق ص٢٢٤

(٣) - الاستصحاب معناه المصاحبة أو إستمرار الصحبة

وفى الاصطلاح عرفه الشوكانى بأنه بقاء الأمر مالم يوجد ما يغيره، بمعنى أن ماثبت فى الماضى فالأصل بقاؤه فى الزمن الحاضر. انظر الشوكانى، ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الأصول، دار الفكر بيروت ص٢٣٧.

وعرفه ابن القيم بأنه استدامة ما كان ثابتا، ونفى ما كان منفيا أى بقاء الحكم نفيا واثباتا حتى يقوم دليل على تغيير الحال، أبو زهرة ، اصول الفقه، المرجع السابق ص٢٧٦

(٤) - عبدالوهاب خلاف، خلاصة تاريخ التشريع الاسلامى، المرجع السابق ص٦٠، عبدالرحمن الصابونى وغيره، المدخل الفقهى وتاريخ التشريع الاسلامى، المرجع السابق ص٢٥٧

معاصريهم من الأئمة المجتهدين الذين اقتدوا بهم مما نتج عنه نماء الفقه الاسلامى، وسد الحاجة التشريعية للدولة، ويدخل فى ذلك بطبيعة الحال الفكر الاقتصادي حيث وجد فى هذا العصر من الفقهاء من يهتم بالفكر المالى الاسلامى من امثال أبى يوسف، ومحمد بن الحسن، وغيرهم ممن أتى بعدهم كأبى عبيد ويحيى بن آدم القرشى وغيرهما مما كان له الأثر الكبير على احياء الفكر ومواءمته للعصر.(١)

٥ - عناية الخلفاء العباسيين بالفقه والفقهاء :

كان من بين أسباب ازدهار الفقه فى هذا العصر اهتمام خلفاء بنى العباسى بالفقه والفقهاء، ويرجع السبب فى ذلك الى أن دولتهم كانت دولة تنتهج المنهج الاسلامى فى معظم نواحى الحياة، فلابد إذا أن يبرز اهتمامها بالفقه، كما أن الفقهاء كانوا أهل المشورة، والنظر للحاكم العادل الصادق مع أمته ورعيته. لهذا حرص الخلفاء على الرجوع اليهم والاهتمام بهم وبشئونهم. وتتضح مظاهر اهتمام الخلفاء العباسيين بالفقهاء فى عدة مظاهر منها :

أ - تقريبهم لهم والرجوع اليهم فى الاستشارة والافتاء، فالمنصور مثلا يطلب من الامام مالك أن يضع للناس كتابا فى الفقه يتجنب فيه رخص ابن عباس وشدائد ابن عمر فيضع كتابه الموطأ. والرشيد يطلب من أبى يوسف تلميذ أبى حنيفة وصاحبه أن يضع له كتابا عن نظم الحكومة وادارة مالية الدولة لإزالة ما كان فى عهد الأمويين من انحراف يشير الى ذلك أبو يوسف فى مقدمة كتاب «الخراج» ناصحا أمير المؤمنين فيقول : «وانى أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك الله، وأن لا تنظر فى ذلك إلا اليه وله، فانك أن لا تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى، وتعمى عينيك، وتتعفى رسومه ويضيق عليك رحبة وتنكر منه ما تعرف، وتعرف ما تنكر فخاصم نفسك خصومة من يريد الفلج لها لا عليها، فان الراعى المضيع يضمن ماهلك على يديه....».(٢)

---

(١) - عبدالوهاب خلاف، خلاصة تاريخ التشريع الاسلامى، المرجع السابق ص٦٠

(٢) - أبو يوسف : الخراج ، المطبعة السلفية بالقاهرة، الطبعة الخامسة عام ١٣٩٦هـ. والفلج لها معناها فى اللغة الظفر لها لا عليها. انظر ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة العلمية طهران جـ٢ ص٧٠٦

وهكذا أخذ الخليفة ينتصح، وينفذ ويطبق هذه الروح التى وضع أبويوسف له اسسها العامة، وأمر اطراف البلاد بأن تنظم الادارة الحكومية على أساسها.(١)

ب - كذلك كان من مظاهر اهتمام الخلفاء بالفقه فى هذا العصر حرصهم على أن يتعلم ابناؤهم الفقه، وأن يتعرفوا على شئون دينهم.

حـ - ولقد كان من مظاهر اهتمامهم بالفقه توحيد مذهب القضاء فقد عين هارون الرشيد أبا يوسف صاحب أبى حنيفة قاضيا للقضاة فاصبح تعيين القضاة وعزلهم فى أرجاء الدولة من اختصاصه، وقد مكن هذا للمذهب الحنفى أن يغدو المذهب الرسمى للدولة، وبهذا المسلك ضاقت دائرة الاختلاف لأن تعدد القضاة مع اختلاف المذاهب ربما أدى الى صدور احكام مختلفة فى المسألة الواحدة نظرا لاختلاف الفقهاء فيها.(٢)

٦ - حرية الرأى :

كانت حرية الرأى مكفولة لكل مسلم فى جميع الأمور، فكان له أن يبدى رأيه فى أى شىء فى الدولة فى الحكم أو شئون الحياة المختلفة عملا بمبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وعلى هذا المبدأ كان المسلمون يبدون آراءهم فى شتى الشئون السياسية وغيرها، ومن بينها الشئون الفقهية، فقد كان للفقهاء فى ذلك الحرية فى أن يفتوا فى أى مسألة بما يرون فى أطار الشرع الكريم. مما أدى الى ازدهار الفقه وتطوره.

٧ - وجود الثقافات المتعددة :

كذلك من أسباب ازدهار الفقه الاسلامى فى تلك الفترة تعدد الثقافات

---

(١) - على حسن عبدالقادر، نظرة عامة فى تاريخ الفقه الاسلامى، مطبعة السعادة نشر دار الكتب الحديثة القاهرة عام ١٩٦٥م، الطبعة الثالثة ص٢٠٣

(٢) - عبدالرحمن الصابونى وغيره، المدخل الفقهي وتاريخ التشريع الاسلامى، المرجع السابق ص٢٥٧/٢٥٨

فى المجتمع الاسلامى فى تلك الفترة، فقد دخل فى دين الله تعالى اناس كثيرون من الهند والفرس والترك وغيرهم، وبالطبع كانت لهم ثقافات فى بلادهم تختلف عما كان عند العرب فاستفاد المسلمون بجميع اجناسهم منها استفادات كثيرة فى مجال التشريع.(١)

٨ - نهضة التدوين :

يعد التدوين فى هذا العصر عاملا من العوامل التى اسهمت بدور كبير فى نشاط الحركة الفقهية، فقد دونت السنة النبوية، وغدت مادة جاهزة يعتمد عليها المفتون، ودون الفقه، وعلم الأصول ايضا وقد أثرى كل ذلك الحركة الفقهية وشد من أزرها، فبرغم أن حركة التدوين بدأت فى عصر الدولة الأموية إلا أنها لم تزدهر إلا فى عصر الدولة العباسية، إذا ان هذا العصر يعتبر عصر تدوين العلوم بصفة عامة والفقه وأصوله ومصادره بصفة خاصة.

٩ - شيوع المجادلات والمناظرات العلمية المفيدة :

فقد كثر الخلاف فى هذا العصر، وقاد ذلك بدوره الى مناظرات فقهية مختلفة مثل المناظرة الفقهية المشهورة بين الامام الليث والامام مالك حول عمل أهل المدينة ومدى حجتيه، والمناظرات التى دارت بين محمد بن الحسن الشيبانى، والامام الشافعى، وقد كان لهذه المناظرات فوائد لعل من أبرزها شحذها للاذهان وتعميقها للفكر.(٢)

وهذا كله فى الواقع يؤكد أن الفقه والفقهاء كان لهما دور كبير فى الحياة العامة، وخاصة الجانب الاقتصادى منها حيث إن احكام المعاملات من

---

(١) - محمد السايس، عبداللطيف السبكى، محمد يوسف البربرى، تاريخ التشريع الاسلامى عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، مطبعة وادى الملوك القاهرة ص١٨٩

(٢) - عبدالرحمن الصابونى وغيره، المدخل الفقهي وتاريخ التشريع الاسلامى، المرجع السابق ص٢٥٨ وما بعدها، حسين حامد حسان، المدخل لدراسة الفقه الاسلامى، شركة الطوبجى للطباعة والنشر القاهرة عام ١٩٨١م ص٧٦

البيوع وغيرها تعتبر من أبواب الفقه الاسلامى وبالتالى فان التطور الفقهى كان تطورا فى الفكر الاقتصادى للدولة الاسلامية فى شتى فصوله وأبوابه ايضا.

وقد تطور الفقه الاسلامى فى العصر العباسى الأول تطورا كبيرا، وظهر فى هذا العصر من الفقهاء، والمذاهب الكثيرة والتى كان اعظمها أثرا وتأثيرا فى المجتمع فقهاء المذاهب الأربعة وغيرهم من تلامذتهم وقد تأثرت الأوضاع الاقتصادية فى المجتمع الاسلامى بهذه المذاهب تأثرا كبيرا لأن الخلفاء كثيرا ما كانوا يستشيرون الفقهاء فى كثير من المسائل التى تعرض لهم، كما ساعد على ذلك رغبة الناس فى السير على المنهج الاسلامى من كتاب وسنة، ومرونة الشريعة الاسلامية، ومواكبتها لتطور العصر والأوضاع السائدة، وتطور الأوضاع الاقتصادية وحاجة المجتمع الى التطور الفكرى ايضا ليلبى حاجة المجتمع الجديد.

فهذا هارون الرشيد يطلب من أبى يوسف أن يضع له كتابا عن نظم الحكومة وادارة أموال الدولة، جباية وانفاقا ويستجيب أبو يوسف - رحمه الله - فيضع كتاب الخراج الذى شمل جميع الأبواب التى تتكون منها مالية الدولة فبين موارد بيت المال المختلفة على ما سيأتى بيانها وكيفية صرف هذه الأموال، والطرق الصحيحة لجبايتها، وبين الواجبات التى يلزم بيت المال القيام بها. كما تناول فيه تنظيم بعض الأوضاع الاجتماعية لأهل الذمة وغيرهم كما اشتمل على عدة نصائح لأمير المؤمنين والتى يضمن بها سير الأوضاع الاقتصادية على أتم وجه، وقد أثار هذا الكتاب اهتمام الباحثين والعلماء فألفت كتب كثيرة على أثره تعالج قضايا مالية الدولة وأنشطتها الاقتصادية المختلفة ككتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى، وكتاب الأموال لأبى عبيد، وكتاب الخراج لأبى العباس أحمد بن محمد الكاتب، وكتاب الخراج لنصر بن موسى الرازى الى غير ذلك من الكتب التى اهتمت بالحياة الاقتصادية للدولة الاسلامية فى ذلك العصر، وما تلاه من العصور الاسلامية على مختلف نواحى الحياة ونجد أثر ذلك واضحا فى الأنشطة الاقتصادية المختلفة والتى سنشير اليها فى ثنايا هذا البحث ان شاء الله تعالى.

أما القضاء فقد كان ايضا ذا أثر عظيم على الأنشطة الاقتصادية المختلفة، إذ القضاء لواء العدل بين الناس وصمام الأمن الذى يحفظ على المجتمع استقراره ويقوم ما اعوج ويصلح ما قد تفسده الأهواء والأطماع ويرد الأمة إلى المنهج القويم فى شئونها المختلفة من خلال ما يعرض عليه من الدعاوى والخصومات ليتولى الفصل فيها، فقد كان الفقه والقضاء قرينين فى ذلك، فالفقهاء يتولون مسئولية استنباط الأحكام والاجتهاد فيها، اذا لم يكن فيها نص شرعى والقضاة يطبقون هذه الاستنباطات، وبالقطع كان القضاة من الفقهاء إذ كان يشترط لتولى القضاء معرفة الفقه والأحكام الشرعية فى تلك الفترة وهو مستمر الى أن يرث الله الارض ومن عليها.

كما ظهرت جهود عظيمة للقضاة فى التصنيف والتأليف والشروح مما يشكل جزء مهما من تراثنا الفقهى فى مختلف المذاهب، وكتب الفقه ناطقة وشاهدة على ذلك، وكان دافعهم الى ذلك حماية الحقوق، والفصل بين الأفراد، وإقرار الحق والعدل لا يخافون فى ذلك لومة لائم مما أدى الى تعرض كثير منهم الى المضايقة والاضطهاد بل الى السجن والنفى والقتل.(١)

وبالتالى فان الفقه والقضاء قد ظهرا وكأنهما وجهان لعملة واحدة، وزادت أهمية القضاء فى العصر العباسى الأول لاتساع الدولة وتعدد الحوادث نتيجة ازدياد النشاط العلمى والتطور الاقتصادى والاجتماعى. وظهر الجدل وتباعد الفقهاء فى الرأى فى المسائل الخلافية، ووجدت المذاهب الأربعة - كما سبق أن أشرنا-، وتبع ذلك أن اختلفت أحكام القضاة، إذ كان القاضى فى العراق يحكم وفق المذهب الحنفى، وفى مصر وفق المذهب الشافعى، وإذا تقدم خصمان على غير المذهب الشائع فى البلد أناب القاضى عنه قاضيا يحكم بمذهب المتخاصمين.

---

(١) - محمد مصطفى الزحيلى، كتاب أدب القضاء وهو الدرر المنظومات فى الأقضية والحكومات لابن أبى الدم الحموى الشافعى، دار الفكر، دمشق طبعة ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، الطبعة الثانية ص٣٠

وقد كان لتباين وجهات النظر فى الأحكام تبعا لاختلاف الأصول التى بنيت عليها هذه المذاهب. وبالتالى عدم وجود حكم واحد يلتزم به القضاة من الدوافع التى جعلت ابن المقفع يكتب الى الخليفة أبى جعفر المنصور يدعوه الى التخير من آراء الأئمة والفقهاء ما يلزم به الناس فى جميع الأمصار، وقد حاول الخليفة - المنصور - فعلا تحقيق هذه الرغبة، وطلب من الامام مالك - رحمه الله - تنفيذ ذلك فوضع الموطأ وأراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس عليه فلم يوافقه مالك على هذا الرأى، ورأى أن يترك الناس احرارا ليأخذ أهل كل مصر منهم بما نقل اليهم من الأحكام، فجرى القضاء فى عهد السفاح والمنصور والمهدى والهادى على مثل ما كان عليه من قبلهم. ثم قام الرشيد فاستقضى أبا يوسف من أصحاب أبى حنيفة وقلده منصب قاضى القضاة، كما عهد اليه اختيار قضاة الأمصار يعينهم، ويعزلهم، ويتفقد أعمالهم، ويراجع أحكامهم، حتى أصبح لهم زى خاص يميزهم عن عامة الناس، وسار القضاء فى عهد الرشيد على مذهب أبى حنيفة، فقد كان أبو يوسف لا يختار إلا من كان فقيها بالمذهب الحنفى، وبذلك توحد القضاء فى هذه الدولة.(١)

وكان القاضى شديد الهيبة، وجلساته كانت حافلة بالوقار والاجلال، كما استقل القضاء فى العصر العباسى الأول استقلالا تاما، وخرج عن نفوذ الخلافة والسلطان، ولمعت فى عاصمة الدولة الاسلامية اسماء كثيرة من أئمة القضاة، وسجل المؤرخون صفحات لامعة من صنوف العدالة، وأنواع الأنصاف، كما تعددت فى عهد الرشيد الدوائر القضائية، وبلغ القضاء فى أحكامه، ومؤسساته، ونظام ترافعه، ووسائل تنفيذه شأنا عظيما.(٢)

---

(١) - عبدالمتعال الصعيدى، القضايا الكبرى فى الاسلام، المطبعة النموذجية، نشر مكتبة الآداب ومطبعتها القاهرة عام ١٩٦٠م الطبعة الثانية ص٣٠٤/٣٠٥، محمد سلام مدكور، القضاء فى الاسلام، المرجع السابق ص٣٠/٣١، عصام شبارو، القضاة فى الاسلام، المرجع السابق ص١١/١٢

(٢) - محمود الباجى، مثل عليا من قضاء الاسلام، الدار العربية للكتاب - ليبيا -تونس، الطبعة الثانية عام ١٩٧٠م ص١٥٧ ولمزيد من التفصيل عن استقلال القضاء واهميته وصور مختلفة له فى الدولة الاسلامية راجع محمد عبدالقادر أبو فارس، القضاء فى الاسلام مكتبة الأقصى - عمان، الطبعة الأولى عام ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ص١٧٥ وما بعدها.

كما أن القضاء تميز فى هذا العهد بمميزات كثيرة من أهمها ما يلى : -

أ - بدأ القضاء فى هذا العهد يتخذ لونا مذهبيا بعد أن كان القضاء قائما على حرية القاضى فى الحكم مما يستنبطه من نصوص الكتاب والسنة.

ب - استحدث فى هذا العصر منصب قضائى جديد وهو قاضى القضاة واليه كان يرجع أمر تعيين القضاة، ومن ثم فصلت السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية فصلا تاما على غير ما كان موجودا فى العصر الأموى إذ كان عمل القضاة قاصرا على اصدار الأحكام فيما لهم فيه اختصاص، ولم يكن من اختصاصهم النظر فى الجراحات والعقوبات التأديبية كالحبس، حيث كان هذا من سلطة الخليفة أو نائبه إذن فان انفصال السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية لم يكن تاما حيث احتفظ الخلفاء والولاة بالنظر فى أحكام الجراحات والعقوبات التأديبية.(١)

حـ - توحيد مذهب القضاء، وذلك أن أبا يوسف كان لا يختار من القضاة إلا من كان فقيها بمذهب الأحناف(٢) - كما سبق أن أشرنا -.

د - تطور نظام السجلات الذى وضعت اسسه فى عصر الدولة الأموية بتسجيل الأحكام، كما تدخل القضاة فى اصلاح الأوضاع الاجتماعية كالسجون وغيرها، فقد طلب أبو يوسف من أمير المؤمنين تحسين طعامهم، وتوظيف رواتب لهم يقول أبو يوسف : «فمر بالتقدير لهم، وما يقوتهم فى طعامهم وأدمهم فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن، وول بذلك رجلا من أهل الخير يثبت أسماء من فى السجن ممن تجرى عليهم الصدقة شهر فشهرا».(٣)

---

(١) - . محمد سلام مدكور، القضاة فى الاسلام، دار النهضة العربية القاهرة عام ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ص٢٩/٣٠

(٢) - عصام شبارو، القضاء والقضاة فى الاسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت عام ١٩٨٣م/١٤٠٣هـ ص١٢ لمزيد من التفصيلات حول نظام القضاء فى الدولة الأموية راجع محمد سلام مدكور، القضاء فى الاسلام، المرجع السابق ص٣٠

(٣) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص١٦٢

وتظهر الآثار الاقتصادية للقضاء فى هذا العصر من خلال دراسة وظائف المؤسسات القضائية التى كانت تقوم بوظيفة القضاء بصفة أساسية أو غير أساسية، إذ ان سلطة القضاء كانت موزعة فى ذلك العهد على أربع مؤسسات، وقد كان لهذه المؤسسات ارتباط وثيق بالأنشطة الاقتصادية المختلفة، لذلك تجدر الإشارة إلى تلك المؤسسات بايجاز وهي : ولاية القضاء، والحسبة، وولاية المظالم، والشرطة، ليتضح الأثر الكبير الذى أحدثته هذه المؤسسات فى الأوضاع الاقتصادية المختلفة.

أولا : ولاية القضاء :

وهذه الولاية قد تكون عامة، وقد تكون خاصة ببلد ما، أو بجانب من البلد، أو بقضايا معينة فلا يجوز للقاضى أن يحكم إلا فى تلك البلد أو فى ذلك القضاء المعين له، وقد ذكر الفقهاء لوالى القضاء عدة اختصاصات من أهمها ما يلى :-

أ - فصل المنازعات وقطع التشاجر والخصومات.

ب - استيفاء الحقوق ممن مطل بها، وايصالها لأصحابها بعد ثبوت أحقيتها.

حـ - ثبوت الولاية على من كان ممنوع التصرف بجنون أو صغر، والحجر على من يرى الحجر عليه لسفه أو غيره حفاظا على الأموال، وتصحيحا لأحكام العقود فيها.

د - النظر فى الأوقاف بحفظ أصولها وتنمية فروعها والقبض عليها وصرفها فى سبيلها.

هـ - تنفيذ الوصايا على شروط الموصى فيما أباحه الشرع، ولم يحظره ونتيجة لذلك كانت تجتمع لدى القاضى أموال كثيرة الأمر الذى اقتضى استحداث بيت مال خاص بالقاضى يضع فيه تلك الأموال، وأول قاضى استحدث ذلك هو خير بن نعيم فى ولايته على القضاء.(١) فى عهد أبى جعفر المنصور وسجل فى كل حال منها سجلا بما يدخل فيها ويخرج منها.

---

(١) - : محمد عبدالقادر أبو فارس، القضاء فى الاسلام، المرجع السابق ص٧٢/٧٣،
الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص٧٨

و - اقامة الحدود على من وجبت عليه، فان كان من حقوق الله تعالى تفرد باستيفائه من غير طلب إذا ثبت باقرار أو بينة، وان كان من حقوق الآدميين كان موقوفا فان كان حقا لله عز وجل كان المطالب به أى واحد من المسلمين حسبة وان كان من حقوق الآدميين كان لابد من تقدم صاحبه أو من ينوب عنه باقتضائه على طلب مستحقيه وذلك طبقا لأحكام الشريعة من حيث اشتراط تقدم الدعوى من أجل استيفاء الحقوق الى غير ذلك من الاختصاصات التى ليس هنا محل بسطها.

ويتضح لنا من عرض هذه الاختصاصات وغيرها، أهميتها فى الجانب الاقتصادي، إذ فصل المنازعات، وفض المشاجرات له أهميته من الناحية الاقتصادية، إذ سيحقق الأمن للتجار وغيرهم من أصحاب الأعمال، فاذا وجدت السلطة التى من حقها احقاق الحق ووضعه فى مكانه الصحيح، فان ذلك سيؤدى بدوره الى ايجاد الجو الملائم للنشاط الاقتصادى سواء أكان زراعيا أم تجاريا أم صناعيا.

كذلك فى ثبوت الولاية على من كان ممنوعا من التصرفات المالية من شأنه الحفاظ على أموال. الناس من الضياع، وتعرضه للانفاق فى أوجه غير مشروعة، أو انفاقها بسفه وفى ذلك حفاظ على أموال الأمة كلها، وهذا المعنى نلمحه واضحا فى التعبير القرآنى حينما تحدث عن الحجر على السفهاء حيث عبر عن أموال هؤلاء السفهاء بأنها أموال الجماعة كلها وأن تصرف الفرد بسفه وتبذير يعرض اقتصاد الأمة كلها لخطر التدهور، إذ لو تركنا كل انسان يسرف فى ماله لانعكس ذلك على مال الأمة كلها. قال تعالى : ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا﴾(١)، كما أن فى الحفاظ على الأوقاف والوصايا .

---

(١) - سورة النساء الآية رقم٥

حفاظ على المال العام والخاص(١)، وبالتالى فان القضاء له صلة قوية بالنواحى الاقتصادية المختلفة، والتى من شأنها أن تحرك قوة الدفع فى المجتمع الاسلامى وتؤمنه، إذ انه يسهم فى ايجاد الجو الملائم للعمليات التجارية من خلال اقامة العدل ورفع الظلم والذى من شأنه أن يؤدى الى سرعة حركة رأس المال وبالتالى تحقيق التنمية الاقتصادية فى المجتمع.

ثانيا : الحسبة : وهي الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهى عن المنكر اذا ظهر فعله.(٢)

ويتولاها المحتسب، وقد نشأت هذه التسمية كوظيفة مستقلة فى العصر العباسى وذلك تخفيفا للعبء الملقى على الخلفاء والأمراء والقضاة. وقد كانت مهمة المحتسب مراقبة التجار وأرباب الحرف والأسعار والموازين والمكاييل لمنع الغش والاشراف على نظافة الأسواق والمساجد ومراقبة الاخلاق العامة كمنع شرب الخمر، ومنع تعرض الرجال للنساء ومنع الناس من الافطار فى نهار رمضان، ومنع المعلمين من المبالغة فى ضرب التلاميذ، وكذلك امتدت سلطته الى القاضى فى بعض الأحيان، اذا انقطع عن الجلوس للقضاء، وكانت للمحتسب دار خاصة تسمى دار الحسبة يقيم فيها، ويصرف منها جميع أعماله، وكان يخرج أحيانا بنفسه، ويطوف فى الأسواق، ويعاقب المخالفين عن طريق اتلاف البضائع الفاسدة، وإراقة الخمور، والتشهير بالتاجر الغشاش، بأن يركب على حمار أوَ جمل، ويطاف به فى الأسواق.(٣) كما كان للمحتسب أن يراقب موارد بيت المال، وله أن يجمع الأموال للانفاق على المرافق العامة إذا لم يكن فى بيت مال المسلمين أموال تسد هذا الغرض. كذلك له النظر فى أجور العمال وأعمالهم.

(١) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص٧٠

(٢) - الماوردى الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص٢٤٠

(٣) - عبدالعزيز خليل بديوى، القضاء فى الاسلام، وحماية الحقوق، دار الفكر العربى عام ١٩٧٩م، ص١٨/١٩

وهذه الأعمال التى يقوم بها المحتسب لها أهميتها من الناحية الاقتصادية، فالدولة تقوم بمراقبة الحياة الاقتصادية، وتبلغ هذه المراقبة حد التدخل والاشراف، وذلك عن طريق نظام الحسبة الذى يتيح للمحتسب أو لوالى الحسبة أن يراقب الأوضاع الاقتصادية فيمنع الاحتكار، ويحدد الاسعار - ان احتاج الأمر - ، ويراقب تصرفات التجار وأحوالهم، والسلع ومدى صلاحيتها، كذلك يراقب الانفاق على المرافق العامة وصيانتها، ودفع نفقات المحتاجين من بيت المال، أو إلزام المقتدرين على القيام بهذه الواجبات الضرورية ولا تقتصر وظيفته على ذلك بل يحق له ايضا أن يجبر مانع الزكاة على اخراجها، فهو بذلك يراقب الانفاق العام، والايرادات العامة وحركة الأسواق. ولا يخفى ما فى تحقيق ذلك من الآثار الايجابية التى تنعكس على النشاط الاقتصادى بوجه عام.

كما أن الشريعة الاسلامية حددت المال العام، وكيفية استعماله والتصرف فيه، ووضعت لذلك القواعد والأحكام الواجبة الاحترام، فاذا أخل أى شخص بهذه القواعد والأحكام، جاز شرعا التدخل لمنع التعدى، واعادة الحق الى نصابه. وتحقيقا لذلك أوجبت على الدولة الاسلامية نظام الحسبة الذي يتيح لها أن تضرب على أيدى العابثين بالأموال أو المصالح العامة.(١) وبذلك فان ظيفة المحتسب لها أهميتها من الناحية الاقتصادية، فهى وثيقة الصلة بأوضاع المجتمع الاقتصادية المختلفة.

ثالثا : ولاية المظالم :

وقضاء المظالم نوع من أنواع القضاء، وعمله يقوم على الفصل فى القضايا التى يعجز القضاة عن الفصل فيها أو تنفيذها، فهو قضاء يختص بمقاضاة رجال السلطان ونوابهم، كما تتعلق بموظفى الدولة وتعسف رؤسائهم

---

(١) - عوف محمد الكفراوى، الرقابة المالية فى الاسلام، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الاسكندرية عام ١٩٨٣م ص١٥١، على عبدالواحد وافى، مقدمة ابن خلدون طبعة ١٩٧٥م جـ٢ ص٥٧٦

بهم، وهو أشبه بالقضاء الادارى فى الوقت الحاضر، وديوان المظالم فى المملكة العربية السعودية، ومجلس الدولة فى بعض الدول العربية الأخرى كمصر.

وقد كان رئيس ديوان المظالم يعقد مجلسه أولا فى المساجد كغيره من المحاكم القضائية حينذاك، ثم بنى له بعض الخلفاء والولاة مكانا خاصا كان يسمى (دار العدل) وقد بنى الخليفة العباسى (المهدى) قبة لها أربعة أبواب، كان يجلس فيها بنفسه لنظر المظالم وسماها (قبة المظالم)، وديوان المظالم سلطة قضائية أعلى من سلطة القاضى العادى، فهى هيئة تنظر فى المنازعات التى لا ينظرها القاضى العادى.(١)

وقد اتسعت بعد ذلك دائرة اختصاص ديوان المظالم فأصبح ينظر القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات ضد الولاة، إذا ما حادوا عن الحق، وضد عمال الخراج إذا غالوا فى تقدير الضرائب أو جمعها وضد كتاب الدواوين اذا لم يراعوا العدالة فى تدوين أموال الافراد، كما نظر والى المظالم فى تظلمات الموظفين إذا انقصت رواتبهم أو تأخر صرفها لهم، كما نظر صاحب المظالم فى تنفيذ ما يعجز القاضى أو المحتسب عن تنفيذه من أحكام.(٢)

---

(١) - .: عبدالعزيز بديوى، القضاء فى الاسلام وحماية الحقوق، المرجع السابق ص١٩

(٢) - . نصر فريد محمد واصل، السلطة القضائية، ونظام القضاء فى الاسلام، المرجع السابق، مطبعة الأمانة القاهرة، طبعة عام ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص١١٠، الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص٨٩ وما بعدها.

والمجتمع الاسلامى كأى مجتمع من المجتمعات، لايخلو من وقوع الظلم فيه، ومنعا لهذا فقد باشر حكام المسلمين حينما تجاهر الناس بالظلم، النظر فى المظالم ورد الحقوق الى أصحابها بقوة السلطة. وقد أصبح ديوان المظالم ولاية من ولايات الحكم فى الدولة الاسلامية وقد اقتضت المصلحة استحداثه إذ ان هناك فئة من الأمة من ذوى النفوذ والقوة والجاه لا يستطيع القضاء العادى أو المحتسب محاسبتهم من أجل ذلك استدعت الحاجة الى وجود نظام قضائى آخر هو ولاية المظالم والتى من شأنها النظر فى تلك القضايا ولو لم يوجد مثل هذه المؤسسة القضائية لكان هناك قصور فى النظام القضائي وذلك له فوائده العظيمة من الناحية الاقتصادية حيث أنه سيؤدى الى حماية المال العام من العبث وهو المعنى الذى أشار اليه ابن خلدون بقوله: «وللقاضى النظر فى المظالم وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة لقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدى عليه، ويكون نظره فى البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن، وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستحلاف الشهود وذلك اوسع من نظر القاضى».(١)

وبالتالى فقد كان الهدف الأساسى من ولاية المظالم هو وقف تعدى ذوو الجاه والحسب، وكبار موظفى الدولة وعمالها على الرعية أو على أموال الدولة أى مراقبة الانفاق العام، وايرادات الدولة، وكذلك كتاب الدواوين الخاصة بذلك دون شكاية من أحد كما كان من ضمن أعمال والى المظالم الرقابية أن يحمى العاملين فى الدولة من جور الولاة ويرد اليهم ما قد يكون قد اغتصب من حقوقهم، ولاشك أن فى توفير الطمأنينة للعامل وحصوله على حقوقه كاملة له أثره فى الجانب الاقتصادى فسيساعد على زيادة الانتاج ويحفزه

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٢٢٢

على اتقان ما يوكل اليه من اعمال. أما لو استشعر ضياع حقوقه، وفقدانه الأمل فى استردادها فان ذلك سوف ينعكس على انتاجه وعلى صلته بعمله الأمر الذى لا يخفى أثره على القوة الانتاجية فى المجتمع. وسوف يكون عبئا على الدولة، فى وجود بطالة مقنعة أو شبه مقنعة، كما أن عليه أن يرد الى الممولين ما قد يكون قد أخذ منهم بدون وجه حق سواء أخذه موظف عام، أو دخل ضمن ايرادات الدولة.(١)

ويظهر من ذلك كله ما لهذا الديوان من أهمية اقتصادية، فهو يحمى المال العام، ومال الافراد الخاص، كما يحفظ الحقوق بصفة عامة من الضياع وهو أمر له أهميته فى استقرار الأوضاع الاقتصادية داخل المجتمع.

رابعا : الشرطة :

ابقى العباسيون الأنظمة الادارية التى كانت فى عهد بنى أمية، بل طوروها وزادوها احكاما وضبطا، فمن ذلك نظام الشرطة الذى يعتبره أبو جعفر المنصور أحد أركان الملك الأربعة.(٢) وقد كان للشرطة وصاحبها فى هذا العهد مكانة عظيمة، فاسندت الى أمهر القادة، مما كان لها الأثر الطيب على أمن ورخاء المسلمين فى هذا العهد.

ونظام الشرطة نظام مساعد للقضاء فهو الذى يناط به تنفيذ الأحكام ، وأحيانا يقوم بعمل القضاء فى الأمور المستعجلة، ،التى لا يحتاج فيها الأمر للوصول الى القاضى. ولم تكن هذه الوظيفة من الوظائف السهلة الميسورة، بل كانت وظيفة صعبة فى دولة تكتظ بالسكان، المتنوعى الأجناس والحضارات، وطبيعى أن يظهر فى هذا المجتمع من يريد العبث فيه، وقد كان للشرطة فى

---

(١) - عوف محمد الكفراوى، الرقابة المالية فى الاسلام، المرجع السابق ص١٤٠

(٢) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٦ ص٣١٣، ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٥ ص٥١

الدولة العباسية دور هام فى حماية أموال الناس من الاتلاف والسرقة، فوفرت الأمن والآمان للتجار وأصحاب الأنشطة الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية، وهكذا ارتبط عمل الشرطة بالنشاط الاقتصادى ايضا(١)

ومن خلال العرض السابق يتضح لنا مدى الدور الذ ى قام به كل من الفقه والقضاء فى المجال الفكرى والتطبيقى، ومرونة التشريع الاسلامى وسرعة ملاءمته للوقائع والأحداث الجديدة اقتصادية وغير اقتصادية، وأن القضاء قد استجاب ايضا لكل حدث فعالج القضاة الأحداث والوقائع فى اطار أحكام الشريعة وضوابطها وأهدافها العامة، وهذه المرونة فى الفكر والتطبيق تعد سمة أساسية فى التشريع الاسلامى.

وبعد ان أنتهينا من بيان الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية فى العصر العباسى الأول وتبين لنا تأثيرها الواضح على مجالات النشاط الاقتصادى المختلفة ننتقل بعد ذلك الى توضيح وتحليل الأنشطة الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية ومن ثم اقتصاديات الدولة من حيث ماليتها وعناصرها المختلفة ومدى امكانية تدخل الدولة فيها مع مقارنة ذلك بالأوضاع الاقتصادية الاوربية فى تلك الفترة وذلك فى بابين الأول ويشتمل على الأنشطة الزراعية والصناعية والتجارية والثانى ويشتمل على اقتصاديات الدولة من شتى جوانبها واليك التفصيل.

---

(١) - محمد الشريف الرحمونى، نظام الشرطة فى الاسلام الى آخر القرن الرابع الهجرى ،الدار العربية للكتاب عام ١٩٨٣م ص٦٩/٧١، نصر فريد، السلطة القضائية، ونظام القضاء فى الاسلام، المرجع السابق ص٢٨.

الباب الأول

تطور الأنشطة الإنتاجية

فى العصر العباسى الأول

وفيه أربعة فصول :

فصل تمهيدى : الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة وأثر تطبيقها فى العصر العباسى الأول .

الفصل الأول : اقتصاديات النشاط الزراعى فى العصر العباسى الأول .

الفصل الثانى : اقتصاديات الصناعة والحرف وتطورها فى العصر العباسى الأول .

الفصل الثالث : العلاقات الاقتصادية الخارجية .

الفصل الرابع : الأنشطة الانتاجية فى أوربا ومقارنتها بالأنشطة الانتاجية فى العصر العباسى الأول .

الفصل التمهيدى

الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية وأثر تطبيقها فى العصر العباسى الأول ٠

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة ٠

المبحث الثانى : أثر تطبيق الضوابط الشرعية فى تطور النشاط الاقتصادى فى العصر العباسى الأول ٠

المبحث الأول

الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة(١)

أولا الضوابط التى تحكم الانتاج وعناصره المختلفة

تمهيد :

من المعلوم أن الغاية من أى نشاط اقتصادى هى اشباع الرغبات الانسانية غير المحدودة عن طريق استغلال الموارد المتاحة، والانتاج هو وسيلة استغلال تلك الموارد، لذا فان الاسلام قد اهتم به ووضع له مجموعة من الضوابط المختلفة التى تنظمه وتضبطه، حتى يتحقق الاستغلال الأمثل للموارد المتاحة فى المجتمع الاسلامى ومن هنا يحسن بنا قبل توضيح هذه الضوابط أن نعرفه ونقف على ما هيته،

عرف الانتاج بتعريفات كثيرة منها أنه يطلق على : كل نشاط يسهم بطريق مباشر أو غير مباشر فى اشباع الحاجات الانسانية كما يطلق ايضا على كل نشاط ينتج عنه ايجاد أو زيادة المنفعة لسلعة ما أو القيام بخدمات لها منفعة.(١)

---

(١) - محمد جلال الدين أبو الدهب، أصول علم الاقتصاد، مطابع سجل العرب بالقاهرة نشر مكتبة عين شمس عام ١٩٧٩م ص٢١، د/ احمد أبو اسماعيل، أصول الاقتصاد، مطبعة دار التأليف، القاهرة نشر دار النهضة العربية عام ١٩٦٦ ص٧٣

وقد حفلت الشريعة الاسلامية بالضوابط التى تحكم الانتاج وتجعله موجها لخدمة الافراد والمجتمع ، ومن هنا فان الباحث سيحاول عرض أهم تلك الضوابط من خلال عرض عناصر الانتاج المختلفة.

هذا ولما كان الانتاج يتكون من عناصر هى الأرض ورأس المال، والعمل والتنظيم فاننى اعرض ما يتصل بهذه العناصر من ضوابط باختصار:

أ - ضوابط عنصر الأرض

يطلق لفظ الأرض أو الطبيعة - كما يسميها البعض - على كل مستلزمات الانتاج التى أمدنا الله بها وهذا يشمل الصفات المختلفة للأرض بالاضافة الى ما يحتويه باطنها من مناجم وبترول ومياه جوفية. كما يشمل هذا المعنى ايضا العوامل والظروف المناخية التى تحيط بنا.(١)

وبعبارة أخرى أوضح يطلق لفظ الأرض على : كل الموارد التى أمدنا الله بها وليس للانسان أى دخل فى ايجادها وهى تشمل الأرض وما عليها، وما يحيط بها، وما فى بطانها من موارد مختلفة.(٢)

والأرض هى المصدر المادى الأول للانتاج فى الاقتصاد، وقد احاطتها الشريعة الاسلامية باحكام خاصة تتفق مع المكانة التى تحتلها فى مجال الانتاج. فقد كانت الارض موضوعا لملكيات متعددة منها :

الملكية الخاصة : والتى تهدف الى اشباع الحاجات الانسانية الخاصة.

الملكية العامة : والتى تهدف لاشباع الحاجات الانسانية العامة التى تعترى الفرد بوصفه عضوا فى المجتمع.(٣)

وملكية الدولة : وهى التى تهدف الى تحقيق الصالح العام وتتدخل الدولة فى تنظيمه ورعايته.

---

(١) - محمد جلال الدين أبو الدهب، أصول علم الاقتصاد، المرجع السابق ص٢٦

(٢) - محمد عبدالمنعم عفر، نحو النظرية الاقتصادية فى الاسلام (الاثمان والاسواق) من مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الاسلامية عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص٧٥

(٣) - محمد باقر الصدر، اقتصادنا، المرجع السابق ص٣٩٨، عبدالله المصلح، الملكية الخاصة فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق ص٣٩

وتؤول ملكية الأرض الى الشخص فى الاسلام، أما بتصرف ناقل للملكية/ شرعا كالبيع والاحياء أو بحكم شرعى كالارث، أو بارادة الغير وعمله كالهبة والاقطاع.(١) والاسلام وضع قواعد لاكتساب الملكية والثروة وتوزيعها لمنع تركيزها فى جانب وحرمان جانب آخر من المجتمع منها ، وأكد على الملكية العامة للثروات الطبيعية، والمرافق العامة والضروريات حتى يتيحها لكافة أفراد المجتمع. ودور الملكية فيها هو خدمة افراد المجتمع وتحقيق المصالح المشتركة لكل منهما، وهو بذلك يعمل على توفير الحوافز الفردية وما لها من آثار هامة فى دفع النشاط الاقتصادى نحو تحقيق أهداف المجتمع فى الرفاهية وتحقيق العدالة بين أفراد المجتمع.(٢)

وطريقة استغلال الأرض فى الشريعة الاسلامية كعنصر من عناصر الانتاج ذات طابع فريد ليس لها مثيل. فالاسلام يوجب استغلال الأرض، ويهتم بضرورة تحويل الأرض الجرداء الى بساتين غناء، وذلك عن طريق اصلاح الأرض وإحيائها وتنظيم طرق ريها وقد وضع لذلك ضوابط متعددة، فالارض الميتة لمن يزرعها، كما أباح للفرد تأجيرها ليزرعها غيره مقابل الحصول على جزء من غلتها أو ريعها.(٣)

وقد وضعت الشريعة الاسلامية كثيرا من الضوابط لتنظيم انتاج الأرض واستغلالها والتى تجعل دائرة الانتاج فيها حلالا طيبا بعيدا عن شبهة الانتاج المحرم واليك هذه الضوابط بشىء من التفصيل :

١ - «من أحيا أرضا ميتة فهى له».(٤)

وهذا الضابط من قواعد الاسلام العظيمة فى تنظيم ملكية الأرض واستغلالها كما أنه أسلوب من أساليب استثمار الأرض، ويقع عليه عبء كبير

---

(١) - محمد بن على السميح، ملكية الارض فى الشريعة الاسلامية، الطبعة الأولى عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص٧٢

(٢) - محمد عبدالمنعم عفر، نحو النظرية الاقتصادية فى الاسلام، المرجع السابق ص٤٠٥

(٣) - منان. الاقتصاد الاسلامى بين النظرية والتطبيق، دراسة مقارنة ترجمة منصور ابراهيم التركى، ، المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر القاهرة عام ١٩٧٠م ص١٠٤/١٠٥

(٤) - رواه أبو داود والترمذى. انظر محمد شمس الحق، عون المعبود، المرجع السابق حـ٨ ص٣٢٧، المباركفورى، تحفة الأحوذى، المرجع السابق حـ٤ ص٦٣٠، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح.

فى تحقيق الأمن الغذائى حيث يؤدى ذلك الى تحقيق نهضة زراعية ويساعد على التنمية الاقتصادية فى المجتمع الاسلامى.

قال أبو يوسف رحمه الله : «عندنا على الأرض الموات التى لاحق لأحد فيها، ولا ملك، فمن أحياها وهى كذلك فهى له : يزرعها ويزارعها ويؤاجرها ويكرى منها الأنهار ويعمرها بما فيه مصلحتها، فان كانت فى أرض العشر أدى عنها العشر، وان كانت فى أرض الخراج أدى عنها الخراج، وان احتفر لها بئرا أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر».(١)

٢ - تحريم استغلال الأرض فى المحرم :

لا يجوز استغلال الأرض فى انتاج المحرمات أيا كان نوعها، فلا يجوز زراعة النباتات الضارة كالتبغ والحشيش والافيون وغيرها، وكل ما ثبت ضرره لا يجوز زراعته وانتاجه وهو ضابط عام ايضا فى جميع الأنشطة الاقتصادية المختلفة (زراعية - صناعية - تجارية).

٣ - «الناس شركاء فى ثلاثة : الماء، والكلأ، والنار».

من الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية أن الناس شركاء فى ثلاثة أشياء الماء، والكلأ، والنار، وهذا الضابط ورد فى حديث رسول الله ﷺ : «المسلمون شركاء فى ثلاث فى الماء والكلأ والنار» وفى رواية والملح.(٢)

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٧٧/٧٨، سيأتى توضيح لذلك وتفصيل له عند الحديث على احياء الارض الموات ص١٨٥

(٢) - رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه من حديث ابن عباس.

الماء : المراد منه : المياه التى لم تحدث باستنباط أحد وسعيه كماء القنى والآبار ولم يحرز فى اناء أو بركة أو جدول مأخوذ من النهر.

والكلأ : هو النبات رطبه ويابسة. قال الخطابى : معناه الكلأ الذي ينبت فى موات الأرض يرعاه الناس ليس لأحد أن يختص به دون أحد أو يحجره عن غيره. وأما إذا كان فى أرض مملوكة لمالك بعينه فهو ماله ليس لأحد أن يشركه فيه إلا بإذنه.

والنار : يراد من الاشراك فيها أن لا يمنع من الاستصباح منها والاستضاءة بضوئها، لكن للمستوقد أن يمنع أخذ جذوة منها لأنه ينقصها ويؤدى الى اطفائها. وقيل المراد بالنار الحجارة التى تورى النار لا يمنع أخذ شىء منها اذا كانت فى موات. انظر الشوكانى، نيل الأوطار، شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، مكتبة دار التراث، القاهرة، حـ٦ ص٥٠، محمد شمس الحق آبادى، عون المعبود شرح سنن أبى داود مع شرح ابن القيم الجوزية تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان نشر المكتبة السلفية المدينة المنورة عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م حـ٩ ص٣٧٠

وهذه الثلاثة المذكورة فى الحديث من الأمور الهامة لحفظ الحياة، ومن هنا جعلها التشريع الاسلامى ضمن ما يملك ملكية عامة، والاساس فى هذه الملكية : أنه إذا تعلقت حاجة الجماعة فى الانتفاع باشياء معينة فلا يجوز أن تقع تحت التملك الفردى قال أبو يوسف رحمه الله : «الفرات ودجلة لجميع المسلمين فهم فيه شركاء»·(١) ويدخل فى ذلك الأنهار الكبيرة والطرق والجسور والاراضى المتروكة حول القرى لتستعمل من قبل أهلها للرعى والحصاد، وبذلك فان الشريعة الاسلامية وضعت حدودا واضحة لما يجوز أن يقع تحت دائرة التملك الفردى وما لا يجوز، والحديث المتقدم من الضوابط الأساسية فى ذلك· ويدخل فى ذلك أيضا المعادن الظاهرة فى الارض المباحة لا يجوز تملكها وان الناس شركاء فيها كالماء والنبات الذى لا يملكه أحد بدليل ما جاء عن ابن عيينه عن معمر عن رجل من أهل مأرب(٢) عن أبيه أن ابيض بن حمال سأل رسول الله ﷺ أن يقطعه ملح مأرب فاراد أن يقطعه أو قال اقطعه إياه فقيل له أنه كان كالماء العد(٣) قال : «فلا اذن»· قال ابن قدامة فى المغنى : (ومن أحيا أرضا فملكها بذلك فظهر معدن ملكه ظاهرا كان أو باطنا إذا كان من المعادن الجامدة لأنه ملك الأرض بجميع اجزائها وطبقاتها وهذا منها، ويفارق ما إذا كان ظاهرا قبل احيائها لأنه قطع عن المسلمين نفعا كان واصلا اليهم، ومنعهم انتفاعا كان لهم· وههنا لم يقطع عنهم شيئا، لأنه إنما ظهر باظهاره له· وأما المعادن الجارية كالقار والنفط والماء فهل يملكها من ظهرت فى ملكه فيه روايتان، اظهرهما : لا يملكها لقول النبى ﷺ : «الناس شركاء فى ثلاث فى الماء والكلأ والنار» ولأنها ليست من اجزاء الأرض فلم يملكها بملك الأرض كالكنز· والثانية : يملكها لأنها خارجة من أرضه المملوكة له فأشبهت الزرع والمعادن الجامدة)·(٤)

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٩٧/٩٨

(٢) رواه أبو داود والترمذى، انظر محمد شمس الحق، عون المعبود، المرجع السابق حـ٨ ص٣١٥/٣١٦، وانظر المباركفورى، تحفة الأحوذى، المرجع السابق حـ٤ ص٦٣٤، مأرب موضع باليمن·

(٣) - الماء العد : هو الذى يستمر تدفقه فلا ينقطع والمقصود ان الملح الذى اقطعه كالماء العد فى حصوله من غير عمل وكد·

(٤) - ابن قدامة، المغنى، مطبعة الامام القاهرة حـ٥ ص٤٦٨/٤٦٩

وقد انعقد اجماع الفقهاء على أن المراد من الماء ما ليس محرزا، أما المحرز فهو ملك صاحبه إذا سبقت اليه يد فصار ملكا له لقوله ﷺ : «من سبق الى مالم يسبق اليه فهو أحق به»(١). وهذا ينطبق على بقية الأشياء الأخرى المذكورة فى الحديث. ويدخل فى حكم هذه الأشياء جميع الأموال المباحة التى لم تصل اليها يد الانسان بحرزها. فالانتفاع بها مشترك بين جميع الناس لا يختص به فرد دون آخر إلا أن يحوزها انسان فتصير ملكا له، وعند ذلك يختص بمنفعتها(٢). فيكون الحديث قد ذكر هذه الأشياء من باب التمثيل وليس من باب الحصر فيدخل ما أشبهها مما تحتاج اليه الجماعة وكان نفعه عاما.

قلت : وهذا الضابط هام من الناحية الاقتصادية، فهو مبنى على القاعدة الشرعية العظيمة وهى : أن الأصل فى الأشياء الاباحة مالم يرد نص بتحريمها، أو اختصاص احد بها، وبالتالى فهى توفر أشياء هامة فى المجتمع للجميع فالماء لازم لحياة الانسان والحيوان والنبات وهو أصل لأى تنمية بشرية أو حيوانية أو نباتية، والكلأ شىء هام لتنيمة الثروة الحيوانية والنهوض بها، والنار لها منافع عظيمة يستضىء بها الناس ويستدفئون بحرها فهى طاقة هامة فى المجتمع ولا تخفى أهميتها النفعية للبشر وعلى ذلك فان التشريع الاسلامى قد وفر بذلك أشياء من ضرورات الحياة التى لابد منها لحياة الناس.

٤ - ضرورة تحقيق الاكتفاء الذاتى والأمن الغذائى من معظم المنتجات فى المجتمع الاسلامى.

يهدف النظام الاقتصادى الاسلامى من تشريعاته الى سد حاجة المجتمع بأكمله وتحقيق الاكتفاء الذاتى والأمن الغذائى من معظم المنتجات إذ ان حاجات المجتمع متعددة وتحقيقها يتم من خلال أولويات معينة ووفق مستويات ثلاث - ضروريات وحاجيات وتحسينات (كماليات) - ويأتى فى مقدمة ذلك

---

(١) - رواه أبو داود، انظر محمد شمس الحق، عون المعبود، المرجع السابق حـ٨ ص٣٢٥

(٢) - على الخفيف، الشركات فى الفقه الاسلامى، مطابع دار النشر للجامعات المصرية القاهرة عام ١٩٦٢م ص٥/٦

الضرورات من الغذاء والكساء والمسكن فهذه الضرويات يجب تحقيقها بشكل يكفى المجتمع بأسره، سواء أكان يملك القوة الشرائية أم لا. فحاجة الناس هى التى توجه الانتاج وتحدد مسالكه فسد حاجة المجتمع بأكمله أمر ضرورى لتحقيق حد الكفاية على الأقل لأبناء المجتمع الاسلامى.

يقول محمد بن الحسن الشيبانى رحمه الله : «وعلى الامام أن يتقى الله فى صرف الأموال الى المصارف فلا يدع فقيرا إلا اعطاه من الصدقات حتى يغنيه وعياله وأن احتاج بعض المسلمين وليس فى بيت المال من الصدقات شيء أعطى الامام ما يحتاجون اليه من بيت مال الخراج».(١)

وقد اشار الى ذلك الامام الغزالى ايضا حيث قال : «لعلك تشتهى أن تعرف مقدار الكفاية، وتقول ما من غنى إلا ويدعى أن ما فى يده دون مقدار الكفاية فاعلم أن الضرورة إنما تدعو الى المطعم والملبس فقط».(٢)

أما ابن حزم رحمه الله فيقول : «وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ويجبرهم السلطان على ذلك أن لم تقم الزكوات بهم ولا سائر أموال المسلمين، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك وبمسكن يكنهم من المطر والشمس وعيون المارة».(٣) فيرى ابن حزم ضرورة توفير الغذاء الكافى والمسكن والملابس الضرورية ايضا. ويكون تحقيق حد الكفاية عن طريق زيادة الانتاج المحلى، وانتاج السلع الزراعية والصناعية محليا لا بالاستيراد الذى يجر الى التبعية

---

(١) - السرخسي ، المبسوط، مطبعة السعادة القاهرة عام ١٣٢٤هـ حـ٣ ص١٨

(٢) - الغزالى، الأربعين فى أصول الدين، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ص١٣١/١٣٢، وميزان العمل للغزالى، بتحقيق سليمان دنيا، الطبعة الأولى، دار المعارف عام ١٩٦٤م ص٣٧٧

(٣) - ابن حزم ، المحلى من منشورات المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت حـ٦ ص١٥٦، رفعت العوضى، الاقتصاد الاسلامى والفكر المعاصر، مجمع البحوث الاسلامية القاهرة ، طبع الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية عام ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م. ص٣٨٣

للغير، فالاهتمام بالانتاج الزراعي والصناعي وزيادته لتحقيق الاكتفاء الذاتي والأمن الغذائي مبدأ أساسي يقوم عليه الاستقلال والأمن ضمانا لسيادة الدولة الاسلامية سياسيا، ولهذا دعى الاسلام لممارسة الانتاج وفرض ذلك على كل قادر عليه طوال حياته، وذلك من خلال تنظيمه للملكية، وتشريعه للزكاة.(١) كما أمر بالضرب فى الأرض والسعى فى طلب الرزق قال تعالى ﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور﴾.(٢) ونص هذه الآية يعتبر عاما فى طلب الرزق من الأراضي الزراعية التى تشمل الوديان والسهول والاغوار، وكذلك البحار والانهار، ففيها من الثروات ما يحتاج الى استثمار واستغلال.(٣)

ومن خلال الوسائل المختلفة لاستغلال الأرض كالاقطاع والاحياء والحجر وغيرها من التسهيلات التى تدعم الانتاج وتنمى الاستثمار، وتؤمن الغذاء لافراد الأمة حث على ذلك الرسول الكريم ﷺ فقال : «ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة».(٤) ولتحقيق الاكتفاء الذاتى والأمن الغذائى لابد من العمل على استغلال الموارد الزراعية المختلفة، ودعم الصناعات الاساسية، وكذلك القوى البشرية وحفزها على الانتاج وزيادته مستخدمين فى ذلك أرقى ما وصل اليه التطور العلمى والفنى فى مجال الانتاج.

---

(١) - يوسف ابراهيم يوسف، استراتيجية وتكنيك التنمية الاقتصادية فى الاسلام، من مطبوعات الاتحاد الدولى للبنوك الاسلامية عام ١٤٠١هـ/١٩٨٧م ص٣٨٠

(٢) - سورة الملك الآية رقم ١٥

(٣) - خلف النمرى، التنمية الزراعية فى ضوء الشريعة الاسلامية مع دراسة تطبيقية على المملكة العربية السعودية، والمملكة الأردنية الهاشمية رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة أم القرى عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م حـ١ ص٤٨

(٤) - رواه البخارى ومسلم انظر . البخارى، صحيح البخارى، المرجع السابق حـ٣ ص٣، ومسلم، صحيح مسلم، المرجع السابق حـ١٠ ص٢١٥ والاقطاع هو : ما يخص به الامام بعض الرعية من الأراضى الموات فيختص به ويصير أولى بأحيائه ممن لم يسبق الى احيائه. والاحياء هو : احياء الأرض الموات التى لم تزرع ولم تعمر ولا جرى عليه ملك أحد أو احياؤه، والاحياء عمارتها باى نوع من أنواع العمارة، انظر ابن قدامة المغنى حـ٥ ص٤١٦. والحجر فى اللغة المنع والحظر والتضييق، وفى الاصطلاح : المنع من التصرف فى ماله، انظر ابن قدامة، المغنى حـ٤ ص٣٤٣ وحجر الارض وضع عليها علامات بالحجارة ونحوها وهو المقصود هنا انظر المعجم الوسيط حـ١ ص١٦٢

والأمن الغذائى نعمة عظيمة من نعم الله سبحانه وتعالى فمتى توفر للانسان تحقق له الاستقرار والراحة وزاد انتاجه فى شتى مناحى الحياة، وتوفر له الآمان من الجوع والخوف قال تعالى : ﴿لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾.(١) ويستلزم تحقيق الأمن الغذائى للانسان العمل على تنمية وزيادة ما يلزم لتحقيقه من زيادة انتاج الثروة الحيوانية والسمكية الى جانب العمل على تنمية وزيادة انتاج المحاصيل الزراعية المختلفة وبالطبع هذا بالنسبة لقطاع الزراعة واستخدام القوى البشرية وتوجيهها (التوجيه) السليم، واستغلال الموارد المائية، والعناية بها وصيانتها، والبحث عن مصادر جديدة. فغاية الانتاج فى المجتمع الاسلامى ليس مجرد الانتاج فى حد ذاته، وانما يجب على الأقل تحقيق الاكتفاء الذاتى والأمن الغذائى لابناء الأمة.(٢)

وهذا ينبع أساسا من مبدأ اسلامى عظيم هو ضرورة استقلال المجتمع الاسلامى من خلال انتاج كل السلع الضرورية (زراعية وصناعية) حيث اعتبر القيام بذلك وتحقيقه من الفروض الكفائية يجب أن يقوم به البعض وإلا أثم الجميع وبحيث يصبح المجتمع معتمدا على نفسه فى اشباع حاجات افراده من هذه السلع ويصبح فى غنى عن العالم الخارجي وبذلك يستطيع أن يتخلص من مسألة التبعية الاقتصادية.

ب - ضوابط رأس المال :

رأس المال هو أحد عناصر الانتاج، وله ضوابط متعددة تنظمه وتنظم كيفية استثماره وتوجيهه الوجهة الصحيحة . إذن فما هو رأس المال؟ وكيف يتم تكوينه؟ رأس المال هو عبارة عن : الثروة التى تستخدم فى انتاج ثروة أخرى.(٣) أو بمعنى آخر هو : الثروة المنتجة فى الماضى، والتى تستخدم فى عمليات الانتاج المختلفة لتوفير السلع والخدمات التى تحقق اشباع الحاجات الانسانية.(٤)

---

(١) - سورة قريش.
(٢) - يوسف ابراهيم يوسف، استراتيجية وتكنيك التنمية فى الاسلام، المرجع السابق ص٣٦/١
(٣) - أحمد أبو اسماعيل، أصول الاقتصاد، المرجع السابق ص١١٩
(٤) - محمد عبدالمنعم عفر، الاقتصاد الاسلامى دارسات تطبيقية، دار البيان العربى للطباعة والنشر والتوزيع جدة عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الطبعة الأولى جـ٢ ص٦٩

وهناك من الاقتصاديين من يرى أن عنصر الأرض يدخل ضمن مفهوم رأس المال معللين ذلك بأن الأرض تعطى قدراتها الانتاجية على دفعات متعددة شأنها فى ذلك شأن السلع الرأسمالية الأخرى على ذلك فان رأس المال يشمل كل شيء سواء كان مصدره طبيعيا أو غير طبيعي - أى من صنع الانسان- يستخدم فى الانتاج فيما عدا العمل.(١)

وقد الزم الاسلام أصحاب رؤوس الأموال توظيفها وتنميتها بوسائل اجازها ومنع استخدامها واستغلالها بوسائل حرمها منها الربا والغش والاحتكار والمقامرة، والعقود الفاسدة والاتجار فى المحظورات كالخمر والاصنام وغيرها.

ويتم تكوين رأس المال فى المجتمع بامتناع الافراد عن بعض الاستهلاك فى الحاضر وادخار المال وتوجيهه نحو الاستثمار لاقامة المشروعات الاقتصادية المختلفة التى تدعم القدرة الانتاجية للمجتمع، وتزيد الاستهلاك فى المستقبل، لذا فان عدم تكوين مدخرات لا يسمح للمجتمع بتكوين رأس المال، كذلك فان الافادة من هذه المدخرات لا تتحقق إلا إذا تم توجيهها للاستثمار، وعلى كل حال فان أى مجتمع يبغى تطورا ونموا فى لابد أن يضحى افراده ببعض مطالبهم العاجلة فيساعد ادخارهم واستثمارهم تلك المدخرات على تكوين رؤوس الأموال ونموها.(٢) على أن هناك ضوابط متعددة لرأس المال المنتج فى الاقتصاد الاسلامى، وهذه الضوابط منها ما هو على صاحب رأس المال ومنها ما هو على المشاركين معه من أصحاب العوامل الانتاجية الأخرى، وفيما يلى توضيح أهم هذه الضوابط بشيء من التفصيل :-

١ - تحديد أثمان السلع يتم فى السوق على أساس قوى العرض والطلب :

يتحدد ثمن السلعة فى السوق بتفاعل قوى العرض والطلب، والاسلام ينظم ذلك على أساس اتاحة الفرصة لقوى العرض والطلب بحيث تتفاعل مع بعضها البعض فى السوق لتقدير الثمن فاذا حدث أى انحراف فيها أدى

---

(١) - محمد جلال الدين أبو الذهب، أصول علم الاقتصاد، المرجع السابق ص٢٧/٢٨

(٢) - محمد عبدالمنعم، الاقتصاد الاسلامى دراسات تطبيقية، المرجع السابق جـ٢ ص٧٠، جـ٢ ص٧٠، أحمد أبو اسماعيل، أصول الاقتصاد، المرجع السابق ص١٢٢/١٢٣

الى التأثير على جانب العرض بواسطة الاحتكار(١) أو غيره كان لولى الأمر حق التدخل لحماية المستهلك، من أجل ذلك منع الاسلام تلقى الركبان، وبيع الحاضر للباد والبيع على البيع والنجش وغيرها.

فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبع بعضكم على بيع بعض، ولا تلقوا السلع حتى يهبط بها الاسواق»(٢)، وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد...»(٣)، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تناجشوا»(٤)

٢ - على المتعدى الضمان:

من الضوابط الشرعية التى وضعت لتنظيم العمليات الاستثمارية المختلفة، والتى تضمن حفظ رأس المال أن المتعدى يضمن، فقد يعطى المستثمر ماله النقدي للمضارب ليستثمره فهو وديعة عنده فيضمن هذا المال إذا اتلف بتفريط منه أو تعدى إذ هو وكيل عن رب المال، ولرب المال الاشتراط على

---

(١) - الاحتكار هو : امساك الطعام عن البيع وانتظار الغلاء مع الاستغناء عنه وحاجة الناس اليه. انظر المباركفورى، تحفة الأحوذى، المرجع السابق حـ٤ ص٤٨٤

(٢) - رواه أبو داود وقال المنذرى أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة مطولا ومختصرا، انظر محمد شمس الحق آبادى، عون المعبود ، المرجع السابق حـ٩ ص٣٠٢، والمراد بتلقى السلع : المتاع المجلوب الذى يأتى به الركبان الى البلدة ليبيعوه فيها.

(٣) - رواه أبو داود وقال المنذرى أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه، والحاضر ساكن الحضر والبادى ساكن البادية فلا يجوز بيع الحاضر للبادى على خلاف بين الفقهاء فى ذلك والمراد به : أن يقدم غريب من البادية، أو من بلد آخر بمتاع تعم الحاجة اليه ليبيعه بسعر يومه فيقول له الحاضر اتركه عندى لابيعه على التدريج بأغلى. انظر محمد شمس الحق آبادى، المرجع السابق حـ٩ ص٣٠٥

(٤) - رواه أبو داود وقال المنذرى أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه مختصرا، والنجش هو أن يرى الرجل السلع تباع فيزيد من ثمنها وهو لا يريد شراءها، وانما يريد ترغيب السوّام فيها ليزيدوا فى الثمن. انظر محمد شمس الحق آبادى، المرجع السابق حـ٩ ص٣٠٤

المضارب كما كان يفعل العباس - رضى الله عنه - فقد روى ان العباس بن عبد المطلب كان يدفع ماله مضاربة ويشترط أن لا يسلك به بحرا، ولا ينزل به واديا، ولا يشترى ذات كبد رطب(١)، فان فعل ذلك، ضمن فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاستحسنه وأجازه.

٣ - ضرورة استغلال المال فى مصلحة المجتمع واهدافه الشرعية :

يجب أن يوجه المال لتحقيق مصالح المجتمع المختلفة، بحيث لا يترتب على استغلال المال أى ضرر سواء على المستوى الفردى أو الجماعى من أجل ذلك حرم الاسلام الربا والاحتكار والرشوة وغيرها من الاساليب الضارة غير الشرعية وبالتالى يحرم استغلال المال وتنميته بهذ الاساليب سواء فى ذلك صاحب رأس المال أو المشاركون فى عملية الاستثمار - كما سبق أن أشرنا -. كما يجب أن يحقق هذا الاستغلال مصلحة المجتمع وأهدافه المختلفة فى اطار اهداف الشريعة وضوابطها العامة. كذلك وضعت الشريعة الاسلامية من النظم ما يوجه تكوين رأس المال للأهداف الاجتماعية المختلفة ففى الشريعة الاسلامية أدوات كثيرة لذلك منها ما هو الزامى كالزكاة مثلا فهى تعطى للفقراء والمساكين وغيرهم من الاصناف الثمانية. والاسلام بذلك يضمن حدا أدنى من الدخل لهولاء الناس قد يستخدمونها فى اغراض استثمارية لصالحهم ايضا ويواجه عدم العدالة فى توزيع الدخل. ومن ذلك ايضا الغنيمة والركاز - دفين الجاهلية - والمعادن، وما يوجد فى البحار، والكفارات وهناك موارد الزامية لغير المسلمين كالجزية، ،العشور.

ويهدف الاسلام منها الى توفير حد أدنى من الدخل لرعاية الدولة الاسلامية حتى ولو كانوا غير مسلمين، واستخدام هذه الحصيلة لتمويل بعض الأنشطة الاقتصادية الاساسية للمجتمع، وهناك ايضا موارد اختيارية كالنفقة على الاقارب الذين لم تلزم. النفقة عليهم وكالوقف والهبة ، والصدقة وغيرها. ويهدف الاسلام منها أن تغطى هذه الموارد اعتبارت اجتماعية اخرى لا يمكن مواجهتها بالأدوات الالزامية.(٢)

---

(١) - ذات كبد رطبة : أى لا يشترى به الحيوانات، لأن ما كان فيه روح عرضة للهلاك، والحديث أخرجه البيهقى وقوى الحافظ اسناده. انظر الشوكانى، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار، طبعة الحلبى حـ٥ ص٣٠٠

(٢) - رفعت العوضى، منهج الادخار والاستثمار، المرجع السابق ص٨١/٨٣

وخلاصة القول أن هذه الضوابط، وتلك الأدوات يجعلها الاسلام واجبا دينيا بجانب أنها ضرورة اقتصادية يتحتم العمل بها لصالح الفرد والجماعة والى جانب ما تقدم فى مجال رأس المال فانه ينبغى أن يمارس النشاط الاستثمارى فى عملية التكوين الرأسمالى على أنه جزء من المنهج الاسلامى، كما يجب أن يكون القائم بالاستثمار متحققا فيه وصف المسلم اعتقادا وسلوكا(١)، وان يوجه هذا الاستثمار لمواجهة الأنشطة الاقتصادية الضرورية للمجتمع فى المقام الأول، ويكون الهدف من الاستثمار هو الانتاج بشكل عام، وليس تحقيق الربح فقط.

حـ - ضوابط العمل :

أما العمل فيقصد به : الجهد الذى يبذله الانسان - ذهنيا كان أو جسمانيا أثناء قيامه بانتاج السلع والخدمات الاقتصادية : ويتقاضى الانسان مقابل هذا الجهد ما يعرف «بالأجر». لذا فانه يعتبر واحدا من الأنشطة الاقتصادية التى تعمل على ايجاد حل للمشكلة الاقتصادية التى تواجه المجتمع ككل.(٢) كما يشمل الأعمال الانتاجية فى مجالات النشاط الاقتصادى المختلفة كالزراعة والصناعة والتجارة والصحة والتعليم وغيرها، كما أنه يشمل كل عمل مباشر أو غير مباشر فى مجال الانتاج.(٣)

ويعتبر العمل من أهم عناصر الانتاج فى الاسلام ليس لأنه العنصر الانتاجى الوحيد بل لأن الله قد سخر للانسان سائر المخلوقات لخدمته، وكرمه

---

(١) - وان كان غير مسلم كالذمي فانه يجب أن يلتزم كذلك بالمنهج الاسلامى فى استغلال رأس المال واستثماره ولا يجوز له الخروج عليه بمقتضى عقد الذمة.

(٢) - محمد جلال الدين أبو الدهب، أصول علم الاقتصاد، المرجع السابق ص٢٥/٢٦

(٣) - العمل المباشر هو الذى يؤدى الى انتاج السلع والخدمات التى تشبع الحاجات الانسانية بصورة مباشرة

والعمل غير المباشر هو الذى يبذل فى انتاج سلعة اقتصادية ايضا إلا أنها لا تؤدى الى اشباع مباشر للحاجات الانسانية كنشاط الانسان فى مجال التعدين والمحاجر باستخراج النفط وغيره من المواد التى لا تصلح مباشرة للاستهلاك الانسانى. المرجع السابق ص٢٦

عليهم قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا﴾.(١) فلقد كرم الله الانسان فى كل شىء، فكرمه فى هيئته وصورته، وحمله فى البر والبحر مما لا يصلح لغيره، ومتعه بالعقل والحرية والاختيار والتدبير، وسخر له ماعداه من مخلوقات وسخر له سبيل العيش وكسب المال، ورزقه من الطيبات المستلذة، ويسر له الانتقال، ومكنه من العمل، ووعده بحسن المثوبة والجزاء إذا أطاع واتقى.(٢) إلا أن هذا التكريم لا يعنى عدم العمل، أو الانقطاع للعبادة فقط دون العمل لعمارة الدنيا، وتحقيق مصالحها، ومصالح الآخرة، ولكنه جعل عمارتها من العبادة إذا صدقت النية فيها.(٣)

سراجرن الله فان العمل مطلوب فى المجتمع الاسلامى، إذ لامجال للتعطل فيه، إذ ان تعاليم الاسلام تهدف الى مجتمع التشغيل الكامل لكافة افراد الأمة، وقد مدح رسول الله ﷺ من أكل من عمل يده فقال ﷺ : «أن اطيب ما أكل الرجل من كسبه، وأن ولده من كسبه» وقال ﷺ : «ما كسب الرجل كسبا اطيب من عمل يده...»(٤)، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقدم درجة الكسب على درجة الجهاد فيقول : لأن أموت بين شعبتى رحلى أضرب فى الأرض ابتغى من فضل الله أحب الى من أن اقتل مجاهدا فى سبيل الله لأن الله تعالى قدم الذين يضربون فى الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين بقوله تعالى ﴿وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرءوا ما تيسر منه﴾(٥)

---

(١) - سورة الاسراء الآية رقم ٧٠

(٢) - القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر القاهرة عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، المرجع السابق حـ١٠ ص٢٩٣

(٣) - محمد عبدالمنعم عفر، الاقتصاد التحليلى الاسلامى، التصرفات الفردية، دار حافظ للنشر والتوزيع، جدة عام ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ص٧٥/٧٦

(٤) - الحديثان: رواهما ابن ماجة فى سننه، انظر سنن ابن ماجة بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقى حـ٢ ص٧٢٣/٧٢٤،

(٥) - سورة المزمل الآية رقم ٢٠

وكان الرسول ﷺ يحث عليه ويوجه المسلمين اليه ويشاركهم بالتوجه العملى فى توفير فرص العمل للقادرين عليه والراغبين فيه فعن أنس رضى الله عنه أن رجلا أتى النبى ﷺ يسأله فقال : أما فى بيتك شىء قال بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه الماء، قال أئتنى بهما، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ وقال من يشتر هذين، قال رجل أنا آخذهما بدرهمين فاعطاهما إياه وأخذ الدرهمين، فأعطاهما الأنصارى ، وقال اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك واشتر بالآخر قدوما فأتنى به فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده، ثم قال اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوما، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما فقال رسول الله ﷺ : هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة. إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة لذى فقر مدقع، أو لذى غرم مفظع أو لذى دم موجع".(١)

وهكذا نجد الرسول الكريم ﷺ يوجه هذا الصحابى بضرورة عمله والتكسب من عمل يده والسعى فى الأرض واتخاذ الوسائل المتاحة طلبا للرزق.

ونظرا لأهمية العمل فى الاسلام فقد وضعت الشريعة الاسلامية ضوابط كثيرة ومتعددة لهذا العنصر الهام من عناصر الانتاج وتجدر الاشارة إلى أهم هذه الضوابط :-

---

(١) - رواه أبو داود، قال المنذرى : اخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه وقال الترمذى : حديث حسن

والحلس : كساء غليظ يلى ظهر البعير، والقعب : القدح، والقدوم : الفأس ، ومعنى مدقع : أى يفضى بصاحبه الى الدقعاء وهو التراب، والدم الموجع : أى المؤلم والمراد به هنا الدية على القاتل أو أوليائه وليس لديهم ما يؤدون به الدية. انظر محمد شمس الحق آبادى، عون المعبود، المرجع السابق جـ ٥ ص٥٣/٥٥

أ - وجوب الامانة والاتقان فى العملية الانتاجية :

الامانة صفة هامة من صفات المسلم، والعامل المسلم يجب أن يتصف بها، وعلى ذلك فالعامل المسلم لا يفشى سر عمله اذا ترتب على ذلك اضرار بالعمل أو صاحبه أو المجتمع الاسلامى، بل يحرم عليه ذلك، كما يجب ايضا أن يحافظ على أدوات عمله وآلات مصنعه باعتبارها أمانة فى يده، قال ﷺ : "من استعملناه على عمل، فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول"(١).

وعلى ذلك فالامانة ضابط هام فى شخص العامل المسلم، وهى هامة ايضا للقيام بأى نشاط اقتصادى إذ ان الامانة فى العمل هى أحد عوامل دفع عمليات الانتاج الى الامام ذلك لان الامانة تنبع من المراقبة لله عز وجل الذى يراه ويطلع عليه ولأن العمل يأخذ طابع العبادة اذا صدقت فيه النية كما أسلفنا القول، ولو تصورنا عاملا يهمل فى عمله أو يهمل فى آلاته أو يذيع اسرار عمله لأدركنا مدى ما يلحقه من أضرار بالأمة وضعف فى الانتاج. وارتفاع فى تكاليف الصيانة، وربما أدى ذلك الى ضرب سوق سلعة العمل الذى يعمل فيه ايضا، ومن ثم التقليل من العملية الانتاجية بصفة عامة.(٢) وعلى ذلك فالامانة فى الانتاج والعملية الانتاجية هى صفة هامة يجب أن يتحلى بها العامل المسلم. إذ هى تحفز الانتاج وتدعمه وتعود عليه بالزيادة.

لذا كانت الامانة من صفات المؤمنين فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : "لا إيمان لمن لا أمانة له ولا صلاة لمن لا طهور له".(٣) كما

---

(١) - رواه أبو داود والحاكم قال الشوكانى الحديث سكت عنه أبو داود والمنذرى ورجال اسناده ثقات. انظر الشوكانى، نيل الأوطار، المرجع السابق حـ٤ ص١٨٦ والغلول هو الخيانة فى المغنم والسرقة ابن الأثير النهاية حـ٣ ص٣٨٠

(٢) - عبدالهادى على النجار، الاسلام والاقتصاد، دراسة فى المنظور الاسلامى لابرز القضايا الاقتصادية والاجتماعية المعاصرة من منشورات المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب - جامعة الكويت عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ ص٣٨

(٣) - رواه الطبرانى، انظر الحافظ المنذرى، الترغيب والترهيب، مكتبة الارشاد ، حـ٤ ص٤٢

أن الخيانة تعد من صفات المنافقين فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، واذا اؤتمن خان». وزاد مسلم : «وان صام وصلى وزعم أنه مسلم»(١) الى غير ذلك من الأحاديث الدالة على أهمية الامانة ووجوب أن تكون من صفات المسلم، ولذا يجب أن يتحلى بها العامل المسلم لما لها من آثار هامة على زيادة وتنمية الانتاج.

كما أن اتقان العمل والنهوض به واجب ايضا على العامل المسلم قال ﷺ: «ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»(٢). وهذا الحديث يدل على ضرورة اتقان العمل وتحسينه، وتبعا لذلك فان المسلم مطالب بان يتحرى الاساليب العلمية الجديدة والتى من شأنها أن تؤدى الى اتقان صناعة السلعة وتحسينها وزيادتها، فهو مطالب بالتزود بالعلم فى كل ما يباشره من عمل، وقد أمره الله بذلك وفضل الذين يعلمون على الذين لا يعلمون قال تعالى : ﴿قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾(٣). وإذا كان من الواجب اتقان المنتجات وتحسينها فان وسيلة ذلك واجبة، وهى البحث العلمى عن كل جديد فى طرق الانتاج، وتطبيق الجديد منه، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

إذن فعلى العامل المسلم أن يتابع كل جديد من فنون الانتاج وأساليبه ويستخدم الجديد مادام يَفْضُل الاسلوب القديم، ومن ثم فان ذلك سيؤدى الى الارتقاء بمستوى الانتاج كما وكيفا.(٤)

---

(١) - المنذرى،الترغيب والترهيب، والحديث متفق عليه. انظر رياض الصالحين بتحقيق ناصر الدين الألبانى ص ٢٩٤، المرجع السابق حـ٤ ص٤٣

(٢) - رواه البيهقى فى شعب الايمان عن عائشة رضى الله عنها وقد ضعفه السيوطى، انظر السيوطى، الجامع الصغير فى احاديث البشير النذير، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م، بيروت، حـ١ ص٢٨٤.

(٣) - سورة الزمر الآية رقم ٩

(٤) - على عبدالرسول، المبادىء الاقتصادية فى الاسلام، المرجع السابق ص٤٠/٤١.

٢ - ضرورة مناسبة الأجر للعمل :

العامل يستحق أجره شرعا طالما أدى عمله كما يجب، وبما اتفق عليه مع رب العمل لكن يجب أن يتفق الأجر مع المجهود الذى بذله العامل. ولقد حث الاسلام على اعطاء الأجر للاجير فور الانتهاء من عمله قال ﷺ : «اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»(١)، ولا يجوز أن يكلف العامل اكثر من طاقته، إذ ان التكليف بما لا يطاق لا يصح شرعا قال تعالى : ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾(٢)، وإذا كان هذا فى مجال التكليف الشرعى فيكون فى مجال تعامل الناس بعضهم مع بعض من باب أولى. قال ﷺ فيما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أخوانكم، جعلهم الله تحت ايديكم فاطعموهم مما تأكلون، والبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم فأعينوهم».(٣) وإذا كان هذا فى شأن الارقاء الذين يلازمون أصحاب العمل فى المنزل فهو ايضا مقرر للعمال الذين لا يقيمون مع رب العمل، فالعلاقة بين العامل ورب العمل هى الأخوة الاسلامية والمصلحة المشتركة لكلا الطرفين.(٤)

وان يقرر الاسلام الأجرة المناسبة للعامل، وعدم تكليفه بما لا يطاق فإنه مما لاشك فيه أن ذلك سيعود بالمنفعة الكثيرة على رب العمل وسوف يدفع ذلك العامل ليضاعف المجهود، ويتقن العمل، والذى من شأنه أن يعود على العملية الانتاجية فتتحقق الزيادة فى الانتاج وهو الأمر الذى سيساعد على زيادة معدل النمو الاقتصادى ويصاحب ذلك بالطبع ارتفاع فى مستويات المعيشة للسكان بشكل عام.

---

(١) - رواه ابن ماجة فى سننه، انظر سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، المرجع السابق حـ٢ ص٨١٧، وقد ذكر المحقق أن أصله فى البخارى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه لكنه ضعيف الاسناد

(٢) - سورة البقرة الآية رقم ٢٨٦

(٣) - رواه ابن ماجه فى سننه. انظر سنن ابن ماجة، المرجع السابق حـ٢ ص١٢١٦

(٤) - د. عبدالهادى على النجار، الاسلام والاقتصاد، المرجع السابق ص٣٦/٣٧

٣ - ضرورة توفير أسباب الراحة للعاملين :

حرص الاسلام على توفير أسباب الراحة للعاملين، وقد نبه إلى ذلك الرسول الكريم بقوله ﷺ : «من كان لنا عاملا فليكتسب زوجة فان لم يكن له خادم فليكتسب خادما، فان لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنا»(١) وفى الحديث اشارة الى ضرورة توفير وسائل الحياة السعيدة ووسائل الاستقرار النفسى للعامل . وما من شك فى أن توفير مثل ذلك ينعكس على عمل العامل فيحقق زيادة فى الانتاج بعكس الحال مما لو لم تتوفر مثل تلك الراحة، ويدخل فى ذلك ايضا شتى الوسائل الأخرى التى تضمن وسائل الراحة المختلفة، والاستقرار العام للعامل والتى من شأنها أن تحقق زيادة الانتاج ورفاهية المجتمع.(٢)

٤ - ضرورة محاسبة العمال على تقصيرهم :

لم يكتف الاسلام بالتأكيد على أهمية اتصاف العامل بالامانة وحسن اداء العمل واتقانه - كما سبق أن أشرنا - إذ ليس كل الناس سواء فى أداء الأمانة فمنهم من يؤدى العمل ويتقنه اداء لحق الأمانة ومخافة الله وتوفية للأجر، ورغبة فى تحقيق أوامر الشرع، والبعض الآخر لا يكفيه أسلوب الترغيب فيأتى التشريع بالاسلوب الآخر وهو المحاسبة والترهيب لذا جعل من الضوابط الشرعية محاسبة العمال عند حدوث التقصير والاهمال والاساءة فى استعمال السلطة التى كلف بها، وقد حاسب الرسول ﷺ ولاته وعماله فقد روى عن عروة عن أبى حميد الساعدى أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا، فجاء يقول هذا لكم وهذا أهدى الى، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله واثنى عليه، ثم قال : «ما بال العامل نبعثه فيقول هذا لكم وهذا اهدى الي، أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر هل يهدى اليه أم لا؟»(٣) وكذلك فعل خلفاؤه ﷺ من بعده، كما

---

(١) - أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وأبو داود فى باب ارزاق العمال والحديث سكت عنه المنذرى، عون المعبود شرح سنن أبى داود، المرجع السابق حـ٨ ص١٦١/١٦٢

(٢) - محمد سعيد ناجى، سياسات التصنيع، المرجع السابق ص٤٣

(٣) - أبو عبيد، الأموال، المرجع السابق ص٣٣٨ بند رقم ٦٥٦، والحديث رواه البخارى ومسلم والرجل هو ابن اللتبية الأزدى واسمه عبدالله، انظر صحيح مسلم بشرح النووى، المرجع السابق حـ٢ ص١٨/٢١٩

أرسى الفقهاء قاعدة تضمين الصناع عملا بمبدأ المصلحة المرسلة أى أنهم يضمنون ما بأيديهم إذا فرطوا أو اتلفوا ويطالبون بالعوض، والناظر فى عقود المعاملات الاسلامية يجد أن الفقهاء كثيرا ما تعرضوا لمشكلة التقصير والضمان.(١) كما سبق ان ذكرنا أن المتعدى عليه الضمان(٢)

وتجدر الاشارة الى أن الاسلام يمتاز عن النظم الوضعية من حيث اعطاء الحوافز للعامل حيث يوفر له الاسلام الحوافز المادية والمعنوية لتشجيعه على العمل وزيادة الانتاج، ويستحق فوق ذلك الثواب والأجر فى الآخرة، إذا صدقت النية مع الله، وطلب العمل للزرق وارضاء الرب جل وعلا قال النبى ﷺ : «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده وأن بنى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»(٣). زد على ذلك أن الاسلام دعا الى الحركة والنشاط ونهى عن القعود والكسل كما نهى عن المسألة قال ﷺ : «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه».(٤)

كما أن الاسلام فتح مجالات كثيرة للعمل فى الزراعة والصناعة والتجارة، وعلى العامل أن يسعى للعمل ويتقنه حسب استطاعته، لتتحقق بذلك الزيادة فى الانتاج. كما يجب على الدولة المسلمة أن تؤمن الحماية لأصحاب الأعمال وتسهل أسباب الكسب الحلال فى أمن وطمأنينة، وفى ظل تعاليم الاسلام يجد العامل حقه كاملا بدون نقصان ويحصل رب العمل على اكبر طاقة من الانتاج.(٥)

---

(١) - عبدالهادى على النجار، الاسلام والاقتصاد، المرجع السابق ص٣٩/٤٠، محمد سعيد ناجى، سياسات التصنيع، المرجع السابق ص٤٣

(٢) - راجع ص٥٤ من هذا البحث.

(٣) - رواه البخارى، انظر صحيح البخارى، المرجع السابق حـ٣ ص٧٥

(٤) - رواه البخارى، المرجع السابق حـ٣ ص٧٥

(٥) - عبدالله المصلح، الملكية الخاصة، المرجع السابق ص٨٥/٨٦

د - ضوابط التنظيم :

المنظم هو الشخص أو الهيئة التى تعمل على التوفيق بين عناصر الانتاج وتوجيهها الوجهة التى تراها بغية تحقيق اقصى ربح متحملا فى ذلك مخاطر الانتاج المختلفة. ومن المعلوم أن الفرد لا يقوم بسد حاجاته بمجهوداته المباشرة وإنما يتعاون مع غيره وبما توفر له من عناصر الانتاج المختلفة من آلات ومعدات وأرض ورأس مال وعمل وما الى ذلك فى سبيل انتاج السلع اللازمة له، وللافراد الآخرين.

وقد يملك المنظم واحدا أو أكثر من عوامل الانتاج، وقد يقوم باستئجار العوامل التى تنقصه، وقد لا يمتلك المنظم شيئا من عوامل الانتاج البتة، فيقوم باستئجارها كلها. ويتعاقد المنظم عادة على دفع قدر ثابت من النقود لعوامل الانتاج التى يستأجرها فيتعاقد مع مالك الأرض على دفع عائد عنصر الأرض ويعرف بالريع وقد يكون شهريا أو سنويا. ومع العمال على دفع معدلات ثابتة من الأجور، ومع المصرف على دفع فائدة دورية على رأس المال(١) - فى النظم الوضعية - أما فى الاسلام فقد يدفع المنظم ايجارا، وقد يجعل له جزء من إنتاج الأرض حسب الاتفاق المبرم بينهما، وربما يدفع للعمال أجورا نقدية أو عينية. أما الفائدة فلا مجال لها فى المعاملات الاسلامية. والادارة أو التنظيم ما هى إلا نوع من أنواع العمل فى المنهج الاسلامى،ولكنه يتميز بصفات خاصة لها أهمية كبرى فى عمليات الانتاج، لذا فان الاقتصاديين يفضلون اعتباره عنصرا مستقلا، وهذه الادارة تكون مسئولة عن اصدار القرارات الخاصة بكمية الانتاج وكيفية الانتاج وغيرها من القرارات المتعلقة بعمليات التسويق، وغالبا ما تقع مسئولية نجاح المشروع أو فشله على مدى قدرة الادارة وكفاءتها.(٢)

---

(١) - أحمد أبو اسماعيل، أصول الاقتصاد، المرجع السابق ص١٢٧

(٢) - محمد جلال الدين أبو الدهب، أصول علم الاقتصاد، المرجع الساق ص٢٨

وعلى ذلك فان عمل المنظم أو الادارة يتعلق بأمور كثيرة فى العملية الانتاجية فمنها ما يتعلق بنوعية العملية الانتاجية التى سيدخلها، والسلع أو الخدمات التى سينتجها، وحجم المنشأة أو المشروع الذى سيدخل فيه، والمكان الذى سيبدأ منه العمل الانتاجى، وطريقة الانتاج، والشكل القانونى أو الفقهى للانتاج فى مجال المعاملات الاسلامية.(١)

والتنظيم والادارة من العناصر الهامة لعوامل الانتاج، إذ أنه لا يكفى عنصر العمل فقط فى العملية الانتاجية، ولكن يجب أن يكون هذا الجهد منظما على نحو معين يكون العمل فيه منتجا، فلابد وأن يكون خاضعا لحد أدنى من التنظيم، إذ بغير هذا التنظيم يعتبر الجهد الانسانى ضربا من العبث... والنظرة الاسلامية للعمل تقوم دائما على عدم الفصل بين العمل والتنظيم فكلاهما ضرورى للآخر، ويقوم التنظيم على مستويين : تنظيم فنى وتنظيم اداري... وكلاهما لازم لقيام الانتاج وتقدمه.(٢) ولذلك اهتم المسلمون الأوائل بعنصر العمل ووضعوا لتنظيم العمل الادارى أفضل العناصر ايضا. فقد كان لا يختار القائمون على رأس العمل ايا كان نوعه إلا بضوابط معينة تقدمت الاشارة الى بعض منها عند الحديث عن العمل، وتجدر الاشارة الى بعضها الآخر ذات الصلة الوثيقة بتنظيم العمل وأدائه.

١ - تعيين الاصلح للعمل :

وهذا ضابط هام فى عملية التنظيم فى المنهج الاسلامى، إذ ان الواجب شرعا تعيين الاصلح كفاءة وخبرة وعلما، والاصلح فى كل منصب بحسب ما يراه أهل الخبرة فى هذا المجال. فاذا لم يوجد من تتوفر فيه الشروط، عين خير الموجودين ذلك بأنه لا تكليف بغير المستطاع. وقد قال ابن عبد السلام فى كتابه

---

(١) أحمد أبو اسماعيل، أصول الاقتصاد، المرجع السابق ص١٢٩/١٣٠

(٢) - ابراهيم دسوقى اباظة، الاقتصاد الاسلامى مقوماته ومنهاجه - دار لسان العرب - لبنان ص٦٨

قواعد الاحكام : «إنما تنصب الولاة فى كل ولاية عامة أو خاصة للقيام بجلب مصالح المولى عليهم، وبدرء المفاسد عنهم، لذلك يجب تعيين الاصلح... إلا أن يكون هذا الاصلح بغيضا للناس، أو محتقرا عندهم ويكون الصالح محببا اليهم، عظيما فى أعينهم فيقدم الصالح على الأصلح»(١) ويلاحظ هنا أن المفاضلة بين الصالح والاصلح وليس بين الصالح والفاسد.

ولقد كان الرسول ﷺ يتخير عماله ممن عرفوا بالصلاح والامانة والعلم والفطنة والكفاءة، وكذلك خلفاؤه من بعده يصنعون ذلك، وتأكيدا لذلك قال ﷺ : «أيما رجل استعمل رجلا على عشرة انفس علم أن فى العشرة افضل ممن استعمل فقد غش الله ورسوله وغش جماعة المسلمين»(٢). وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال « لو علمت أن أحدا من الناس أقوى عليه منى - يعنى الولاية - لكنت اقدم فتضرب عنقى احب الى من أن أليه»(٣)

قلت : وان كان ذلك فى الولاية فان ذلك ينطبق على كل من تولى عملا من الاعمال سواء أكان خاصا أم عاما، ولا يمكن أن نتصور شرعا اشتراط تعيين الاصلح فى الولاية دون غيرها من الأعمال، ولاسيما الأعمال التى تعود بالنفع على عامة المسلمين، فان قواعد الاسلام وتشريعاته جاءت لجلب المصالح للأنسان أو تكميلها ودفع المفاسد عنه أو تقليلها. وعليه فان تنظيم العمل واختيار الكفاءات فيه أمر مطلوب عقلا، فضلا عن أن يكون واجبا تقتضيه قواعد الشريعة وأحكامها.

---

(١) - ابن عبدالسلام، قواعد الأحكام فى مصالح الانام، راجعه وعلق عليه طه عبدالرءوف سعد طبعة دار الشرق للطباعة ونشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م حـ١ ص٧٤

(٢) - رواه أبو يعلى فى مسنده عن حذيفة بسند ضعيف، أنظر ضعيف الجامع الصغير وزياداته للسيوطى تحقيق وترتيب وتخريج ناصر الدين الالبانى الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ، نشر المكتب الاسلامى حـ٢ ص٢٦٥

(٣) - ابن سعد، الطبقات الكبرى، نشر دار بيروت للطباعه والنشر بيروت لبنان طبعة عام ١٣٩٨هـ حـ ٣ ص٢٧٥

٢ - يجب تحديد عمل المنظم :

ومن ضوابط التنظيم ايضا وجوب تحديد وتنظيم الاعمال فيحدد العمل الموكول الى المنظم، إذ ان من حقه أن يحدد للعامل العمل الذى سيقوم به، وحجمه هل هو مشروع صغير أو كبير، ونوع السلع والخدمات التى سيشرف على انتاجها وازاء كل ذلك فان الضوابط الشرعية التى تحكم العمل هى نفسها التى تطبق على التنظيم إذ ان الحدود بينهما واحدة لأن الأعمال تتطور وتتطلب مهارات واتقاناً وتدريباً وتعليماً وثقافة، وأصبح التنظيم فى ظل ذلك عملا يستحق عائدا كغيره من الأعمال سواء فى ادارات انتاج أو تسويق أو بحوث أو غيرها، ولم يعد عائد التنظيم قاصرا على الربح بل قد يحصل ايضا على «اجر» طالما أنه يؤدى بعض الاعمال الادارية بجانب وظيفته التنظيمية.

وبعد أن بينا أهم الضوابط الشرعية التى تحكم الانتاج وعناصره المختلفة ننتقل الآن الى بيان أهم الضوابط الشرعية التى تحكم التجارة والاسواق وهى كما يلى :-

ثانياً أهم الضوابط الشرعية التى تنظم الاسواق وتحكم التجارة :

وضع التشريع الاسلامى مجموعة من الضوابط التى تنظم الاسواق وتحكم النشاط التجارى بشكل عام فى المجتمع الاسلامى. وهذه الضوابط متعددة وكثيرة يصعب حصرها ويحاول الباحث هنا أن يبين أهم هذه الضوابط لما لها من أثر هام على كافة الأنشطة الاقتصادية الأخرى وهى كما يلى :-

أ - تحريم الربا(١):

من الضوابط الشرعية التى وضعت لتنظيم التجارة والأسواق والمعاملات المالية بشكل عام فى ظل النظام الاسلامى تحريم الربا بجميع أشكاله النسيئة، والفضل، قليلة وكثيرة، وقد انذر الله عز وجل المرابين بأشبع

---

(١) - الربا فى اللغة الزيادة يقال: ربا الشىء اذا زاد ومنه قوله تعالى ﴿أن تكون أمة هى أربى من أمة﴾ سورة النحل الآية رقم ٩٢ أى: اكثر عددا يقال: اربى فلان على فلان اذا زاد عليه. وفى الاصطلاح : هو الزيادة فى اشياء مخصوصة، انظر ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق جـ٤ ص٣، وهو نوعان : ربا النسيئة وهو البيع لأجل أو بمعنى آخر الزيادة فى مقابل الانتظار أو الاجل. وربا الفضل : هو البيع مع زيادة أحد العوضين أى الزيادة التى يأخذها الرجل من صاحبه عند تبادل شىء مماثل يدا بيد، كأن يبيع ذهبا بذهب أو تمرا بتمر...الخ مع الزيادة ، وكلاهما أجمع أهل العلم على حرمته. ، انظر ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق جـ٤ ص٣.

مصير فيقول الله تعالى : ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل الله البيع وحرم الربا، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.(١) ويقول : ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا ، فأذنوا بحرب من الله ورسوله وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون﴾.(٢) وأية عقوبة أغلظ وأشد من اعلان الحرب/ من الله ورسوله على المرابين، انها عقوبة شديدة وفظيعة(٣). وَمَنْ المعلن لهذه الحرب إنه الله ذو القوة المتين. وقد لعن الرسول ﷺ كل من يشارك فى صفقة من صفقاته حتى ولو كان كاتبا أو شاهدا ، فعن جابر - رضى الله عنه - قال: «لعن رسول الله ﷺ : آكل الربا وموكله، وكاتبه، وشاهده وقال هم سواء».(٤) كما أن حرمته فاقت حرمة الزنا حيث قال ﷺ : «درهم ربا يأكله رجل وهو يعلم شر من ست وثلاثين زنية»(٥) الى غير ذلك من الأدلة على تحريمه، فهو محرم سواء أكان نسيئة أم فضلا، فالنسيئة : هو البيع لأجل، والفضل هو البيع مع زيادة أحد العوضين عن الآخر.(٦) وعلى ذلك فالقرض نظير فائدة محرم وكذلك كل زيادة خالية عن العوض فى مبادلة مال بمال من نفس جنسه محرم ايضا، قال ﷺ : « الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلا بمثل، سواء بسواء يدا بيد فمن زاد أو استزاد فقد أربى، فاذا اختلفت هذه الاجناس فبيعوا كيف شئتم اذا كان يدا بيد».(٧) فإذا اختلفت المبادلات والمقايضات كذهب بفضة أو بقماش، أو بقمح فلا شىء فيها.

---

(١) - سورة البقرة الآية رقم ٢٧٥

(٢) - سورة البقرة الآية رقم ٢٧٨/٢٧٩

(٣) - د. عبدالله المصلح، الملكية الخاصة، المرجع السابق ص١٤٨

(٤) - رواه مسلم وغيره، صحيح مسلم بشرح النووى، المرجع السابق حـ١١ ص٢٦

(٥) - رواه أحمد والطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الصحيح، المنذرى : الترغيب والترهيب، دار الفكر بيروت حـ٤ ص٨٣

(٦) - محمد الشربينى الخطيب، مغنى المحتاج الى معرفة الفاظ المنهاج، مطبعة الحلبى عام ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م حـ٢ ص٢١

(٧) - رواه مسلم، صحيح مسلم بشرح النووى، المرجع السابق حـ١١ ص١٤/١٥

وخطورة الربا لا تخفى فهو كسب بلا تعب ولا جهد يتضخم به رأس مال المرابى على حساب الآخرين بعيدا عن الخسارة، وفائدة المرابى الظاهرة مضمونة ينالها فى كل حال، وخطره يمتد الى الفرد والجماعة، إذ يؤدى الى تركيز الأموال فى أيدى قلة من الناس.

وقد استشرى الربا فى عالمنا المعاصر ، واصبح وسيلة للضغط على الشعوب واستعبادها والسيطرة على سلطاتها السياسية ومقدراتها الاقتصادية، كذلك لا تخفى آثاره السلبية على الاقتصاد، فهو يؤدى الى ارتفاع اسعار السلع والخدمات المختلفة نظرا لاضافة المقترض الفائدة ضمن تكاليف الانتاج، كما أنه يؤدى الى تقاعس الافراد عن القيام بالمشروعات الانتاجية التى تزيد من الطاقة الانتاجية للاقتصاد الكلى والاكتفاء بالحصول على دخل ثابت دون مشاركة فعلية فى العملية الانتاجية، وبالتالى ظهور الاتجاهات الاحتكارية فى السوق. لكل ذلك وغيره مما لا يتسع المجال لذكره حرم الاسلام الربا وجعل من اساسيات التعامل والتبادل عدم وجوده فى المجتمع وذلك تحقيقا لمصلحة الفرد والمجتمع.

وبناء على ذلك فان تحريم الربا هو أحد الضوابط الشرعية التى تنظم التجارة والتعاملات داخل الأسواق الاسلامية.(١)

ب - تحريم الاحتكار :

من الضوابط الشرعية التى وضعت لحماية المستهلك من الاستغلال، وحماية التاجر من الكسب الحرام، تحريم الاحتكار قال ﷺ : «من احتكر فهو خاطىء»(٢) وقال : «من دخل فى شىء من اسعار المسلمين ليغليه عليهم كان حقا

---

(١) - عبدالمجيد الجلال، الانتاج فى الاسلام، المرجع السابق ص٢٧٣

(٢) - رواه مسلم، صحيح مسلم مع شرح النووى، المرجع السابق حـ١١ ص٤٣

على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة»(١) وقال ﷺ : « الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون»(٢) ٠

وكل هذه النصوص وغيرها تؤكد حرمة الاحتكار بمعنى حبس الاقوات والسلع ومن ثم ارتفاع اسعارها، واستغلال ضوائق الناس وبالتالى الحاق الضرر بهم٠ وقد أجمع أهل العلم على أنه لو كان عند انسان طعام، واضطر الناس اليه ولم يجدوا غيره أجبر على بيعه دفعا للضرر عن الناس٠(٣)

وضمانا للاستثمار وتحقيقا للمنافسة الحرة البناءة منع الاسلام الاحتكار بشتى الوانه سواء أكان من المشترى أم البائع، والذى يقصد من تصرفه تحقيق الربح بأى وسيلة، ولو كان فيها مضرة للناس، أما المحتكر الذى لا يضيق على الناس ولا يلحق بهم الضرر فليس عليه شىء، ويدخل فى الاحتكار ايضا عمل البائعين والعاملين فى مجال التسويق، والانتاج، والتمويل على حد سواء فقد ينتج المنتج أو المزارع ويحتكر ما انتجه فهو ايضا داخل ضمن المحتكرين الذين توعدوا بما سبق من عقاب(٤) وقد وردت النصوص العديدة لتمنع الاحتكار وتقاومه، والتاجر المسلم مطالب بالجلب (الاستيراد) للسلع المختلفة التى يحتاجها مجتمعه، ذلك بأن زيادة المعروض من السلع بصفة عامة يؤدى الى الحد بصورة كبيرة من التصرفات الاحتكارية، ومن هنا ينبغى العمل على تشجيع استيراد السلع التى يحتاجها المجتمع الاسلامى بعد ثبوت عدم قدرته على انتاج تلك السلعة المستوردة٠

وحفاظا على ذلك جاءت التشريعات الاقتصادية الاسلامية لتزيل كل التصرفات التى تؤدى الى تفشى العمليات الاحتكارية داخل المجتمع الاسلامى٠ فعن سعيد بن المسيب : «أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه مر

---

(١) - أخرجه الطبرانى فى الكبير والاوسط، وقال فى مجمع الزوائد ولم أجد من ترجم له وبقية رجاله رجال الصحيح، انظر الشوكانى، نيل الأوطار، المرجع السابق حـ٥ ص٢٢٠/٢٢١

(٢) - رواه ابن ماجة فى سننه، انظر سنن ابن ماجة، المرجع السابق حـ٢ ص٧٢٨ وقال محمد فؤاد عبدالباقى فى تحقيقه فى اسناده على بن زيد بن جدعان وهو ضعيف٠

(٣) - النووى، صحيح مسلم بشرح النووى، المرجع السابق حـ١١ ص٤٣

(٤) - خلف النمرى، التنمية الزراعية، المرجع السابق حـ١ ص٣٣٩

بحاطب بن أبى بلتعة وهو يبيع زبيبا له بالسوق فقال له عمر : أما أن تزيد فى السعر، وأما أن ترفع من سوقنا»(١)، وهذا الموقف من عمر رضى الله عنه مهم حيث إنه خاف أن يؤدى هذا التصرف الى التأثير على الاستيراد فقد كانت هناك قافلة قادمة من الطائف محملة بالزبيب، فاذا شعر التجار بأنهم قد لا يحققون ارباحا معقولة فى عملية تصريف منتجاتهم فقد يحجمون عن العودة مرة أخرى مما يؤدى الى انخفاض نسبى فى المنتجات المستوردة، ومن ثم انخفاض المعروض منها داخل السوق مما يفتح المجال لظهور التصرفات الاحتكارية، وكذلك نهى الرسول ﷺ عن تلقى الركبان وغيرها من الاساليب التى تستهدف ضمان وصول السلع أو المنتجات الى السوق دون أن ينفرد بها أحد أو قلة من المتلقين، مما يسهم بالتالى فى اتساع السوق وتضاءل الفرص الاحتكارية.(٢) وعلى ذلك فان تحريم الاحتكار يعد أحد الضوابط الشرعية التى تنظم السوق وتتجه به نحو المنافسة الحرة البناءة التى يتحقق فيها ضمان زيادة المعروض من السلع بكميات كبيرة لا تعطى الفرصة لأحد لاحتكار بيعها، لتوفر عدد كبير من المنافسين فى السوق.

حـ - تحريم الغرر والغش فى كافة المعاملات الاسلامية :

من المفروض فى السوق الاسلامية أن تكون خالية من أى نوع من أنواع الغش والخداع والغرر وحب الذات لذا نهى التشريع الاسلامى عن كافة أساليب الكسب المحرم، وجعل من الضوابط الهامة التى تحكم مختلف المعاملات والمبادلات الاسلامية، تحريم الغرر والغش وما شاكلهما داخل المجتمع الاسلامى هذا وقد عرف بعض العلماء الغرر(٣) بأنه : ما انطوى عنك أمره، وخفى عليك عاقبته. كبيع العبد الآبق، والطير فى الهواء، والسمك فى الماء، والغائب المجهول أو المعجوز عن تسليمه.

---

(١) - رواه البيهقى، انظر السنن الكبرى، طبعة دار صادر بيروت حـ٦ ص٢٩، وانظر ابن القيم الطرق الحكمية، طبعة مكتبة المدنى، القاهرة ص٣٣٨

(٢) - عبدالمجيد الجلال، الانتاج فى الاسلام، المرجع السابق ص٢٤٢/٢٥١

(٣) - النووى، المجموع، المرجع السابق حـ٩ ص٢٨٠

وقال الخطابى : أصل الغرر هو ما طوى عنك علمه وخفى عليك باطنه،

وكل بيع كان المقصود منه مجهولا غير معلوم أو معجوزا عنه غير مقدور عليه فهو غرر، وانما نهى النبى ﷺ عن بيع الغرر تحصينا للأموال أن تضيع، وقطعا للخصومة بين الناس.(١) ويستثنى منه ما يلى:-

أ - الغرر اليسير الذى تدعو اليه الحاجة كبيع الدار مع الجهل باساسها وبيع الدابة الحامل، ولا يعرف ما هو حملها، والتى فى ضرعها لبن ولا يعرف مقداره، وبيع المغيبات فى الأرض كالجزر والثوم والبصل وغيرها.

ب - ويعفى ايضا عن الغرر الذى يتسامح فيه عادة اما لحقارته، أو للمشقة فى تمييزه وتعيينه كاجارة الدابة أو الدار شهرا والشهر يكون ثلاثين يوما أو تسعة وعشرين فانه يغتفر.

ويدخل ضمن بيع الغرر كل بيع فيه جهالة غير ما استثنى، لما روى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغرر» ولما روى عن على - رضى الله عنه - قال : «نهى رسول الله ﷺ عن بيع الغرر، وبيع الحصاة».(٢)

كما نهى عن بيع الثمار قبل بدو صلاحها فعن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن النبى ﷺ : «نهى عن بيع الثمار حتى تبدو صلاحها نهى البائع والمشترى»(٣).

كما نهى التشريع الاسلامى عن الغش التجارى ومسبباته ايضا فهو من الغرر،

---

(١) - محمد شمس الحق آبادى، عون المعبود، المرجع السابق حـ٩ ص٢٣٠

(٢) - أخرجهما أبو داود وغيره، انظر محمد شمس الحق آبادى، عون المعبود، المرجع السابق حـ٩ ص٢٣٠ وبيع الحصاة له صور كثيرة منها أن يقول له بعتك من هذه الارض ما انتهت اليه الحصاة أو ما وقعت عليه الحصاة وما أشبه ذلك.

(٣) - رواه أبو داود وغيره، أنظر محمد شمس الحق آبادى، عون المعبود شرح سنن أبى داود، المرجع السابق قال المنذرى أخرجه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجة حـ٩ ص٢٢١/٢٢٢.

إن السوق الاسلامية لا تعرف الكذب والخداع والمناجشات، إذ هى سوق تعمل فى ظل تفاعل قوى العرض والطلب وقد تضمن التشريع الاسلامى كثيرا من التعاليم التى من شأنها تحقيق ذلك منها ما يلى :

١ - ما روى عن عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما - ان رسول الله ﷺ قال : «لايبع بعضكم على بيع بعض، ولا تلقوا السلع حتى يهبط بها الاسواق»٠(١)

٢ - كما نهى النبى ﷺ عن النجش فعن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ: «لا تناجشوا»٠(٢)

٣ - ونهى النبى ﷺ ايضا فيما رواه ابن عباس قال : «نهى رسول الله ﷺ : أن يبيع حاضر لباد، فقلت ما يبيع حاضر لباد قال : لا يكون له سمسارا»٠ وفى رواية أخرى عن أنس بن مالك : «لايبيع حاضر لباد وان كان أخاه أو أباه»٠(٣)

٤ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لاتلقوا الركبان للبيع، ولايبع بعضكم على بيع بعض، ولا تصروا الابل والغنم، فمن ابتاعها بعد ذلك فهو بخير النظرين بعد أن يحلبها فان رضيها أمسكها، وان سخطها ردها وصاعا من تمر»٠(٤)

قلت: والغرر والغش هو الخداع مطلقا سواء أكان فى أصل الشىء أو صفته أم سعره أم غيرها، فمن الغرر والغش بيع الشىء الذى لا يمكن تسليمه أو تجهل عاقبته، أو بيع الشىء بغير صفته الحقيقية، أو بيعه بسعر غير سعره الحقيقى فى السوق على أنه السعر السائد لتغرير المشترى بسعر أعلى٠

---

(١) - رواه أبو داود وغيره، انظر محمد شمس الحق آبادى، عون المعبود، المرجع السابق حـ٩ ص٣٠٢

(٢) - النجش كما قال الخطابى : ان يرى الرجل السلع تباع فيزيد ثمنها وهو لا يريد شراءها، وانما يريد المزايدة فيها، والحديث رواه أبو داود وغيره، انظر محمد شمس الحق آبادى، المرجع السابق، حـ٩ ص٣٠٤/٣٠٥

(٣) - السمسار هو الدلال، والحديث رواه أبو داود وغيره، انظر محمد شمس الحق آبادى، المرجع السابق حـ٩ ص٣٠٥/٣٠٦

(٤) - التصرية معناها كما قال الشافعى هى ربط اخلاف الشاة أو الناقة وترك حلبها حتى يجتمع لبنها فيكثر فيظن المشترى ان ذلك عادتها فيزيد من ثمنها لما يرى من كثرة اللبن وهو غش، انظر محمد شمس الحق، عون المعبود، المرجع السابق حـ٩ ص٣١٠/٣١١

لذا فان هذا الضابط يعد من الضوابط الهامة فى التشريع الاسلامى لكل المبادلات والمعاوضات التجارية وغيرها فإذا بنيت أى مبادلة تجارية على غرر أو غش بأى صفة كانت فهى داخلة فى النهى الذى ورد عن النبى ﷺ إذ أن الغرر والغش نوع من المقامرة التى لا تنتهى عادة إلا بخلاف بين المتعاقدين كما أنهما مصدران للتشاحن والبغضاء بين الناس مما يفسد أحوال المجتمع، ويفتح أبواب الشرور عليه ويقوض الطمأنينة والاستقرار فيه وبالتالى يفتح باب المفاسد العظيمة فى المعاملات والتى يجب تجنبها لتسود التعاملات والمبادلات فى الأسواق الاسلامية على المحبة والأخاء بعيدة عن أسباب التشاحن والعداوة. لكنه مع ذلك إذا حدث خلاف بين المتعاملين فى بيع أو شراء فان التشريع الاسلامى يوجب الرجوع الى الثمن العادل للسلعة أو الأجرة - اذا كان أجرا - والثمن العادل هو الذى لا يجحف بالبائع أو المشترى أو الأجير والمستأجر، فلا ضرر ولا ضرار، كما أنه ليس من حق أحد أن يتدخل لتحديد الاسعار أو التقليل منها إلا إذا كانت هناك ظروف اضطرارية تضر بالمجتمع كافة، وفى كل الأحوال فان الثمن العادل هو الفيصل النهائى فى التشريع الاسلامى، إذا ما حصل خلاف بين طرفين فى أى نشاط اقتصادى.(١)

د - وجوب المنافسة الحرة البناءة :

تقوم الأسواق الاسلامية على أساس المنافسة الحرة البناءة ويعد ذلك من الضوابط الشرعية الهامة التى تستفاد من التشريعات الخاصة بنظام السوق والتجارة فى المنهج الاسلامى. فالاسلام يدعو بصفة عامة الى المنافسة الحرة فى جميع مجالات الحياة الاقتصادية(٢). فيدعو الى المنافسة التى تنصب على التسابق فى الخير لكل من البائع والمشترى بحيث يتمكن

---

(١) - على عبدالرسول، المبادى الاقتصادية، المرجع السابق ص١٠٧/١٠٨

(٢) - منان، ترجمة منصور ابراهيم التركى، الاقتصاد الاسلامى بين النظرية والتطبيق، دراسة مقارنة ترجمة : منصور التركى، المرجع السابق ص١٧٥

المستهلك من الحصول على مطالبه من السلع والخدمات بثمن مناسب فهذه حسنات يقدمها المنتجون والعاملون الى مجتمعهم والتسابق فيما بين المسلمين فيها أمر محمود ومطلوب، ويجب أن تكون المنافسة فى ظل تعاليم الاسلام التى تتسم بالرفق والبر والاخلاق القويمة بعيدة عن ايذاء الناس والايقاع بهم فى المنافسة التى تخرجهم عن دائرة السوق الاسلامية واخلاقها وتؤدى الى أكل أموال الناس بالباطل . فتلك اسواق يقصد بها ايقاع الضرر، وقد وضع الاسلام للاسواق قواعد وضوابط من شأنها أن تحمى التاجر والمستهلك من الوقوع فى الضرر فعن عبادة بن الصامت، أن رسول الله ﷺ قضى : «لا ضرر ولا ضرار»(١) وقال ﷺ : «لايبيع أحدكم على بيع أخيه، ولايسوم على سومه»(٢). كذلك لا يجيز التشريع الاسلامى المنافسة القائمة على الغش والخداع - والتى سبق أن أشرنا اليها - والدعاية غير الحقيقية ونشر البيانات الكاذبة قال ﷺ : «من غش أمتى فليس منى»(٣). كذلك يترك التشريع الاسلامى السوق الاسلامية تتحدد الأثمان فيها على اساس قوى العرض والطلب، فقد طلب البعض من رسول الله ﷺ ان يسعرلهم فقال ﷺ : «ان الله هو المسعر القابض الباسط الرزاق وانى لارجو ان القى الله وليس احد منكم يطالبنى بمظلمة فى دم ولا مال»(٤).

وخلاصة القول أن احد الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية فى الأسواق والتجارة المنافسة الحرة البناءة التى يجنى منها الأفراد والمجتمع ثمارها دون ضرر أو اضرار، ولولى الأمر حق التدخل اذا لم تتحقق المنافسة البناءة فى الأسواق. فإذا وجدت بعض التصرفات الاحتكارية فى الأسواق تدخل ولى الأمر لاجبار المحتكر على بيع ما احتكره من سلع ومنتجات اقتصادية بثمن المثل لما فى ذلك من وقوع الضرر بافراد المجتمع.

---

(١) - رواه ابن ماجة، سنن ابن ماجة، المرجع السابق، قال المحقق (محمد فؤاد عبدالباقى)، فى تحقيقه فى الزوائد فى حديث عبادة هذا اسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع، لأن اسحاق بن الوليد لم يدرك عبادة بن الصامت كما قال الترمذى وابن عدى أما البخارى فقال لم يلق عبادة. حـ ٢/ص٧٨٤

(٢) - رواه ابن ماجة، سنن ابن ماجة، المرجع السابق حـ٢ ص٧٣٤

(٣) - رواه مسلم، صحيح مسلم بشرح النووى، المرجع السابق حـ٣ ص١٠٩

(٤) - رواه أبو داود، انظر محمد شمس الحق، عون المعبود، المرجع السابق حـ٩ ص٣٢٠

يقول ابن القيم رحمه الله : «...فان المحتكر الذى يعمد الى شراء ما يحتاج اليه الناس من الطعام فيحبسه عنهم ويريد اغلاءه عليهم : هو ظالم لعموم الناس. ولهذا كان لولى الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل، عند ضرورة الناس اليه»(١) أو يسعر عليهم بالسعر الذى لا يخل بمصلحة الاطراف المتعاملة فى السوق. وهذا الاجراء من الاجراءات التى تهدف الى ازالة التصرفات الاحتكارية حتى تقوم العلاقات التبادلية بين افراد المجتمع على أساس المنافسة الحرة البناءة التى تؤدى الى زيادة المعروضات من المنتجات، وبالتالى زيادة الانتاج.(٢)

كذلك يدعو التشريع الاسلامى الى القضاء على جميع العوامل الاحتكارية فى السوق ومنها الاتحادات التى تقوم على تجميع المتعاملين فى مجموعات بقصد ممارسة أى نوع من أنواع الضغط، ومظاهر القوة سواء أكانت هذه الاتحادات للبائعين المنتجين أو المستهلكين أو غيرهم، وكذلك من واجب المحتسب ومن يقوم مقامه أن يتدخل ويفرض السعر المكافىء فى حالة وجود عناصر احتكارية.(٣)

والأصل فى المنافسة هو ترك قوى العرض والطلب لتتفاعل بحرية تامة لتحديد الأسعار بالنسبة للسلع والخدمات مع وضع ضمانات منعا لانحراف الاسعار فتمنع الشريعة الغش والاحتكار وغيرها كما تمنع التدخل غير المشروع فى عمليات التبادل، فاذا لم تعبر الاسعار عن التفاعل الحر لقوى

---

(١) - ابن القيم، الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية بتحقيق محمد جميل غازى، المرجع السابق ص٣٢٣

(٢) - عبدالمجيد الجلال، الانتاج فى الاسلام، المرجع السابق ص٢٥٦، : على عبدالرسول، المبادىء الاقتصادية، المرجع السابق ص١٠٤/١٠٥

(٣) - محمد منذر قحف، الاقتصاد الاسلامى دراسة تحليلية للفعالية الاقتصادية فى مجتمع يتبنى النظام الاقتصادى الاسلامى، الطبعة الأولى عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، دار القلم الكويت مطبعة الامانة العامة القاهرة ص٨٥.

العرض نتيجة تواطؤ من قبل البائعين أو المشترين كان للدولة التدخل لتوفير حرية التفاعل هذه وضمان الحقوق العادلة لكل من البائعين والمشترين بتوفير السلع ومنع الاحتكار، وضمان التعامل فى السلع بالاسعار التى لا تجحف بأى من البائعين أو المشترين.(١)

ثالثاً أهم الضوابط الشرعية التى تحكم الزراعة والصناعة(٢) :

الزراعة والصناعة من وسائل الانتاج التى تعود على الأمة بالكسب الحلال، وسد الحاجات وقضاء مصالح الناس لذا فان الاسلام جعل مباشرة الأنشطة الانتاجية، ومن ضمنها الزراعة والصناعة من فروض الكفايات التى يأثم الجميع بتركها اشار الى ذلك كثير من العلماء والفقهاء(٣) بل أن بعضهم قال : «لو تحالفوا على تركه اثموا وقوتلوا»(٤) وبناء على ما تقدم فان النقص الحالى فى الزراعة والصناعة فى المجتمعات الاسلامية ليس مرده الى عيب فى التشريع الاسلامى، وانما يعود الى تهاون ابناء الأمة الاسلامية، إذ التشريع الاسلامى يعتبر القيام بهما من فروض الكفايات التى يأثم الجميع بتركها.

ويرى الباحث أنه فى زمننا هذا يتحتم القول بالفرض بالقيام بالزراعة والصناعة حتى تكتفى الأمة ذاتيا بمنتجاتها الوطنية ويقل اعتمادها على الخارج الذى من شأنه أن يقلل من تحكم القوى الكافرة فيها، والذى ظهر بشكل واضح فى وقتنا المعاصر، هذا وقد اهتم التشريع الاسلامى بنشاط الزراعة والصناعة ووضع لهما من الضوابط الكثيرة التى تنظمها وتنظم اسلوب العمل فيها، وفيما يلى أهم هذه الضوابط بايجاز :

---

(١) - محمد عبدالمنعم عفر الأقتصاد الاسلامى، دراسة تطبيقية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٨

(٢) - نظرا لأن ضوابطهما واحدة فقد جعلتهما فى فقرة واحدة

(٣) - انظر، محمد الشربينى الخطيب، مغنى المحتاج، المرجع السابق حـ٤ ص٢١٣

(٤) - الرملى، نهاية المحتاج الى شرح المنهاج حـ٨ ص٥٠، الغزالى، أحياء علوم الدين،المرجع السابق حـ١ ص١٥

أ - يجب أن ينحصر الانتاج الزراعي والصناعي في دائرة الحلال :

من أهم الضوابط الشرعية للأنشطة الاقتصادية بصفة عامة، والزراعية والصناعية بصفة خاصة أنه يجب أن ينحصر الانتاج فى دائرة الحلال الذى أحله الله عز وجل ، والابتعاد عن زراعة وصناعة ما حرم الله بكافة أشكاله وأنواعه النباتية والحيوانية، والمصنعة والمستخرجة فكل ما فيه ضرر حرم انتاجه حيث لا ضرر ولا ضرار فالمسكرات ومشتقاتها المأكولة والمشروبة والمشمومة يحرم انتاجها قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون﴾.(١)

ويدخل فى ذلك ايضا انتاج اللحوم المحرمة كالخنزير - مثلا - قال تعالى ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة(٢) والموقوذة(٣) والمتردية(٤)، والنطيحة(٥)، وما أكل السبع(٦)، إلا ما ذكيتم(٧)، وما ذبح على النصب(٨)، وأن تستقسموا بالازلام(٩)، ذلكم فسق﴾.(١٠)

---

(١) - سورة المائدة الآية رقم ٩١/٩٠

(٢) - المنخنقة : هى التى تموت خنقا.

(٣) - الموقوذة : هى التى ترمى أو تضرب بحجر أو عصا حتى تموت من غير تذكية.

(٤) - المتردية : هى التى تتردى من العلو الى السفل فتموت.

(٥) - النطيحة : هى الشاة تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت قبل التذكية.

(٦) - وما أكل السبع : كل ما افترسه ذو ناب وأظفار من الحيوان، كالأسد والنمر والثعلب والذئب والضبع ونحوها. والمراد كل ما أكل منه السبع.

(٧) إلا ما ذكيتم : يعنى ادركتموه حيا فذكيتموه.

(٨) - وما ذبح على النصب : النصب حجر كان ينصب فيعبد، وتصب عليه دماء الذبائح وهى جزء مما أهل به لغير الله.

(٩) - وأن تستقسموا بالأزلام : الأزلام هى قداح الميسر وهى حصى بيض كانوا يضربون بها. وكان لكل واحد منهم ثلاثة أحجار أحدهما افعل والثانى لا تفعل والثالث مهمل فاذا هم بأمر أو فعل شىء ضربها فما خرج منها يعمل به. أنظر القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، المرجع السابق حـ٦ ص٤٨ وما بعدها.

(١٠) - سورة المائدة الآية رقم ٣

كما لا يجوز الاستثمار فى كافة اللحوم الميتة بكافة أشكالها المذكورة فى الآية إلا ما استثنى منها من الشعر والوبر والصوف والريش على ما هو مفصل فى محله من كتب الفقه المتعددة.وبناء على ذلك ففى مجال الزراعة لا يجوز زراعة النباتات الضارة كالتبغ وغيره وكل ما ثبت ضرره لا يجوز الاستثمار فى انتاجه أو استخراجه.(١) فيجب أن تكون العملية الانتاجية بدء ونهاية فى دائرة الانتاج المباح فالشىء المنتج سلعة أو خدمة يجب أن يكون فى هذه الدائرة فلا تستثمر الأموال إلا فيما تبيحه الشريعة الاسلامية. كما يجب أن تكون العمليات الوسيطة (تمويل - تسويق - توزيع) داخلة ضمن هذه الدائرة ايضا. وكذا تدخل كل الخطوات الاجرائية فى عملية الانتاج ضمن دائرة الحلال اذ الوسائل لها حكم المقاصد، فلاغبن فى أجور العمال ولا انتقاص لأى مبدأ من مبادىء العدل والانصاف فى معاملتهم أو ساعات تشغيلهم.... الخ.

وينتج عن هذا الضابط أن الموارد الاقتصادية ستتوجه وتتركز فى انتاج السلع والخدمات التى تشبع الحاجات الاساسية للانسان والتى لا تؤدى الى الاضرار به فى أى صورة كانت. وهذا بدوره يعطى الموارد الاقتصادية مقدرة اكبر لاشباع الحاجات الانسانية المختلفة والآخذة فى التطور والزيادة بصورة افضل. ولذلك فان تطلعات الانسان للاستهلاك المتزايد تظل منضبطة باطار الحلال وهو بدوره يسد منافذ الشهوة والمسالك الضارة، التى تستنزف جانبا من الموارد النادرة.

وتطبيقا لذلك حرم الاسلام صناعات وحرفاً لما فيها من اضرار بالمجتمع فى عقيدته أو فى اخلاقه، فحرم الفنون التى تشغل عن ذكر الله وعن الصلاة كما حرم صناعة المخدرات والخمور وغيرها(٢) لما لها من آثار ضارة على الفرد والمجتمع.

---

(١) - خلف النمرى، التنمية الزراعية فى ضوء الشريعة الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٣٢٣

(٢) - على عبدالرسول، المبادىء الاقتصادية فى الاسلام، والبناء الاقتصادى للدولة الاسلامية، طبعة دار الاتحاد العربى للطباعة، نشر دار الفكر العربى عام ١٩٨٠م الطبعة الثانية، القاهرة ص٣٣/٣٦، يوسف القرضاوى، الحلال والحرام فى الاسلام، مكتبة وهبة، القاهرة ص١١٢

وخلاصة القول : ان النشاط الزراعي والصناعي وغيرهما ايضا محكوم بدائرة الحلال فيحرم في المجال الزراعي زراعة المنتجات المحرمة، كما يحرم الاحتراف في مجال من شأنه أن يروج صناعة محرم كصناعة الخمور وصناعة السلاح لبيعه لاعداء المسلمين ويجب أن يكون المنتج الزراعي والصناعي في دائرة المشروع والمباح.

ب - وجوب توجيه الأنشطة الزراعية والصناعية لتحقيق مقاصد الشريعة وأهدافها :

يجب أن تتوجه الأنشطة الاقتصادية المختلفة الزراعية والصناعية وكذا التجارية لتحقيق اهداف الشريعة الاسلامية ومقاصدها كحفظ الدين والعقل والنسل والمال والنفس والعرض، وذلك حسب سلم الأولويات الشرعية بتقديم الضروري ثم الحاجي ثم التحسيني (الكمالي).

ففي مجال الصناعة تقدم الصناعات المتعلقة بالطعام والشراب واللباس والمسكن أي كل ما من شأنه أن تتوقف عليه حياة الناس، ويدخل في ذلك ما يتعلق باتمام انتاج هذه الأشياء الضرورية من مصانع وآلالات، وأجهزة ومهمات، ثم الحاجيات التي توسع على الناس وترفع عنهم الحرج والمشقة، كالاجهزة الكهربائية مثل الثلاجات والغسالات، وما الى ذلك، ثم التحسينات: وهي التي تضيف الى الحياة بهجة وسرورا من غير اسراف، ويجب أن تكون الصناعة في اطار الحلال ومقاصد الشريعة وأهدافها.(١)

وينطبق ذلك ايضا على كافة الأنشطة التجارية والزراعية، فالزراعة يجب أن توجه نحو تحقيق الزراعات التي توفر الغذاء كالقمح والذرة والكساء، من القطن والكتان وغيرهما مما يستخدم في توفير الكساء للفرد المسلم كذلك يجب أن يستبعد من الزراعة، المزروعات المضرة بالفرد والمجتمع كزراعة الحشيش والافيون وغيرهما، والتي بمنعها يحفظ العقل والدين والمال والعرض والنسل.

---

(١) - محمد سعيد ناجي، سياسات التصنيع في الاقتصاد الاسلامي، المرجع السابق ص٣٨

ويجب على المجتمع تحقيق مقاصد الشريعة بتوفير الاحتياجات الضرورية سواء وجدت قوة شرائية أم لم توجد. ذلك أن توفير الضروريات واجب على المجتمع سواء تم ذلك من خلال آلية السوق ام لم تتم هذه الآلية مع وضع الاولويات فى الاعتبار وظروف المجتمع المختلفة، ولامانع من أن يكون ذلك من خلال خطة مدروسة من قبل ولى الأمر.

حـ - وجوب تحقيق النمو المتوازن على كافة القطاعات والأنشطة :

ومن الضوابط الشرعية وجوب تحقيق النمو المتوازن على كافة القطاعات والأنشطة الاقتصادية المختلفة، والتشريع الاسلامى اهتم بهذا الأمر كما اهتم الفقهاء المسلمون بذلك فقد ذكر البعض انه إذا اهتم الناس بحرفة معينة وأهملوا الحرف الأخرى بما يسبب ضررا للجماعة، فلولى الأمر أن يتدخل لتغيير هذا السلوك، فلا ينبغى أن يقتصر احتراف الناس على زرع الأرض ورعى الأغنام، فتترك الصناعة والتجارة، والتعدين وغيرها من مصادر الانتاج المختلفة الأخرى أو إذا اهتم الناس بالحصول على الأراضى الزراعية واحترفوا الزراعة فقط، وأهملوا ماعداها من الأنشطة الاقتصادية كالصناعة والتجارة، فإن الفقهاء يعدون الناس جميعا آثمين بهذا التصرف - كما سبق أن أشرنا - وعلى الامام أن يأمرهم بل له أن يحملهم على القيام بذلك، وان اقتضى ذلك انزال بعض العقوبات التعزيرية بهم ليكفل قيامهم بهذا الواجب لأنهم تركوا فرض الكفاية.(١)

قال النووى - رحمه الله - : «ومن فروض الكفايات الحرف والصنائع وما تتم به المعايش كالتجارة والخياطة والحجامة؛ لأن قيام الدنيا بهذه الأسباب، وقيام الدين يتوقف على أمر الدنيا، حتى لو امتنع الخلق منه اثموا وكانوا ساعين فى اهلاك انفسهم؛ ولكن النفوس مجبولة على القيام به فلا تحتاج الى حث عليها وترغب فيها.(٢) وفى نهاية المحتاج : «فلو تمالؤا على تركها اثموا قوتلوا».(٣)

---

(١) - . ، على عبدالرسول، المبادىء الاقتصادية فى الاسلام، المرجع السابق ص٤١/٤٢

(٢) - محمد الشربينى، مغنى المحتاج الى معرفة الفاظ المنهاج، المرجع السابق حـ٤ ص٢١٣

(٣) - الرملى : نهاية المحتاج الى شرح المنهاج، المرجع السابق حـ٨ ص٥٠

ويقول بعض الباحثين(١) : «ومن المدهش حقا أن نسجل انه منذ أربعة عشر قرنا من الزمان أدرك الاسلام الحاجة الى التوازن الاقتصادى وبصفة خاصة الموازنة بين التنمية الزراعية، والتنمية الصناعية ففى الاسلام يجب أن نستخدم الأرض باعتبارها عنصرا من عناصر الانتاج بطريقة تضمن تحقيق هذا الهدف، وهو تحقيق نمو متوازن فى المدى الطويل

وتقضى الشريعة بأنه إذا ما اهتم الناس بالحصول على الأراضى الزراعية واحترفوا الزراعة فقط واهملوا ماعداها من الحرف كالصناعة والتجارة فان الدولة تستطيع أن تضع الأحكام التى من شأنها أن تضمن نمو وانتشار ثروات الناس بالتساوى بين الأنشطة الاقتصادية كالصناعة والتجارة بما يعود على الجماعة - على المدى البعيد - بالخير والفائدة».

فعلمية التنمية الزراعية تعمل على زيادة الانتاج وتطويره ويستلزم ذلك بالتبعية تحقيق تنمية صناعية تساعد الزراعة على تحقيق هذا الهدف، فالصناعة يمكن أن تمد الزراعة بما تحتاج اليه من سلع وسيطة كالمعدات والسماد وسلع رأسمالية لازمة للنهوض بالزراعة وعلى هذا فان تحقيق النمو المتوازن على كافة القطاعات وفى كافة الأنشطة يعد أمرا أساسيا فى نظر الشريعة الاسلامية، ومن حق ولى الأمر أن يتدخل لتحقيق هذه الغاية بالتخطيط والتوجيه واضعا مصلحة الأمة نصب عينيه، وجاعلا مقاصد الشريعة وأهدافها الميزان الذى يزن به حاجات الناس الاقتصادية، وتطلعاتهم، وخاصة فى وقتنا الحاضر الذى تداخلت فيه المصالح، واحتاجت كافة الأنشطة لبعضها البعض، فلا تكاد ترى نشاطا يقوم بذاته، وانما دائما يحتاج الى غيره، وقد أصبحت الحاجة ملحة الآن لتضافر كافة الأنشطة الاقتصادية مما يؤكد جعل ذلك أحد الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة، كما أن تحقيق النمو المتوازن فى جميع المجالات من ضروريات المجتمع الاسلامى، لذا فان واجب الحاكم المسلم أن يوجد السياسات الاقتصادية المختلفة لتحقيق هذا الهدف.

---

(١) - عنان، الاقتصاد الاسلامى بين النظرية والتطبيق دراسة مقارنة، المرجع السابق ص١٠٤

والى جانب الضوابط المتقدمة التى تنظم مختلف الأنشطة الاقتصادية هناك مجموعة من الضوابط الشرعية فى المجال المالى والنقدى ويحسن بنا أن نشير اليها بايجاز :

ففى الجانب المالى ايضا وجد فى التشريع الاسلامى مجموعة من المعايير الشرعية والاقتصادية التى تنظم عملية الجباية والانفاق كالعدالة واليقين والملاءمة ومراعاة انخفاض تكاليف جبايتها، وعدم الازدواجية فى التكاليف الضريبية، وكذا ضمان عدم التهرب منها مما سيأتى تفصيله.

أما فى المجال النقدى فقد خضع الاصدار النقدى فى الدولة الاسلامية لمجموعة من الضوابط الشرعية التى تنظم الاصدار النقدى وتحكمه وهى على سبيل الاجمال تتحدد فيما يلى :-

١ - الاصدار النقدى من الوظائف السيادية لولى أمر المسلمين فهو حق موكول اليه وحده أو لمن ينيبه فى ذلك.

٢ - يجب أن يكون الأصدار النقدى لضرورة اقتصادية وشرعية فاذا كان هذا الحق من حقوقه السيادية فليس هذا الحق مطلقاً وانما هو مكفول له فى اطار الضرورات الاقتصادية والشرعية للمجتمع الاسلامى.

٣ - يجب أن لا يكون الهدف من الاصدار النقدى فى الدولة الاسلامية المتاجرة فيها لذاتها، إذ النقود وسيلة لا غاية، كما أن النقود فى الدولة الاسلامية لا تثمر بذاتها ولكنها تنمو باستخدامها فى الأنشطة المختلفة(١).

وفى اطار هذه الضوابط يسير النشاط النقدى فى الدولة الاسلامية.

بعد أن أنتهينا من أهم الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة يجدر بنا أن نبين أهم الضوابط الشرعية التى تحكم نشاط تدخل الدولة وتنظيمها النشاط الاقتصادى، إذ لولى أمر المسلمين حق التدخل لتنظيم وتخطيط النشاط الاقتصادى فى الدولة الاسلامية لكن ذلك ليس باطلاق وإنما محكوم بمجموعة من الضوابط الشرعية يحسن بنا أن نشير اليها بايجاز

---

(١) - لمزيد من التفصيل عن ضوابط وقواعد مالية الدولة وكذا ضوابط الاصدار النقدى راجع ص ٥٦٩/٥٨٢، ٧١٦/٧٢٥

رابعا : أهم الضوابط الشرعية التى تحكم تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى

أ - الأصل فى النشاط الاقتصادى الحرية إلا إذا وجد ما يوجب التدخل :

سبق أن بينت أن الأصل فى التشريع الاسلامى عدم تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى إلا فى أضيق الحدود وإذا وجد ما يدعو الى ذلك فانه يكون لتحقيق المصلحة العامة وهو ضابط شرعى هام يحد من تدخل ولى الأمر فى النشاط الاقتصادى القائم على الحرية التامة، فالمسلم حر فى انتاجه وفى العملية الانتاجية التى سيقوم بها، وفى اختيار المكان الملائم لها. وفى طريق هذا الانتاج وأسلوب توزيعه وتسويقه بشرط أن يكون ذلك فى اطار المباح شرعا والمصلحة العامة، وغير مقصود به الحاق الضرر بالفرد والجماعة وبالتالى فلا تتدخل الدولة إلا فى أضيق الحدود وبالقدر الذى يكفل تحقيق المصلحة للجميع أو إذا وجد انحراف عن المسار الطبيعى الموافق لمقاصد الشريعة وأصولها وأهدافها العامة وهو بذلك يعتبر ضابطا هاما لنشاط الدولة الاقتصادى يطبق على جميع القطاعات الاقتصادية.

ب - وجوب تحقيق المصالح العامة، وتأمين فروض الكفايات :

من الضوابط الشرعية التى تتعلق بنشاط الدولة الاقتصادى ضرورة تحقيق ما يلى : -

أ - تحقيق المصالح العامة وتأمين فروض الكفايات:

١ - تحقيق المصالح العامة:

من المعلوم أن من الاهداف العامة للتشريع الاسلامى تحقيق المصالح العامة لافراد المجتمع الاسلامى فى العاجل والآجل وفى كل زمان ومكان، ويدل على ذلك التشريعات المختلفة فى جميع المجالات ومن ضمنها الجانب الاقتصادى، ففى الجانب الاقتصادى مثلا يحرم التبذير لما يفضى اليه من ضياع الأموال وعدم توجيهها التوجيه السليم لما خلقت له من سد حاجة الانسان، مما يؤدى الى تبديد ثروة الأفراد واصابتهم بالفقر والحاجة وصيرورتهم عالة على المجتمع، وهو بدوره يثقل كاهل المجتمع ويؤدى الى سوء حالته ولذلك فقد نهى الله عن التبذير وعد القرآن الكريم المبذرين أخوانا

للشياطين لما يجلبونه من فساد واتلاف قال تعالى ﴿ولا تبذر تبذيرا إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفورا﴾(١)

والنظام الاسلامى يختلف عن غيره من النظم الوضعية فى هذا الجانب فالنظام الرأسمالى يهتم بمصلحة الفرد أولا ويقدمها على مصلحة المجتمع حتى ولو كان فى ذلك افساد وضياع مصلحة المجتمع، والنظام الاشتراكى يقدم مصلحة المجتمع ويهمل مصلحة الفرد، ولكن الاسلام يوفق بين المصلحتين فى جميع المجالات ويجعل مصالح الأمة مقدمة على مصلحة الفرد فهو وان قدم مصلحة المجتمع على مصلحة الفرد إلا أنه لم يهمل فى نفس الوقت مصلحة الفرد بل يعطيها نفس الاهتمام فى مختلف الأنشطة الاقتصادية وفى شتى المجالات.

وفى ظل التشريع الاسلامى المالك لعناصر الانتاج مكلف بان يستثمر أمواله ويوجهها لما فيه مصلحة الفرد والجماعة. فلا ضرر ولا ضرار، والدولة المسلمة لها حق التدخل فى النشاط الاقتصادى لتحقيق مصالح الناس جميعا قال أبو يوسف - رحمه الله - مخاطبا هارون الرشيد : «واعمل بما ترى أنه أصلح للمسلمين، وأعم نفعا لخاصتهم وعامتهم، واسلم لك فى دينك».(٢)

وقد اعطى الاسلام لولى أمر المسلمين سلطات واسعة فى الظروف الاستثنائية الطارئة لمعالجة المشكلات الاقتصادية التى تواجه الأمة بما يحقق مصلحتها وفق مقاصد الشريعة وأهدافها وقواعدها الشرعية. فللدولة المسلمة مثلا التدخل فى جميع الأنشطة الاقتصادية بما يراه الامام المسلم العادل مناسبا لتحقيق مصلحة عامة فيتخذ السياسات المختلفة فى جميع الانشطة الزراعية والصناعية والتجارية، فمثلا فى مجال التجارة الخارجية قد يجد المصلحة فى عدم استيراد بعض السلع فيصدر أمرا بعدم استيرادها، أو يفرض عليها رسوما عالية حماية للصناعة الوطنية الموجودة لتنظيم الاسواق

---

(١) - سورة الاسراء الآية رقم ٢٦/٢٧

(٢) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٦٠

داخل الدولة فيحدد مثلا أياما لبيع بعض أنواع الطعام لمصلحة عامة، أو تنظيم ذبح الاناث أو منع صيد ما يحل صيده حفاظا على الحيوانات من الانقراض. وقد يتدخل فيمنع زراعة بعض المحاصيل وزراعة محاصيل أخرى لمصلحة يراها تحقق مصلحة عامة للدولة.

وقد يتدخل لتنظيم ادارة أموال الدولة بطرق معينة فيها مصلحة كتوجيه المصانع لتصنيع أنواع معينة من السلاح وغيره مما تحتاجه الأمة فلا مانع شرعا، كذلك قد يتدخل فيعد خططا خمسية أو عشرية أو غيرها لتنظيم موارد الدولة وايراداتها ونفقاتها، أو خططا للتنمية لأمد بعيد أو قريب الى غير ذلك من التدخلات المبنية أساسا على المصلحة، وفى اطار مقاصد الشريعة وأهدافها وأصولها العامة، وبما يحقق التوازن بين مصلحة الفرد والجماعة ويحقق التكافل بين افراد الأمة الاسلامية.(١) وعلى هذا فقس فى جميع الأنشطة والقطاعات الاقتصادية فلولى أمر المسلمين تنظيمها ومراقبتها وأعداد خططها وسياساتها العامة بما يحقق المصلحة العامة للأمة ووفقا لضوابط وقواعد الشريعة الاسلامية.

٢ - تأمين فروض الكفايات :

كذلك يجب على الدولة المسلمة أن تؤمن فروض الكفايات فى جميع المجالات الاقتصادية ويشهد لذلك العديد من النصوص التى وردت عن الفقهاء فيقول صاحب كشاف القناع أن من فروض الكفايات «الصنائع المباحة المحتاج اليها لمصالح الناس غالبا الدينية والدنيوية البدنية والمالية... وحفر الآبار والأنهار وكريها، وعمل القناطر والجسور واصلاحها، واصلاح الطرق والمساجد لعموم حاجة الناس الى ذلك».(٢)

---

(١) - سعاد ابراهيم صالح، مبادىء النظام الاقتصادى وبعض تطبيقاته، المرجع السابق ص١٧٥/١٧٦

(٢) - البهوتى، كشاف القناع عن متن الاقناع، راجعه وعلق عليه هلال مصيلحى مصطفى هلال، نشر مكتبة النصر الحديثة، الرياض حـ٣ ص٣٣/٣٤

وذكر النووى فى المنهاج أن الحرف والصنائع، وما تتم به المعايش من فروض الكفاية، وبين الرملى فى شرحه للمنهاج : «ان الناس لو تمالؤا على تركها اثموا وقوتلوا»٠(١)

وذكر ابن تيمية أن من فروض الكفاية «حاجة الناس الى الفلاحة والنساجة والبناية، فان الناس لابد لهم من طعام يأكلونه وثياب يلبسونها ومساكن يسكنونها» وبمثل ذلك قال الغزالى وأحمد وابن الجوزى وغيرهم، ومن ذلك ايضا ما ذكره ابن تيمية فى كتابه الحسبة : «والمقصود هنا أن هذه الأعمال التى هى من فروض الكفاية متى لم يقم بها غير الانسان صارت فرض عين عليه لاسيما ان كان غيره عاجزا عنها فاذا كان الناس محتاجين الى فلاحة قوم أو نساجتهم أو بنائهم صار هذا العمل واجبا يجبرهم ولى الأمر عليه إذا امتنعوا عنه بعوض المثل»٠(٢)

وبناء على ما تقدم فان الدولة الاسلامية عليها أن تؤمن فروض الكفايات فى جميع القطاعات فى جانبي القطاع العام والخاص فالقطاع العام - كما سبق - كحفر الأنهار والآبار وعمل القناطر والجسور٠٠٠والصناعات التى لا يستطيع الافراد القيام بها كالاسلحة وغيرها الخ وهو ما يعرف برأس المال الاجتماعى وهذه الصناعات ايضا من شأنها أن تشجع القطاع الخاص ايضا٠ كذلك يجب عليها أن تؤمن فروض الكفاية فى مجال القطاع الخاص وهو ما عبر عنه الفقهاء بالصنائع والحرف والتجارات وهى التى لو تركت لبطلت المعايش وهلك اكثر الخلق، فانتظام الكل بتعاون الكل وتكفل كل فريق بعمل، ولو أقبلوا كلهم على صنعة واحدة لتعطلت البواقى، وهلكوا»٠(٣)

---

(١) - النووى، المنهاج، المرجع السابق حـ٨ ص٤٦/٤٧

(٢) - ابن تيمية، الحسبة فى الاسلام، تحقيق سيد بن محمد بن أبى سعدة، مكتبة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، الكويت الطبعة الأولى عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص ٢٩

(٣) - الغزالى، احياء علوم الدين، المرجع السابق حـ٥ ص١٠

ويتضح مما تقدم ايضا أن الدولة لها أن تتدخل فى النشاط الاقتصادى بما يحقق المصلحة العامة للأمة الاسلامية وبما يؤمن لها فروض الكفايات - وفروض العين ايضا من باب الأولى - بشرط أن يكون الامام مسلما يهدف من وراء ذلك التدخل تحقيق العدل الاقتصادى والاجتماعى، والتوازن بين مصلحة الفرد والجماعة غير مجحف بأحدها على الآخر مقدما مصلحة الأمة غير مهمل لمصلحة الفرد وفى اطار قواعد الشريعة وأهدافها ومقاصدها العامة.

جـ - وجوب تحقيق العدالة الاجتماعية :

تهدف تعاليم الاسلام وتشريعاته الى تحقيق العدالة بين افراد المجتمع فى كافة النواحى اقتصادية و غير اقتصادية، بل ان العدالة الاجتماعية مبدأ اساسى فى النظام الاقتصادى الاسلامى. يدل على ذلك تشريعات الاسلام الكثيرة التى تتضمن تحقيق هذا الضابط وتطبيقه فى شتى الأنشطة والقطاعات المختلفة. فمثلا فى ملكية عناصر الانتاج وضع الاسلام لها كثيرا من الأساليب التى تكفل العدالة فى تملك عناصر الانتاج من ذلك ما قرره الاسلام من حق الملكية الفردية بوسائل التملك المشروعة، كما وضع لها الحدود الرادعة لكفالة هذا الحق، وفرض حق التوريث فيها قال تعالى : ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾(١) وقال تعالى ﴿يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين﴾.(٢) وتقرير حق الملكية الفردية يحقق العدالة، كما يتفق مع الميول الأصيلة فى النفس البشرية، فالعدالة تقتضى أن يلبى النظام أشواق الفرد وميوله فى الحدود التى لا تضر بالجماعة(٣)، كما قرر الاسلام أساليب كثيرة للتملك كالتملك عن طريق الغنيمة والاقطاع والاحياء... الخ وكل هذه الاساليب تحقق العدالة الاجتماعية فى ملكية الموارد الطبيعية للدولة.

---

(١) - سورة النساء الآية رقم ٧

(٢) - سورة النساء الآية رقم ١١

(٣) - سيد قطب، العدالة الاجتماعية فى الاسلام، دار الشروق القاهرة، بيروت عام ١٩٧٩م، الطبعة السادسة ص١١٦/١٢٨ بتصرف

الدولة فى العصور الحالية قد لا تكفيها موارد الزكاة لأنها محصورة فى اصناف معينين لا يجوز صرفها الى غيرهم، وقد زادت تكاليف الدولة، فهى مكلفة ببناء الجسور وتمهيد الطرق، وشق الأنهار، وبناء المساجد والمدارس، وهذه الأمور، غيرها تحتاج الى انفاق كما أن الضريبة إذا كانت فى ايد أمينة فانها من الفرد واليه، فهى ستصرف على المرافق العامة، كالتعليم والدفاع والأمن والصحة والنقل وغيرها من المصالح التى ينتفع بها الفرد والجماعة، إذن فهى تؤخذ منه وتعود اليه فلا مانع شرعا من تدخل الدولة بفرض الضريبة بالشروط المتقدمة بشرط أن يراعى فيها توزيع العبء الضريبى فيتحملها الجميع على قدر يسار كل منهم، كما يجب العدل ايضا فى نسبتها وقيمتها تبعا لمقدرة المكلف(١)، كما يراعى ايضا فى انفاقها تحقيق المصالح العامة للمسلمين مع موافقة أهل الحل والعقد عليها ومراعاة كافة الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية والفرد المسلم فى هذا يتقبل هذه التشريعات بصدر رحب لأنه ربى عليها ونشأ فيها فهو بذلك يخالف الفرد فى أى مجتمع غير اسلامى، لأنه يعتبر ذلك قربة الى الله عز وجل حيث أنه تربى على أن المسلمين جسد واحد... وإيمانه يتأثر إذا بات شعبان وجاره الى جانبه جائع وهذا مما يؤكد استقلالية هذا النظام الاسلامى عن غيره من المجتمعات الأخرى.

وبهذا يتضح أن العدل الاجتماعى هو أحد الضوابط الشرعية التى ينضبط بها نشاط الدولة الاقتصادية فالدولة تتدخل فى النشاط الاقتصادى فى جميع المجالات الاقتصادية، ويجب على الدولة أن تضع فى اعتبارها الضوابط المتقدمة عند التدخل واضعة نصب عينها مصالح الفرد والجماعة، وتأمين فروض الكفايات والعدل بين الناس، وأن يكون هذا التدخل فى أضيق الحدود وعند الحاجة التى تستدعى ذلك ويجب أن يكون ذلك فى أطار أحكام الشريعة وأهدافها العامة.

---

(١) - يوسف القرضاوى، فقه الزكاة، المرجع السابق حـ٢ ص١٠٨١/١٠٨٢، محمد السعيد وهبة، عبدالعزيز محمد رشيد جحوم، الزكاة فى الميزان ص٦٨

كما قرر مبدأ العدالة فى تحريم وسائل الكسب غير المشروعة فى المعاملات والأسواق فحرم الاسلام الغش والغرر والاحتكار والربا ووسائل الاعلان الكاذبة ...الخ كوسيلة لتحقيق الربح، وحرم كل ما من شأنه الانحراف عن العدالة بشكل عام.

ولتحقيق العدالة وضعت الشرعية الاسلامية كثيرا من القواعد التى من شأنها تحقيق العدل فمثلا المتعدى عليه الضمان - كما سبق وأن اشرنا - والأجر يقدر عند خلاف الطرفين بأجر المثل، ويجب أن يكون الأجر مناسبا مع العمل، ولا يكن فيه تكليف بما لا يطاق ولولى الأمر التدخل فى تحديد الاسعار - إذا وجد ما يدعو الي التحديد - بان انحرفت الاسعار عن المستوى الحقيقى لها والذى يكون بتفاعل قوى العرض والطلب، فيجب على الدولة أن تتدخل لتحقيق العدالة بين كل من المستهلك والمنتج على أساس الثمن العادل. وفى مجال التجارة الخارجية شرع نظام المعاملة بالمثل تحقيقا للعدالة.

وفى المجال المالى يحق للدولة فى حالات الحاجة أن تفرض الضرائب المالية بشروط حددها الفقهاء، وهى : أن يكون الامام بحيث تجب طاعته، وأن يكون هناك حاجات حقيقية للدفاع عن البلاد، وأن يخلوا بيت المال من المال، وأن يكون فرض الضرائب بحيث يسد الاحتياجات القائمة، والى أن يتوفر المال فى خزانة الدولة والى ذلك ذهب كثير من الفقهاء كالغزالى(١)، والشاطبى(٢)، وغيرهم.

ولاشك أن العصر الحاضر يوجب على الدولة التدخل فى هذا الشأن نظرا لوجوب التكافل الاجتماعى بين أفراد الأمة، فلا خلاف بين أحد من المسلمين بأنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة عامة واحتاج الامام المسلم الى المال فانه يحق له فرض الضرائب عليهم لمواجهة الحاجة - كما أن نفقات

---

(١) - الغزالى، المستصفى، المرجع السابق حـ١ ص٣٠٣

(٢) - الشاطبى، الاعتصام، المرجع السابق حـ٢ ص٢٩٥/٢٩٦

وبعد أن أنتهينا من الضوابط الشرعية التى تحكم النشاط الاقتصادى فى الدولة الاسلامية بشكل عام فاننا لا ندعى أن هذه هى كل الضوابط الشرعية فلازال هذا الموضوع كما سبق وأن أشرت يحتاج لجهد كبير وخاصة اذا ما علم ان النشاط الاقتصادى يعتبر جزءا من النظام الاسلامى العام، فهو إذن مرتبط بقواعد وضوابط الشريعة العامة، وهى ضوابط لا يمكن ابعادها عن النظام الاقتصادى الاسلامى، لكنه نظرا لأن الخوض في تفاصيلها يطيل علينا البحث كما أنه ليس مقصودنا الاساسى منه لذا فاننا قد اقتصرنا على أهم الضوابط ذات الصلة الوثيقة بانشطة الدولة الاقتصادية. هذا وقد ترتب على تطبيق هذه الضوابط الشرعية الكثير من الآثار فى المجتمع العباسى الأول سنحاول فيما يلى بيان أهم هذه الآثار بايجاز.

المبحث الثاني

أثر تطبيق الضوابط الشرعية فى تطور النشاط الاقتصادي فى العصر العباسي الأول

كان لتطبيق الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة فى الدولة العباسية آثارها الكثيرة فى جميع المجالات الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ايضا، وذلك لأن تطبيق الضوابط الشرعية المتعلقة بالجوانب الاقتصادية مرتبطة بالضوابط والقواعد العامة للشريعة الاسلامية، ومن ثم فالحديث عن أثر تطبيق هذه الضوابط لابد وأن يمتد ايضا الى الجوانب السياسية والدينية والاجتماعية...الخ، ويحاول الباحث هنا أن يعرض أهم هذه الآثار فى نقاط موجزة، وذلك لأنها ستأتى مفصلة فى ثنايا هذا البحث ان شاء الله تعالى :-

أولا : أثر تطبيق هذه الضوابط على انتشار الاسلام :

كان لتمسك المسلمين بمنهج الله وتطبيقهم لقواعد الشريعة واخلاقياتها فى كافة المجالات الاقتصادية وغير الاقتصادية أثرها الكبير على انتشار الاسلام وتعاليمه فى أرجاء العالم فى ذلك الوقت. فقد كان المسلم صادقا أمينا لا يغش ولا يخادع، ولا يرابى، ولا يتصرف أى تصرف من شأنه ترويج سلعته بغرض تحقيق الربح حتى ولو كان على حساب الآخرين، وانما يتحرى المال الحلال الطيب. كما كان لا يمارس أى نوع من الاحتكارات المختلفة والتى من شأنها أن تجلب له الكسب الحرام، وعندما دخل المسلمون بلاد غير المسلمين بغرض التجارة، ورأى أهلوها تجار المسلمين وقد تحلوا بهذه التعاليم الفاضلة، دخل الناس فى دين الله أفواجا دون قطرة دم، أو حمل سلاح.

والمصادر التاريخية تشير الى دخول كثير من البلاد فى الاسلام دون قتال من خلال الرحلات التجارية التى كان يقوم بها التجار المسلمون - على وجه الخصوص - ومن تلك البلاد بلاد الحبشة والصومال وارتيريا وغيرها والبلاد التى تقع فى جنوب آسيا وغربها وجزر الهند الشرقية - اندونيسيا - وبعض البلاد الصينية...الخ، وقد اعتنقت هذه البلاد الاسلام لا لشىء إلا لمجرد تمسك المسلمين بدينهم وأخلاقهم الاسلامية فى مجال المعاملات.

هذا ولا تزال هذه البلاد متمسكة بالاسلام برغم حملات التبشير المستمرة عليها، وبرغم محاولات الدول الاستعمارية تجويعها أو احتلالها، وهنا نؤكد على العلاقة الوطيدة بين نشر الاسلام، وتمسك المسلمين بدينهم وعقيدتهم، فهى علاقة لا تنفصل، وتساهم مساهمة فعالة فى نشر دين الله عز وجل واعلاء كلمته.(١)

ثانيا : تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية :

العدل بصفة عامة يعتبر من القواعد الاساسية التى يقوم عليها التشريع الاسلامى، فى كافة المجالات - اقتصادية وغير اقتصادية - وقد كان تطبيق الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة المختلفة فى الدولة العباسية أثره الكبير على تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع العباسى الأول، فمثلا روعى فى توزيع الموارد العدالة حيث خضعت لنظم التملك والاستغلال الاسلامى كالاقطاع، والاحياء، والمزارعة والمساقاة ... الخ كما أن امتلاك هذه الموارد خضع لضرورة العمل الاقتصادى فيها، وعدم اكتساب الملكية إلا بعد دخول المورد نطاق العمل الاقتصادى بالفعل - على ما سيأتى بيانه -.

كما كانت تعطى أولوية الملكية للذين لا أملاك لهم، تحقيقا لمبدأ العدالة الاقتصادية والاجتماعية وللنهوض بالطبقات الفقيرة. واهتمت الدولة ايضا فى سبيل ذلك بانتاج السلع الضرورية والتى تتعلق بغذاء الانسان حماية للطبقات الفقيرة فى المجتمع سواء كان فى جانب الزراعة أو الصناعة. وكانت السلع والاسواق تخضع لقانون العرض والطلب تحقيقا للعدالة، فكان على المحتسب - مثلا - الاشراف على الاسواق والاسعار ومراقبتهما رغبة فى تحقيق العدالة الاقتصادية والاجتماعية لكل من المنتج والمستهلك كما كان يقوم

---

(١) - لمزيد من التفصيل راجع ص: ١١-٤١ من هذا البحث.

بمراقبة سير العمل التجارى داخل الاسواق ويوقع العقاب على من يمارس أى نوع من أنواع الغش التجارى، أو أى تلاعب فى الاسعار، أو المكاييل والموازين... الخ.

كما روعيت العدالة ايضا فى تحصيل ايرادات الدولة المختلفة، وروعى فيها مقدرة المكلف وظروفه بحيث لا يقع عليه نوع من الارهاق المالى، وروعى تطبيق قاعدة المعاملة بالمثل مع التجار الوافدين على الدولة الاسلامية.(١)

وهذا وغيره من شأنه أن يحقق العدل الاقتصادى والاجتماعى لابناء الأمة، وبالفعل كان لتطبيق الضوابط الشرعية التى تحكم الأسواق والاسعار ومختلف الأنشطة الاقتصادية الأخرى - الزراعية والصناعية والتجارية - اثره الهائل على تحقيق العدالة، إذ تحقيق العدالة مرتبط - بلا شك - بكافة قواعد الشريعة الاسلامية التى تنظم مختلف حياة المسلم وقد عرضنا هذه الأمثلة على سبيل المثال لا الحصر وإلا فالموضوع اكبر بكثير من ذلك كما أنه ستأتى تفصيلات له فى كافة فصول البحث الذى نحن بصدده.

ثالثا : ازدهار الأنشطة الاقتصادية المختلفة :

أدى التمسك بالضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة الى ازدهار مختلف الأنشطة الزراعية والصناعية والتجارية والمالية والخدمات بمختلف أنواعها ونحاول فيما يلى عرض شىء منها على سبيل المثال بايجاز :

أ - ازدهار النشاط الزراعى :

ازدهرت الزراعة فى العصر العباسى الأول ازدهارا عظيما، وقد تمثل هذا الازدهار فى جوانب عديدة وشمل هذا التطور تطورا فى طرق الزراعة واستغلال الأرض، وفى الاساليب الشرعية والفنية لها(٢) مما نتج عنه توفر

---

(١) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٥٧٠/ ٥٨١ من هذا البحث.

(٢) - لمزيد من التفصيل راجع ص١٦٥/١٧٧ / ١٨٥ من هذا البحث

مختلف المحاصيل الزراعية كالحبوب والنباتات والفواكه المختلفة، وكذا السلع الزراعية الترفيهية كالزهور والرياحين(١) ، وكان من نتيجة ذلك ايضا أن زادت العمالة الزراعية واستجلبت المهارات الفنية منها·(٢) - على ما سيأتى بيانه - ، وقد كان من وراء ذلك بالطبع سياسات حكيمة اتبعتها الدولة سواء فى تنمية موارد الدولة أو تمويلها أو الاشراف عليها حتى نمى هذا النشاط، وأصبح أهم نشاط اقتصادى فى الدولة العباسية فى تلك الفترة·(٣)

ب - ازدهار النشاط الصناعي :

ازدهر النشاط الصناعى فى الدولة العباسية الأولى بسبب تمسك المسلمين بالضوابط التى تحكم مجالات الصناعة وضوابطها العامة، وقد ظهر ذلك واضحا على كثير من المؤشرات ومنها :-

١ - زيادة العمالة الصناعية كما تدل على ذلك الاحصائيات فمثلا تشير المصادر الى أن عدد العاملين يوميا فى بغداد بلغ خمسين الف رجل(٤)، كما قدر عدد الذين جمعهم المنصور للعمل فى مدينة بغداد عند انشائها مائة الف عامل(٥) وهذه الارقام تشير الى حجم كبير من العمالة الصناعية والحرفية ومن ثم فهو مؤشر على ازدهار النشاط الصناعى والحرفى فى الدولة العباسية·

٢ - كما تشير المصادر ايضا الى حدوث تطور كبير فى المجال الحرفى فى الدولة العباسية الأولى حيث كان للحرفة الواحدة اكثر من حرفة أخرى مساعدة لها فمثلا الخياطة كان لها حرف أخرى مساعدة منها الرفائون والقصابون والدقاقون، وصناع القلانس والطرازون··· الخ وهذا يشير الى

---

(١) - لزيد من التفصيل راجع ص ١٩٣ وما بعدها

(٢) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٢٠٦ من هذا البحث

(٣) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٢٠٢ وما بعدها·

(٤) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٣ ص٣١٨

(٥) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٥٨

مدى التخصص فى مجال الحرفة الواحدة وبالطبع يشير ذلك الى تطور فى الحرف والصناعات بشكل عام.(١)

٣ - أدت حركة التجارة فى الدولة العباسية الى انتقال كثير من الحرف بين البلاد الاسلامية - فمثلا - انتقلت صناعة الكتان من مصر الى بلاد فارس وخاصة مدينة كازرون والتى كانت تسمى فى ذلك الوقت «دمياط الاعاجم».(٢)

وهنا نشير الى مدى استفادة بعض البلاد من بعضها الآخر مما فتح المجال للعمل والتشغيل و ظهور المهارات الجديدة، الأمر الذى أدى الى تطور النشاط الصناعى فى تلك الفترة.

٤ - أدى التطور العلمى وزيادة حركة الترجمة التى شجعها الخلفاء فى الدولة العباسية الى ازدهار صناعة الورق وتبع ذلك ظهور كثير من الحرف التى تتعلق بها مما يعنى تطور النشاط الصناعى فيها.(٣)

٥ - تطورت الصناعة فى الدولة العباسية وغدت صناعة اسلامية حتى فى البلاد المفتوحة، إذ خضعت صناعاتها الى التعاليم الاسلامية - فمثلا - لم تظهر أى صناعات اسلامية تحمل صورا آدمية تطبيقا لتعاليم الاسلام، وظهرت صناعات تلك البلاد بلون وذوق اسلامى جديد مما جعلها تظهر باستقلال عام عرف (بالفن الاسلامى) عما كانت عليه قبل الفتح الاسلامى مما يعنى تطور وتأثير صناعات تلك البلاد بضوابط الشريعة الاسلامية وأحكامها العامة.(٤) وصحب ذلك بالطبع ازدهار للصناعة الاسلامية حيث لبت الصناعة كل متطلبات حياة الناس ودون اعتماد بلاد أخرى غير اسلامية.

---

(١) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٢٩٢ وما بعدها.

(٢) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٦٧ وما بعدها.

(٣) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٣٠٠ من هذا البحث

(٤) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٢٧٦ من هذا البحث.

حـ - ازدهار النشاط التجارى :

كان لازدهار الأنشطة الاقتصادية السالفة الذكر - الزراعية والصناعية - أثرها الواضح على تطور التجارة الداخلية والخارجية فى الدولة العباسية الأولى، ومما زاد ايضا فى تطورها أن الأسواق والتجارات كانت تسير وفق ضوابط الشريعة من تحريم الوسائل غير المشروعة كتحريم الربا والاحتكار والغش والخداع ... الخ. وسارت الاسواق وفقا لقانون العرض والطلب وتوفرت فيها المنافسة - كما سبق أن اشرنا - وكانت الدولة لا تتدخل إلا حيث وجد انحراف وفى اضيق الحدود، مما ادى الى أنه لم تظهر داخل الاسواق فى تلك الفترة أى مظهر من مظاهر الاحتكار ولم تحدثنا المصادر التاريخية عن حدوث مثل تلك الظاهرة عامة فى المجتمع العباسى الأول، كما لم تسوق السلع المحرمة كالخمر أو التبغ أو الحشيش وما شاكلها، وكان من مهمة المحتسبين اراقة الخمور وكسر المعازف - اذا وجدت - ومراقبة الاسعار والمكاييل والصرافين وباعة الذهب والفضة...الخ على نحو ما سيأتى بيانه.

وفى مجال التبادل التجارى كان لتوفر الأمن والحرية التجارية والخدمات المختلفة على الطرق - والتى سيأتى بيانها -(١) والأخذ بقاعدة المعاملة بالمثل وما شاكلها أثره على النهوض بالتجارة الخارجية والتبادل التجارى على المستوى الخارجى وكان الميزان التجارى مع الدول المجاورة فى غالب الأحوال لصالح الدولة العباسية، مما أدى الى نمو كثير من المدن على شواطىء البحار والانهار وعلى سبيل المثال الاسكندرية على البحر الأبيض المتوسط والقلزم على البحر الأحمر، وعيذاب على الساحل العربى لهذا البحر ايضا، وسيراف على الخليج العربى فى الجزء الفارسى منه والبصرة... الخ(٢).

---

(١) - لمزيد من التفصيل راجع ص٦٨٦ وما بعدها.

(٢) - لمزيد من التفصيل راجع ص٤٠٤ وما بعدها. والميزان التجارى يعنى : العلاقة بين القيمة الكلية للصادرات من الدولة وبين الواردات اليها. انظر حسين عمر، موسوعة المصطلحات الاقتصادية، مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٧م ص٢٨٣

ونتيجة للتطور التجارى فى الدولة العباسية ظهرت المؤسسات المصرفية، وتبع ذلك ظهور كثير من وسائل الدفع كالصكوك(١) والسفاتج(٢)... الخ لتسهيل عمليات التبادل التجارى. - على ما سيأتى تفصيله ونتيجة لتطور التجارة فى العصر العباسى الأول، زادت ايرادات الدولة عن طريق العشور على مختلف السلع التى كانت تدخل حدود الدولة، إذ كانت الدولة العباسية معبرا لكل التجارات حيث كانت جميع القوافل التجارية العالمية فى ذلك الوقت تمر بأراضيها، مما زاد من ايرادات الدولة.

ويدل كل ما تقدم على نهضة النشاط التجارى وتطوره وبالطبع كان ذلك بسبب التمسك بمنهج الله وأحكام شرعه وتطبيق قواعد والضوابط المعاملات التجارية.(٣)

د - ازدهار النشاط المالى :

ازدهر النشاط المالى فى الدولة العباسية فقد زادت ايرادات الدولة - كما سبق أن أشرنا - بفضل الايرادات المتعددة والمتنوعة كايرادات الزكاة والخراج والعشور والجزية والغنيمة والفىء... الخ - على نحو ما سيأتى تفصيله -.

وكانت هذه الايرادات محكومة بمجموعة من الضوابط الشرعية والاقتصادية والتى ساهمت بشكل مباشر فى زيادتها كقاعدة العدالة فى تحمل الاعباء المالية لجميع رعايا الدولة حسب مقدرة كل فرد وظروفه الاقتصادية،

---

(١) - الصك عبارة عن ورق مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى له أجل معين، الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، المرجع السابق ص١٢٣/١٢٤

(٢) - الفستجة تعنى : أن يحرر التاجر خطابا يذكر فيه قيمة معينة من المال قابلة للصرف فى أى مكان آخر لدى عملاء يتعامل معهم هذا التاجر فى البلاد الأخرى. الدورى : المرجع السابق ص١٢٣/١٢٤

(٣) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٦٧ وما بعدها.

وقاعدة اليقين بمعنى أن تكون الضريبة واضحة ومعلومة القدر والقيمة والوقت الذى تحصل فيه، وطريقة الدفع.... الخ دون غموض أو تحكم، كما كان يجب عند تحصيلها أن تكون ملائمة فى مواعيدها واجراءاتها حتى لا تكون عبئا على دافعها، وعند تحصيلها يجب أن تحصل باقل نفقات ممكنة ومتناسبة مع القدر المحصل من تلك الايرادات، كما كان يجب أن يراعى عدم الازدواجية فى تحصيل ايرادات الدولة بمعنى أن لا تفرض على الشخص نفس الضريبة اكثر من مرة عن نفس الشىء ذاته وفى المدة ذاتها، هذا وقد طبق خلفاء الدولة العباسية هذه الضوابط مما كان له أثره على زيادة ايرادات الدولة، وقلت محاولات التهرب من دفع الضريبة بشكل عام فى المجتمع العباسى.(١)

وبالمقابل زادت ايضا نفقات الدولة العباسية عندما استقر امر الدولة وكان ذلك نتيجة لزيادة ايرادات الدولة، لأنه كلما زاد ثراء الأمة كلما أمكن التوسع فى النفقات العامة وخاصة على أثر الفتوحات الاسلامية والتى كان من أثرها الاستيلاء على كثير من الغنائم والأراضى، وقد استثمرت هذه الغنائم وساهمت فى زيادة ايرادات الدولة، ومن ثم فى نفقاتها العامة التى كان لها أثرها على مختلف المؤشرات الاقتصادية فى المجتمع العباسى الأول. فقد أثرت على توزيع الثروة بشكل عام وعالجت مشكلة اختلال التوازن فى توزيع الثروة عن طريق الزكاة(٢) كما أثرت على الانتاج فوجهت كثير من النفقات على الخدمات العامة كالتعليم والصحة والبريد والطرق والأمن.... الخ.(٣)

---

(١) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٥٨٣ من هذا البحث.

(٢) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٦١٧ وما بعدها.

(٣) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٦١٩ من هذا البحث.

وكان من أثر الازدهار المالى للدولة العباسية ان استقرت الأوضاع الاقتصادية واصبحت الدولة العباسية اكبر قوة عالمية فى ذلك الوقت لقوة اقتصادها بالاضافة الى قوة عقيدتها وعاش المسلم فى تلك الفترة عيشة هنيئة تتوفر له كل مقومات الحياة الفاضلة.

هذا وتجدر الاشارة الى أن الضوابط الشرعية قد أثرت فى المجتمع العباسى الأول تأثيرا بالغا، ولا أقول أنه هذه الدولة قد بلغت درجة المثالية فى ذلك، ولكن هذه الدولة كانت لا تزال قريبة عهد بعصر النبوة ثم بفضل تمسكها بالمنهج الاسلامى على وجه الاجمال، ومن ثم أدى ذلك الى تحقيق نهضة زراعية وتجارية وصناعية تحدثت عنها المصادر كثيرا. وهو ما سيتضح لنا من خلال فقرات هذا البحث، وقد تحدث عن هذه النهضة الاعداء قبل الاصدقاء، وهو الأمر الذى يؤكد أن نهضة الأمة الاسلامية وتطورها مرتبط ارتباطا شديدا بتمسكها بدينها وعقيدتها ومنهج حياتها.

وأن ما نشاهده اليوم من ضعف اقتصادى واخلاقى وعقائدى انما يرجع مرده الى البعد عن منهج الله والتهاون فى أمور ديننا واختلاف الأمة فيما بينها حتى تداعى عليها الأعداء، وأصبحت فريسة للئام بسبب اختلافها وبعدها عن منهج ربها ودعوة خالصة من الباحث الى لله عز وجل أن يتغير هذا الواقع الأليم التى تعيشه الأمة الاسلامية، وأن تعود الأمة الى ما كانت عليه من قوة وهيبة ولن يكون ذلك بالطبع إلا بما صلح به أولها وهو التمسك بالكتاب والسنة وتحكيم منهج الله فى كل مناحى الحياة، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(١).

وبعد أن أنتهينا من الضوابط التى كانت تحكم مختلف الأنشطة الاقتصادية فى العصر العباسى نحاول الآن الانتقال الى بيان الأنشطة الاقتصادية المختلفة بالتفصيل.

---

(١) - سورة الرعد الآية رقم ١١

الفصـــل الأول

اقتصاديات النشاط الزراعى وتطوره

ويشتـــمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : نظام الأراضى وآثاره الاقتصـــادية

المبحث الثانى : نظام الزراعة وتطور الفن الانتاجى

المبحث الثالث :السياسات الزراعية ودورها فى تطور النشاط الاقتصـــادى ٠

المبحث الأول

نظام الأراضى وآثاره الاقتصادية

يتميز نظام الأراضى فى الدولة الاسلامية بكثير من المزايا التى لاتوجد فى أى نظام فى العالم سواء من حيث نظام ملكية الأرض أو استغلالها او استثمارها ويحاول الباحث فى هذا المبحث أن يتناول أهم نظم تملك الأرض واستغلالها فى الدولة الاسلامية بشكل عام، والدولة العباسية بصفة خاصة وما صحب هذا النظام من آثار هامة على اقتصاديات الدولة العباسية الأولى سواء على مستوى الانتاج أو التشغيل أو التجارة أو الاستهلاك...الخ الأمر الذى يوضح بجلاء أهمية نظام الأرض فى المنهج الاسلامى كأسلوب تطبيقى للتملك والاستغلال وفيما يلى نتناول نظم تملك الأرض واستغلالها فى الدولة الاسلامية بشكل عام، والدولة العباسية بشكل خاص وذلك فى مطلبين :

المطلب الأول: نظام الأراضى

فى هذا المطلب يتناول الباحث أهم نظم تملك الأراضى واستغلالها فى الدولة الاسلامية بشكل عام والدولة العباسية بشكل خاص.

أولا : الضياع السلطانية :

الضيعة والضياع فى اللغة مال الرجل من النخل والكرم والأرض، وضيعة الرجل : حرفته وصناعته ومعاشه وكسبه يقال : ما ضيعتك! ما حرفتك؟ والضيعة : العقار، والأرض المغلة، والجمع ضيع.
وقال الليث : الضياع المنازل، سميت ضياعا لأنها إذا ترك تعهدها وعمارتها تضيع.(١)

---

(١) - ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ٢ ص٢٣٠/٢٣١

والمراد بها هنا كما يرى بعض الباحثين(١) : المزارع أو الابعاديات، والغالب فيها أن تكون لكبار رجال الدولة من الخلفاء، أو أقاربهم، أو عمالهم، أو وزرائهم أو كتابهم أو من يلوذ بهم من أهل النفوذ.

والضياع السلطانية هي: عبارة عن الأراضى التى صادرها العباسيون من الأمويين وقد توسعت هذه الضياع تدريجيا بطرق مختلفة كالشراء والمصادرة والالجاء(٢)، والاحياء وغيرها كما شملت ايضا ضياع الخلفاء وكبار رجال الدولة فى تلك الفترة.(٣)

البداية التاريخية للضياع السلطانية :

كانت الضياع السلطانية منتشرة فى مختلف انحاء الدولة العباسية، إلا أنها لم تكن وليدة العصر العباسى الأول بل وجدت فى عصر الدولة الأموية، كما تدل على ذلك الوثائق التاريخية، فقد توسع خلفاء بنى أمية فى اتخاذ الضياع منذ بداية العصر الأموى وحتى نهايته.

فقد ذكر البلاذرى فى الفتوح : أن معاوية - رضى الله عنه - كانت له ضيعة بالبلقاء(٤) تدعى "بقنس"(٥) وصارت لولده من بعده ثم قبضت أول الدولة

---

(١) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٢ ص١٢٥، الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، المرجع السابق ص٥٠٦/٥٠٧

(٢) - الالجاء هو : أن يلجىء ضعيف ضيعته الى قوى ليحميها له، الخوارزمى، مفاتيح العلوم، مطبعة الشرق، القاهرة عام ١٣٤٢هـ ص٤٠ والابعاديات هى بلاد الشرقى ومزارعه.

أو بمعنى آخر : أن صغار الملاك يسجلون أراضيهم باسم الخليفة أو أحد كبار رجال الدولة لحمايتهم من ضغط الجباة، وذلك مقابل دفع جزء من الحاصل للحامى، الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب بتحقيق مصطفى السقا، ابراهيم الابيارى، عبدالحفيظ شلبى، الطبعة الأول، مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة عام ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م ص١١٨.

(٣) - عبدالعزيز الدورى، تاريخ العراق الاقتصادي فى القرن الرابع الهجرى، دار المشرق بيروت نشر المكتبة الشرقية عام ١٩٧٤م الطبعة الثانية ص٣٧، الجهشيارى - كتاب الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص١١٨/٩٠

(٤) - البلقاء، كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى فيها قرى كثيرة ومزارع واسعة وبجودة خطتها يضرب بها المثل، راجع ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١ ص٤٨٩

(٥) - بقنس بثلاث كسرات والنون مشدودة من قرى البلقاء من أرض الشام كانت لأبى سفيان ابن صخر بن حرب ثم صارت لولده من بعده راجع ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١ ص٤٧٢

العباسية لبعض ولد أمير المؤمنين المهدى ثم صارت لقوم من الزياتين يعرفون ببنى نعيم من أهل الكوفة.(١)

كما كتب معاوية لكاتبه فى فلسطين سليمان المشجعى اتخذ لى ضياعا ولا تكن بالداروم(٢)، بالمجداب(٣)، ولا بقيسارية المغراق(٤) واتخذها بمجارى السحاب فاتخذ له البطنان(٥) من كورة عسقلان(٦). وكان من اصحاب الضياع الواسعة فى عهد الدولة الأموية ايضا عبدالملك بن مروان الذى اتخذ ضياعا فى كل جند من اجناد الشام.(٧) كما اشتهر ايضا من الأمويين فى اتخاذ الضياع كل من مسلمة وهشام ابنى عبدالملك بن مروان كما تدل على ذلك الوقائع.(٨)

فلما قامت الدولة العباسية صادرت تلك الضياع وآلت الى العباسيين.

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان بتحقيق د/صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربى، القاهرة، نشر مكتبة النهضة المصرية حـ١ ص١٥٣.

(٢) - الداروم ويقال لها ايضا الدارون : قلعة بعد غزة للقاصد مصر، وقد ضربها صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ انظر، ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٤٢٤.

(٣) - المجداب : الأرض التى لا تكاد تخصب، انظر ابن المنظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ١ ص٢٥٧

(٤) - قيسارية المغراق : بلد على ساحل بحر الشام تعد من اعمال فلسطين انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص٤٢١

(٥) - البطنان : بالضم ثم السكون : الموضع التى يستريض فيها ماء السيل، فيكرم نباتها وهو اسم واد بين منبج وحلب، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١ ص٤٤٧

(٦) - عسقلان : مدينة من مدن فلسطين على ساحل البحر المتوسط بين غزة كان يقال لها عروس الشام، انظر المرجع السابق حـ٤ ص١٢٢، الجهشيارى، الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص٢٦

(٧) - البلاذرى ، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ١ ص٤٠

(٨) - راجع البلاذرى، المرجع السابق حـ١ ص١٧٨/٢١٣

قال الجهشيارى : «وقلد أبو العباس عمارة بن حمزة بن ميمون من ولد أبى لبابة مولى عبد الله بن العباس ضياع مروان وآل مروان»٠(١)

وتجدر الاشارة الى أنه فى أوائل دولة بنى العباس بذل الخلفاء الجهد فى انصاف الناس، وتأمينهم، ولم يمد أحد منهم يده الى ضياع أحد من الناس على ما كان عليه الحال إبان الدولة الأموية، ولكن بعض الذين دخلوا فى خدمتهم أو انتموا اليهم من الأمراء أو كبار رجال الدولة صاروا يمدون أيديهم الى ضياع الناس، وكان الخلفاء ينصفون أصحاب الضياع إذا تظلموا ويردون ضياعهم اليهم، وقد ذكر الماوردى فى الأحكام السلطانية عند حديثه عن ديوان المظالم أمثلة على ذلك منها أن الهادى جلس يوما للمظالمة وعمارة بن حمزة قائم على رأسه وله منزلة فحضر رجل فى جملة المتظلمين يدعى أن عمارة غصب ضيعة له فأمر الهادى بالجلوس معه للمحاكمة فقال : يا أمير المؤمنين ان كانت الضيعة له فما اعارضه فيها، وان كانت لى فقد وهبتها له، وما أبيع موضعى من مجلس أمير المؤمنين٠(٢) ومنها ايضا : أن المأمون - رحمه الله - كان يجلس للمظالم فى يوم الأحد من كل أسبوع فنهض ذات يوم من مجلس نظره فلقيته امرأة تشكو إليه ابتزاز ضيعتها فقال لها اذهبى واحضرى خصمك يوم الأحد، فانصرفت وحضرت يوم الأحد فى أول الناس، فقال لها المأمون من خصمك؟ فقالت : القائم على رأسك العباس بن أمير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن اكثم، وقيل لوزيره أحمد بن أبى خالد أجلسها معه وانظر بينهما، فاجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون وجعل كلامهما يعلو، فزجرها بعض حجابه، فقال المأمون دعها فان الحق انطقها، والباطل أخرسه وأمر برد ضياعها عليها٠(٣)

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص٩٠

(٢) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص٩٠

(٣) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص٨٤/٨٥

ومع ذلك فقد ظهرت بعض الإنحرافات فى هذا العصر من العمال والوزراء فاستكثروا من الضياع، وكان الخلفاء يمنعونهم من ذلك بالحكمة فاذا لم يتمكنوا من منعهم بالحسنى منعوهم بالمصادرة أو قبضوا أموالهم بعد موتهم٠

وقد اتسم هذا العصر بكثرة الضياع، وانتشرت الملكيات الكبيرة، فالعباسيون ورثوا كثيرا من الضياع الأموية ثم أضافوا اليها ضياعا أخرى بطرق مختلفة كالاحياء، والشراء والمصادرة، وتنوعت الضياع فهناك الضياع الخاصة(١)، والضياع العباسية(٢)، والضياع العامة(٣)، والفراتية(٤)، وضياع أهل الذمة(٥)٠

---

(١) - الضياع الخاصة : هى ما يملكه الخليفة نفسه لا يشاركه فيه أحد٠

(٢) - الضياع العباسية : وهى فى الغالب لبنى العباس٠

(٣) - الضياع العامة : هى تلك الضياع التى يملكها كبار رجال الدولة من غير بنى العباس ومن عامة الناس ايضا٠

(٤) - الضياع الفراتية : هى تلك الضياع الواقعة على ضفاف الفرات٠

(٥) - ضياع أهل الذمة : هى الضياع الخاصة بأهل الذمة من النصارى وغيرهم٠

جرجى الزيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٢ ص١٢٨، ، الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، المرجع السابق ص٣٨، الريس، الخراج والنظم الاسلامية ، المرجع السابق ص٥٠٦

وقد وجدت وانتشرت الضياع بانحاء مختلفة فى الدولة العباسية(١)، وفيما يلى عرض لأهم هذه الضياع بشىء من التفصيل :

أ - الضياع الخاصة :

وهى ما يملكه الخليفة نفسه، لا يشاركه فيه أحد.

وقد ذكر الذهبى ما يدل على وجود هذا النوع فى العصر العباسى الأول وذلك ان عباد بن كثير قال : قلت لأبى جعفر المنصور : أتؤمن بالله؟ قال : نعم، قلت حدثنى عن الأموال التى اصطفيتموها من بنى أمية، فلئن صارت اليكم ظلما وغصبا، فما رددتموها الى أهلها الذين ظلموا، ولئن كانت لبنى أمية لقد أخذتم ما لا يحل لكم، إذا دعيت غدا بنو أمية بالعدل، جاؤوا بعمر بن عبدالعزيز، واذا دعيتم أنتم، لم تجيئوا بأحد فكن أنت ذاك الأحد، فقد مضت من خلافتك ست عشرة سنة فقال : حتى استكمل بناء بغداد.(٢)

---

(١) - ضياء الدين، الخراج والنظم الاسلامية، المرجع السابق ص٥٠٦

(٢) - الذهبى، سير أعلام النبلاء، طبعة دار المعارف بمصر عام ١٩٥٧م القاهرة حـ٧ ص٨٨

ويظهر من هذا النص أن المنصور قد استغل ضياع بنى أمية فى بناء بغداد، واقامة البنية الاساسية للدولة الجديدة من هذه الأموال.

كما ذكر الطبرى فى تاريخه أن الرشيد لما توفى محمد بن سليمان لم يأخذ شيئا من ماله دينارا ولا درهما، واصطفى ضياعه وفيها ضيعة بالاهواز لها غلة كثيرة.(١) وذكر البلاذرى ايضا : أن أهل همذان الجأوها الى المأمون فصارت من ضياعه.(٢)

ب - الضياع العباسية :

وهى فى الغالب لبنى العباس - أهل الخليفة وعشريته -(٣) وهناك من الأدلة الكثيرة على اتخاذهم الضياع، فمثلا ذكر المؤرخون أن الخيزران لما ماتت احصيت ثروتها فكانت ٠٠٠ر٠٠٠ر١٦٠ درهم.(٤)

جـ: ضياع العامة :

وهى ضياع كبار رجال الدولة من غير بنى العباس، وضياع العامة من الناس، غير أن ضياع العامة من الناس كثيرا ما كانت تتعرض لوقوع ظلم من عمال الجباية، مما أدى الى نشوء ما يعرف بالالجاء.(٥)

وقد روت كتب التاريخ كثيرا عنه فكان الضعاف من الناس يلجئون ضياعهم الى بعض رجال الدولة من ذوى النفوذ والسلطان تعززا بهم من جباة الخراج، فكان صاحب الأرض يلتجئ الى بعض اولئك الرجال من ذوى النفوذ

---

(١) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق جـ٨ ص٢٣٧

(٢) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق جـ٢ ص٣٨٢

(٣) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق جـ٢ ص١٢٨، الريس، الخراج والنظم الاسلامية، المرجع السابق ص٥٠٦، الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، المرجع السابق ص٣٨

(٤) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق جـ٣ ص٣٤٨

(٥) - سبق بيانه فى ص١١٤ .

والقوة فيستأذنه أن يكتب ضيعته أو ضياعه باسمه فلا يجرؤ الجباة على العنف أو الظلم فى الخارج من الأرض، وبتوالى الاعوام تصير الضيعة ملكا للملجأ اليه.

لكن الأصل التاريخى للالجاء عامة يرجع فى الحقيقة الى عهود ما قبل الاسلام، الى عهود الرومان، وبلاد فارس(١)، ثم ظهر لاحقا فى أوربا الغربية فى عهد الاقطاع.(٢)

غير أن الوقائع التاريخية اثبتت ان الالجاء قد عرف قبل الدولة العباسية فقد كانت بدايته فى الدولة الاسلامية ابان العصر الأموى ثم انتقل الى العصر العباسى، وذلك بناء على ما ورد من الوقائع فى عصر الدولة الأموية، ومن تلك الوقائع ما قام به البعض أيام بنى أمية بالعراق من الجاء اراضيهم الواقعة فى منطقة البطائح الى مسلمة بن عبدالملك تعززا به واحتماء بنفوذه.(٣) وما قام به عجم أذربيجان بالجاء قراهم الى ذوى النفوذ الذين نزلوا هذه المناطق وصاروا مزارعين لهم.(٤)

وما قام به أهل مراغة فى أذربيجان نفسها بالجاء أراضيهم الى مروان بن محمد الذى قام باعمارها واصلاحها، فلما كانت الدولة العباسية جعلت - أى هذه الأرض - لبنات أمير المؤمنين الرشيد.(٥)

---

(١) - ابن أبى الحديد، نهج البلاغة، دار الفكر بيروت عام ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م حـ٤ ص١٩٠

(٢) - ول ديورانت، قصة الحضارة نشأة الحضارة الشرق الأدنى ترجمة . زكى نجيب محمود، مطبعة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٦٥م القاهرة، الطبعة الثالثة حـ١٤ ص٤٠٥/٤٠٦، د/ سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، طبعة دار النهضة العربية القاهرة، الطبعة الثالثة عام ١٩٧٢م. حـ٢ ص٤٦،آدم متيز، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة، الطبعة الثالثة مطبعة لجنة التأليف والتربية والنشر، القاهرة عام ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م حـ١ ص١٩٧

(٣) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ١ ص١٧٨

(٤) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٤٠٤

(٥) - المرجع السابق حـ٢ ص٤٠٤/٤٠٥

وهناك شواهد كثيرة تدل على وجوده فى العصر العباسى الأول من ذلك أن أباأيوب الموريانى وزير المنصور اعار اسمه رجلا من أهل الأهواز على ضيعته، حيث ان العمال قد حملوه فيها ما لا يطيق وذلك مقابل مبلغ مائة الف درهم فقال له قد وهبت لك اسمى فافعل ما بدا لك، وخرج الرجل وحال الحول فاحضر الرجل المال المتفق عليه ووضعه بين يديه، ونهض الرجل شاكرا داعيا.(١)

وبناء على ذلك فان الالجاء قد عرف فى بلاد المسلمين بعد الفتوحات الاسلامية من البلاد التى كانت خاضعة للحكم الرومانى ومن بلاد فارس حيث انه لم يكن يعرف إبان الخلافة الراشدة، وهو من المساوىء الى دخلت بلاد المسلمين ابان الفتوحات الاسلامية.

ومن الأمثلة على ذلك ايضا ما ذكره البلاذرى أن القاسم بن الرشيد حين ولى جرجان وطبرستان وقزوين - الجأ اليه أهل زنجان ضياعهم، تعززا به ورفعا لظلم العمال عنهم لهم وكتبوا له عليها الأشرية، وصاروا مزارعين له، واصبحت أراضيهم من ضياعه.(٢) وذكر البلاذرى ايضا : أن أهل «الشعيبة» من الفرات جعلوا ضياع البصرة لعلى بن أمير المؤمنين الرشيد فى خلافة الرشيد على أن يكونوا مزارعين له فيها، ويخفف مقاسمتهم، فتكلم فيها فجعلت عشرية من الصدقة، وقاسم أهلها على ما رضوا به.(٣)

وما قام به أهل الجبل من الجاء ضياعهم الى همام بن هانى العبدى وهو قائد لدى الجرشى والى هذا الجبل، وقد استبد به الطمع فغلب على ما فيها، وبعد وفاته الجأها أولاده بدورهم عندما عجزوا عن مداراتها الى المأمون وذلك فى رجوعه من خراسان قاصدا بغداد.(٤)

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص١١٨
(٢) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٩٦/٣٩٧، وزنجان بلد كبير من نواحى الجبال بين اذربيجان وبينها وهي قريبة من قزوين، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٣ ص١٥٢
(٣) - المرجع السابق حـ٢ ص٤٥٦
(٤) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٨٢

وبناء على ما تقدم فالالجاء كان موجودا فى الدولة الاسلامية بدء من الدولة الأموية ثم انتقل الى الدولة العباسية.

وقد عرفه المسلمون وطبقوه فى حياتهم العملية فما هو الموقف الفقهى لهذا العقد، هل هو مشروع من الناحية الاسلامية أم لا؟

اختلف الفقهاء فى صحة هذا العقد على قولين :

القول الأول : وهو لجمهور الفقهاء من الأحناف(١)، والمالكية(٢) والحنابلة(٣)، الى بطلان عقد التلجئة وفساده لأنه من قبيل أكل أموال الناس بالباطل وقد قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾(٤)

فكما هو معلوم أن الأصل فى صحة أى عقد من العقود لابد أن يتوفر فيه الرضا والاختيار من جانبى العقد، وبالتالى فان أى عقد لا يتوفر فيه الرضا من الجانبين فهو باطل لقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾(٥)، فالنص القرآنى يدل على أمرين:

الأول : النهى عن أكل أموال الناس بالباطل عموما.

والثانى : استثناء التجارة عن تراض من هذا النهى والتجارة هى البيع والشراء والالجاء لا بيع فيه ولا شراء بل هو أكل للأموال بغير عوض أو هبة من صاحبها، وأكل الأموال بغير عوض أو هبة من صاحبها من الباطل

---

(١) - الكاسانى، بدائع الصنائع، مبطعة الامام القاهرة حـ٧ ص٣٠٨٩/٣٠٩٠

(٢) - الحطاب، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، مكتبة النجاح ليبيا حـ٣ ص٢٤٨

(٣) - ابن تيمية، الفتاوى الكبرى، دار المعرفة بيروت حـ٣ ص١٥٢، ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق حـ٤ ص٢٣٧، البهوتى، كشاف القناع، مكتبة النهضة الحديثة، الرياض حـ٣ ص١٤٩

(٤) - سورة النساء الآية رقم ٢٩

(٥) - سورة النساء الآية رقم ٢٩

بالاجماع إذن فالالجاء داخل فى هذا النهى.(١)

ولقوله ﷺ : «إنما البيع عن تراض»(٢) وقوله ﷺ : «لايحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه»(٣)، والالجاء أخذ لأموال الناس عن غير طيب نفس منهم فهو داخل فى التحريم.

قلت : والالجاء مخالف لقواعد الشريعة الاسلامية فقد قال ﷺ : «لا ضرر ولا ضرار»(٤) وإذا وضعنا هذا العقد امام هذه القاعدة فان هذا العقد لا يتفق معها البتة. فالضرر وقع على صاحب الأرض بتنازله عنها - حتى ولو كان العقد صوريا - فهو سيجعل للحامى شيئا من ريعها دون جهد سوى وضع اسمه عليها وبالتالى يعد هذا تكليفا ماديا، هو فى غنى عنه لو كانت الأمور فى ظروف عادية والعدل سائدا، والأسوأ من ذلك ايضا أن يفقد الشخص ملكية عقاره للحامى - كما حدث فى بعض الفترات على ما مر - ولا ضرر اعظم من أن يفقد الشخص ملكيته لعقاره.

القول الثانى : وهو للشافعية فالصحيح عندهم صحة العقد الظاهر لأن العبرة عندهم بظاهر العقد لا بما ينويه العاقدان، والاتفاق السرى المبرم بينهم لا أثر له فلو اتفقا على شرط فاسد يذكراه فى العقد ثم ابرما العقد بلا شرط صح العقد عندهم.(٥)

---

(١) - القرطبى، تفسير القرطبى، المرجع السابق حـ٥ ص١٥٠/١٥١
قال مجاهد : ﴿إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم﴾ بيعا أو اعطاء فالمستثنى فى الآية كل عقد شرعى سواء أكان بعوض أو غير عوض أما ماعدا ذلك فلا يدخل فى هذا الاستثناء ويكون من قبيل أكل الأموال بالباطل. انظر ابن كثير تفسير ابن كثير حـ١ ص٤٧٩، القرطبى، تفسير القرطبى حـ٥ ص١٥١/٥٢، الفخرى الرازى، التفسير الكبير، طبعة دار الكتب العلمية، طهران الطبعة الثانية حـ١٠ ص٧٠

(٢) - رواه ابن ماجة فى سننه وقال محققه محمد فؤاد عبدالباقى الحديث صحيح الاسناد ورجاله موثقون، انظر سنن ابن ماجة بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، المرجع السابق حـ٢ ص٧٣٧

(٣) - رواه الحاكم وابن حبان فى صحيحهما قال صاحب سبل السلام وفى الباب أحاديث كثيرة فى معناه، والأحاديث دالة على تحريم مال المسلم إلا بطيبة من نفسه وان قل والاجماع واقع على ذلك. انظر الصنعانى، سبل السلام، المرجع السابق حـ٣ ص٥٩

(٤) - الحديث سبق تخريجه فى ص٧٨

(٥) - النووى، المجموع، ط. مطبعة الامام القاهرة، المرجع السابق حـ٩ ص٢٨٤/٣٦٧

والراجح والله أعلم

هو ما ذهب اليه جمهور الفقهاء من بطلان عقد الالجاء لأمور كثيرة منها أنه مبنى على الاكراه والاكراه عيب من عيوب الرضا ولمخالفته لقواعد الشريعة ومقاصدها، ولأنه استحلال لمال المسلم عن غير طيب نفس منه، وتملك لأموال الناس بالباطل من غير أن يكون هناك سبب من أسباب الملكية إذ ان أسباب الملكية، أما أن تكون لجهد خاص من الانسان يؤديه فيستحق التملك به كالأجرة على العمل أو التجارة أو الصناعة أو الزراعة، أو الاستيلاء على المباح الذى لم يدخل تحت طائلة ملك أحد ولا مانع شرعى من تمكله كاحياء الأرض والاستيلاء على المعادن، ودفين الجاهلية والاستيلاء على الكلأ والنار والماء والحيوان عن طريق الصيد. أو التملك بسبب الجهاد بالغنيمة والسلب (ما يوجد مع المحارب) أو التملك بارادة الغير تبرعا كالوصية والهبة وغيرها. والتملك بسبب حكم شرعى كالزكاة، والنفقات والميراث والكفارات(١)، والالجاء لا يدخل تحت أى من ذلك فلا يكون سبب مشروعا للتملك ولكل ذلك نرجح رأى الجمهور والله أعلم.

وبناءً على ما تقدم فان عقد الالجاء بالصورة التى مرت فى عهود الدولة الاسلامية (الأموية والعباسية) يعد من عيوب النظام الاقتصادى آنذاك ذلك لأن الهدف من الالجاء هو أحد أمرين:

الأول : اما أن يكون الغرض منه تهرب صاحب الأرض من دفع الخراج أو التقليل من المستحق عليه، فيحاول أن يجد شخصا ذا قوة وسطوة، فيؤثر على تقدير العمال لخراجه وهذا فيه ضرر على الدولة إذ انه سينقص من مقدار حصيلة الدولة من الأموال اللازمة للصرف على مصالح المسلمين، وخدماتهم. وبالتالى يؤثر على جانب ايرادات الدولة.

---

(١) - د. عبدالله المصلح، الملكية الخاصة فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق من ص٨٣/١٤٤ بتصرف.

الثانى : أن يكون الغرض من وجود هذا العقد هو رفع ظلم واقع فعلا على عامة الناس فى التقدير للخراج، وهو عيب ايضا إذ ان ولى أمر المسلمين يجب عليه أن يتخير الكفاءات من أهل التقوى والورع وذوى القدرة والكفاءة العلمية والخبرة ايضا ليتحقق النفع العام للأمة أفرادا وجماعات من خلال رفع الظلم الواقع على أصحاب الضياع والذى يؤدى بهم الى الالتجاء الى هذا العقد لتفادى ما ينجم عن هذا الظلم من اضرار. والى هذا أشار ابن أبى الحديد فى كتابه نهج البلاغة : «واعلم أن من أهل الخراج من يلجىء بعض اراضيه وضياعه الى خاصة الملك وبطانته لأحد أمرين : أنت حرى بكراهتهما اما الامتناع من جور العمال وظلم الولاة، وتلك منزلة يظهر بها سوء اثر العمال وضعف الملك واخلاله بما تحت يده، واما للدفع عما يلزمهم من الحق والتيسير له، وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية وتنتقص بها أموال الملك فاحذر ذلك وعاقب الملتجئين والملجأ اليهم.(١)

د - ضياع أهل الذمة :

وهى تلك الضياع الخاصة بأهل الذمة، وقد كانوا أحد عناصر الدولة الاسلامية وسكانها وكانت لهم ضياع كما كان للمسلمين ضياع، ومما يدل على أن أهل الذمة كان لهم ضياع ابان الدولة العباسية - كما كان للمسلمين - ما ذكره المقريزى فى الخطط من أن المأمون لما سار فى قرى مصر كان يبنى له بكل قرية دكه يضرب عليها سرداقه والعساكر من حوله وكان يقيم فى القرية يوما وليلة فمر بقرية يقال لها «طاء النمل»(٢) فلم يدخلها لحقارتها فلما تجاوزها خرجت اليه عجوز تعرف بـ «مارية القبطية» صاحبة القرية وهى تصيح فظنها مستغيثة متظلمة فوقف لها وكان لا يمش ابدا إلا والتراجمة بين يديه من كل

---

(١) - ابن أبى الحديد، شرح نهج البلاغة، المرجع السابق حـ٤ ص١٩٠

(٢) - طاء النمل : لم اعثر عليها فى معاجم البلدان وكذا المصادر الجغرافية والتاريخية ولعلها بلدة قد اندثرت ولم أجدها إلا فى خطط المقريزى، انظر المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص٨١

جنس، فذكروا له أن القبطية قالت يا أمير المؤمنين نزلت فى كل ضيعة وتجاوزت ضيعتى، والقبط تعيرنى بذلك، وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفنى بحلوله فى ضيعتى ليكون لى الشرف ولا تشمت الاعداء بى وبكت بكاء كثيرا فرق لها المأمون ونزل عندها فجاء ولدها الى صاحب المطبخ وسأله كم تحتاج من الغنم والدجاج والسمك والسكر والعسل والطيب.....مما جرت به عادته فأحضر جميع ذلك بزيادة وكان مع المأمون أخوه المعتصم وابنه وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن اكثم والقاضى أحمد بن داود فاحضرت لكل واحد منهم ما يخصه على انفراده ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئا كثيرا فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت اليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق فلما عاينها المأمون قال لمن حضر قد جاءتكم القبطية بهدية الريف الكامخ(١) فلما وضعت ذلك بين يديه اذا فى كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها باعادته قالت : لا والله لا أفعل فتأمل الذهب فاذا به ضرب عام واحد كله فقال هذا والله أعجب ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا فقال ان فى بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب أن نثقل عليك فردى مالك بارك الله فيك فأخذت قطعة من الأرض، وقالت يا أمير المؤمنين هذا وأشارت الى الذهب من هذا واشارت الى الطينة التى تناولتها من الارض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندى من هذا شىء كثير فأمر به فأخذه منها وأقطعها عدة ضياع واعطاها من قريتها «طاء النمل» مائتى فدان بغير خراج وانصرف متعجبا من مروءتها وسعة حالها».(٢)

وتذكر كتب التاريخ ايضا كثيرا من نماذج أهل الذمة الذين جمعوا الأموال والضياع ابان الدولة العباسية الأولى، منهم جبريل الطبيب الذى اتخذه

---

(١) - الكامخ : بفتح الميم وكسرها ما يؤتدم به، انظر الفيومى، المصباح المنير، المرجع السابق حـ٢ ص٢٠٢، ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ٣ ص٤٩، والوصيف الخادم غلاما كان أو جارية، انظر المعجم الوسيط حـ٢ ص١٠٤٨

(٢) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص٨١

هارون الرشيد طبيبا خاصا له كان نصرانيا، بلغ ايراده السنوى ٨٠٠٠٠٠ (الف ثمانمائة الف درهم) من املاكه الخاصة فضلا عن راتبه الذى قدر بـ (٢٨٠٠٠٠) درهم فى السنة مقابل عنايته بمعالجة الخليفة.

والوقائع التى مرت تدل على أمور :-

١ - أن أهل الذمة كان لهم ضياع فى الدولة الاسلامية كماكان للمسلمين ضياع.

٢ - أن الامام المسلم من الممكن أن يقطع أهل الذمة من قطائع الدولة الاسلامية، وهذا ما فعله المأمون فقد اقطع المرأة القبطية عدة ضياع ومائتي فدان فى قريتها كما مر وبدون خراج، ولعل اعفاءها من الخراج كان نظير ما قدمته له من الذهب، ويحتمل ايضا أن الذهب لم يكن يساوى الضياع التى اقطعها لها وكلا التفسرين متحمل لكن الذى يهمنا هنا هل يجوز للامام المسلم أن يقطع غير المسلمين من أهل الكتاب ارضا لأحيائها؟

اختلف فقهاء المسلمين فى ذلك على أقوال :

القول الأول : وهو جواز احيائهم دون التفريق فى ذلك بينهم وبين المسلمين، وما يتبع ذلك من تمكلها بالشراء وغيره والتمتع بمباحاتها المختلفة، وبهذا القول قال الحنفية(١)، والمالكية(٢) فى قول، والحنابلة(٣).

وأدلتهم على ذلك ما يلى:-

---

(١) - ابن نجيم، البحر الرائق شرح كنز الدقائق، المرجع السابق حـ٨ ص٢٣٩

(٢) - للمالكية فى ذلك أقوال ثلاثة :

أ - جواز احيائهم فى البعيد كالمسلمين دون القريب حتى لو أذن الامام بذلك.

ب - جواز احيائهم فى البعيد والقريب لكن يستثنى اراضى الجزيرة العربية فانه غير جائز.

جـ - المنع مطلقا فى القريب والبعيد لقوله ﷺ «موتان الأرض لله ولرسوله ثم هى لكم منى».

راجع فى ذلك : الخرشى على مختصر سيدى خليل، المرجع السابق حـ٧ ص٧٠ ط دار صادر بيروت.، الحطاب، مواهب الجليل لشرح مختصر خليل، المرجع السابق حـ٦ ص١٠/١١، الدردير، الشرح الكبير مع حاشية الدسوقى ط المكتبة التجارية الكبرى توزيع دار الفكر حـ٤ ص٦٢، ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق حـ٥ ص٥٦٦

(٣) - المرداوى، الانصاف فى معرفة الراجح من الخلاف، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م، حـ٦ ص٣٥٨، البهوتى، كشاف القناع عن متن الاقناع، المرجع السابق حـ٤ ص١٨٦، ابن قدامة، المغنى ، المرجع السابق حـ٥ ص٥١٥

عموم قوله ﷺ : «من أحيا أرضا ميتة فهى له»، كما أنهم من أهل دار الاسلام تجرى عليهم احكامه، فلزم مساواتهم بالمسلمين فى ذلك، ولأن الاحياء سبب من أسباب التمليك فاشترك فيها المسلم والذمى كسائر جهاته.(١)

القول الثاني : وهم المانعون وهم الشافعية(٢) ، والظاهرية(٣)، وكذا بعض المالكية(٤) - على ما مر - بأنه لا يجوز للكافر الاحياء فى دار الاسلام سواء اذن الامام فى ذلك أولم يأذن.

وأدلتهم فى ذلك ما يلى :

١ - ما روى أن النبى ﷺ قال : «عادى الأرض لله ولرسوله ثم لكم منى بعد فمن احيا شيئا من موتان الأرض فله رقبتها».(٥) فجمع الموتان وجعلها للمسلمين، فوجه الخطاب للمسلمين وأضاف ملك الموات اليهم فدل ذلك على اختصاصهم بالحكم، فانتفى أن يكون لغيرهم. ولأن موات الدار من حقوق الدار، والدار للمسلمين فكان الموات لهم كمرافق المملوك لا يجوز لغير المالك احياؤه.

٢ - ولأن النبى ﷺ قال : «لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب»(٦) وهو اشارة الى اجلائهم، وقد اجلاهم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه -.

---

(١) - ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق جـ٥ ص٥١٥ والحديث سبق تخريجه فى ص٤٩

(٢) - النووى، المجموع شرح المهذب، المرجع السابق جـ١٥ ص٢٠٥/٢٠٩، الرملى، نهاية المحتاج الى شرح المنهاج، المرجع السابق جـ٥ ص٣٣١ ص٣٣٢ .

(٣) - ابن حزم، المحلى، المرجع السابق جـ٥ ص٢٤٣

(٤) - الخرشى ، الخرشى على مختصر سيدى جليل، المرجع السابق جـ٧ ص٧٠، الحطاب، مواهب الجليل، المرجع السابق جـ٦ ص١٠/١١

(٥) - رواه البيهقى، السنن الكبرى، طبعة دار صادر بيروت الطبعة الأولى مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الهند عام ١٣٥٢هـ جـ٦ ص١٤٣، وذكر أنه تفرد به معاوية بن هشام ومعاوية ذكره ابن الجوزى فى الضعفاء وقال روى ما ليس بسماعه فتركوه.

(٦) - رواه البيهقى، السنن الكبرى، المرجع السابق جـ٩ ص٢٠٨

فلما أمر بازالة املاكهم الثابتة فأولى أن يمنعوا من أن يستحدثوا أملاكا جديدة، لأن استدامة الملك أقوى من الاستحداث فاذا لم يكن لهم الأقوى فالأضعف من باب أولى.(١)

الراجح والله أعلم:

جواز احيائهم لأن الرسول ﷺ قال «هى لكم» يقصد دار الاسلام، ومن الواضح أن أهل الذمة من أهل دار الاسلام، وتجرى عليهم أحكامها كما تجرى على المسلمين. أما قوله ﷺ : «لايجتمع فى جزيرة العرب دينان» فالنص يمنع وجود دينان فى جزيرة العرب دون غيرها، وما فعله عمر كان فى جزيرة العرب فقط كما أنه ليس دليلا على منعهم من التملك والاحياء فى الاماكن الأخرى، ولم يثبت أن عمر - رضى الله عنه - اجلاهم عن مصر وقد كان بها أهل ذمة.

لكن ينبغى على الامام المسلم أن يراعى أحوال الديار الاسلامية وظروفها الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية فيفعل ما فيه الأصلح للأمة، فاذا كان فى جواز احياء الأرض من أهل الذمة ما سيترتب عليه ضرر دينى أو سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى فيمنعه البتة. على أنه فى كل الحالات يرى الباحث أن الاوفق أن يكون احياؤهم الأرض باذن الامام حيث هو أدرى بمصلحة الأمة، وأعلم بشئونها.

ولاشك أنه قد يستغل بعض هؤلاء الفرص فتتركز الأموال بأيديهم فيتحكمون فى اقتصاد البلاد والعباد، مما قد يلحق الضرر بالأمة، بل ربما قد يحيون أرضا لها أهميتها من الناحية العسكرية فيستخدمونها فى اغراض خبيثه، فولى الأمر إذا اباح لهم ذلك عليه أن يضع فى اعتباره جميع ظروف البلاد وأوضاعها المختلفة فيجعلها نصب عينيه.

---

(١) - النووى، المجموع، المرجع السابق حـ١٥ ص٢٠٥/٢٠٩، الرملى، نهاية المحتاج، المرجع السابق حـ٥ ص٣٣١/٣٣٢، ابن حزم، المحلى، المرجع السابق، حـ٥ ص٢٤٣

كذلك يجب أن ينظر الى أحوال المسلمين فيقدمهم على أهل الذمة فى الاحياء ان رأى المصلحة فى ذلك وإلا فهو سبب للتملك كالبيع والشراء والاجارة وغيرها وهم غير ممنوعين من التملك بهذه الاسباب. وعليه أن ينظر ايضا أحوال أهل الذمة باعتبارهم من أهل الديار الاسلامية، فاذا كانوا فى فقر أو عوز اعطاهم كما فعل عمر - رضى الله عنه - مع اليهود حتى لا يكونوا عبئا على الدولة، ويفتح لهم مجال الاحياء ايضا حتى لا يكونوا طاقة معطلة فى المجتمع، وبالتالى يقلل من حجم البطالة فى المجتمع الاسلامى لما لها من آثار اجتماعية تؤدى الى الأضرار بالنشاط الاقتصادى على المستوى الكلى للدولة، وفى نفس الوقت يؤدى فتح مجال الأحياء امام أهل الذمة الى آثار ايجابية على النشاط الاقتصادى وترتبط هذه الآثار بالانتاج والايرادات العامة وكل ذلك يعود بالنفع على الأمة الاسلامية. والله أعلم.

الضياع فى أوربا

البدء التاريخى لنظام الضياع(١) : (Manor)

عرف نظام الضياع فى أوربا منذ عهد الامبراطورية الرومانية، لكنه كان يختلف عن نظام الضياع فى أوربا فى العصور الوسطى، حيث اعتمدت الضياع فى الامبراطورية الرومانية على التبادل التجارى مع المدن المزدهرة التى اشتهرت الحضارة الرومانية بها، فكانت الضياع تصدر انتاجها الزراعى الى المدن وتستورد منها انتاجها الصناعى.(١)

ونظام الضياع هو نظام الالتزام الرومانى القديم المعروف بنظام - اللانيفونديا - أى نظام الضياع الكبيرة - الذى سيطر فيه ملاك الأرض على عدد من الافراد الذين ساقتهم الاقدار للعمل فى هذه الضياع.(٢)

---

(١) - كانت الضيعة وحدة نظام الملكية الزراعية فى تلك العصور، بالضبط كما كان الاقطاع وحدة النظام الاقطاعى بمعنى أن الاقطاع كان يمكن أن يتألف من عدة ضياع- سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٢٨٤

(٢) - على الغمراوى، مدخل الى دراسة التاريخ الأوربى الوسيط، الطبعة الثانية، مكتبة سعيد رأفت عام ١٩٧٧م ص٢٢٦

وقد أتخذت أوربا فى تلك الفترة (فترة هذه الدراسة) هذا النظام اساسا للحياة الاقتصادية فى الوقت الذى تلاشت فيه أهمية المدن وضعفت التجارة عندهم، وأصبحت الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها لا تربطها روابط تجارية بغيرها، وكان أهلها يعتمدون على سواعدهم فى كل ما يحتاجون اليه.(١)

وعلى هذا فان نظام الضياع نقل الى الدولة الاسلامية فهو لم يكن وليد بيئتهم، كما أنه لم يوجد إلا فى عصر الدولة الأموية، والدولة العباسية التى نحن بصدد دراستها، كما أن هذا النظام لم يكن يشبه ما كان موجودا فى أوربا فى تلك الفترة إذ من الثابت أن الامبراطورية الرومانية عرفت هذا النظام منذ فترة طويلة وذلك قبل مجىء الاسلام أصلا. وبالتالى فان هذا النظام فى الدولة الاسلامية وجد بسبب الفتوحات الاسلامية التى حدثت آنذاك وظلت أوضاع البلاد المفتوحة على ما هى عليه فى هذا المجال الاقتصادى كشكل من اشكال التملك مع حدوث تطور فى اسلوبه وكيفية تطبيقه بما يتفق مع تعاليم الاسلام.

وكدليل على وجود نظام الضياع فى أوربا فى تلك الفترة، عرف عندهم ما يسمى بأراضى التاج الملكى وهى عبارة عن : الاراضى التابعة للملك، وكانت تمنح كاقطاعات لذوى الجدارة من الرعية.

وكانت أراضى التاج فى تزايد مستمر بفضل حق الملك غير المنازع فى الأراضى التى لامالك لها وما يجفف من أراضى المستنقعات، وفيما يحصل من فائدة الغابات والشواطىء والمناجم غير الخاضعة للملكية الشخصية، فكان الملك يقوم بتوزيعها لذوى الجدارة من الناس(٢) - كما سبق أن أشرنا -.

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٧٣/٧٤

(٢) - السيرجون - أ - هامرتن، تاريخ العالم، مقال مدون فى هذا الكتاب بعنوان الحياة فى القرون الوسطى فى الممالك الغربية، ترجمة وهيب كامل وباشراف وزارة التربية والتعليم بمصر، طبع الكتاب بمطبعة مكتبة النهضة المصرية، ونشرته الوزارة، بالقاهرة، انظر حـ٤ ص٤٨٣

وكانت الضيعة هى النظام السائد فى أوربا - فى تلك الفترة - وتمثل نظام الملكية الزراعية وكانت أشبه ما يكون بمملكة صغيرة يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة، ويمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتى، بحيث كان انتاجها يشبع كلا الطرفين - الفلاح وسيده -٠

ومن أهم ما يميز الضيعة فى ذلك الوقت، انها كانت تنتج جميع المواد الغذائية اللازمة لأهل الضيعة٠(١)

وخلاصة القول : أن الضيعة اقتصاديا كانت تتبع نظام الاكتفاء الذاتى، أو الاقتصاد المغلق(٢) فتنتج جميع المواد الغذائية اللازمة والمواد التى تحتاجها الضيعة والصناعات الخفيفة التى كانت موجودة آنذاك ولا تستورد نهائيا إلا فى حدود ضيقة جدا تخضع لظروف ورغبة السيد الاقطاعى٠ وكانت لكل ضيعة بعض الصناعات اليدوية التى تحتاجها الضيعة فكان لكل ضيعة حدادوها ونجاروها٠٠٠٠ الخ٠

وكانت المرأة تقوم ببعض الاعمال اليدوية كغزل الصوف ونسجه، كما كان هناك بعض الصناعات الأخرى كدبغ الجلود لصناعة النعال والسروج وغيرها٠ وظل الأمر على ذلك حتى القرن الثانى عشر الميلادى، وبالتالى لم يكن هناك حاجة الى التبادل التجارى مع العالم الخارجى، مما ترتب عليه عدم وجود اسواق كبرى للمنتجات الأوربية فى ذلك العصر٠

وكانت الضيعة تتألف فى العادة من القرية وأراضيها، وأحيانا من عدة قرى وتكون ضيعة واحدة٠ وكانت تخضع فى الغالب لأحد الملاك، وأحيانا أخرى لعدد من الملاك لكل واحد منهم قسما يسمى ضيعة٠

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٧٤

(٢) - اقتصاد مغلق هو اقتصاد يكتفى ذاتيا فلا تقوم بينه وبين الاقتصاديات الاخرى أية علاقة اقتصادية٠ راجع د٠ عبدالعزيز فهمى هيكل موسوعة المصطلحات الاقتصادية والاحصائية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت عام ١٩٨٠م ص١٣٢، حسين عمر موسوعة المصطلحات الاقتصادية مكتبة القاهرة الحديثة عام ١٩٦٧م الطبعة الثانية ص٤٣

الوضع الاجتماعي للمالك والفلاح في ظل نظام الضيعة :

كان المالك (السيد الاقطاعي) يعيش حياة الترف والبذخ والثراء فدواره الذى يعيش فيه تحيط به حديقة مسورة بأشجار الفاكهة وخلايا النحل والمخازن فضلا عن الآلات والعربات والمعدات المستخدمة فى فلاحة الأرض. أما الفلاحون فكانوا يعيشون حياة البؤس فى اكواخ من جذوع الشجر غطيت سقوفها بفروع الشجر وأراضيها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ، كما تظهر فى هذه الأكواخ القذارة وعدم الرعاية الصحية.

وكان الفلاح هو الذى يبنى كوخه ويصنع أثاثه بنفسه، وتقوم زوجته وبناته بعمل الخبز والطعام ، وغزل الصوف وصناعته. وهكذا عاش الفلاح الأوربى فى تلك الفترة ظروفا صعبة غير صحية مما أدى الى انتشار كثير من الأوبئة والامراض التى كانت تفتك بهم بين الحين والآخر، كما كان معظم فلاحى الضيعة من الاقنان المرتبطين بالارض وهم : اشخاص ليسوا بعبيد ولا احرار فهم احرار الكنيسة، وليسوا عبيدا لأن (السيد الاقطاعى) لم يكن من حقه أن يبيعهم أو أن يتصرف فيهم لكنهم كانوا فى الواقع الفعلى والعملى عبيدا وإن لم يطلق عليهم لفظ (عبد) وقد كان القن مقيدا بقيود كثيرة يتحتم عليه حلق شعر رأسه لأن الشعر القصير أو الطويل من سمات الاحرار، كما كان لا يستطيع أن يدعى حق الملكية الشخصية، لأن كل ما يمتلكه يعتبر خاصا بالسيد الاقطاعى صاحب الضيعة وملكا له.(١)

حقوق وواجبات الفلاح الأوربى فى ظل نظام الضيعة :

من المعلوم أن الواجبات المفروضة على الفلاحين تجاه سيدهم الاقطاعى فى أوربا فى تلك الفترة قد اختلفت من مكان لآخر نتيجة لاختلاف العادات والملابسات . ويمكن تقسيم تلك الواجبات الى ثلاثة أقسام رئيسية هي : الخدمات، المقررات، الاحتكارات.

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٧٤/٧٩

١ - الخدمات :

وتعنى ما كان يلزم هؤلاء الفلاحين تجاه سيدهم من خدمات لكنها لم تأخذ شكل الخدمات، وانما كانت نظام سخرة للسيد الاقطاعى، فكان على الاقنان فلاحة المزرعة الخاصة بالاقطاعى فيحرثونها ويبذرونها ويقومون عليها بالتناوب فيما بينهم ويسمى هذا النوع من السخرة بالخدمة الاسبوعية (week work) لأن المقصود بها أن يرسل صاحب كل حصة فلاحا ليعمل فى مزرعة (السيد) عددا من الأيام فى الاسبوع يتناسب مع حصته. هذا فضلا عن السخرة الفصلية (boon work) التى تفرض على الفلاحين فى مواسم جمع المحصول وحصاده.

٢ - المقررات :

وهى تشمل الضرائب والمكوس التى تفرض عليه تجاه سيده الاقطاعى، ومن هذه الضرائب : ضريبة على الرأس ويتعين على كل قن دفعها سنويا للسيد صاحب الضيعة اما نقديا أو عينيا من الزبد والشمع وغيرها، ويبدو أن هذه الضريبة كانت تافهة إلا أنها كانت رمزا للعبودية.

وهناك ضرائب أخرى على الناتج الخارج من الارض والماشية، ومقداره عشر ذلك الناتج، وكانت تشمل كل ما تخرجه الأرض من الحبوب والخضر فضلا عن الماشية والدجاج والبط والاوز والبيض وغيرها.

وهناك ضرائب أخرى متفرقة كضريبة الولاية، وضريبة الجبن فى مقابل السماح لهم برعى ماشيتهم فى مراعى الضيعة.

وضريبة الاسماك مقابل السماح لهم بالصيد فى البركة أو النهر.

٣ - الاحتكارات :

اما الاحتكارات وتعنى أن السيد الاقطاعى له احتكار بعض الآلات، ليس من حق القن أو الفلاح امتلاكها، فللسيد صاحب الضيعة أن يمتلك طاحونة وفرنا ومعصرة بل احيانا البئر - وقد يكون البئر الوحيد للضيعة - وبناء على ذلك كان على كل قن احضار غلته الى طاحونة السيد يطحنها ثم يحمل الخبز الى فرن السيد لخبزه، وكرومه وزيتونه وتفاحه الى معصرة السيد لعصرها. كل ذلك مقابل أجر معين يقدمه القن للسيد اما نقدا أو عينا.

واذا امتلك الفلاح شيئا من هذه الادوات فانه يعتبر جرما خطيرا يحاكم عليه. كما كان للسيد حقوقا قضائية باعتباره نائبا عن الملك فى ضيعته، وكان يباشر جميع القضايا ويوقع على المذنبين شتى اصناف العقوبات.

وبالتالى استفاد السادة من هذه الحقوق فكانوا يفرضون الغرامات المالية كما شاءوا وبناء على ذلك ظل القن عاجزا امام سيده وظل الأمر على هذا الحال حتى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى.(١)

وهكذا يتضح مدى المعاناة التى كان يعيشها الفلاح الأوربى فى تلك الفترة.

وبعد أن القينا الضوء على الضياع فى العصر العباسى الاول، وفى أوربا فى تلك الفترة فاذا أردنا أن نعقد موازنة بين شكل الضياع فى الدولة العباسية، وما كان عليه الحال فى أوربا فانه يتضح لنا النقاط التالية :

أولا : لم يكن نظام الضياع فى العصر العباسى هو نظام الحياة الاقتصادية كما كان فى أوربا فى تلك الفترة فقد كان نظام الضياع فى أوربا - كما سبق وأن أشرنا هو النظام السائد، وكان مجتمع الضيعة هو المحور الذى يقوم عليه البناء الاقتصادى للدولة، أما الوضع فى الدولة العباسية فقد كان مختلفا تماما، فقد كانت الضياع موجودة، ولكنها لم تكن تمثل البناء الاقتصادى للدولة، بل كانت أحد أجزائه فقد كانت وسيلة من وسائل التملك، فالتملك فى التشريع الاسلامى له وسائل كثيرة فقد يكون بسبب الجهد الخاص كالأجرة على العمل المشروع، أو بسبب التجارة باشكالها المختلفة الداخلية والخارجية، أو الاسترزاع أو الاستصناع أو الاستيلاء على المباح من جماد وحيوان ونبات، ويدخل فيه احياء الأرض الموات ودفين الجاهلية وغيرها، مما سيأتى ذكره.

---

(١) - د. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق جـ٢ ص٨٤/٨٧

وقد يكون التملك بسبب الجهاد فى سبيل الله لاعلاء كلمة الله كما هو الشأن فى الغنيمة والسلب وغيرها. وقد يكون التملك بسبب ارادة الغير كما هو الحال فى الوصية والهبة والاقطاع وغيرها من الوسائل.
ومنها ما كان سببه حكم شرعى كالزكاة والنفقة وغيرها.(١)

فالضياع فى الدولة العباسية لم تكن وحدة اقتصادية قائمة بذاتها كما كان الحال فى أوربا وإنما كانت أحد عناصر الاقتصاد القائم، وأحد نماذج النشاط الزراعى الموجود فى الدولة العباسية.

ثانيا : تميزت الضيعة فى الدولة العباسية بأنها خضعت لظروف الدولة المختلفة، فانتجت السلع الغذائية وغير الغذائية، التى تحتاجها الدولة أو لا تحتاجها فى الداخل. ومن ثم وجدت المزروعات المختلفة والتى كان الهدف من زراعتها التصدير كالتوابل وغيرها والزهور المختلفة لاستخراج العطور، ولم تكن هذه المزروعات مقيدة بقيود بل خرجت للسوق الخارجى(٢).

أما فى أوربا فقد خضعت لما يعرف بالاقتصاد المغلق - كما سبق أن أشرنا - فاكتفت كل ضيعة بمنتجاتها المختلفة دون الحاجة الى الاستيراد او التصدير، فاختفت بذلك الأسواق الكبرى من أوربا فى تلك الفترة، وبالطبع لم يكن ذلك بسبب النفوذ الاسلامى على البحر الأبيض المتوسط كما علله البعض من الأوربيين أو غيرهم من العرب الذين نحو نحوهم.(٣)

ثالثا : عانى الفلاح الأوربى معاناة قاسية فى تلك الفترة فقد كان يعيش حياة البؤس والحرمان، فلم يكن من حقه التملك ولا التصرف فى الأرض التى يعمل عليها، كما تعرض لنظام السخرة للسيد الاقطاعى وارهق بالضرائب والمكوس، كما قيدت حريته فى التملك فكان لا يحق له تملك الآلة التى يستخدمها بصفة يومية تقريبا.

---

(١) - . عبدالله المصلح، الملكية الخاصة، المرجع السابق ص٧٧/١٤٢ بتصرف.

(٢) - سيأتى تفصيل فى ذلك فى ص١٩٣/ ٣٥٤/٣٥٧

(٣) - سيأتى تفصيل فى ذلك عند الكلام عن التجارة فى ص٤٥٠/ ٤٣٠/ ٤٣٢

أما الفلاح فى الدولة العباسية فلم يكن بالصورة التى كان عليها فى أوربا فى تلك الفترة· إذ كان من حقه التملك بالوسائل المشروعة المختلفة، والتصرف فى أرضه حتى فى حالات الالجاء التى سبق ذكرها، فقد كان يلجىء أرضه احتماء بغيره، لكنه كان يفعل ذلك بنفسه وبمحض ارادته دون اجبار من أحد·

كما أنه كان من حقه التظلم، ورفع شكواه الى ولاة الأمور حتى ولو كان ذلك التظلم من الخليفة نفسه أو أحد اقربائه، أو كبار رجال الدولة أنفسهم·(١)

ولم يتعرض الفلاح فى العصر العباسى الأول فى أى وقت من الأوقات للسخرة أو التكليف الجسدى الذى كان موجودا فى أوربا فى تلك الفترة·

وبناء على ما تقدم فان نظام الضياع فى الدولة العباسية يختلف اختلافا بينا من حيث الشكل والموضوع عما كان عليه الحال فى أوربا فى تلك الفترة·

ثانيا : نظام الاقطاع :

الاقطاع هو أحد الاجراءات التنموية التى تتخذها الدولة بقصد عمارة الأرض واحيائها وذلك لتحقيق اهداف التنمية الاقتصادية فى المجتمع الاسلامى ونحاول فيما يلى أن نعرض هذا النظام كأحد انظمة تملك الأرض واستغلالها فى المجتمع الاسلامى مع الاشارة الى معناه فى المجتمعات الاوربية لتتضح لنا صورته الاسلامية، وكذا صورته الأوربية، لنقف بذلك على امكانية عقد المقارنة بين الاقطاع فى النظام الاسلامى والاقطاع الأوربى الذى ساد مجتمعاتها فى فترة الدراسة التى نحن بصددها، لذا لابد من الوقوف على حقيقته وماهيته

---

(١) - مرت أمثلة على ذلك فى ص٣٧/٤٠ من هذا البحث

١ - التعريف اللغوى والاصطلاحى للاقطاع :

الاقطاع فى اللغة : القطعة من الشىء الطائفة منه، والقطائع جمع قطيعة تقول اقطعته أرضا جعلتها له قطيعة، وأقطع الامام الجند البلد أى جعل لهم غلته رزقا.(١)

والاقطاع يكون تمليكا وغير تمليك، والقطائع انما تجوز فى عفو البلاد التى لا مالك لأحد عليها، ولا عمارة فيها لأحد فيقطع الامام المستقطع منها قدر ما يتهيأ له عمارته باجراء الماء اليه أو باستخراج عين منه أو بتحجر عليه للبناء فيه.(٢)

وفى الاصطلاح عرفه ابن حجر فقال :

ما يخص به الامام بعض الرعية من الأرض الموات فيختص به ويصير أولى باحيائه ممن لم يسبق الى احيائه.(٣)

وقد وضح الماوردى - رحمه الله - ما يكون فيه الاقطاع فقال : "واقطاع السلطان مختص فيما جاز فيه تصرفه، ونفذت فيه أوامره ولا يصح فيما تعين فيه مالكه، وتميز مستحقه".(٤)

---

(١) - الجوهرى، الصحاح، المرجع السابق حـ٣ ص١٢٦٧/١٢٦٨ مادة قطع، الفيومى، المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى، تصحيح مصطفى السقا الحلبى، القاهرة حـ٢ ص١٦٨، بطرس البستانى، محيط المحيط، مكتبة لبنان نقلا عن طبعة عام ١٨٧٠م بيروت. حـ٢ ص١٧٣٢.

(٢) - ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ٨ ص٢٨٠/٢٨١

(٣) - ابن حجر، فتح البارى شرح صحيح البخارى، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان الطبعة الثانية وهى عن الطبعة الأولى للمطبعة الكبرى الميرية القاهرة عام ١٣٠٠هـ، حـ٥ ص٣٦

(٤) - الماوردى، الأحكام السلطانية والولايات الدينية طبعة مصطفى الحلبى القاهرة عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، الطبعة الثانية ص١٩٠

٢- تقسيمات الاقطاع حسب وقائع واحداث العصر العباسى الأول

أ - الاقطاعات العسكرية :

تشير المصادر التاريخية الى أن الاقطاعات العسكرية تمثل جانبا كبيرا من الاقطاعات التى وجدت فى العصر العباسى الأول. وذلك بسبب فتوحات المسلمين الكثيرة واهتمامهم بالفتوح الاسلامية منذ بداية العصر العباسى الأول وهو ما تؤيده المصادر التاريخية.

فتذكر المصادر التاريخية أن السفاح اقطع عبدالله بن محمد بن على وائل الشجاحى الأزدى الموصلى قطيعتين بربض مدينة الموصل الأسفل فى الأرض المعروفة بقطائع بنى وائل وذلك لأنه كان أول من خرج الى عبدالله بن على لما هزم مروان بن محمد يوم الزاب "سنة ١٣٢هـ"(١) ثم أقبل معه من الموصل، فسود أهل الموصل وخرجوا الى عبدالله بن على ودخلوا فى طاعته وصعد وائل بن الشحاج مع عبدالله بن على فى طلب مروان فحسن أثره وتبين

---

(١) - الزاب : مكان بين موصل واربل ويوم الزاب هو اليوم الذى هزم فيه مروان بن محمد بن العباسى وكان على الزاب، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٣ ص١٢٣/١٢٤

شجاعته فأقطعه أبى العباس القطيعة الأولى، وفى سنة ١٣٩هـ اقطع وائل الأزدى باقى قطيعته بالموصل التى اقطعه اياها أبو جعفر المنصور وكتبا له بذلك كتابا وكانت مساحتها اثنتين وخمسين جريبا.(١)

وذكر البلاذرى فى الفتوح أن المنصور أقطع الجند المزارع فى ثغور الجزيرة(٢) وأن الرشيد اقطع المقاتلين بمدينة الحدث المساكن والقطائع.(٣) كما منح الرشيد أحد قادة جيوشه وهو عبدالملك بن صالح اقطاعا.(٤) وذكر الواقدى : لما كانت سنة ١٨٠هـ أمر الرشيد ببناء مدينة عين زربى وتحصينها وندب اليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم بها المنازل.(٥)

وأقطع المأمون محمد بن حميد لما ورد اليه خبر فتح بلاد رزيق أقطعه ما غلب عليه سيفه، فلما ورده كتاب امير المؤمنين قرأه عليهم وقال لهم ما تقولون فى كتاب أمير المؤمنين قالوا سمعا وطاعة انفذ أمرك به وحز ذلك» قال قد طابت به أنفسكم قالوا : الطاعة فقال محمد بن حميد : «اللهم انى أشهدك أنى قد قبلت ما حبانى به أمير المؤمنين من أموالهم وأقطعنيه من ضياعهم وجدت بها لهم ورددتها عليهم» وأشهد من حضر على ذلك ثم نهض من مجلسه وهو يقول : «انصرفوا الى ضياعكم وأموالكم».(٦)

---

(١) - الأزدى، تاريخ الموصل بتحقيق على حبيبه مؤسسة دار التحرير للطباعة والنشر، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية، القاهرة عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص١٥٨/١٥٩/١٧١/١٧٢، والجريب يساوى ١٥٩٢ متر مربع أو ٦٠X٦٠ ذراع أى ٣٦٠٠ ذراع. انظر فالتر هنتس، المكاييل والأوزان الاسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، من منشورات الجامعة الاردنية عام ١٩٧٠م ص٩٦

(٢) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ١ ص٢٢٣

(٣) - المرجع السابق حـ١ ص٢٢٦/٢٢٧، والحدث قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش من الثغور وقد بنى بها المهدى مدينة فى سنة ١٦٢هـ، انظر الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٢٢٧

(٤) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص٥٨٩

(٥) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص١٧٨، وعين زربى بلد بالثغور قرب المصيصة انظر الحموى، معجم البلدان حـ٢ ص١٧٧، حـ٣ ص١٣٦

(٦) - الأزدى، تاريخ الموصل، المرجع السابق ص٣٨١/٣٨٢

وأقطع المأمون ايضا طاهر بن الحسين، وأقطع المعتصم قائد الجند التركى اشناس وعدد من مساعديه اقطاعات من مشارف عاصمته الجديدة سامراء، كما منح الواثق القائد التركى (ايتاخ) منطقة اصبحت تسمى بالإيتاخية شرق العاصمة سامراء.(١)

والاقطاعات من هذا النوع كثيرة وهذه مجرد أمثلة ونماذج على سبيل التمثيل لا الحصر، وقد كان الهدف من هذا النوع من الاقطاع هو تشجيع المقاتلين وحفزهم على القتال ومواصلة الفتوحات الاسلامية، كما كان له اهدافا اخرى اقتصادية تتمثل فى تعمير الأرض واحيائها واستثمارها وخاصة أن القادة كانوا فى الغالب أهل يسار وبالتالى توفرت لهم القدرة الاقتصادية على استغلال الأرض واحيائها فكثرت بذلك الاقطاعات العسكرية.

ب - الاقطاعات الخاصة واقسامها:

وهذه الاقطاعات يمكن تقسيمها الى عدة أقسام :

القسم الأول : ما كان يمنح من قبل الخليفة لأفراد لم يتقلدوا أية وظيفة مدنية أو عسكرية، وانما كان المنح اما تكريما لهم أو لمناسبة جليلة. وقد ذكرت المصادر التاريخية لذلك أمثلة كثيرة منها :

ما قام به أبو جعفر المنصور من حفر نهر يسمى نهر الأمير بالبصرة ثم وهبه لأبنه جعفر فكان يقال نهر أمير المؤمنين ثم ابتاعه الرشيد وأقطع منه وباع.(٢) ومن ذلك ايضا نهر أبى الخطيب أقطعه أبو جعفر مولاه أبا الخصيب فسمى النهر باسمه فكان يقال نهر أبى الخصيب.(٣)

---

(١) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ٢ ص١٠٤، الخضرى، تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٣ ص٢٤٠

(٢) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٥ ص٣١٨، البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٤٤٥

(٣) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٥ ص٣١٥، البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٤٤٥

وأنشد أبو دلامة المنصور شعرا فاعطاه دارا وكسوة ثم احتاج الى الدار لقربها من قصره عندما أمر أن يزاد فيه فاحتيج الى الدار فعوضه دارا خيرا منها.(١)

وأقطع المهدى العباسة ابنته عبادان قطيعة.(٢) وأقطع المهدى ايضا دحمان - المغنى - ضيعتين له بالمدينة يقال لهما ريان وغالب، ولما كانتا هاتان الضيعتان لم تقطعا إلا للولاة فقط، فقيل للمهدى بذلك فقال واليه لا أرجع فيهما إلا بعد أن يرضى دحمان فصولح بينهما على خمسين الف دينار.(٣)

وأقطع الرشيد عبيدالله بن المهدى أرض الأهواز مزارعة.(٤) ولما مرض الرشيد فداواه طبيبه الخاص فأمر له باقطاع قيمته الف الف درهم (مليون درهم) ولكن الطبيب قال مالى حاجة الى الاقطاع ولكن تهب لى ما اشترى به ضياعا غلتها الف الف درهم، ففعل الرشيد ما أراده وأمر معاونته على ابتياع تلك الضياع.(٥) كما اقطع ابراهيم الموصلى - المغنى - ضيعة ومنزل وفرش وما يصلح شأنه وخادم(٦). ومنها ما اقطعه المأمون بمناسبة زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل الى صهره الحسن بن سهل منطقة (الصلح) اقطاعا بالاضافة الى مليون دينار.(٧)

---

(١) - الاصفهانى، الأغانى، طبعه وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٧٦م، حـ١٠ ص٢٥٩/٢٦٠

(٢) - المرجع السابق حـ٢ ص٤٥٣

(٣) - المرجع السابق حـ٦ ص٢٣

(٤) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٤٧٥

(٥) - التنوخى، الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجى، بيروت، دار صادر عام ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م حـ٤ ص٢٢٠

(٦) - الاصفهانى، الأغانى، المرجع السابق حـ٣ ص٧١

(٧) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المكتبة السلفية، المدنية المنورة، توزيع دار الفكر، القاهرة، حـ٧ ص٣٢٠/٣٢١

القسم الثاني : ما كان يمنح من قبل الخلفاء لبعض القائمين على أعمال مدنية، تشجيعا لهم على مواصلة الخدمات التى يقومون بها، ولذلك أمثلة كثيرة اورد بعض منها : ما أقطعه المنصور للفضل بن الربيع أرضا برحا البطريق - وهى ارض ببغداد على الصراة.(١) وما أقطعه المهدى لخالد بن برمك قطيعة قرب بغداد وهى تسمى سويقة خالد منسوبة اليه وبنى فيها الفضل بن يحيى قصر الطين.(٢) وما اقطعه المهدى لوزيره ابى عبيدالله معاوية بن عبدالله ارضا بين عسفان ومكة لما استوزره فسميت باسمه "بئر معاوية".(٣)

على أنه كان يلاحظ أن المستفيدين من الاقطاعات كانوا عادة من ذوى الرتب العالية كالولاة والوزراء والموظفين والعسكريين والفقهاء والمحدثين وجلساء القصر من الشعراء والمغنيين وفئات أخرى كانت تمنح لهم الاقطاعات مقابل ما يقدمونه من خدمات أو نتيجة احساس الخليفة برقة حالهم ورغبته فى مساعدتهم.

القسم الثالث : الاقطاعات التى يجرى منحها لتحقيق هدف اقتصادى أو تنموى ومن هذه الاقطاعات الأراضى الغامرة أو البور وكان الغرض من اقطاعها استصلاحها وتنميتها، وكانت هذه السياسة تستهدف زيادة الانتاج وتهيئة فرص العمل للعاطلين فيما يبدو اذ كان المقطع هو الذى يقوم بجميع مصروفات تحسين الأرض والاتفاق مع الفلاحين على فلاحة الارض واضافة الى ذلك، فقد كان على المقطع مد الفلاحين بالبذور والقيام بتطهير قنوات الرى وجداول المياه وتنظيمها ودفع الدراهم للفلاحين العاملين، ومقابل هذا فقد كانت وثيقة الاقطاع تتضمن كامل حقوق الملكية، ومن ضمن ذلك حق الارث، كان على المقطع أن يدفع سنويا مبلغا معينا الى بيت المال، اما غير ذلك فلم يكن عليه أن يدفع شيئا من الضرائب الاضافية.(٤)

---

(١) - ياقوت الحموى، معجم البدان، المرجع السابق حـ٣ ص٣١

(٢) - المرجع السابق حـ٣ ص٢٨٧

(٣) - المرجع السابق حـ١ ص٣٠٢

(٤) - القلقشندى، صبح الأعشى، المرجع السابق حـ١٣ ص١٢٣/١٣١/١٣٩/١٤٣، أحمد عبدالله خياط، الاقطاع فى الدولة الاسلامية رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة أم القرى، المرجع السابق ص٢٠٥

ويبدو أن هذا النوع من الاقطاع كان يمنح فى أرض السواد لاصلاح الأراضى البور والغامرة. حيث انها قد اتسعت نتيجة عوامل متداخلة ومتعددة وذلك لانشغال المسلمين بالفتوحات واهتمامهم بالقضايا العسكرية ولكنها كانت تمثل فرصة لتشغيل الأيدى العاطلة عن العمل يقول أبو يوسف رحمه الله : "ولا أرى أن يترك أرضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فإن ذلك أعمر وأكثر للخراج".(١)

والنص يستشف منه أن الأراضى المهملة كانت كثيرة، وأنها كانت تمثل مشكلة احتاج هارون الرشيد أن يأخذ رأى الفقهاء فيها فطلب أبو يوسف منه ضرورة تمليكها وتعميرها بالاقطاع، كما يدل على ذلك ايضا انتشار مسمى البطائح يقول أبو يوسف "وما كان من أرض العراق والحجاز واليمن والطائف وأرض العرب وغيرها...غامرة ليس لأحد ولا فى يد أحد ولا ملك أحد ولا وراثة ولا عليها أثر عمارة فأقطعها الامام رجلا فعمرها. فان كانت فى أرض الخراج أدى عنها الذى اقطعها الخراج... وان كانت من أرض العشر أدى عنها الذى أقطعها العشر...وأرض الحجاز والمدينة ومكة المكرمة واليمن وأرض العرب كلها أرض العشر".(٢)

ومما تقدم يتضح لنا بعض الملاحظات على اقطاعات الدولة العباسية الأولى وهي:

أولا : أن هذه الاقطاعات بالجملة لم تكن بالكثيرة بالنظر الى عصر الدولة الأموية، لكنها كانت اقطاعات متنوعة ومتعددة وفى مجالات مختلفة من الأنشطة الاقتصادية فقد شملت الاعمار فى مجال الزراعة والاسكان وصيانة الانهار والسدود... الخ.

ثانيا : يلاحظ أن المستفدين من الاقطاع كانوا عادة من ذوى الرتب العالية كالولاة والوزراء والموظفين، وقد كان اقطاع الوزراء والكتاب وغيرهم من

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٦١

(٢) - المرجع السابق ص٥٨

موظفى الدولة يمنح أحيانا لهم مدة بقائهم فى الوزارة أو الديوان أو الوظيفة ثم يسترد بعد ذلك ولم تكن هذه الاقطاعات وراثية بل كانت موقوتة بمدة بقاء المستفيد منها فى عمله ثم تنتقل الى من يخلفه إذا رأى الخليفة ذلك، وقد استحدث لهذا النوع من الاقطاع ديوان اطلق عليه ديوان اقطاع الوزارة(١)، ومن المستفيدين بالاقطاع ايضا قادة الجيوش ورجاله وجلساء القصور من الشعراء والمغنيين وفئات أخرى كانت تمنح لهم القطائع مقابل ما يقدمونه من خدمات أو نتيجة احساس الخليفة برقة حالهم ورغبته فى مساعدتهم. لكنه يمكن القول بأن القطائع فى الدولة العباسية شملت جميع فئات الدولة، وان كان اغلب المستفيدين منها هم كبار رجال الدولة - كما اسلفنا.

ثالثا : حرص الخلفاء كسابقيهم من الأمويين على أخذ القطائع لأنفسهم وأبنائهم وخاصتهم؛ وهو مما يعد انحرافا بالاقطاع عن وضعه الاسلامى الصحيح من ذلك أن المنصور لما بنى مدينة السلام وبنى القنطرة على الصراة أقطع أهل بيته وقواده وجنده وصحابته وكتابه. واتبع نفس الأسلوب الخلفاء العباسيين من بعده(٢)

رابعا : ومن الظواهر التى كانت سمة هذا العصر ايضا بناء المدن واقطاع القطائع حولها لكنها غالبا كانت لحاشية الخليفة واتباعه ومواليه ومن الأمثلة على ذلك ما فعله أبو جعفر المنصور عندما بنى مدينة بغداد اقطع حولها عدة قطائع منها قطيعة الربيع مولاه، وأقطع كذلك شبيلاً قطيعة عند دار يقطين، وأقطع أبابشر، وغير هؤلاء ممن ذكرهم البلاذرى وغيره.

ومن أمثلة بناء المدن أن هارون الرشيد بنى مدينة طرسوس وحصنها وبنى مسجدها ومسح ما بين النهرين فبلغ أربعة آلاف خطة كل خطة عشرون ذراعا فى مثلها وأقطع أهل طرطوس الخطط وبنى كذلك مدينة عين زربة أو زربى وحصنها واقطع بها المنازل.(٣) ومن ذلك ايضا أن المنصور بنى بغداد والمعتصم بنى سامراء الى غير ذلك من المدن.

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق ص٣٦٠/٣٦١، أحمد عبدالله خياط، الاقطاع فى الدولة الاسلامية، المرجع السابق ص١٨٧

(٢) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٦٢/٣٦٣

(٣) - المرجع السابق حـ١ ص٢٠١

٣ - مقارنة بين الاقطاع في الاسلام والنظام الاقطاعي الأوربي

النظام الاقطاعى فى الاسلام يختلف عما كان سائدا فى أوربا فى تلك الفترة من حيث الشكل والموضوع، ونحاول فيما يلى بيان أهم هذه الفروق بايجاز :

أ - الفرق بينهما من حيث التعريف :

كان الاقطاع الاسلامى يختلف فى مفهومه وحقيقته عن الأقطاع الأوربى فى تلك الفترة، إذ ان الاقطاع الاسلامى كان يعد أحد وسائل التملك المشروع لشتى موارد الدولة، كما كان وسيلة هامة من وسائل التنمية الاقتصادية فى المجتمع الاسلامى، ولمعرفة الفرق الواضح والبين من حيث التعريف، فقد كان الاقطاع فى الاسلام يعد اجراء تنمويا يكون فى الأرض الموات أو غيرها من الموارد الطبيعية المملوكة للدولة تقطعها من يقدر على عمارتها واحيائها على نحو الاستغلال أو التملك، أو غيره كأحد وسائل تحقيق التنمية الاقتصادية فى المجتمع الاسلامى.

أما الاقطاع الغربى فقد كان عبارة عن خضوع الرجل من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية الى رجل اسمى من منزله فى مقابل تنظيم اقتصادى وحماية عسكرية.(١)

---

(١) - ول ديورانت، قصة الحضارة ، المرجع السابق حـ١٤ ص٤٠٦

ولو نظرنا الى التعريفين لوجدنا أن الاقطاع فى الاسلام يختلف فى حقيقته تماما عما كان عليه الحال فى الاقطاع الأوربى فى تلك الفترة.

ب - ثانيا الفرق بينهما من حيث الخصائص والأهداف :

ايضا كان الاقطاع الاسلامى يختلف كلية عن الاقطاع الأوربى فى هذا المجال من عدة نواحى :

١ - فكما هو معلوم، أن الاقطاع الاسلامى يعتبر جزء من النظام الاسلامى العام، إذ الذى يعمل به ويكن صادق النية مع الله يكن طائعا لله عز وجل، ويستحق ثواب ربه، مما يجعل نظام الاقطاع الاسلامى على جانب روحى وعقائدى غير موجود فى الاقطاع الأوربى، وبخاصة اذا ما علم أن نظام الاقطاع الغربى كان يقوم على أساس السخرة واستعباد الناس والتسلط عليهم بينما لا ينطوى فى الاسلام على أى شكل من الاشكال السياسية أو العسكرية أو الاجتماعية.

٢ - الاقطاع الاسلامى يخول المقطع له حق اختصاص يتمكن به اذا رغب فى تملك الأرض التى منحت له، كما أن له الحرية الكاملة فى أن يقبل أو يرد القطيعة حسب مصلحته الخاصة، أومصلحة الأمة، كما أن المقطع له فى الاسلام يصير مالكا للأرض اذا اعدت للانتاج، ويحق له التصرف فيها ببيعها وهبتها، وسائر التصرفات الشخصية للمالك فى ملكه.

أما فى ظل الاقطاع الأوربى فان الأرض كانت من حق الاشراف والنبلاء، ورجال الدين، وهم الأقلية فى المجتمع يتحكمون فيها، وفيمن يزرعها من الفلاحين والعمال فلا حق له فى ترك الأرض الى أرض أخرى، بل أن عليه أن يعمل فى أرض سيده، وأن يقوم بجميع ما يلزم لها من الفلاحة وغيرها.(١)

(١) - الشافعى عبدالرحمن، تعمير الأرض فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق ص٤٤/٥٠

٣ - الاقطاع فى الاسلام لا يدخل نطاق الملكية الفردية إلا اذا دخل نطاق العمل الاقتصادى بالفعل أى تم احياؤه واستثماره فعلاً، ومن حق ولى الأمر أن يسترده إذا اثبت أن المقطع غير قادر أو غير راغب فى الاستغلال.

أما الاقطاع الأوربى فان المقطع كان دائما تابعا للأرض - كما سبق أن أشرنا -.

٤ - الاقطاع فى الاسلام يهدف الى عمارة الأرض وتسخيرها لخدمة الانسان، وتوفير الموارد المختلفة لرفاهية وتحقيق أمنه الغذائى والحد من مشكلة الفقر بشتى الوسائل المختلفة، كما أنه يهدف الى أمن الفرد والجماعة، ويسعى دائما لتحقيقها من خلال معناه الشامل لكل عمارة فى الأرض - كما سبق وأن أشرنا - أما الاقطاع الأوربى فقد كان هدفه الأول والأخير هو تحقيق اقصى ربح ممكن لسيد الأرض، ومالكها، دون مراعاة السواد الاعظم من الناس.

وبناء على ما تقدم فان الاقطاع الاسلامى كان يخالف الاقطاع الأوربى من حيث الشكل والموضوع، مما حدا ببعض الباحثين(١) الى رفض المقارنة وتعذرها بين الاقطاع الاسلامى والأوربى لبعد الشقة بينهما واختلافهما من حيث النشأة والخصائص والأهداف، حيث قال : «هناك فرق شاسع بين اقطاع واقطاع».

---

(١) - د. الشافعى عبدالرحمن، المرجع السابق ص٤٤

ثالثا : نظام الوقف

بعد أن أنتهينا من نظام الاقطاع فى الدولة العباسية الأولى فمازال الحديث موصولا عن نظام استغلال الأرض وتملكها فى الدولة العباسية الأولى، ومن ضمن هذه النظم نظام الوقف الذى استمر العمل به ابان فترة الدراسة، وفيما يلى عرض لهذا النظام بايجاز :

١ - تعريف الوقف لغة واصطلاحا:

أ - تعريف الوقف لغة :

الوقف لغة : الحبس والمنع، وجمعه وقوف وهو مصدر وقف تقول : وقفت الدار وقفا، أى حبستها فى سبيل الله، وشىء موقوف ووقف، ولا تقول أوقفتها لأنها لغة ردئية(١)، واشتهر اطلاق المصدر وارادة اسم المفعول تقول هذا العقار وقف أى موقوف.(٢)

---

(١) - الفيومى : المصباح المنير، المرجع السابق حـ١ ص٣٤٦

(٢) - الأزهرى، تهذيب اللغة بتحقيق عبد السلام هارون، محمد على النجار، طبعة مطابع سجل العرب، نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة حـ٩ ص٣٣٣، الجوهرى، تاج اللغة وصحاح العربية، المرجع السابق حـ٤ ص١٤٤٠، الفيومى، المرجع السابق حـ١ ص٣٤٦، ابراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط حـ٢ ص١٠٥١/١٠٥٢

ب - تعريف الوقف فى الاصطلاح :

اختلف الفقهاء فى تعريفه اختلافا كثيرا تبعا لاختلافهم فى استنباط ماهيته وحقيقته من مصادر التشريع الاسلامى، ولعل افضل تعريف ذكر فى الوقف هو التعريف الذى ذكره ابن قدامة اقتباسا من حديث رسول الله ﷺ وقد اعطى ﷺ جوامع الكلم فقال : «هو حبس الأصل وسبل الثمرة»·(١)

والوقف يعتبر بابا من أبواب البر والصدقة، وفعل القربات الى الله عز وجل، كما أنه يقتضى حبس العين الموقوفة والتصدق بريعها على الجهة التى يحددها الواقف·(٢)

ج - الوقف فى الدولة العباسية الأولى وآثاره المختلفة:

عرف المجتمع العباسى الأول الوقف بجميع أنواعه المتقدمة فبعضه كان خاصا بذرية الواقف وذوى قرباه، والبعض الآخر عاما على الجهات الخيرية المختلفة كبناء المساجد والقيام عليها وانشاء المدارس والمصانع، واصلاح الجسور ووسائل الرى، والطرقات العامة، وأربطة المجاهدين، وسقاية الحجيج، واطعام الفقراء وابناء السبيل وانشاء البيمارستانات(٣) واطعام الدواب، وكان الهدف منه تحقيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع الاسلامى، وقد ذكرت كتب التاريخ والتراجم أمثلة كثيرة فى العصر العباسى الأول نذكر منها ما يلى على سبيل المثال لا الحصر·

ذكر البلاذرى : « أن محمد بن سليمان بن على وقف ضيعة له على أحواض اتخذها بالبصرة، وكانت غلتها تنفق على دوابها وابلها ومصلحتها وكان ذلك فى عهد المنصور»·(٤)

---

(١) - البيهقى، السنن الكبرى، المرجع السابق حـ٦ ص١٦٢، والحديث مروى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما·

(٢) - عبدالله المصلح، الملكية الخاصة فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق ص١٢٠/١٢١

(٣) - البيمارستانات : هو لفظ مركب من بيما أى : مريض وستان اى : دار المرضى، ومعنى الكلمة مجموعة مستشفى لمعالجة المرضى، انظر أحمد عيسى ، تاريخ البيمارستانات، الطبعة ص٤

(٤) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٤٥٥

وذكر اليعقوبى أن أم جعفر بنت جعفر بن المنصور حضرت عين المشاش(١) وساقتها اثنى عشر ميلا الى مكة، وانفقت عليها الف الف وسبع مئة الف دينار، ثم اتخذت المصانع والسقايات والمتوضآت حول المسجد الحرام، وبنت دور السبيل ، ومصانع بمنى، وفى عرفات سقايات، وحفرت آبارا فى منى على طريق مكة، وقد وقفت على ذلك ضياعا غلتها ثلاثون الف دينار فى السنة، وبنت فى الثغور دور السبيل، وعملت البيمارستانات، وحبست ضياعا على الثغور وعلى الفقراء والمساكين ما غلته مئة الف دينار.(٢)

كما وقف موسى الهادى أرضا تدعى رستماباذ قرب قزوين إذ انه لما صار الى الرى أتى قزوين فأمر ببناء مدينة بازائها، وهى تعرف بمدينة موسى، وابتاع أرضا تدعى رستماباذ فوقفها على مصالح المدينة.(٣)

وذكر ياقوت الحموى ايضا : أن الرشيد لما اجتاز خراسان اعترض أهل قزوين وأخبروه بعنائهم ومكانهم من بلد عدوهم فسألوه النظر لهم وتخفيف ما يلزمهم من عشر غلاتهم فسار الى قزوين ودخلها وبنى جامعها وكتب اسمه على بابه فى لوح وحجر. وابتاع بها حوانيت ومستغلات ووقفها على مصالح المدينة وعمارة رقبتها وسورها.(٤) وذكر اليعقوبى ايضا أن حميد بن عبد الحميد الطوسى كان جوادا سمحا مفضلا، وقف ضياعا غلتها فى السنة مئة الف دينار على أهل البيوتات وذوى الاقدار وذلك فى خلافة المأمون - رحمه الله -.(٥)

---

(١) - أم جعفر بنت جعفر المنصور : هى زبيدة بنت جعفر بن المنصور، انظر، عمر رضا كحالة، اعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام، طبع ونشر المطبعة الهاشمية بدمشق، الطبعة الثانية عام ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م حـ٢ ص٢٧ وعين المشاش، عين بمصلى بجبال عرفات، معجم البلدان حـ٥ ص١٢١

(٢) - اليعقوبى مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ملورد، دار الكتاب الجديد، بيروت عام ١٩٦٢م ص ٢٦، عمر رضا كحالة، اعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام، المرجع السابق حـ٢ ص٢٧

(٣) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص٣٤٣

(٤) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٤ ص٣٤٣

(٥) - اليعقوبى، مشاكلة الناس لزومانهم، المرجع السابق ص٣٠

وقد روى الطبرى : أن المعتصم جلس فى دار العامة، وقد أحضر من أهل مدينة السلام قاضيها عبدالرحمن بن اسحاق، وشغيب بن سهل ومعهما ثلاثمائة وثمانية وعشرون رجلا من أهل العدالة فاشهدهم على ما وقف من الضياع، فجعل ثلثا لولده، وثلثا لله، وثلثا لمواليه ممن عسكر بغربى دجلة.(١)

وذكر الكندى أدلة على أن الاوقاف كانت موجودة فى مصر فى العصر العباسى الأول فيقول : كانت أموال اليتامى والأوقاف والغيب ترد الى بيت المال منذ زمن المنصور الى أيام الرشيد.(٢)

وقد أهتم المصريون بنظام الوقف حتى أنهم كرهوا قضاء اسماعيل بن اليسع الكندى الكوفى الذى ولى القضاء فى مصر (١٦٤هـ/١٦٧هـ) من قبل الخليفة العباسى المهدى رغم اجماعهم على عفته ونزاهته، وذلك أنه كان يرى رأى أبى حنيفة رحمه الله فى عدم لزوم الأوقاف، وابطالها بعد وفاة الواقف، وعمل على تنفيذ هذا الرأى فبغضه المصريون وذهب اليه الليث بن سعد - فقيه مصر فى ذلك الوقت - وقال له : «جئت مخاصما لك» فقال : «فبماذا ؟» قال فى ابطالك احباس المسلمين، قد حبس رسول الله ﷺ وأبوبكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير، فمن بقى بعد هؤلاء "ثم كتب الليث كتابا الى المهدى جاء فيه : «انك وليتنا رجلا يكيد سنة رسول الله ﷺ بين اظهرنا مع أنه ما علمناه فى الدينار والدرهم إلا خيرا» فعزله المهدى.(٣)

وتدل النصوص السابقة على وجود الوقوف فى مصر فى العباسى الأول، لكن البعض من القدامى والمحدثون يرى أنه مع كثرة الوقوف فى مصر إلا أنها لم تتجاوز الدور والقصور، والرباع(٤)، والحمامات العامة ولم يعرف وقف الأراضى الزراعية حتى عهد أحمد بن طولون.(٥)

---

(١) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٩ ص٥٦/٢٣٢، الأزدى، تاريخ الموصل، المرجع السابق ص٤٢٦

(٢) - الكندى، الولاة وكتاب القضاة، المرجع السابق ص٣٩٠

(٣) - الكندى ، الولاة وكتاب القضاة، المرجع السابق ص٣٧١/٣٧٢

(٤) - الرباع : المنازل ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ٨ ص١٠٢

(٥) - راشد البراوى، حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، الطبعة الأولى عام ١٩٤٨م ص٣١٦

ويحتجون بقول المقريزى : «أن الأحباس لم تكن تعرف إلا فى الرباع وما يجرى مجراها، وأما الأراضى فلم يكن سلف الأمة يتعرضون لها، حتى أحمد بن طولون لما بنى الجامع، والبيمارستان، والسقاية وحبس على ذلك الاحباس الكثيرة، لم يكن فيها سوى الرباع ونحوها بمصر، ولم يتعرض لشىء من أراضى مصر البتة».(١) وقيل أيضا أن أول وقف عرف بمصر فى الأراضى الزراعية والبساتين كان فى أوائل القرن الرابع الهجرى.(٢)

لكنا إذا نظرنا الى الآثار والوقائع التاريخية فانها تثبت عكس ذلك وهو أن الوقوف فى الأراضى الزراعية فى مصر وجدت منذ القرن الأول الهجرى فقد ذكر ابن عبدالحكم ونقل عنه ابن دقماق أن عبدالعزيز بن مروان هو الذى غرس لعمير بن مدرك نخله الذى بالجيزة الذى عرف بجنان عمير» وكان سبب ذلك كما حدثنا أبو عبدالله بن عبدالحكم أن عمير بن مدرك كان غرسه اصنافا من الفاكهة فلما أدرك سأل عبدالعزيز أن يخرج اليه فخرج معه عبدالعزيز فلما رآه قال له عبدالعزيز هبه لى، فوهبه له فأرسل عبدالعزيز الى والى الجيزة فقال له لئن أتت عليه الجمعة وفيه شجرة قائمة لاقطعن يدك، وكان بالجيزة خمس مائة فاعل فأتى بهم والى الجيزة فكانوا يقطعون الشجرة بحملها، وعمير يرى ذلك حسرات فلما فرغ من ذلك أمر فنقل اليه الودى من حلوان وغرسه نخلا، فلما أدرك خرج اليه عبدالعزيز وخرج بعمير معه فقال له : أين هذا من الذى كان؟ فقال عمير : وأين ابلغ أنا ما بلغ الأمير فقال : فهو لك، حبسه على ولدك ففعل، فهو لهم الى اليوم».(٣)

---

(١) - المقريزى، الخطط ، المرجع السابق حـ٢ ص٢٩٤/٢٩٥

(٢) - محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، دار النهضة العربية ، القاهرة عام ١٩٨٠م الطبعة الأولى ص٣٨

(٣) - ابن عبدالحكم، فتوح مصر وأخبارها- مكتبة المثنى - بغداد، طبع بمدينه ليدن ١٩٢٠م ص١٠٣، ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الامصار فى تاريخ مصر وجغرافيتها، المطبعة الكبرى ببولاق القاهرة عام ١٨٩٣م/ ١٣١٠هـ ص١٢٧/١٢٨، والودى بفتح الواو وسكون الدال وضم الياء : صغار الفسيل، انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ص١٠٢٣

كما ذكر القلقشندى : «أن الليث بن سعد اشترى أراضى من بيت المال فى نواح من البلدان وحبسها على وجوه البر وهى المسماة بديوان الاحباس».(١)

وبناء على ما تقدم فأن الوقف فى الأراضى الزراعية فى مصر كان موجودا منذ القرن الأول الهجرى لكنه كان قليلا وأن كثر فى الدور وغيرها ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن أراضى مصر كانت تعتبر ملكا للدولة، ويد الزراع عليها ليست يد ملك.

ومما يدعم ذلك ما رواه ابن عبدالحكم عن طريقة جباية الخراج غداة الفتح فيقول : «ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الأرض، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم، فان عجز أحد وشكى ضعفا عن زرع أرض وزرعوا ما عجز عنه على الاحتمال، وان كان منهم من يريد الزيادة اعطى ما عجز منه أهل الضعف، فان تشاحنوا، قسموا ذلك على عدتهم».(٢) وهو نص صريح على أنه لم يكن الزراع مالكين للأرض، وانما كان الانتفاع بها لمن يرغب وحسب طاقته.(٣) مع ورود بعض النصوص التى تدل على أن الوقف فى الأراضى الزراعية فى مصر كان موجودا ولكنه كان قليلا، وهو مادلت عليه النصوص المتقدمة.

ويتضح ايضا مما سبق أن الوقف فى الدولة العباسية قد دخل فى جميع الأنشطة الاقتصادية، حيث كان بعضا منه فى الأراضى الزراعية، والمساكن واستخدم لبناء البنية الاساسية فى المجتمع العباسى الأول، كالطرق والمدن ودور السبيل، وانشاء المصانع والسقايات والمستشفيات والمساجد و كان يهدف فى المقام الأول تحقيق التكافل الاجتماعى بين افراد الأمة، وخاصة الابناء وذوى القربى وغيرهم من المحتاجين على أنه ينبغى أن نشير الى أن

---

(١) - القلقشندى، صبح الأعشى، المرجع السابق جـ٤ ص٣٨

(٢) - ابن عبدالحكم، فتوح مصر واخبارها،المرجع السابق ص١٥٣

(٣) - محمد محمد أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية فى مصر، المرجع السابق ص٤٥

الوقف كان بمثابة مورد دائم لتحقيق هذا التكافل. كما يجب أن يكون هناك جهاز يتولى مسئولية هذا المورد، وتكون مهمته استثمار وتشغيل أموال الوقف.(١)

وقد تحقق ذلك بالفعل فى عهد هشام بن عبدالملك لما ولى قضاء مصر القاضى الأموى «توبة بن نمر» قال : «ما أرى مرجع هذه الصدقات إلا الى الفقراء والمساكين، فأرى أن أضع يدى عليها حفظا لها من التواء والتوارث».(٢) ولم يمت توبة بن نمر حتى صار للاحباس ديوان مستقل عن بقية الدواوين تحت اشراف القاضى، ذلك أنه أمر لأول مرة بتسجيل الاحباس فى سجل خاص لكى يحمى مصالح المستحقين فيها. ويعتبر هذا الديوان أول تنظيم للوقوف ليس فى مصر فحسب بل فى كافة البلاد الاسلامية، وفى نفس عهد توبة أنشىء على نمط ديوانه فى مصر ديوان آخر للوقوف فى البصرة.(٣)

ومما تقدم يتضح أن الوقف كان وسيلة من وسائل التملك، ووسيلة من وسائل التنمية الاقتصادية زراعية وغير زراعية، وكان يمثل أحد الأنظمة الزراعية الهامة فى المجتمع العباسى الأول، فقد كان بمثابة مورد دائم يستهدف تحقيق التكافل الاجتماعى لابناء الأمة الاسلامية.

رابعا : نظم أخرى

بالاضافة الى ما سبق بيانه من نظم زراعية كان هناك أنظمة أخرى فى هذا العصر عن طريقها تملك الأرض وتستغل كاراضى الملك الخاص، فقد كانت هناك ملكيات خاصة من أصول متنوعة.

---

(١) - . رفعت العوضى، الاقتصاد الاسلامى والفكر المعاصر، نظرية التوزيع، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة عام ١٣٩٤/١٩٧٤ ص٣٦٥/٣٦٧

(٢) - الكندى، الولاة وكتاب القضاة، المرجع السابق ص٣٤٦

(٣) - سيدة اسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ص٦٠، وكتابها مصر فى فجر الاسلام، دار النهضة العربية ص٩٧، الكندى، الولاة وكتاب القضاة،المرجع السابق ص٤٤٤/٥١٦، وتوى المال وتواء يعنى : ذهب فلم يرج، انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق جـ١ ص٩١

فمن الناحية التاريخية كانت الملكيات الأولى من اقطاع الخلفاء لبعض

الأفراد والجماعات وهو ما يسميه الماوردى -رحمه الله-

اقطاع التمليك، ثم كانت هناك ملكيات عن طريق احياء الأرض الموات، واستخلاص الأرض من المستنقعات ومن الأمثلة على ذلك الأراضى الموات التى تم أحياؤها كالاراضى المحيطة بالبصرة(١) وغيرها وقد حصلت محاولات عديدة لتجفيف أجزاء من البطحية لاستخلاص الأرض الخصبة من الماء، وكانت الأراضى المستخلصة تسمى بالجوامد(٢)٠ وكان هذا العمل يبرر ملكية المحيي الأرض كما يعطيه حق ملكيتها٠

وهناك مصدر آخر لتملك الأرض واستغلالها، وهو ما كان عن طريق بيع بعض أراضى الدولة فقد ورد أن الليث بن سعد رحمه الله اشترى أراضى من بيت المال فى نواح من البلدان وحبسها على وجوه البر٠(٣) والى جانب ما تقدم كان هناك طريقة أخرى لاستغلال الأراضى وتملكها ظهرت بوادرها فى العصر الأموى، وزادت فى العصر العباسى الأول، وهو ما عرف (بالالجاء)(٤) فقد الجأ كثيرون أراضيهم الى اشخاص أقوياء لحمايتهم من تعسف الجباة وبمرور الزمن صارت هذه الأرض من أملاكهم الخاصة٠(٥)

كما عرف نظام آخر باسم (الايغار) وهو فى اللغة : أن يوغر الملك الرجل الأرض فيجعلها له من غير خراج أو يؤدى الرجل الخراج الى السلطان الاكبر فرارا من العمال٠ وأما فى الاصطلاح فقد اختلفوا فى تعريفه فعرف بأنه تسويغ السلطان الارض من شاء من غير أن يؤدى ما عليها٠(٦)

---

(١) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢١٤٠

(٢) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص١٧٣

(٣) - القلقشندى، صبح الأعشى، المرجع السابق جـ٤ ص ٣٨

(٤) - سبق بيانه فى ص١٠٣ من هذا البحث٠

(٥) - سبق عرض أمثلة على ذلك فى ص ١١٠ من هذا البحث٠

(٦) - الصابى، الوزراء، المرجع السابق ص٤٩

ويذكر قدامة بن جعفر أن العباسيين اقطعوا (يقطين) أراضى فى السواد فى أول دولتهم وعرفت (بايغار يقطين)٠(١)

وبهذا المعنى يكون الايغار هو أن يهب الخليفة أرضا يعفى مستلمها من الضريبة٠ ثم صار المألوف أن يطلق الايغار على ضياع يتمتع صاحبها بتخفيف كبير فى الضرائب٠ وكان للايغار معنى آخر يقول قدامة بن جعفر هو : « أن تحمى الضيعة من أن يدخلها أحد من العمال وأسبابهم بما يأمر الامام من وضع شىء عليها يؤدى فى السنة اما فى بيت المال أو فى غيره من الامصار»٠ أما الخوارزمى فيقول هو : «الحماية بأن يضمن صاحب ضيعة أو رجل من قريته خراجها برضاهم فيدفع مبلغ الضمان الى الحكومة على أن لا يدخلها عامل أو جابى»٠(٢)

وعلى كل حال فان هذا النوع من الايغار كان شائعا فى العصر العباسى الأول يقول أبو يوسف : «وان جاء أهل طسوج (منطقة زراعية) أو مصر من الامصار ومعهم رجل من البلد المعروف موسر فقال أنا أتضمن عن أهل هذا الطسوج أو أهل هذا البلد خراجهم ورضوا بذلك فقالوا هذا أخف علينا نظر فى ذلك٠٠٠»(٣)

ويبدو أن الايغار هو حماية صاحب الأرض أو أصحاب المنطقة الزراعية من تعسف الولاة والجباة٠(٤) ولكن نظام الالجاء والايغار برغم ما فيه من مساوىء فقد كانت له بعض الايجابيات فقد انتشرت الملكيات الكبيرة واتسعت الملكيات الزراعية وكان سببا أساسيا على ما يبدو فى استصلاح

---

(١) - قدامة بن جعفر، الخراج، المرجع السابق ص٢١٨/٢١٩

(٢) - الخوارزمى، مفاتيح العلوم، المرجع السابق ص٦٠

(٣) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٦٠

(٤) - الدورى، تاريخ العراق، المرجع السابق ص٤٩

كثير من الأراضى الزراعية فى ذلك الوقت يؤيد ذلك ما قاله البلاذرى : «وقد انبثقت فى أيام الدولة المباركة(أى العباسية) بثوق زأدت فى البطائح سعة وحدثت من الفرات آجام استخرج بعضها»(١).

وتدل الوثائق التاريخية على كثرة البطائح فىعهد الدولة الأموية والعباسية، على أثر حدوث الفيضانات أيام كسرى والتى عجز عن سد بثوقها. وقد حاولت الدولة الأموية علاج تلك البثوق إلا أن الفيضانات عادت مرة أخرى زمن الحجاج، ثم عادت مرة أخرى أيام العباسيين وقد بادرت الدولة المباركة - يقصد العباسية - باستصلاح الأراضى التى غمرتها المياه.(٢)

وبعد أن أنتهينا من أهم نظم تملك الأرض واستغلالها فى الدولة الاسلامية والعباسية فبالطبع كانت لهذه النظم آثارا اقتصادية على مختلف المؤشرات الاقتصادية المختلفة، وفيما يلى محاولة لبيان تلك الآثار بشىء من التفصيل :

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٦٠

(٢) - د. الدورى، تاريخ العراق، المرجع السابق ص٤٥/٤٩

المطلب الثاني : الآثار الاقتصادية لنظام الأراضى

بعد أن استعرضنا نظام الأراضى فى الدولة العباسية من حيث تملكها واستغلالها، والتى - بلا شك - قد أثرت اقتصاديا على كثير من المؤشرات الاقتصادية داخل المجتمع العباسى الأول، يحاول الباحث فيما يلى القاء الضوء على أهم الآثار الاقتصادية التى ترتبت على تطبيق نظام الأراضى فى الدولة العباسية الأولى والتى منها ما يلى :-

أ - العدالة فى توزيع الموارد :

خضع نظام الأرض فى الدولة العباسية، لقواعد الشريعة العامة والتى تؤكد على ضرورة تحقيق العدالة بين أفراد المجتمع، فلم تترك الموارد الطبيعية التى وهبها الله للأمة للسيطرة الفردية تتحكم فيها، بدعوى الحرية الاقتصادية، كما فى النظام الرأسمالى كما لم تمنع عن الافراد الموارد بحجة أن الدولة هى التى تملك كل شىء، وتحرمهم بذلك من أبسط حقوقهم التى كفلها الله لهم كما فى النظام الاشتراكى، بل ترك الأمر ليطابق الفطرة الانسانية، التى خلق الله الناس عليها، من حق التملك والاستغلال للموارد، ووضعت الشريعة لذلك مجموعة من الضوابط التى تضمن تحقيق العدالة لجميع الناس، كما أعطت الدولة الحق فى التدخل لضمان تطبيق تلك العدالة، وكان من أهم الآثار التى ترتبت على تطبيق العدالة فى توزيع الموارد فى المجتمع العباسى الأول ما يلى :-

١ - الموارد الضرورية ملك للجميع :

فكما هو معلوم أن الموارد التى لا غنى للناس عنها، منع الاسلام تملكهاملكية خاصة، إذ فى تملكها، ملكية خاصة، وقوع فى الحرج والضيق. لذلك منع الرسول ﷺ اقطاع الموارد الضرورية للمجتمع كالماء والكلأ ، والنار ، والملح، وكل ما فيه خاصية هذه الموارد، ذلك بأن فى تملكها الحاق ضرر بأفراد المجتمع، ومعلوم أنه من الضوابط العامة - والتى سبق وأن أشرنا اليها - أنه : «لا ضرر ولا ضرار»(١).

---

(١) - سبق تخريجه فى ص٧٥ من هذا البحث.

ولاشك أنه فى تملك مثل هذه الموارد الحاق ضرر بأفراد المجتمع، إذ هى من السلع التى يحتاجها جميع الناس، ولا غنى لآحاد الافراد عنها، أو هى الموارد ذات النفع العام، وبالتالى فلا يجوز أن تدخل تحت أى نوع من أنواع الملكية الخاصة، ولا أن يستحوذ عليها أحد بمفرده، دل على ذلك قول الرسول ﷺ : «الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار» وفى رواية «والملح»·(١) وما ورى عن أبيض بن حمال أنه وفد الى رسول الله ﷺ فاستقطعه الملح الذى بمأرب فقطعه له، فلما ولى قال رجل من المجلس أتدرى ما قطعت له؟ الماء العد - أى الذى لا ينقطع - قال : فانتزع منه»·(٢)

وقد علق ابن قدامة على عدم جواز اقطاع ذلك فقال : «لأن ذلك تتعلق به مصالح المسلمين العامة»· وقال ابن عقيل : هذا من موارد الله الكريم، وفيض جوده الذى لا غناء عنه، فلو ملكه أحد بالاحتجاز ملك منعه فضاق على الناس، فان أخذ العوض عنه اغلاه، فخرج عن الوضع الذى وضعه الله من تعميم ذوى الحوائج من غير كلفة، وهذا مذهب الشافعى، ولا أعلم فيه مخالفا»(٣)·

وبناء عليه فلا يجوز أن تخضع مثل هذه السلع الى الملكية الخاصة لأن فى عدم تملكها تحقيقاً للعدالة فى توزيع موارد الدولة الاسلامية·(٤) كما أن تعليل المنع هنا ليس العمل والاستثمار، وإنما هو حاجة مجموع ابناء المجتمع بالدرجة الأولى كما قال أحد الباحثين(٥)، إذ ان الاسلام لم يعتد فى ملكية تلك الموارد بأى مجهود يبذله الانسان سواء أكان أحياء أو احتجارا

---

(١) - سبق تخريجه فى ص٤٧من هذا البحث

(٢) - سبق تخريجه فى ص٤٨من هذا البحث·

(٣) - ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق جـ٥ ص٥٧٢

(٤) - محمد سعيد الغامدى، دراسة اقتصادية للاقطاع فى الاسلام، المرجع السابق ص١٤٧/١٤٨

(٥) - شوقى أحمد دنيا، الاسلام والتنمية الاقتصادية، دار الفكر العربى الطبعة الأولى ١٩٧٩م، دار الاتحاد العربى للطباعة، القاهرة ص٢٦٥/٢٦٦

أو غير ذلك كما قال ابن قدامة - رحمه الله - «لا تملك بالاحياء ولا يجوز اقطاعها لأحد من الناس ولا احتجارها دون المسلمين»(١)٠ ومعنى ذلك أن استغلال تلك الموارد لا يكسب صاحبها ملكية ذلك المورد نفسه، وانما يكسبه حق التقدم على غيره فى الحصول على مقدار حاجته فقط، وليس له منع الغير من أخذ حاجته منها، اذا فضلت عن حاجته، وبذلك لا يجوز لصاحب بئر احتفره أن يمنع غيره من أخذ حاجته منه إذا فضل عن حاجته، وليس له أخذ أجر عليه ايضا٠(٢)

هذا وقد شغلت الموارد الضرورية فكر الخلفاء فى عصر الدولة العباسية، وفى كتاب الخراج لأبى يوسف أكبر دليل على ذلك إذ ان الرشيد سأل أبا يوسف أن يضع له كتابا يوضح فيه موارد الدولة وما يباح منها وما لايباح، ومن ضمن ما سئل أبو يوسف ما تعلق بالموارد الضرورية كالمياه والكلأ والنار، وقد أجابه رحمة الله عليه بما كان عليه سلف الأمة من عدم جواز تمليكها قال أبو يوسف «والمسلمون جميعا شركاء فى دجلة والفرات، وكل نهر عظيم نحوهما أو واد يستقون منه ويسقون الشفة والحافر والخف، وليس لأحد أن يمنع»٠(٣) وقال : «ولو أن أهل قرية لهم مروج يرعون فيها، ويحتطبون منها قد عرف أنها لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها، ويحدثون فيها ما يحدث الرجل فى ملكه، وليس لهم أن يمنعوا الكلأ ولا الماء٠٠٠ ثم قال : والكلأ لا يباع ولا يدفع معاملة»(٤)٠

وهكذا فان التطبيق العملى فى الدولة العباسية الأولى فيما يتعلق بأحكام تملك الموارد الضرورية، كان على ما كان عليه سلف هذه الأمة من عدم جواز تمليكها إلا اذا حيزت، كما انها إذا حيزت ليس لحائزها حق منعها إذا فضلت عن حاجته ايضا٠

---

(١) - ابن قدامة ، المغنى، المرجع السابق حـ٥ ص٤٦٧

(٢) - شوقى أحمد دنيا ، الاسلام والتنمية الاقتصادية، المرجع السابق ص٢٦٦

(٣) - أبو يوسف ، الخراج، المرجع السابق ص١٠٥، والشفة هى : الشرب لنبى آدم، والبهائم والنعم والدواب٠

(٤) - المرجع السابق ص١١١/١١٢

٢ - أولوية التملك للذين لا أملاك لهم :

كانت أولوية التملك والاستغلال تعطى فى الدولة الاسلامية للذين لا أملاك لهم، والذين لم يسبق لهم أن حصلوا على أراضى من قبل الدولة، سواء عن طريق الاقطاع أو غيره، وذلك بهدف ايجاد نوع من التوازن الاقتصادى والاجتماعى بين افراد الأمة ولذلك اشترط - مثلا - فى المقطع أن يكون لديه مقدرة على استغلال الارض واستصلاحها، كما أن على الامام أن ينظر حاله، فيعطيه على قدر طاقته الاستثمارية، وحاجته فيعطى الأرض السكنية لمن يريد السكن، والأرض الزراعية لمن يريد الزراعة، ولا مانع من الجمع بينهما، إذا وجد الامام فى حاله ما يستدعى ذلك. فقد اقطع النبى ﷺ للمهاجرين من أرض بنى النضير حيث أنهم كانوا قد تركوا أموالهم فى مكة، ولم يكن عندهم أملاك، فاقطع أبابكر، وعبدالرحمن بن عوف وأبو دجانة سماك الساعدى، وغيرهم.

وفى عهد الدولة العباسية راعت الدولة هذه الأولوية، فاقطع المنصور ببغداد سليمان بن مجالد موضع داره، وقد كان سليمان مولى لعلى بن عبدالله بن على بن العباس. كما أقطع المنصور ايضا مهلهل بن صفوان قطيعة ببغداد لم يحدد موضعها، ولا مساحتها، وكان أبوه صفوان مولى لعلى بن عبدالله ايضا.(١) كما أقطع شبيل مولاه ايضا(٢)، واقطع ريسانة أحدى كبيرات قصره ايضا. اضف الى ذلك أن امتلاك الأرض فى ذلك الوقت كان مترتبا على العمل الاقتصادى فيها، فمن أحيا أرضا فهى له، كما لم يكن مجرد احتجار الارض فقط مسوغا لملكيتها إلا إذا تم بالفعل احياؤها مع اعطائه الفترة الزمنية المناسبة لذلك الاحياء، تطبيقا لما كان عليه سلف الأمة. حتى ان بعض الخلفاء كما ذكرت المصادر استرجعوا أراضى اقطعت بالفعل من قبل خلفاء سابقين، فاشتروها واعادوا اقطاعها مرة أخرى لما وجدوا أصحابها وورثيها قد اهملوا فيها.

---

(١) - البلاذرى فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٦٢

(٢) - المرجع السابق حـ٢ ص٣٦٣

فتذكر المصادر أن الرشيد ابتاع نهر الأمير الذى كان المنصور قد حفره ووهبه ابنه جعفر واقطع الرشيد منه وباع مرة أخرى.(١) ومع ذلك فان طابع القطائع فى ذلك العصر - كما سبق وأن أشرنا - كان لذوى الرتب العالية من الولاة والوزراء والموظفين والعسكريين، والفقهاء والمحدثين، وهو الأمر الذى يعد انحرافا عن تطبيقات السلف الصالح، إذ ان الاولوية يجب أن يكون للذين لا أملاك لهم، ولا مانع أيضا من اقطاع غيرهم من ذوى الرتب لكن الممنوع أن يكون غالب الاقطاعات لاصحاب الرتب العالية، دون اعتبار للمساواة بين افراد المجتمع فى أحقية الاقطاع، وليس فى مساحات الاقطاع لان مساحات الاقطاع يمكن أن تتفاوت تبعا لمقدرة المقطع له على الاستصلاح والاستثمار.

ب - أثر نظام الأراضى على الانتاج :

لاشك أن نظام تملك الأرض واستغلالها فى الدولة العباسية أثر تأثيرا مباشرا على الانتاج، وقد ظهر ذلك فى تطبيقات نظام ملكية الارض واستغلالها وكان من ضمن هذه التطبيقات التى أثرت على الانتاج بشكل مباشر :

١ - تدعيم الملكية الخاصة وتوسيع نطاقها :

الدولة العباسية كانت تسير فى مجال الملكية واستغلال الأرض على ما كان عليه الحال من الضوابط والقواعد التى طبقت فى عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، فلم توجد قيود على ملكية الأرض، فاباحت ملكية الأرض وبدون تحديد لها، بل ووسعت من نطاقها، مما كان له أثره المباشر على انتشار الملكيات الكبيرة فاستصلحت مساحات واسعة مستخدمة فى ذلك شتى نظم الأرض فى مجال الملكية، وشتى الاساليب المختلفة للاستغلال من أحياء، ومزارعة، ومساقاة، ومؤاجرة،... الخ وشجع على ذلك ايضا أن المستفيد من

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٤٤٥

الارض كان يحس دائما، أن الارض المقطعة له ستصبح ملكه وسيرثها أولاده من بعده، وبالتالى تضاعف الجهد والبذل، وأخذ الناس يبذلون قصارى الجهد من أجل الانتاج، ومما شجع على الانتاج ايضا اشتراط عدم دخول الأرض نطاق الملكية الخاصة إلا إذا انتجت بالفعل، وبالتالى كان هناك دافعا مستمرا لعملية الانتاج والنهوض به.

ومما أثر ايضا فى نمو انتاجية الأرض اشتراط قدرة الشخص على احياء جميع ما أقطع، حيث ان هذا الشرط من الشروط الهامة التى اتبعت فى الدولة الاسلامية، وفى العصر العباسى ايضا، وقد ساهم هذا الشرط فى ترشيد استخدام الموارد، وعدم تبديد شىء منها وهو الأمر الذى فعله عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - مع بلال حيث أقطعه ما يستطيع استغلاله واسترد منه الباقى، وفى ذلك حرص من عمر رضى الله عنه على استغلال موارد الدولة الاستغلال الأمثل فرد منه الباقى وادخله دائرة الانتاج وهو تصرف سليم يزيد الانتاج، ويحقق المصلحة العامة للأمة، ولا يخفى أن فى استغلال الفرد لجميع ما أقطع سيعود عليه بالنفع حيث سيزيد من دخله وهو الأمر الذى يعنى زيادة القوة الشرائية له، فيزيد بذلك امكانياته الاستهلاكية والاستثمارية ومن ثم يزيد طلبه على السلع والخدمات الاستهلاكية والاستثمارية، وهو الذى سيدفع المنتجين الى زيادة انتاجهم من تلك السلع والخدمات ايضا.(١)

هذا وتورد المصادر التاريخية نصوصا من الاقطاعات العباسية تؤكد على أهمية تدعيم الملكية الخاصة، وتوسيع نطاقها، وترشيد استخدامها، وضرورة دخولها دائرة الانتاج، فقد كان بعض خلفاء الدولة العباسية يقوم بابتياع اقطاع سبق تمليكه من قبل خليفة سابق فيبتاعه ويقطعه لآخرين، لأنه كان يرى أنهم لا يستغلونه الاستغلال الأمثل، وهناك أمثلة كثيرة على ذلك منها:

---

(١) - محمد سعيد الغامدى، دراسة اقتصادية للاقطاع فى الاسلام، المرجع السابق ص١٥١/١٥٢

أن المنصور حفر نهر الأمير بالبصرة، ووهبه ابنه جعفر، وبعد وفاة الخليفة ابتاعه الرشيد واقطع منه وباع(١).

وتذكر المصادر ايضا أن عين الرومية (بلد بالثغر من نواحى المصيصة بتركيا) كانت لأبى العباس أمير المؤمنين فاقطعها الرشيد ميمون بن حمزة ثم ابتاعها الرشيد مرة أخرى من ورثة ميمون وأقطع منها. كما أن الرشيد ابتاع قطيعة بشر بن ميمون التى اقطعت له، فابتاعها، واقطع منها ، وهى أرض سروج (أى خصبة).(٢)

ويرى الباحث : أن فى هذا التصرف من استرداد القطائع مرة أخرى واعطائها لمن يحسنون التصرف فيها واستغلالها الاستغلال الأمثل، تصرف سليم، ويدل على مدى الوعى الاقتصادى لخلفاء الدولة العباسية وحرصهم على ترشيد استخدام موارد الدولة وزيادة انتاجها، وان معيار الملكية عندهم كان العمل الاقتصادى الرشيد - كما فعل هارون الرشيد فى النماذج السابقة - ولا مانع من ذلك التصرف طالما كان ذلك فى اطار المصلحة العامة وفى حدود الشرع الكريم، ودون وقوع ظلم أو الحاق ضرر بالآخرين، وبتعويض مناسب، وبصفة خاصة إذا كان المورد قد آلت ملكيته الى آخرين سواء بالبيع أو التوريث أو غيره وهو ما فعله الرشيد - رحمه الله - والله اعلم.

حـ - أثر نظام الأراضى على التشغيل :

ساهم نظام الأرض فى الدولة العباسية فى القضاء على البطالة حيث استوعب النشاط الزراعى اعدادا كبيرة من العمال وخاصة الزنوج، فقد استقدمت الدولة اعدادا كبيرة منهم، وذلك للعمل فى النشاط الزراعى، فاستخدم الزنوج فى ازالة السباخ أو الطبقة المالحة التى تغطى التربة وجعلها صالحة للـزراعة، وكانت اعدادهم ضخمة حتى قدر جيش الثـورة التى

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق، حـ٢ ص٤٤٥

(٢) - المرجع السابق حـ٢ ص٢١٤

قاموا بها فى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٩م بثلاثمائة الف مقاتل.(١)

وقد ساعد على ذلك أيضا أن الدولة لم تكن تفرض قيودا على الهجرة، وفتحت الباب أمام كثير من العمال والتجار والصناع لدخول الدولة والخروج منها لأجل العمل، كما أن الدولة ايضا قامت بنفسها باستجلاب أهل الخبرة لمواجهة احتياجات التنمية الزراعية، فاستقدمت المهندسين والمساحين ممن يجيدون الأعمال الزراعية وما يتصل بها، وذلك رغبة منها لأن يزداد أبناؤها بالخبرة الزراعية والهندسية والتى يحتاجها العمل الزراعى ومن ثم رفع الكفاية الانتاجية للعامل الزراعى ثم ساعد على ذلك ايضا التعاليم الاسلامية التى تحفز العمل وتدعو اليه، وكانت الزراعة مجالا خصبا لذلك فمن احيا أرضا ميتة فهى له، وبالتالى وجد الدافع لعمليات الاستثمار من خلال ما وفرته الشريعة من حافز التملك بمجرد الاحياء، أضف الى ذلك الثواب والأجر الجزيل من الله على هذا العمل - إذا توفرت النية الصالحة فيه -، وقد ساهم ذلك - بلا شك - فى التقليل من حالات البطالة فى المجتمع العباسى الأول، ومن ثم ساهم ذلك ايضا فى عملية التشغيل بشكل عام.

د - أثر نظام الأراضى على الاستهلاك :

يبدو أن نظام الأرض، وما تبعه من شيوع الملكيات الكبيرة الغير محدودة، قد أدى الى ثراء طبقة عريضة من أبناء المجتمع العباسى. وقد ظهر ذلك من خلال ما ذكرته المصادر التاريخية عن صور البذخ والترف الذى كانت تعيشه قصور الخلفاء والوزراء، وكبار رجال الدولة، بل والطبقات الاجتماعية الممتازة فى ذلك الوقت، وقد أشارت المصادر الى صور كثيرة من الاستهلاك الترفى فقد كان الطعام والشراب فى ذلك الوقت شىء يفوق الخيال.

---

(١) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٩ ص٤١٤

فقد ذكر الفخرى فى الآداب أن الوليمة التى اقيمت ليلة زف الرشيد الى زبيدة بنت جعفر تكلفت خمسة وخمسين ألف درهم، وبلغت نفقة المأمون فى اليوم ستة آلاف دينار كان ينفق منها قدرا كبيرا على المطابخ.(١)

وهناك صور كثيرة من السرف فى الطعام والشراب واللباس تؤكد أن أصحاب الضياع الواسعة من الأرض كانوا يمثلون اكثر هذه الطبقة من الناس، وبالتالى فان العلاقة بين هذا الاستهلاك، وبين ما تنتجه الأرض كانت علاقة متلازمة، إذ ان ارتفاع مستوى الدخل انعكس على مستوى المعيشة، فنشأت طبقة كبيرة ذات استهلاك كثير، وحياة مترفة، يظهر ذلك أدب هذا العصر سواء أكان أدبا رسميا أو شعبيا، ومن الأمثلة على ذلك الثروات الطائلة التى حازتها طائفة كبيرة من أبناء المجتمع كثروات البرامكة، وبنو سهل، وبنو طاهر والثروات التى حازها الخلفاء، والأمراء، والمنح والعطايا التى فاقت حد الوصف لصاحب كل أدب رفيع(٢)، والتى انعكست بلاشك على مستوى الاستهلاك داخل المجتمع العباسى.

كما أن هناك أمثلة كثيرة ذكرها كثير من المؤرخين على الاستهلاك الترفى للخلفاء من ذلك، أن نفقة الرشيد اليومية بلغت (١٠و٠٠٠) درهم وبذلك تصير نفقاته الشهرية (٣٠٠و٠٠٠) درهم والسنوية (٣٦٠٠و٠٠٠) درهم.(٣) وأما المأمون فقد بلغت نفقاته اليومية (٦ر٠٠٠) دينار.(٤) والشهرية (١٨٠و٠٠٠) دينار والسنوية (٢و١٦٠و٠٠٠) دينار.

---

(١) - ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية، المرجع السابق ص٢٠٧

(٢) - حسن أحمد محمود، أحمد إبراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، المرجع السابق ص١٩٧/١٩٨

(٣) - المرجع السابق ص١٩٧/١٩٨

(٤) - ابن الطقطقى، الآداب السلطانية، المرجع السابق ص٢٠٧، محمد كرد على ، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص٢٣٥، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المرجع السابق جـ٢ ص٤٢٥

وقد أشار بعض المؤرخين الى أنه كان ينفق منها على مطابخه، ويصرف أكثرها على الرعية(١)٠ وقد قيل ان الرشيد حفلت موائده بألوان الطعام حتى قيل : «ان الطهاة كانوا يطهون له ثلاثين لونا فى اليوم»(٢)٠ وأما المأمون فقد كان ينفق على المطابخ والمخابز مبلغ (١٠،٠٠٠) دينار كل شهر، وكان ينفق على ثمن المسك (٣٠٠) دينار فى كل شهر وعلى ثمن الشمع والزيت والدواء مبلغ ٢٣٠ دينار كل شهر٠ وانفق على ثمن العطور والحمامات وكسوة الخدم (٣٠٠) دينار شهريا٠(٣) وفى عهد المعتصم بلغ مجموع ما انفقه على الطعام فى اليوم الواحد (١٠٠٠) دينار٠(٤) الى غير ذلك مما استهلكه الخلفاء وكبار رجال الدولة وغيرهم من الطبقات الاجتماعية الممتازة، فقد كانت قصورهم وبيوتهم أيضا لا تقل بهاءا عن قصور الخلفاء والامراء والولاة، وبشكل عام كان الاستهلاك هو الصورة الواضحة فى المجتمع العباسى الأول٠

وكان ذلك نتيجة ثراء طبقة كبيرة من ابناء المجتمع العباسى، والتى استصلحت الارض واستغلتها، ووجهت كل طاقاتها الانتاجية نحوها، وقد ساعد على ذلك ايضا ما تقدم ذكره، من تشجيع الدولة على التملك واقطاعاتها المتنوعة لابناء المجتمع فزادت دخول الأفراد تبعا لزيادة الانتاج الزراعى، ومن ثم أثر ذلك على استهلاك الافراد فزاد استهلاك المجتمع بشكل عام٠

هـ - أثر نظام الأراضى فى زيادة ايرادات الدولة :

ساهم نظام الارض فى الدولة العباسية فى زيادة ايرادات الدولة، وذلك من خلال الاقطاعات الكثيرة التى حدثت فى العصر العباسى الأول، فقد اقطعت

---

(١) - ضيف الله الزهرانى، النفقات وادارتها فى الدولة العباسية، المرجع السابق ص١٩٠/١٥١

(٢) - حسن أحمد، أحمد الشريف، العالم الاسلامى، المرجع السابق ٢٢٣

(٣) - حسنين مولوى، الادارة العربية، المرجع السابق ص٢٨٨

(٤) - السيوطى، تاريخ الخلفاء، المرجع السابق ص٣٣٧، أحمد على، ثورة الزنج، المرجع السابق ص٦٥، ضيف الله الزهرانى، النفقات وادارتها فى الدولة العباسية، المرجع السابق ص١٥٤

الموارد للقادرين على العمل والانتاج فيها، ولاشك أن اقطاع الموارد التى كانت عاطلة والتى أصبحت بتقسيمها واقطاعها طاقة منتجة داخل الدولة إذ أنها أدت - بلا شك - الى زيادة فى الانتاج على المستوى الكلى للدولة، وبالتالى زادت من العائدات المالية المقررة لبيت المال، وذلك تبعا لزيادة الوعاء الذى كان يؤخذ منه هذا العائد المتمثل فى الزكاة إذا كانت الأرض عشرية، أو الخراج اذا كانت الأرض خراجية، أو أى مقدار آخر يقرره ولى الأمر على صاحب الأرض، حسب الوضع المالى الذى تعيشه الدولة ومراعاة المصلحة العامة للمسلمين، وكدليل على زيادة ايرادات الدولة العباسية، فقد بلغ مجموع خراج الدولة أيام الرشيد طبقا لقائمة الجهشيارى، وما توصل اليه أحد الباحثين ٥٣٠٫٣١٢٫٠٠٠ درهم، وإذا أضفنا الى هذا الرقم أثمان الأموال العينية التى تتضمنها القائمة، فان الخراج فى عصر الرشيد وحده لم يكن يقل بأى حال من الأحوال عن ٥٠٠ مليون درهم.(١) وهى حصيلة كبيرة - بلا شك - وخاصة إذا ما علمنا أن معظمها كان من نتاج الأرض الزراعية.(٢)

اضف الى ذلك أن الدولة كانت أحيانا تقدم الأجور والمنح والاعانات فى شكل عينى بدلا من أن تعطيها نقدا فتوفرت بذلك أموالا نقدية كثيرة لصالح بيت المال، وبالتالى زادت حصيلة بيت المال بشكل غير مباشر، ومن تلك المنح ما أقطعه المنصور للفضل بن الربيع برحا البطريق وهى أرض ببغداد على الصراة - نهر -.(٣) وما أقطعه المهدى لخالد بن برمك قرب بغداد، وقد سميت باسمه «سويقة خالد»، وقد بنى الفضل فيها قصر الطين.(٤)

---

(١) - ضياء الدين الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية، المرجع السابق ص٤٩٢/٤٩٣

(٢) - الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ، انظر قائمة الجهشيارى ص٢٨١

(٣) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٣ ص٣١

(٤) - المرجع السابق حـ٣ ص٢٨٧

وما أقطعه المهدى لوزيره أبى عبيدالله معاوية بن عبدالله أرضا بين عسفان ومكة لما أستوزره فسميت باسمه "بئر معاوية".(١)

وقد كانت تقدم لهم هذه الاقطاعات كمنح مقابل ما يقدمونه للدولة من خدمات، وقد كان هذا الاقطاع يمنح لهم مدة بقائهم فى الوزارة أو الديوان أو الوظيفة ثم يسترد بعد ذلك، ولم تكن هذا الاقطاعات وراثية - فى الغالب - بل كانت موقوتة بمدة بقاء المستفيد منها فى عمله ثم تنتقل الى من يخلفه أو من يرثه اذا رأى الخليفة ذلك . فقد اقطع المأمون الفضل بن سهل السرخسى السيب بأرض العراق عطاء له ولعقبه من بعده(٢)، وهذا الاقطاع صريح فى أنه كان أحيانا يورث لعقب من أقطع له، وقد استحدث هذا النوع من الاقطاع - فيما بعد - ديوان اطلق عليه ديوان اقطاع الوزارة.(٣)

وبالتالى فان ايرادات بيت المال فى الدولة العباسية قد تأثرت بنظام الأرض فى تلك الفترة فزادت ايرادات الدولة - كما سبق أن أشرنا - من خلال ما كانت تحصله من ايرادات الموارد المختلفة، ومن خلال ما كانت توفره من أموال نقدية عن طريق منح الاقطاعات كمنح واعانات وأجور وهو الأمر الذى انعكس بدوره على ايرادات بيت مال الدولة العباسية.

وبرغم ما ذكرنا من ايجابيات - فيما تقدم - فقد وجدت بعض السلبيات فى تطبيق نظام الأرض منها سوء توزيع الموارد - أحيانا - وعدم مراعاتها للعدالة فى توزيعها حيث استأثر بها نفر قليل من افراد الاسرة الحاكمة والمقربين اليهم بكثير من الاقطاعات التى اعطيت لهم اما لقربهم من الطبقة الحاكمة أو لمكانتهم عندهم، بينما حرمت الطبقة العريضة ذلك رغم حاجتهم اليها واستحقاقهم لها.(٤)

---

(١) - المرجع السابق حـ١ ص٣٠٢

(٢) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٨ ص٤٢٤، الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ص٣٠٦، محمد ماهر حمادة، الوثائق الادارية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٤٠

(٣) - الصابى، الوزراء، المرجع السابق ص٢٨/٢٩

(٤) - محمود المظفر، احياء الاراضى الموات، المرجع السابق ص٣٢٦

وكان من نتيجة ذلك ظهور الملكيات الكبيرة، والتعدى أحيانا على الملكيات الخاصة الضعيفة، وقد أدى ذلك الى ظهور الالجاء بين العامة من الناس وحولت كثير من الملكيات الى آخرين بحجة الحماية من الجباة، ومع أن الاسلام لا يعارض الملكيات الكبيرة من حيث المبدأ لكنه لابد أن يكون ذلك فى اطار الشرع وأحكامه وقواعده، بحيث لا يقع من أصحابها أى استبداد أو ظلم أو استغلال أو تسلط على الغير بأى شكل من الاشكال.

كما ظهرت الضياع السلطانية - والتى سبقت الاشارة اليها - فاستولى العباسيون على أملاك بنى أمية وضياعهم، وأحدثوا لها ديوانا خاصا لتنظيم تلك الضياع، ووسعوا هذه الضياع بحفر الأنهار واستصلاح الأراضى، عن طريق الشراء والمصادرة - أحيانا - فكانت الضياع واسعة وغنية وموزعة فى أرجاء البلاد.(١)

ومن أهم هذه الضياع ضياع آل مروان، وقد اشار البلاذرى وغيره الى كثير منها، ومنها على سبيل المثال (بالس) فقد قال عنها البلاذرى : «فلما مات مسلمة بن عبد الملك صارت بالس وقراها لورثته، فلم يزل فى أيديهم الى أن جاءت الدولة المباركة (يقصد العباسية) وقبض عبدالله بن على أموال بنى أمية، فدخلت فيها، فاقطعها أمير المؤمنين أبو العباس لسليمان بن على بن عبدالله بن العباس فصارت لابنه محمد بن سليمان وصارت أمواله للرشيد فأقطع بالس، وقراها المأمون فصارت لولده من بعده.(٢)

ومما ذكره البلاذرى أيضا (السيبين) حيث كان لمسلمة بن عبد الملك، فلما جاءت الدولة العباسية وقبضت أموال بنى أمية أقطع جميع السيبين لداود ابن على بن عبدالله بن العباس، وبعد موته أبتيع ورثته فصار من ضياع الخلافة.(٣)

---

(١) - عبدالعزيز الدورى، نشأة الاقطاع فى المجتمعات الاسلامية، المرجع السابق ص١٢

(٢) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق ص٢٠٦

(٣) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٣ ص٢٩٣

ومما استولى عليه العباسيون ايضا من أملاك بنى أمية، وقاموا باقطاعه الجزيرة التى كانت لهشام بن عبدالملك فقد اشتراها بسبعين الف درهم، وغرس فيها النخل والأشجار فكانت على أحسن ما يرى، فلما زال ملك بنى أمية كانت الجزيرة هذه مما استصفاه بنو العباس، وقاموا باقطاعها لوائل الشجاحي.(١)

ويتضح من هذه النماذج وغيرها، أن الخلفاء العباسيين حرصوا كسابقيهم من الأمويين على أخذ القطائع لأنفسهم، ومنحوا كثيرا منها لأقاربهم فاستولوا على جميع أملاك بنى أمية، واستأثروا بها. وأقطعوا منها لأبناءهم وخاصتهم، ولا شك أن هذا انحراف عن الوضع الاسلامى لملكية الأرض واستغلالها، حيث أن ما تم هو استيلاء على أراضى سبق أن ملكت، ملكية خاصة، والقيام باقطاعها على الأبناء والاقارب لم يكن من قبيل استرداد اقطاعات سابقة، لم يراع فيها العدل والمصلحة، كما فعل عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه عندما رد كثيرا من اقطاعات الخلفاء الأمويين الذين كانوا قبله، حيث رأى أنها مخالفة لأحكام الاقطاع الشرعى فردها ، إما لبيت المال، إن كانت قبل اقطاعها مملوكة للدولة، وإما لأصحابها الشرعيين إن كانت قبل اقطاعها مملوكة لهم، ولكن ما فعله العباسيون عندما استولوا على الحكم هو القيام بمصادرة جميع أملاك الأمويين واقطاعها، إما لأنفسهم أو لأحد من أقاربهم أو لحاشيتهم وبناء عليه، فإن اقطاعهم بهذه الصورة يكون اقطاعا لشىء قد تعين مالكه وهو غير جائز شرعا.(٢)

وقد أدى هذا الوضع - أحيانا - الى ظهور حالات من التذمر فى وسط العامة، فقد ذكر أنه لما خص المنصور اتباعه وذوى قرباه ببعض الاقطاعات حول بغداد بقيت ناحية لم يقطعها أحدا وكانت الكلاب فيها كثيرة، فقال البعض

---

(١) - الأزدى، تاريخ الموصل، المرجع السابق ص١٧١/١٧٢

(٢) - محمد سعيد الغامدى، دراسة اقتصادية للاقطاع فى الاسلام، المرجع السابق ص١٠٠

هذه قطيعة الكلاب فسميت بذلك.(١) وبالتالى فقد أدى نظام الأرض دورا اقتصاديا هاما، برغم ما كان يكتنفه من سلبيات - كما فى الالجاء والضياع وغيرها - إلا أنها لم تكن عائقا اقتصاديا للنشاط الزراعى بشكل عام.

فقد أثر نظام الأرض تأثيرا مباشرا على اقتصاد الدولة ومؤاشراتها الاقتصادية المختلفة، فقد أثر على عملية توزيع الموارد، ووسع من نطاق الملكية، كما أثر فى الانتاج فزاد من كميات الانتاج حيث كان الانتاج الزراعى هو عماد ايرادات الدولة، والمصدر الرئيسى للدخل القومى، كما ساهم نظام الأرض فى تشغيل الايدى العاملة وحد من مشكلة البطالة، عن طريق فتح باب الهجرة دون قيود وبالتالى ساهم فى زيادة الانتاج، ومن ثم زادت دخول الافراد، مما انعكس على الطلب الاستهلاكى وسلعه حيث زاد الطلب عليها فشجع ذلك على الاستثمار فيها، وذلك لمواجهة الطلب المتزايد عليها، وبالتالى أدى نظام الأرض دورا اقتصاديا كبيرا فى تلك الفترة برغم ما كان من بعض السلبيات - والتى سبق أن اشرنا اليها-، لكنها لم تكن بشكل عام عائقا اقتصاديا لنظام الأرض فى الدولة العباسية الأولى.

---

(١) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق جـ١ ص٨٩

المبحث الثاني

نظام الزراعة وتطور الفن الانتاجي

مقدمة : تطورت الزراعة فى العصر العباسى الأول تطورا كبيرا سواء فى طرقها وأساليبها الفنية وكذا فى تخير الأنواع الجيدة من الحاصلات الزراعية والتى تعطى محصولا أوفر، كما أهتم الفلاح بشكل عام بها مما انعكس ذلك ايضا على الانتاج، وقد ساعد على ذلك وجود الأساليب الاسلامية المتعددة فى استغلال الأرض وزراعتها، ويحاول الباحث فيما يلى أن يلقى الضوء على هذا التطور الذى انعكست آثاره على جميع الأنشطة الاقتصادية المختلفة فى الدولة بشىء من الايجاز :

أولا : اهتمامات الفلاح الزراعية :

كان الفلاح فى الدولة العباسية قبل البدء فى العملية الزراعية يهتم بأمور من شأنها أن تؤدى الى وفرة المحصول، وتحقيق اقصى انتاج ممكن. فكان يهتم أولا بالأرض التى سيزرع فيها، فيختار منها الجيد القابل للزراعة، وكانت لهم طرق فى معرفة الجيد منها ويمكن أن يستفاد ذلك مما كتبه بعض المؤلفين فى هذا المعنى ممن عاشوا قريبا من هذا العصر.

يقول صاحب المقنع فى الفلاحة : «اهرب كل الهرب عن الأرض المنتنة والمالحة، والماء المالح، والرمل المالح، وإذا كان فى الأرض حجارة عظام فهو ردى لها، لأنها تسخن فى القيظ وتحرق بحرارتها أصول الشجر والبقول، وفى الشتاء تبرد فتفسد الشجر والنبات إن كان قريبا منها، والصغار من الحجارة أقل ضررا ،فأنقل الحجارة عن أرضك».(١)

---

(١) - أحمد بن محمد بن حجاج الأشبيلى، المقنع فى الفلاحة، تحقيق صلاح جرار/ جاسر أبو صفية، تدقيق ،: عبدالعزيز الدورى، من منشورات مجمع اللغة العربية الاردنى عام ١٤٠٢هـ/١٩٨٢، ص٦/٧

وقد كانت لهم معرفة بنوعية الجيد من الأرض، وكان لهم فى ذلك طرق مختلفة ذكر منها صاحب المقنع الكثير - فعلى سبيل المثال - قال : « احفر فى الأرض حفرة قدر شبر وأخرج ترابها وفتته واردد ذلك التراب فى موضعه الذى احتفر منه، فان فضل التراب على الحفر، فالأرض جيدة، وان امتلأت الحفرة بترابها لم يزد ولم ينقص فالأرض متوسطة، وان نقص التراب، ولم تملأ الحفرة فالأرض رقيقة ردية».(١)

فاذا اختار الفلاح الأرض التى يريد زراعتها بدء باختيار البذور فيختار منها الصحيح، والجيد، والسمين والذى يحقق وفرة فى المحصول والانتاج، يقول ابن حجاج الأشبيلى : «اختر من البذر أصحه وأجوده وأسمنه، واحذر الرقيق المهزول، وليكن القمح صحيحا نقيا كأنه قد دهن بالدهن، حلو الطعم، وخير ما زرع منه ابن عام أو عامين، وأما ما جاوز ذلك من البذور فلا خير فيه إلا الجاورس»(٢) ثم بعد ذلك تبدأ عملية الزرع فيتخير الوقت المناسب له فيقول : «ولا ينبغى أن يزرع فى أيام شدة البرد، فان الأرض لا تقبل زرعا، وان زرعت فى يوم دفىء قبلته الأرض...ثم يقول ... والقمح يزرع فى اطيب الأرض، والكتان والشعير فى أوسط الأرض...والفول والحمص فى الأرض الندية الطيبة»(٣)

فاذا انتهى من ذلك تخير عمال الزراعة من الشباب المهرة ولا يكثر من عددهم فى العمل الزراعى بحيث يصبح صورة من صور البطالة، وانما يختار العدد المناسب لكل عمل زراعى.

يقول ابن حجاج الأشبيلى : «وينبغى أن يختار من الفلاحين الشباب، فان الشباب أقوى على احناء الظهور والاكتاف والمدوامة على العمل من ذوى الأسنان، والشباب أطوع، وأصح ابدانا، وأدوم نشاطا، وأصبر على العمل فى

---

(١) - المرجع السابق ص٦

(٢) - المرجع السابق ص١١، والجاروس : الذرة بكل أنواعها

(٣) - الأشبيلى، المرجع السابق ص١٣/١٤

الحر والبرد، وأحد إبصارا، وأثبت نظرا فيما تكل عنه ابصار الشيوخ من معالم حدود الأرضين وما قد درس(١) منها...وإذا كان الفلاحون كثيرين، فانه لا ينبغي أن يعملوا جميعا فى موضع واحد لأنهم إذا اجتمعوا كثر حديثهم، وأشار بعضهم على بعض بالمكر والخبث فى العمل، وليكونوا على نحو كثرة القوام عليهم».(٢)

بعد الانتهاء من ذلك كله من تخير الأرض، والبذر والعامل يبدأ الفلاح فى العمل الزراعى، وقد كان لهذا العمل عندهم طرق مختلفة تختلف من مكان الى آخر، وفيما يلى محاولة لعرض هذه الطرق بشىء من التفصيل.

ثانيا - الطرق الزراعية فى العصر العباسى الأول :

تذكر المصادر التاريخية أن الفلاح فى الدولة العباسية قد عرف طرقا متعددة للزراعة، ومن هذه الطرق ما يلي:-

أ - الطريقة الأولى وهي : تبوير الأرض سنة واعمارها سنة أخرى، وهذه الطريقة كانت تعرف فى بلاد الشام، فكانوا يقومون بشق الأرض قبل هطول الأمطار، وأحيانا بعد سقوطها، ثم يبذرون الحب ثم يعاد شقها مرة أخرى ليخفى الحب عن الطير خشية التقاطه، فاذا نزل عليه المطر مرة ثانية نبت وبرز - باذن الله - ثم لا تزال الأمطار تسقيه والأرض تغذيه حتى يثمر.(٣) فاذا خرج هذا الزرع وأثمر فان هذه الأرض تستريح فى العام القابل أى أنهم كانوا يبورونها فى العام القابل، ومن غريب ما ذكره النويرى فى هذا الصدد أنهم فى بعض السنين قد زرعوا الأرض بالحب على عادتهم فلم تسقط عليه الأمطار فى تلك السنة فاستمروا فى الأرض الى العام القابل، وأيس أهل البلاد منه،

---

(١) - درس درسا ودروسا أى عفا وذهب أثره، وتقادم عهده، أنظر ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٢٧٩

(٢) - ابن حجاج الأشبيلى، المقنع، المرجع السابق ص٩

(٣) - النويرى، نهاية الارب فى فنون الادب، المرجع السابق حـ٨ ص٢٥٥/٢٥٦

وزرعوا فى السنة الثانية شطر الأراضى التى كانت كرابا - غير مزروعة - فقد كانت عادتهم فى بلاد الشام أن كل فلاح يقسم الأرض التى بيده شطرين فيزرع شطرا، ويريح شطرا آخر، ويتعاهده بالحرث لتقرع الشمس باطن الأرض ثم يزرعه فى القابل ويريح الشطر الذى كان به الزرع، فلما وقعت الأمطار نبت الشطران معا واقبلت الزراعات فى تلك السنة فتضاعف المغل.(١)

وتجدر الاشارة هنا الى أن هذه الطريقة كانت تشبه ما عليه الفن الزراعى فى أوربا فى تلك الفترة. فقد كان الفلاح الأوربى يقسم أرضه الى قسمين يزرع أحدهما، ويترك الآخر دون زراعة، على أن يعكس الوضع فى العام التالى. وكان الهدف من ذلك تجديد خصوبة الأرض بحيث لا يصبح المزارع مضطرا الى الانتقال الى مناطق جديدة.(٢)

ب - الطريقة الثانية وهي : زراعة الأرض سنويا، وكانت هذه الطريقة فى مصر، فقد كان أهلها يزرعون بعض الأرض كل سنة(٣). وبعضها الآخر بصفة مستمرة، وتذكر المصادر أن المصريين قد فلحوا الأرض بالطريقتين، وخاصة فى أراضى الخلجان والتى تستمر فيها المياه، فمن الأراضى ما كان يبور سنة ويزرع فى السنة التالية ومنها ما كان يزرع بصفة دائمة لكنها تزرع بالزراعات الخفيفة فى السنة التى كان من المفروض أن تستريح فيها الأرض، كزراعتها بالقثاء وغيرها من الخضروات التى لا تجهد الأرض(٤). حتى لا تبقى معطلة عن الزرع، فاذا انتهى صاحب الأرض من زراعتها بالطريقة التى تناسبه يبدأ

---

(١) - النويرى، المرجع السابق حـ٨ ص٢٥٦

(٢) - على لطفى، التطور الاقتصادى دراسة تحليلية، لتاريخ أوربا ومصر الاقتصادى، المرجع السابق ص١٩

(٣) - النويرى، نهاية الأرب، المرجع السابق حـ٨ ص٢٥٦

(٤) - النويرى، نهاية الارب، المرجع السابق حـ٢ ص٢٤٨، المقريزي، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص١٠١/٦٠٠

بتعهدها ومباشرتها، ولا يخفى ما لذلك من أهمية على الانتاج ووفرت المحصول، يقول ابن وحشية(١) : «ان الضيعة تنتفع منفعة عظيمة بمشاهدة صاحبها لها وكثرة تعاهده بنفسه لصغير أمورها وكبيره وتفقده الأعمال التى تعملها الأكرة مما يجب عليهم أن يعملوه مثل تنقية الحشيش عن شجره وسقيه بالماء وازالة ما يحتاج الى ازالة وكسح ما يجب أن يكسح فى أوقاته العامة للكسح. وأما فى خلال ذلك فانه ينبغى دائما أن يتعاهد الشجر، فان كان قد انكسر فى أحد أغصن كسحه الفلاح بالمنجل، فان كسر الغصن إذا طال به الزمان لحق الشجرة منه مضرة، وهذا لا يدركه رب الضيعة إلا بكثرة ذهابه ومجيئه فيها، فيظهر له بذلك جميع ما يحتاجه اليه، وايضا فانه بذلك يتبين له اجتهاد من يجتهد من الفلاحين فى اصلاح ما هو مندوب لاصلاحه ممن هو توانى فى ذلك فينبغى اذا ظهر له اجتهاد فى الاصلاح من احدهم أن يكافئه على ذلك ويعلمه أنه قد تبين له ما عمل من الاصلاح».(٢)

وبهذا يتبين أن الفلاح كان يقوم بالاعمال التى من شأنها توفير محصول جيد من خلال اختيار الارض ونوعية الزرع والعامل الذى يتمتع بالقوة والخبرة، وكل هذا من شأنه أن ينهض بالزراعة وينميها، فيزيد الانتاج وتتحسن نوعية المنتج. بل ان الفلاح لم يكتف بذلك، بل حاول تطوير الفن الانتاجى الزراعى، وكانت له فى ذلك أساليب فنية متنوعة ساهمت فى تطوير الفن الانتاجى الزراعى ولاشك أن الاهتمام الفنى بالزراعة من شأنه أن يزيد من الانتاج والثروة داخل المجتمع، وواقع المجتمع العباسى الأول يشهد لذلك، فان ايرادات الدولة العباسية زادت زيادات كبيرة فى بعض الفترات، وكان للزراعة فيها النصيب الأوفى حيث أن الدولة كانت تعتمد فى المقام الأول على المنتجات الزراعية، بل كان تلك المنتجات تمثل أهم موارد الدولة المالية وفيما يلى عرض لأهم الأساليب الفنية للزراعة والمستخدمة فى تلك الفترة بشىء من التفصيل.

---

(١) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، مخطوط مصور بجامعة الملك عبدالعزيز فى سبعة اجزاء، حـ١ ص١٧٤

(٢) - ابن وحشية، كتاب الفلاح النبطية، المرجع السابق حـ١ ص١٧٤

ثالثا - أهم الأساليب الفنية فى الزراعة

هناك عدة أساليب استخدمت فى العصر العباسى الأول فى المجال الزراعى وكلها أدت الى زيادة انتاجية الأرض الزراعية ومن أهم هذه الأساليب ما يلى :-

١ - التسميد :

من أساليب تطور الفن الزراعى فى العصر العباسى الأول، ما استخدمه الفلاح فى تلك الفترة من اساليب لخصوبة الأرض وتقويتها، وقد عرف الفلاح فى العصر العباسى الأول أنواعا كثيرة من السماد، فعرف الجيد منه والرديىء وأدخل عليه من التعديلات ما جعله أشد قوة وصلاحية للعمل الزراعى، وهو ما يكشف عن تطور الفن الزراعى عندهم فاستخدموا أنواع الزبول والارواث المختلفة لعملية تسميد الأرض وتقويتها لتعطى وفرة فى المحصول والانتاج.

وكان من أفضل الزبول عندهم خرو الحمام، وكل سرقين الطير جيد - زبل الطير - ما خلا طائر الماء كالبط والأوز فانها ردية تحرق الأرض وتهلك البنات يقول ابن وحشية : «وأفضل الازبال عندنا ازبال الطيور إلا أنها إذا خلطت بغيرها اصلحت ثم خرو الناس فانه اعدل من خرو البهائم والطيور واكثر اسخانا لأنه ألطف الازبال كلها. فهو يسخن الأرض بجودة اختلاطه بها ويدفع جساها وغلظ بردها وتبسمها وفيه منافع لكثير من الشجر والنخل والكروم وهو أفضل النبات الصغير فانه ينشيه ويقويه ويقومه ويحفظه من الآفات».(١) كما كانوا يستخدمون الارواث(٢) فى عمليات التسميد المختلفة وعرفوا الجيد منها والردىء.يقول ابن حجاج الأشبيلى : «وأجود الارواث روث الخيل والبغال والحمير، ثم زبل الضأن والماعز ثم أرواث البقر،

---

(١) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، المرجع السابق حـ١ ص٣٦٧

(٢) - الروث : رجيع ذا الحافر والجمع ارواث.

وإذا كان الزبل مخلوطا كان أحسن واياك وزبل الخنازير، فانه يهلك كل مادنا منه»٠(١) كما أدخلوا على بعض الزبول أنواعا من التحسينات والتى من شأنها رفع كفاءته وزيادة فعاليته، ومن ثم انتاجية الأرض٠ والى هذا أشار ابن حجاج الأشبيلى بقوله : «وينبغى أن تحفر حفرا عظيمة وتطرح فيها من كل أنواع الزبل وتجعله معه رمادا لتنانير (مفردها تنور وهو : (الكانون الذى يخبز فيه) وتصب عليه الماء العذب وأبوال الناس ويعتق ويقلب مرارا وهو جيد للزيتون والثمار، ثم ان طرح على هذا الزبل المعتق ثلاثة أوقار من التراب وضرب صار الجيمع زبلا جيدا للزرع، ويلقى على زبل الحمام لكل كيل عشرون كيلا من التراب ويترك حولا فيصير زبلا طيبا للحرث والأرض»٠(٢)

كما استطاعوا أن يفرقوا بين الجيد والردىء منه والصالح منه للأرض وغير الصالح يقول ابن حجاج الأشبيلى : «ولا ينبغى أن تزبل الأرض بالزبل الذى لم يأت عليه أقل من عام واحد فانه لا ينفع كثير نفع، ولكن يضر ويتولد منه دواب كثيرة، فأما زبل ثلاث سنين أو أربع سنين فانه كثير الصلاح والمنفعة، وكلما عتق الزبل احترق كل شىء فيه ولانت حرارته وشدته وحسن»٠(٣) كما اهتموا بعملية التسميد للأرض، وعدم زيادة تسميدها عن المعدل المناسب لانتاجية الأرض وكفايتها منه يقول ابن حجاج الأشبيلى : «واعلم أن الأرض إذا لم تزبل ردت، وأن كثر زبلها فوق ما تحتاج اليه احترقت»٠(٤) كما كانت لديهم خبرة بأنواع الأراضى المختلفة والذى يصلح لها من الزبول٠ فيقول : «والأرض الطيبة إذا زبلت زكى اخراجها، والأرض السوداء مثل ذلك، والسمينة لا تحتاج الى كثرة زبل»٠(٥)

---

(١) - الاشبيلى، المقنع فى الفلاحة، المرجع السابق ص١٠

(٢) - المرجع السابق ص١٠

(٣) - المرجع السابق نفسه ص١٠

(٤) - ابن حجاج الأشبيلى، المرجع السابق ص١٠

(٥) - ابن حجاج الأشبيلى، المرجع السابق ص١١

كما أن عملية التسميد كانت لها أوقات معينة، وللسماد أنواع ايضا، فهناك ما يصلح لهذه الارض ، وهناك ما لايصلح لتلك، وقد كانت لديهم خبرات فنية يستطيعون بها معرفة الصالح منه، والاوقات التى تصلح للتسميد يقول ابن حجاج الأشبيلى : «ولا ينبغى أن تزبل الأرض فى كمال القمر وتمامه، فان ذلك يكثر الغريبة فى الأرض... ويقول... وتزبيل الفول وتبن القمح وتبن الشعير إذا بذر احداهما فى الأرض نفعها، وهو يصلح الأرض المالحة فيحليها، ثم يرمى الزبل فيها بعد ذلك فتحسن الأرض إن شاء الله».(١)

٢ - عدم تقارب المغروسات :

ومن أساليب تطور الفن الانتاجى الزراعى، أنهم كانوا يحرصون فى فلاحتهم للأرض على عدم التقريب بين المغروسات مع بعضها البعض حتى لا تضعف الشجرة ويقل انتاجها بعد ذلك، فمثلا فى زراعة الزيتون كانوا يعمدون الى تباعد ما بين الاوتاد حتى لا يؤثر ذلك على انتاجها ونموها يقول ابن بصال فى كتاب الفلاحة : «وفى زراعة الزيتون يكون بين الوتد والآخر عشرون ذراعا، وهو مذهب أهل الشام».(٢)

ويقول ابن حجاج الأشبيلى : «ولا ينبغى أن يكون فى موضع كف الرجل مبسوطة بالأرض من البذر اكثر من سبع حبات الى خمس حبات، ومن الشعير من سبع الى تسع، ومن الفول من أربع الى سبع، يكون البذر فى البلاد الباردة ألف - أى ابطأ فى النمو - من غيره من البلدان».(٣)

ولاشك أن هذه الخبرات مازال الفلاح فى كثير من البلاد الاسلامية يتناقلها عبر الاجيال وهو - بلا شك - يظهر نباهة الفلاح المسلم منذ القدم.

---

(١) - المرجع السابق ص١١

(٢) - ابن بصال، كتاب الفلاحة ،المرجع السابق ص٦٠

(٣) - ابن حجاج الأشبيلى ،المقنع فى الفلاحة ، المرجع السابق ص١٤

٣ - التكبيس (أو الترقيد)

وهو كما يصفه ابن بصال و ابن حجاج الأشبيلى : « أن يعمد الى الفروع النابتة فى أصل الشجرة ويحفر حول الأصل حفرا طويلة على هيئة القنوات ثم يمد فروع الشجرة فى الحفر التى حفرت بمقابلتها ثم يغطى عليها وكأنها زرعت على أن يبرز رأس الفرع من الناحية الأخرى، وكلما كان الفرع طويلا و امتد فى الحفرة التى اعدت له كان أحسن ثم تترك الفروع ممدودة على هذه الصفة مدة عامين وتنقل بعد ذلك الى المكان الذى يراد غرسها فيه بحيث تقطع عن الشجرة الأصل بعد أن تكون قد كونت جذورا خاصة بها »٠(١)

ويتضح لنا أن هذه العملية الفنية والتى كان عن طريقها ترقد مشاتل جديدة فى أصل الشجرة، وذلك لغرض عمليات الاحلال و التبديل لما قد يموت من المغروسات، أو لغرسها فى أماكن أخرى جديدة لزيادة المساحات المزروعة وبالتالى الزيادة فى رقعة الأراضى الزراعية الجديدة، ومن ثم زيادة الانتاج الزراعى فى الأمد البعيد٠

٤ - التركيب (أو التطعيم)٠

ومن الاساليب ايضا عملية التركيب أو التطعيم وهو : أن يأخذ قطعة خشب من التفاح - مثلا - ويشق شجرة كمثرى تكون بساقين وتوضع تلك القطعة فى احدى الساقين المشقوقة وتشد بخرقة على أصل الشجرة، ثم يسقيها الفلاح ويتعاهدها الى أن تلتحم ويخرج الورق الجديد ويثمر٠(٢)

وقد مارس الفلاحون هذا التطعيم باشكال كثيرة، وفى جميع الفواكه حتى ان الشجرة الواحدة كانت تحمل فواكه متعددة وقد ذكر أبو البقاء البدرى : « انه كان فى الغوطة اشجار تحمل الواحدة منها أربع فواكه كالمشمش والخوخ والتفاح والكمثرى، وبها ما يحمل الثلاث واقلهن اللونان من الفاكهة، والكرمة الواحدة تطرح العنب الأبيض والأسود والأحمر »٠(٣)

---

(١) - ابن بصال، كتاب الفلاحة، المرجع السابق ص٨٧

(٢) - أبو البقاء البدرى، نزهة الأنام فى محاسن الشام، دار الرائد العربى، بيروت عام ١٩٨٠م/١٤٠٠هـ، الطبعة الأولى ص٣٥٩/٣٦٠

(٣) - أبو البقاء البدرى، نزهة الأنام فى محاسن الشام، المرجع السابق ص٢١٣، ابن بصال، كتاب الفلاحة، المرجع السابق ص١٠٥/١٠٦

وتعتبر هذه العملية الفنية والتى عن طريقها تؤخذ الثمرة من أصل شجرة أخرى، وذلك بغرض زيادة المحصول من هذه الثمرة أو اكسابها طعما وذوقا آخر ليس فيها، وبالتالى تعد فاكهة جديدة، وهو فن انتاجى لايزال يستخدمه الفلاح حتى فى العصر الحاضر، وهو من الخبرات والفنون القديمة التى تناقلتها الأجيال المسلمة وتعتبر فنا انتاجيا متقدما بالنسبة لهذا العصر.

٥ - التقريض أو التشمير :

هو نزع الفروع الزائدة التى تنبت على ساق الشجرة، والأجود أن تنزع الفروع الزائدة بالايدى وبالرفق من غير عنف عليها حتى لا يلحقها أذى، وهو يصلح فى جميع الثمار، وخاصة اذا كان النبات مازال صغيرا، وبهذه العملية يصلح النبات ويطول عمره ولا يؤلمه القطع - مادام فى الصغر - لأن موضع القطع يلتحم ويستوى فى أقرب مدة، واذا حفظت الثمرة فى صغرها بالتشمير والتسقية والتعديل لأغصانها قبلت الغذاء قبولا معتدلا، واستوفى كل عضو منها حقه، واذا لم تكن مستوية فى التشمير جرى الماء فيها على غير اعتدال فتفاضلت الأغصان فى قبول الغذاء واذا شمرت الشجرة بعد تمكنها بقى موقع القطع مكشوفا ولم يلتحم إلا بعد مدة طويلة، وربما كان فيها سبب عطبها ومن ذلك الموضع يدخل الضرر اليها وهو يسقيها».(١)

وهذه العملية الفنية لاتزال موجودة فى بلاد المسلمين ومنه تأبير النخل الذى كان موجودا قبل الاسلام وبعده والغرض منها اصلاح الشجر وصيانته عند الضعف والهزال الذى قد يصيبه من وجود الفروع الزائدة التى تمتص غذاءه، لذا فان الفلاح عرف من قديم ضرورة نزع هذه الفروع، والتى من شأنها أن تضعف الزرع وبالتالى تضعف المحصول ويقل، ولايزال هذا الفن الانتاجى موجودا الى الآن وتتناقله الأجيال.

---

(١) - ابن بصال، كتاب الفلاحة، المرجع السابق ص٨٩، ابن حجاج الأشبيلى، المقنع فى الفلاحة، المرجع السابق ص١٠٨

٦ - مكافحة الآفات الزراعية :

ومن الأساليب ايضا مكافحة الآفات الزراعية كالحشيش والشوك وغيره، وقد ذكر ابن وحشية طرقا كثيرة لمكافحة تلك الآفات فقال : «قد يكون استئصال جميع الحشيش المضر بالمنابت من البقول والحبوب المقتاتة وغيرها بوجوه من الأعمال بعضها ممكن فى كل ارض، وبعضها ممكن فى أرض دون أرض فاما الممكن فى كل أرض فانه ايضا ضروب، منها أشياء تزرع فى الأرض الدغلة - المليئة - بالحشيش والحلفا فتأكل الأشياء المزروعة فيها تلك الحشايش المضادة للزرع»٠(١)

وقال أيضا فى إهلاك الشوك والتخلص منه : «وإذا أردت اهلاك الشوك فخذ من بذر الكتان شيئا فانثره فى الأرض النابت فيها الشوك، فانه ينبت بين الشوك فاذا نبت فيما بينه اهلكه فى مدة٠٠٠ثم قال : وبذر الكتان عدو الشوك، والشوك عدو بذر الكتان فاذا اجتمعا لابد أن يهلك أحدهما الآخر٠٠٠والذى يزرع ثانية بعد أن قد نبت الأول فان النابت أولا يهلك»٠(٢)

ولاهلاك الحشيش الذى فى الزرع قال ابن حجاج الأشبيلى : «والأرض السمينة التى يطلع فيها الحشيش المبين للزرع ينبغى أن تحفر بالمدور ويستأصل ما فيها من ذلك من أيام الحرث، فيهلك كل ما فعل به ذلك من الحشيش ولم ينبت بعد»٠(٣)

ومما تقدم يتضح أن الفلاح عرف طرقا فنية لمكافحة الآفات التى تضر الزرع، وتقلل من المنتج الزراعى، ولاشك أن بعض هذه الطرق لايزال موجودا حتى الآن٠

---

(١) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، المرجع السابق حـ١ ص٣٨٧

(٢) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، المرجع السابق حـ١ ص٤٠٠

(٣) - ابن حجاج الأشبيلى، المقنع فى الفلاحة، المرجع السابق ص١٣

٧ - الاهتمام بالحصاد.

ومن الاساليب الفنية الزراعية التى استخدموها فى حياتهم الزراعية والتى كان لها أثرها على المحصولات الزراعية ووفرتها وحمايتها، واهتمامهم بالحصاد فاهتموا بأوقاته التى لا تضر بالمحصول، فتخيروا أوقاته، وكان أفضلها عندهم (أواخر الليل) بحيث يخف الحر.

وقد أشار ابن وحشية الى ذلك بقوله : «وأما وقت الحصاد فيجب أن يكون فى وقت السحر ثم الى أول ساعة من النهار، وذلك لسبب ندى الليل وبرده فيكون أسلم للحب من الأوقات الحارة وأطول بقاء ويجب أن يجمع بعد التصفية...ثم يجمع جمعا جيدا ولا يترك منتشرا فتضره الرياح...ثم ينتقل الى الموضع الذى يجمع فيه ويدخر فى البيادر قبل طلوع الشمس ما أمكن».(١) ثم اشار الى فوائد الحصاد مبكرا فقال : «وان ذلك أطيب لطعمها واغذى...كما أن الحب يكون أقل نفا لأنه ربما أسرع اليه الفساد والدواب التى تقع عليه فيأكله،وذلك لأجل بقية الرطوبة الباقية فيه فاذا جف جفافا كاملا ثم جمع فى البيادر بعد تصفيته لم يسرع الفساد اليه».(٢)

ولاشك أن فى الاهتمام بالحصاد مبكرا وسرعة تخزينه والاهتمام باماكن التخزين يفيد اقتصاديا من عدة أمور منها أنه يحافظ على كمية المحصول من الضياع، كما أنه يقلل من نسبة التالف الذى يتسبب عن تعرض المحصول للحر أو البرد، كما أن جمع المحصول وتخزينه سريعا يبعده عن الحشرات المختلفة والتى قد تضره، وكلها فى النهاية تحافظ على كمية المحصول ووفرته ونظافته،وتبقى عليه فى حالة جيدة، كما أن الحفاظ على جودة المحصول شىء هام فى المردود الاقتصادى منه.

---

(١) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، المراجع السابق حـ٢ ورقة ١٦

البيدر هو الجرن وهو المكان الذى يوضع فيه المحصول بعد حصده وجمعه. انظر ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٧٨

(٢) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، المرجع السابق حـ٢ ورقه ١٦

٨ - الاهتمام بالتخزين وحفظ المنتجات :

كذلك اهتموا بحفظ المنتجات الزراعية وادخارها، وأتخذوا فى ذلك أساليب مختلفة ومتنوعة وذكر منها النابلسى فى كتابه علم الملاحة فى علم الفلاحة فقال : «أما ادخار الفواكه الرطبة واليابسة، نحو العنب والزبيب والمشمش فذلك يدخر فى المواضع الباردة الريح النظيفة ولا يقرب الفواكه شىء من حب السفرجل، ولا يخزن معه فانه يضر بالرطبة منها»٠(١)

وذكر ابن حجاج كيفية تخزين الشعير فقال : «وان خلطت بالشعير جصا منخولا بقدر ما ترى بياضه فيه، أو دفنت جرة مملؤة خلا وسط الشعير سلم بذلك من الآفات٠٠٠ثم قال : والفول اذا نضح بماء مر وترك حتى يجف ورفع سلم ايضا ان شاء الله»٠ ثم أشار الى كيفية حفظ وتخزين الدقيق فقال : «وأما الدقيق فخذ عود السرو والدسم الأحمر (نوع من النبات) فقطعه صغارا والقه فى الدقيق فانه يبقى ولا يتدود٠٠٠ ودق ملحا وكمونا بنصفين واعجنهما بماء وحببه امثال البندق وجففه واجعله فى الدقيق والشعير فلا يفسد»(٢) إن شاء الله٠

كما اهتموا بمكان التخزين ومواصفاته فذكر ابن وحشية وصفا لذلك فقال : «ينبغى أن يكون البيدر الذى يجعل فيه الحنطة والشعير، والموضع الذى يخزن فيه بعد نقلها من البيدر مواضع ريحه مضيئة يدخل اليها شعاع الشمس وقت تشرق، وكذلك ينبغى أن يكون للموضع كوا - طاقات - مفتوحة الى ناحية المشرق أو ان كان مع ذلك كوا الى ناحية مهب الشمال كان ذلك أجود واحفظ للحب بل ينبغى أن يتوقى من ريح الجنوب على هاتين الحبتين الحنطة والشعير، وأنها إذا دامت عليها وتمكنت منهما افسدتهما واسرع الفساد

---

(١) - النابلسى، علم الملاحة فى علم الفلاحة، المرجع السابق ص١٩٣

(٢) - الجص : مادة من مواد البناء ويتخذ من حجر الجير بعد حرقه، المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص١٢٤

(٣) - ابن حجاج الأشبيلى، المقنع فى الفلاحة، المرجع السابق ص١٧/١٨

اليهما، وينبغى أن يكون فى الحيطان المحوطة على موضع خزن الحنطة والشعير وكبسهما كوا كثيرة صغار متفاوتة ليخرج منها بخار الحنطة والشعير فان هاتين الحبتين إذا كبستا فى موضع حمى ذلك الموضع فحمى الحب مما يحتاج معه الى منفس دائما، فاذا كان لها تنفس بقيت الحبوب على حالها لم تتغير وان اختنق بخارها فى موضعها فسدت لشدة الماء وتعفنت فوقع فيها الفادح»(١)

ومن خلال العرض السابق للتخزين وحفظ المنتجات يتبين أن الفلاح كان يتمتع بخبرات ووسائل كثيرة من شأنها أن تحفظ المنتجات من التلف والضياع، وهو بدوره ينعكس على الانتاج ووفرته، وعلى الزراعة بصفة عامة. وهو ما لمسناه من خلال عرض النشاط الزراعى عامة فى العصر العباسى الأول فقد توفرت كثير من المحاصيل الزراعية المختلفة وسيظهر ذلك جليا عند الحديث عن المحاصيل الزراعية(٢) ايضا.

وبعد أن أنتهينا من أهم أساليب الزراعة، وتطور الفن الانتاجى فيها واستخدام الطرق المتنوعة والتى من شأنها تطور الزراعة والنهوض بها، والذى من شأنه ايضا أن ينعكس على ايرادات الدولة باعتبار أن الزراعة كانت تعتبر أهم مورد لايرادات للدولة آنذاك، فانه تجدر الاشارة الى الرى وأهميته فى تلك الفترة، والوسائل التى اتخذت للنهوض به ايضا إذ ان الرى يعتبر عنصرا هاما فى التنمية الزراعية، بل ان الزراعة تتوقف عليه وصدق الله إذ يقول : ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾(٣) وقد كان للرى فى الدولة العباسية أهمية خاصة فقد قامت الدولة آنذاك بجهود مختلفة للنهوض به وتطويره وهذا ما سيتبين لنا من خلال العرض الذى سنقوم به لوسائله وتقسيماته المختلفة، والتى أدت فى مجموعها الى تطور الزراعة بصفة عامة.

---

(١) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة حـ٢ ورقة ١٨/١٧ - والفادح : النازلة، إذ الفادحة هى النازلة من البلاء وغيره

(٢) - راجع ص٢٤١ من البحث.

(٣) - سورة الأنبياء الآية رقم ٣٠

رابعا : الاهتمام بالرى ومصادره :

اهتمت الدولة العباسية بشئون الرى، فكان ديوان الخراج يقوم بالاشراف على شئون الرى ومسح الأرض واصلاحها، وكان هذا الديوان يضم عددا كبيرا من المتخصصين بشئون الرى، وقد اهتمت الدولة بمشكلات الرى اهتماما كبيرا، وكان من أهم هذه الاهتمامات ما يلى :-

١ - متابعة مشكلات المزارعين المتعلقة بالرى فاذا حدثت أى مشكلة ارسلت فريقا من أهل الخبرة لتقديم ما يمكن تقديمه وكتابة تقرير مفصل عن ذلك للجهات المختصة بعد تحرير دقيق، وبعد استطلاع مختلف وجهات النظر تؤخذ الاجراءات المناسبة لحل المشكلة.

٢ - توفير القوى العاملة فى مجال الرى لبناء السدود واصلاح القنوات وتوسيعها وتعميقها أو انشاء قنوات جديدة.

٣ - مراقبة مصادر المياه المختلفة والقيام على صيانتها باستمرار.(١)

ولاشك أن هذا الاهتمام انعكس بدوره على النشاط الزراعى إذ ان المياه لها دور اساسى فى التنمية الزراعية كما أن الاهمال فى الرى ووسائله ينعكس سلبا - بلا شك - على النشاط الزراعى الذى له دوره الاساسى فى الحياة الاقتصادية فى تلك الفترة فقد كان يمثل أهم مورد مالى بالنسبة للدولة ومن هنا فقد اهتم به خلفاء الدولة العباسية من عهد أبى جعفر المنصور وبلغ من أهميته أن المنصور كان يشرف بنفسه على شئون الرى فقام بحفر الترع والمصارف وأقام الجسور والقناطر وكانت الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب بقاع دولته، فأشرف بنفسه على ادارتها اشرافا مباشرا ولم يوكل ادارتها الى ولاة أو عمال غير ولى عهده عيسى بن

---

(١) - حسام الدين السامرائى، الاقتصاد الزراعى، مجلة البحث العلمى، العدد الخامس عام ص ٣٦٣/٣٦٤

(٢) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٥ ص١٦٣، الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص١١، حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٤

موسى إذ ابقاه على امارة الكوفة وما حولها. وقد اهتم بهذه المنطقة، فأنشأ شبكة من الترع والمصارف حتى اصبحت قوية الخصب، وكثرت فوقها المزارع والبساتين، وقديما كانت تعرف بارض (السواد) لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة، وهى منطقة واسعة تبلغ مساحتها ستة وثلاثين مليون جريب والجريب عشرة الف ذراع مربع.

ولما كان ماء الفرات لا يكفى لرى أرض السواد أو يساعد على خصبها، عمل أبو جعفر المنصور على تنظيم وسائل الرى بشق القنوات حينما وجد أن ماء الفرات لا يكفى لرى السواد، أما نهر دجلة فجعله لرى الأرض الواقعة على شاطئه الغربى وساحل الخليج الفارسى وبذلك امتدت الخضرة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وكثرت المحاصيل، وحفرت قناة دجيل التى كانت تأخذ ماءها من دجلة، وقناة أخرى من كرخايا - بالفتح ثم السكون وهو نهر كان ببغداد يأخذ من نهر عيسى الذى يأخذ من الفرات وأوصلهما بمدينة بغداد فى عقود محكمة بالصاروج - حجر الكس - وبالآجر وانفذ الماء عبر القنوات فى الشوارع والدروب والارباض فغرس أهلها النخيل والأشجار وتوسعوا فى الزراعة.(١)

كما أهتم هارون الرشيد ايضا بالزراعة والرى فى جميع النواحى وادرك رحمه الله أن كل أثر ينعكس على الزراعة ينعكس على الخراج.(٢) ولهذا ورد عنه أن كان يقول للسحاب اذهبى كيفما شئتى فسيأتينى خراجك(٣) وهو بذلك يدرك أهمية الماء باعتبار أنه من ضروريات الزراعة وتطورها ومن ثم الخراج.

(١) - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٤

(٢) - حسام الدين السامرائى، الاقتصاد الزراعى، المرجع السابق ص٣٦٣

(٣) - القلقشندى، صبح الاعشى، المرجع السابق حـ٣ ص٢٧٠

وفى مصر اهتم خلفاء الدولة الاسلامية بالمياه منذ عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقد روى أن عمرو بن العاص ارسل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما انى وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربعة عشر ذراعا والحد الذى يروى منه سائرها حتى يفضل عن حاجتهم، ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ستة عشر ذراعا والنهايتين المخوفتين فى الزيادة والنقصان - وهو الظمأ والاستبجار - أثنتا عشر ذراعا فى النقصان وثمانى عشرة ذراعا فى الزيادة فاستشار عمر بن الخطاب على بن أبى طالب فى ذلك فأمره أن يكتب اليه بان يبنى مقياسا، وأن ينقص ذراعين على اثنتى عشر ذراعا اصبعين، ففعل ذلك وبناه بحلوان.(١)

وفى عهد الدولة الأموية وضع عبدالعزيز بن مروان مقياسا بحلوان لقياس مياه النيل، ثم وضع اسامة بن زيد التنوخى فى خلافة الوليد مقياسا بالجزيرة - وهى المسماة الآن بالروضة - ثم هدم المأمون فى عهد الدولة العباسية مقياس الجزيرة وأسسه من جديد ولم يتمه، فأتم المتوكل بناءه.(٢)

وقد أهتم المعتصم ايضا بالرى فجلب عددا من المهندسين المتخصصين فى شئون الرى فى ديوان الخراج فذكرت المصادر ان الخليفة المعتصم قد استقدم عددا من هؤلاء من الصين عند تأسيسه لعاصمته الجديدة.(٣)

وبهذا يتضح الاهتمام بالرى فى الدولة العباسية الأولى وذلك لعلمهم بأهميته على الزراعة والمحاصيل ومن ثم على الانتاج، وقد كان لهذا الرى مصادر متعددة ومتنوعة فى الدولة العباسية تجدر الاشارة اليها بايجاز :

---

(١) - السيوطى، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم حـ٢ ص٣٧٥، المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص٥٤

(٢) - السيوطى، حسن المحاضرة، المرجع السابق حـ٢ ص٣٧٤

(٣) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٦٤

مصادر المياه :

اعتمدت الدولة العباسية فى زراعتها على مصادر مختلفة من المياه ولعل من أهمها ما يلى :-

١ - مياه الأمطار :

أما مياه الأمطار فقد اختلفت أوضاعها من منطقة الى أخرى فى الدولة العباسية، فبلاد الحجاز - مثلا - كانت الأمطار فيها قليلة بصورة عامة، لذلك لم تعتمد الزراعة فيها على مياه الامطار، وانما كان الغالب فيها الاعتماد على الآبار والعيون، ومن ثم كثرت الزراعة فى المناطق التى وجدت بها الآبار والعيون. أما بلاد اليمن فكانت كثيرة الأمطار مما جعلها حسنة التربة تنبت كل ما يبذر فيها، وقد عرفت بالأرض الخضراء. وقد ساعد ذلك على تطور الزراعة فيها واشتغال كثير من الناس بها. أما العراق ومصر والشام وبلاد المغرب فقد وجدت بها الأمطار مع اختلافها من ناحية القلة والكثرة من منطقة الى أخرى وقد أدى ذلك الى تنوع المحصولات الزراعية فيها، واشتغال كثير من الناس بالزراعة حتى بدت كأهم نشاط اقتصادى فى تلك الفترة.

٢ - مياه الأنهار :

وجدت فى الدولة العباسية ثلاثة أنهار رئيسية وهى نهر النيل بمصر والسودان ونهرى دجلة والفرات بالعراق بالاضافة الى ما كان يتفرع عنها من الأنهار الصغيرة، وقد كان لهذه الأنهار الثلاثة أثر كبير على نمو الزراعة وازدهارها فى المناطق التى تجرى فيها، وذكر المقريزى فى خططه أهمية النيل بالنسبة لمصر واعتمادها عليه فى الزراعة فقال : «لولا ما جعل الله فى نيل مصر من حكمة الزيادة فى زمن الصيف على التدريج حتى يتكامل رى البلاد، وهبوط الماء عنها عند بدء الزراعة لفسد اقليم مصر وتعذر سكناه، لأنه ليس فيه امطار كافية ولا عيون جارية، تعم أرضه إلا بعض اقليم الفيوم».(٢)

---

(١) - جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام حـ٧ ص١٥٨/١٦١

(٢) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص٦٢، جواد على، المفصل، المرجع السابق حـ٧ ص١٧٨

٣ - مياه الآبار والعيون :

وقد استفاد منها فى الزراعة كثير من فلاحى الدولة العباسية وخاصة فى الجزيرة العربية، حيث كانت الأمطار قليلة، ولا يجرى فيها شىء من الأنهار. وكانت الآبار بعضها سابلا وماؤها مشتركا، وبعضها حفر للأرتفاق بمائها، كما كان من يفعل أهل البادية اذا انتجعوا ارضا حفروا فيها بئرا لشربهم وشراب دوابهم، وأبار خاصة مملوكة تكون ملكا لمالكها لاينازعه فيها أحد. وكذلك العيون منها عيون لم يستنبطها الآدميون، وعيون استنبطها أحد الأفراد فتكون ملكا لمن استنبطها، ويملك معها حريمهاو وهناك عيون يستنبطها الرجل فى ملكه فتكون ملكا له.(١) إلا أن هذا المصدر من المياه محدود الأثر بالمنطقة التى يوجد بها المورد المائى فحيث وجدت العين أو البئر وجدت الزراعة.

وبعد أن أنتهينا من بيان أهمية الرى ومصادره وأهميته فى الدولة العباسية أود الاشارة الى أهم أدوات الرى والزراعة والتى استخدمت فى الدولة العباسية ولايزال كثير منها يستخدم حتى الآن

خامسا : أهم أدوات الزراعة والرى فى العصر العباسى الأول

استخدم الفلاح فى العصر العباسى الأول كثيرا من أدوات الزراعة والرى وفيما يلى اذكر بعضا منها على سبيل المثال :

١ - المحراث الخشبى :

المحرث والمحراث : آلة الحرث وما يحرث، وما يحرك به التنور وجمعه محارث ومحاريث.(٢)

والمحراث الخشبى بسيط له سكة من حديد أو من خشب لا تتعمق فى الأرض كثيرا نظرا لخفة وزنه على قصر السكة الذى لا يسمح بالتعمق فى الحرث إذ لا يزيد عمق الحرث بواسطته على ٨:١٠سم.

---

(١) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص١٨٢/١٨٤

(٢) - معروف الرصافى، الآلة والأداة وما يتبعها من الملابس والمرافق والهيئات، بتحقيق عبدالحميد الرشودى، دار الرشيد للنشر عام ١٩٨٠م ص٣٣٣

ولا يزال المحراث يستعمل فى كثير من البلدان الاسلامية حتى الآن بل أنه كان الاداة الرئيسية فى الحرث قبل فترة قصيرة.(١)

٢ - المجرفة :

وهى آلة الجرف، يقال : جرف الطين والزبل عن وجه الأرض أى قشره بالمجرفة ويقال لها مكسحه.(٢)

وهى من الآلات الزراعية التى عرفت قديما ولاتزال تستخدم، وهى عبارة عن فأس عريضة وتستعمل لقلب التراب بدلا من المحراث، كما تستخدم لتنظيف القنوات من الأعشاب والرواسب.(٣)

٣ - الوتد :

وهو مارز فى الأرض أو الحائط من الخشب وغيره(٤)، وقد استعمل فى غرس الاشتال، وهو لايزال يستعمل لهذا الغرض، وهو عبارة عن قضيب من الخشب مدبب من أحد طرفيه ليسهل غرسه فى التربة.(٥)

٤ - المنجل أو المحصد :

ومن الآلات الزراعية التى استخدمت فى الحصاد والقطاف على نطاق واسع المنجل إذ انه كان الوسيلة الوحيدة للحصاد والقطاف.

وهو عبارة عن آلة حديدية مقوسة على شكل نصف دائرة تتصل بها يد خشبية يقضب بهما الزرع وغيره. وقد تكون الحديدة مسننة، وقد تكون غير مسننة.(٦) ولاتزال موجودة فى كثير من البلاد الاسلامية حتى الآن.

---

(١) - فالح حسين، الحياة الزراعية، المرجع السابق ص٧٨/٧٩

(٢) - معروف الرصافى، الآلة والاداة، المرجع السابق ص٣٢٩

(٣) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، المرجع السابق ص١٧٨

(٤) - ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ص١٠٢٠

(٥) - فالح حسين، الحياة الزراعية، المرجع السابق ص٧٨/٧٩

(٦) - معروف الرصافى، الآلة والاداة، المرجع السابق ص٣٩٦، ابن وحشية ، كتاب الفلاحة النبطية، المرجع السابق، ص٨٥

٥ - الجاروف :

وهو آلة تستعمل لتسوية التربة، وتعديلها إذا ما اتسمت بالارتفاع والانخفاض يقول ابن وحشية : «تعديل الأرض إذا عولج بالنقل كان صعبا، لكن لها وجه تعدل به بأيسر كلفة وهو أن يصنع لها الجاروف وهو الذى يجر به البقرة، وهى معروفة عند أئمة الفلاحين»·(١)

ومن الآلات ايضا المنشار وهو عبارة عن حديدة مسننه تسنينا حادا ولها مقبض خشبى، والمسحاة بالكسر ما يمسح به كالمجرفة إلا أنها حديد والنورج(٢)، وهو آلة يتم به عملية درس الحبوب وهى شائعة ومعروفة ولازالت تستخدم فى بعض البلاد الاسلامية حتى الآن·

وبجانب هذه الآلات وغيرها عرفت أدوات للسقى والرى، كالقنوات وهى شق يحفر فى الأرض ليجرى فيه الماء·(٣) وقد ورث المسلمون عن الفرس نظاما من القنوات كان مسئولا عن جعل الجزء الادنى من الفرات ودجلة من اكثر الجهات رخاء فقد صممت مجموعة من القنوات بهدف رى الاراضى الواقعة بين النهرين، ومن ناحية أخرى فان جزءا كبيرا من مياه دجلة حولت بواسطة قنوات الى الجهة الشرقية لتروى الأراضى الواقعة عند الحدود الفارسية، وكانت القنوات التى أخذت من الفرات هى نهر عيسى، نهر صرصر ونهر الملك، نهر كوثى، نهر الصراة وقد روت مياه هذه القنوات أقاليم فيروز، سابور، بادوريا، السواد، كوثى·(٤)

---

(١) - ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية، المرجع السابق ص٨٥

(٢) - جروهمان، أوراق البردى العربية، ترجمة عبدالحميد حسن، دار الكتب المصرية مطبعة دار الكتب المصرية عام ١٩٦٨م رقم اللوحة ٢٨٩ جـ٥ ص٥

(٣) - معروف الرصافى، الآلة والاداة، المرجع السابق ص٢٨٤

(٤) - سعيد اسماعيل، النبات والفلاحة والرى، المرجع السابق، ص٢٢٦·

وقد كثرت القنوات فى الجزء الادنى من نهر دجلة الى الدرجة التى جعلت ابن حوقل يقول : «وذكر بعض من أصحاب الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبى بردة فزادت على مائة الف نهر وعشرين الف نهر تجرى فى الزواريق...».(١)

ومنها النواعير : والناعورة هى الدولاب يديرها الماء أو الحيوان (الساقة) والدلو يستقر بها.(٢) «وفى حماة حماها الله النواعير الكبار التى لم يرى فى الآفاق مثلهن».(٣)

ومن آلات السقى الدلاء، والدولاب بالضم : المنجنون التى تديرها الدابة ليسقى بها وهى فارسية معناها اناء الماء ويطلق الدولاب على كل آلة تدور على محور من خشب أو غيره. وقد استطاع الفلاح فى العصر العباسى التحكم فى كميات المياه عن طريق بعض الأدوات التى استخدمها فى ذلك، فاتخذوا السدود والقنوات، وقد انفقت الأموال الطائلة للهيمنة على الماء وخزنه للاستفادة منه فى الزراعة والشرب فأنشأوا المجارى المائية كما استعملوا مساكات لماء السماء يحتفرها الناس فيملؤونها بماء السماء ثم يستخدمونها فى الشرب والزراعة، كما استخدموا الصهاريج لحيازة ماء المطر وامساكه.(٤)

ومن كل ما تقدم يتضح اهتمام الدولة العباسية بشئون الزراعة والري، وهذا كله بلاشك انعكس على الزراعة وتطورها ونموها، وانتاجها وقد ذكر القلقشندى ان الرشيد كان يستلقى على ظهره، وينظر الى السحابة المارة كما سبق أن أشرنا ويقول : « اذهبى حيث شئت فسيأتينى خراجك».(٥)

---

(١) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢١٢

(٢) - معروف الرصافى، الآلة والاداة، المرجع السابق ص٤٢٦

(٣) - شيخ الربوة، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، المرجع السابق ص٢٠٦

(٤) - جواد على، المفصل فى تاريخ العرب، المرجع السابق حـ٧ ص٤٢٢

(٥) - القلقشندى، صبح الأعشى، المرجع السابق حـ٣ ص٢٧٠

ومما يدل على ازدهار الزراعة ايضا ان مساحة السواد بلغت طبقا لما ذكره الخطيب البغدادى ٣٦٫٠٠٠٫٠٠٠ جريب، والجريب كان يساوى ١٠٠ قصبة مربعة أى ما يساوى ١٥٩٢ مترا مربعا على اعتبار أن القصبة الوسطى تساوى ٣٫٩٩ متر أى أن مساحة السواد كانت تساوى ٥٧٫٣١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ متر مربع.(١)

ونظرا للزيادة المستمرة فى الانتاج الزراعى فقد ذكر أن المأمون قد خفض ضريبة الأرض فكان يجبى الخمسان بدلا من النصف حتى على أكثر الأرض انتاجا(٢) وبالرغم من تخفيض الضريبة فقد زادت الحصيلة الضريبية وهذا يعنى زيادة الانتاج الزراعى وارتفاع انتاجية هذه الأرض.

وبعد أن بينا الأساليب الفنيه للزراعة والرى وأدواتها نحاول فيما يلى بيان أساليب التنمية الزراعية فى العصر العباسى الأول وهى كثيرة ومتعددة لعل من أهمها ما يلى :

سادسا : أهم الأساليب الشرعية للتنمية الزراعية فى العصر العباسى الأول :

للتنمية الزراعية فى الاسلام أساليب كثيرة ومتعددة، وقد وجدت ايضا نفس الاساليب فى العصر العباسى الأول وفيما يلى عرض لأهم تلك الأساليب.

أولاً - أحياء الأرض الموات :

احياء الأرض الموات اسلوب هام من أساليب التنمية الزراعية فى الاسلام، وقد استخدم هذا الأسلوب منذ عهد الرسول ﷺ ع «من أحيا أرضا ميتة فهى له»(٣) والأحياء لفظ عام يشمل الزراعة والبناء وغيرهما من الأمور التى تدخل ضمن معنى «الأحياء» بمعناه العام الشامل لأى نوع من أنواع الأحياء والدولة التى تملك الأرض الموات عليها أن توجهها الوجهة الصحيحة، وتسعى لأحيائها وتبذل قصارى جهدها بالتسهيلات المادية أو العملية بالتوجيه والارشاد أو تقديم النصح والمشورة بما يتوفر لها من فنيين وخبراء.

---

(١) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص١١، الزهرانى، موارد بيت المال، المرجع السابق ص٣٠٧، فانتر هنتس، المكاييل والاوزان، المرجع السابق ص٩٦.

(٢) - حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام السياسى، المرجع حـ٢ ص٣٠٥/٣٠٦

(٣) - سبق تخريجه فى ص٤٩ من هذا البحث.

وعملية الأحياء هى : جعل الأرض قابلة للانتاج والاستثمار ولا يثبت حق حيازة الموات من الأرض الا بجعلها قابلة للانتاج والاستثمار.

وعرف الشوكانى عملية الأحياء بقوله : «هو أن يعمد شخص الى أرض لم يتقدم ملك لأحد فيحييها بالسقى أو الزرع أو الغرس أو البناء فتصير بذلك ملكا له»(١). ويؤخذ من التعريف السابق «ان الأحياء هو عبارة عن احياء الأرض المعطلة عن الانتفاع والمتجردة عن الحقوق والاختصاصات مع عدم استعدادها فعلا للانتاج والاثمار.(٢)

هذا ولم يرد من الشارع ما يحدد عمليات الأحياء، وانما ترك ذلك الى الاعراف والعادات السائدة وقت الأحياء، ذلك لأن نهج الشريعة فيما لم يرد به نص أو فيما لم تكن فيه حقيقة شرعية رد الناس الى المعهود عندهم والمتعارف بينهم(٣) طالما لم يخالف قواعد الشريعة وأهدافها العامة.

يقول الامام الماوردى رحمه الله : وصفة الأحياء مفسره بالعرف فيما يراد له الأحياء، لأن الرسول ﷺ أطلق ذكره إحالة على العرف المعهود فيه، فان اراد احياء الموات للسكنى كان احياؤه بالبناء والتسقيف، لأنه أدل على كمال العمارة التى يمكن سكناها. وان اراد احياءها للزرع والغرس اعتبر فيه ثلاثة شروط :-

أحدها : جمع التراب المحيط بها حتى يصير حاجزا بينها وبين غيرها.

والثانى : سوق الماء اليها إن كانت يبسا وحبسه عنها إن كانت بطائح، لأن إحياء اليبس بسوق الماء اليه، واحياء البطائح بحبس الماء عنها حتى يمكن زرعها وغرسها فى الحالين.

---

(١) - الشوكانى، نيل الأوطار، المرجع السابق حـ٣ ص٣٠٢

(٢) - محمود المظفر، احياء الاراضى الموات، المرجع السابق ص٧٩

(٣) - محمود المظفر، احياء الموات، المرجع السابق ص١٠٢

والثالث : حرثها، والحرث : يجمع اثارة المعتدل، وكسح المستعلى وطم المنخفض، فاذا استكملت هذه الشروط الثلاثة كمل الأحياء وملك المحيى.(١) وشرط الشافعية : أن المحيى لا يملك الأرض المحياة للزراعة إلا بزراعتها بالفعل، قياسا على الدار المحياة فانها لا تصير محياة إلا إذا حصل فيها عين مال المحيى، فكذا الزراعة، ولكن الأصح عدم اشتراط الزراعة، بل يكفى التهيئة بتوافر الشروط الثلاثة السابقة، ولأن الزراعة استيفاء منفعة مستقلة عن الأحياء.(٢) ولا مانع من اضافة بعض الشروط فى عصرنا الحاضر اضافة الى ذلك، كمن يريد أن يحيى للسكنى فى أيامنا هذه، فان العرف مثلا يقتضى بأن تصل المرافق الى هذه القطعة من مياه وصرف صحى وخلافه مما يستقر عليها العرف ويألفها المجتمع.(٣)

هذا وقد استخدم هذا الأسلوب - الاحياء - فى التنمية الزراعية فى العصر العباسى الأول، وقام هذا الاسلوب بدور هام فى التنمية الزراعية والنهوض بها فانتشرت بذلك المساحات الشاسعة من الأرض الزراعية وكثرت المحاصيل وتنوعت، وسيأتى ذكر كثير منها.

وعن فائدة الاحياء يقول بعض الباحثين : «لك أن تتصور مدى الفائدة لو أننا قمنا فى مصر بعمارة صحراء سيناء مدخل الغزاة، فأقمنا فيها القرى والمصانع، وغرسنا فيها النخيل والبساتين، واستوطنها جزء من هذه الأفواج المتراكمة فى القرى والمدن ترى لو فعلنا ذلك لاستطعنا أن نعطل جيوشه عن اختراق أرضنا...ولهذا فان العدو الصهيونى لم تغب عنه هذه الحقيقة، فهو يبنى المستعمرات ويهيء لشبابه وسائل الزرع والصناعة ليحقق هدفا مزدوجا

---

(١) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص١٧٧

(٢) - المحلى على المنهاج حـ٣ ص٩١، والأحكام السلطانية للماوردى ص١٧٨

(٣) - الشافعى عبدالرحمن، تعمير الأرض فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق ص٢١/٢٢.

فيحصل على موارد اضافية لدخله، ثم ليربط ابناءه بالارض فيصعب بعد ذلك اجلاؤهم عنها».(١)

ومن أساليب التنمية الزراعية ايضا، والتى قد عمل بها فى العصر العباسى الأول بالاضافة الى احياء الأرض الموات المزارعة المساقاة، وقد تحدث عنهما أبو يوسف رحمه الله فى كتابه الخراج، وكان العمل بهما مشهورا وفيما يلى عرض لهما بايجاز:

ثانيا : المزارعة والمساقاة :

من اساليب التنمية الزراعية فى الاسلام المزارعة والمساقاة، وقد وجدا منذ عهد الرسول ﷺ واستمرت حتى عصر الدولة العباسية، ولايزال العمل بها موجودا حتى الآن مع اختلاف فى الصورة والاسلوب.

أ - فالمزارعة : هى مصدر زراعة ومزارعة أى عامله بالمزارعة(٢)، والمزارعة عبارة عن : المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها، ويكون البذر لمالكها.(٣)

وعرفها الفقهاء بتعاريف كثيرة فعرفها ابن قدامة - مثلا - بأنها : «دفع الأرض الى من يزرع ويعمل عليها والزرع بينهما».(٤)

وعرفها بعض الباحثين المحدثين(٥) بأنها : «عقد على المزارعة لمدة معينة بجزء شائع معلوم من حاصلها لكل من صاحب الأرض والزرع».

---

(١) - الشافعى عبدالرحمن، تعمير الأرض فى الشريعة الاسلامية ص١٣

(٢) - انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٣٩٣

(٣) - الزبيدى، تاج العروس، نشر دار مكتبة الحياة بيروت لبنان، حـ٥ ص٣٦٧/٣٦٨، الفيروز آبادى، القاموس المحيط، نشر دار الفكر، بيروت لبنان حـ٣ ص٣٤

(٤) - ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق حـ٥ ص٤١٦

(٥) - مناع مرار خليفة، المزارعة والمساقاة فى الشريعة الاسلامية، دار الرسالة للطباعة، بغداد رسالة ماجستير، مطبوعة عام ١٩٧٥م/١٣٩٥هـ ص٧١/٨٦

وعلى ذلك فالمزارعة مفاعلة بين طرفين أحدهما صاحب الأرض، والآخر هو العامل الزراعى. فالأول يدفع الأرض والآخر يزرعها على جزء من الخارج فيها.

والمزراعة جائزة فى قول كثير من أهل العلم والفقه، وقال البخارى : قال أبو جعفر ما بالمدينة أهل بيت إلا ويزرعون على الثلث والربع، وقد زارع على وسعد وابن مسعود وعمر بن عبدالعزيز وغيرهم ثم قال البخارى، وعامل عمر رضى ألله عنه الناس على أنه ان جاء عمر بالبذر من عنده فله الشطر، وإن جاءوا بالبذر فلهم كذا.

ورجح ابن قدامة جواز المزارعة لفعل النبى ﷺ وصحابته...وهو أمر مشهور عمل به الرسول حتى مات ثم خلفاؤه الراشدون حتى ماتوا ثم أهلوهم من بعدهم ولم يبق بالمدينة أهل بيت إلا عمل به.(١)

ثالثاً- المساقاة :

المساقاة فى اللغة مفاعلة من السقى بالفتح، الفعل. وبالكسر السقى الشرب، وبالضم السقيا الاسم، وتسمى المعاملة فى النخل أو الكرم على الثلث أو الربع وما أشبهه مساقاة يقال : ساقى فلان فلانا نخله أو كرمه اذا دفعه اليه واستعمله فيه على أن يعمره ويسقيه، ويقوم باصلاحه، وله سهم معلوم مما تغله الارض. والباقى لمالك النخل.(٢)

والمساقاة عند الفقهاء: هى : أن يدفع الرجل شجره الى آخر ليقوم بسقيه وعمل سائر ما يحتاج اليه بجزء معلوم من ثمره كالنصف والثلث والربع.(٣)

---

(١) - ابن قدامة، المغنى ، المرجع السابق حـ٥ ص٤١٧/٤١٨، ابن حجر، فتح البارى، شرح صحيح البخارى، طبعة دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان، الطبعة الأول عام ١٣٠٠هـ حـ٥ ص١١/١٢

(٢) - ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ١٤ ص٣٩٠/٣٩٤، الرازى، مختار الصحاح، المرجع السابق ص٢٢٩

(٣) - ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق حـ٥ ص٣٩١/٣٩٣/٤١٦

ويرى أبو يوسف جواز المزارعة والمساقاة مطلقا فيقول - رحمه الله - : «وأحسن ما سمعناه فى ذلك والله أعلم أن ذلك كله جائز مستقيم صحيح، وهو عندى بمنزلة مال المضاربة قد يدفع الرجل الى الرجل المال مضاربة بالنصف والثلث فيجوز وهذا مجهول - النصف أو الثلث - لا يعلم ما مبلغ ربحه ليس فيه اختلاف بين العلماء فيما علمت»⋅(١)

وعلى أية حال فان المزارعة والمساقاة مارسها المسلمون منذ عهد الرسول ﷺ، فقد ثبت أن النبى ﷺ «عامل أهل خيبر بشطر ما يخرج منها من ثمر أو زرع»⋅(٢)

وقد ثبت عمل الصحابة بها واشتهر ذلك عنهم ولم ينكرها منكر فكان اجماعا⋅

قال ابن قدامة : ان المساقاة جائزة فى جميع الشجر المثمر، هذا وقول الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم وقد دلت عليها السنة والاجماع من الصحابة ولا يجوز التعويل على مخالفهما⋅(٣)

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٩٦

(٢) - رواه البخارى ومسلم، انظر ابن حجر فتح البارى، المرجع السابق حـ٥ ص١٣، النووى، صحيح مسلم بشرح النووى، المرجع السابق حـ١ ص٢٠٨

(٣) - ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق حـ٥ ص٣٩١/٣٩٣، خالف الاجماع ابو حنيفة رحمه الله حيث قال بعدم جواز المزارعة والمساقاة، وقد استدل على قوله بحديث رافع بن خديج قد روى أن رسول الله ﷺ أنه قال لرافع بن خديج فى حائط : «لا تستأجره بشىء منه»⋅ وبما روى عن رسول الله ﷺ أنه «نهى عن قفيز الطحان» والاستئجار ببعض الخارج فى معناه كما استدل ايضا بأن الاستئجار ببعض الخارج من النصف والثلث والربع ونحوه استئجار ببذل مجهود وهو لا يجوز كما فى الاجارة⋅

لمزيد من التفصيل عن رأى أبى حنيفة راجع الكاسانى، بدائع الصنائع، المرجع السابق حـ٦ ص١٧٤/١٨٥ لكن هذه الأدلة وغيرها لا تقوى على معارضة أدلة الجمهور حيث ثبت عمل الرسول ﷺ بها وكذا صحابته رضوان الله عليهم، كما أن فى العمل بها له من الفوائد العظيمة ما لا يحصى من الناحية الاقتصادية، إذ هو أسلوب تنموى عظيم فى مجال النشاط الزراعى، وابطاله يلحق ضررا كبيرا بنشاط الزراعة وتنميتها، كما يؤدى الى بطالة عمالها ممن ليس لهم أرض يزرعونها فالأولى والله أعلم جوازها لما تقدم من فعل الرسول ﷺ وصحابته واجماع كثير من العلماء والفقهاء⋅

هذا وتدل المصادر على أن مشروعيتها كانت من ضمن المسائل الهامة فى العصر العباسى الأول حيث سأل أمير المؤمنين هارون الرشيد أبا يوسف - رحمه الله - عنها مما يدل على انشغال الفكر الاسلامى بها وبمشروعيتها قال أبو يوسف : «وسألت يا أمير المؤمنين عن المزارعة فى الأرض البيضاء بالنصف والثلث فان أصحابنا من أهل الحجاز وأهل المدينة على كراهة ذلك وفساده... واحسن ما سمعناه فى ذلك والله أعلم أن ذلك كله جائز مستقيم صحيح وهو عندى بمنزلة مال المضاربة».(١)

وقد عدد أبو يوسف - رحمه الله - أوجه المزارعة المختلفة التى كانت موجودة فى تلك الفترة فقال :« والمزارعة عندنا على وجوه منها :

١ - عارية ليست فيها اجارة، وهو الرجل يعير أخاه أرضا يزرعها، ولا يشترط عليه اجارة فيزرعها المستعير ببذره ونفقته، فالزرع له والخراج على رب الأرض، فان كانت من أرض العشر فالعشر على الزارع وبه قال أبو حنيفة رضى الله عنه.

٢ - أن تكون الأرض للرجل فيدعو الرجل الى أن يزرعها جميعا، والنفقة والبذر عليهما نصفان، فهذا مثل الأول الزرع بينهما والعشر فى الزرع إن كانت أرض عشر، وان كانت أرض خراج، فالخراج على رب الأرض.

٣ - اجارة الأرض البيضاء بالدراهم المسماة سنة أو سنتين فهذا جائز والخراج على رب الأرض فى قول أبى حنيفة - رضى الله عنه -.

٤ - المزارعة بالثلث والربع وهى جائزة عنده والخراج على رب الأرض والعشر عليهما جميعا فى الزرع.

٥ - أن يكون للرجل أرض وبقر وبذر فيدعو أكارا(٢)، فيدخله فيها فيعمل ذلك الرجل ويكون له السدس أو السبع، وهذه الصورة جائزة عنده ايضا.(٣)

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المراجع السابق ص٩٥/٩٦

(٢) - الاكار : الحراث الذى يحرث الأرض - أى الفلاح - الذى يعمل بالأجر. المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٢٢

(٣) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٩٧/٩٨١

ومن خلال النص السابق الذى ورد فى كتاب الخراج يتضح أن أسلوب التنمية الزراعية المتعلقة بالمزارعة والمساقاة اخذ صورا شتى فقد تكون على شكل عارية وقد تكون على النصف بينهما، أو تأخذ شكل الاجارة فيأخذ المزارع بالأجرة، وقد يستأجر صاحب الأرض العامل الزراعى ويعطيه أجرة نظير عمله فى صورة نقدية أو عينية (زرع)، وقد أجاز أبو يوسف كل هذه الصور.

ولاشك أن هناك اساليب أخرى للتنمية الزراعة كاجارة الأرض أو اعارتها مما ذكره أبو يوسف رحمه الله لا يتسع المقام هنا لعرضها جميعا وكلها تؤكد تعدد أساليب التنمية الزراعية فى العصر العباسى الأول، وهو ما اتضح لنا من سؤال أمير المؤمنين هارون الرشيد لأبى يوسف - رحمه الله - عن أحكامها، وبناء عليه فانها كانت تمارس فى المجتمع العباسى الأول وكانت من الأهمية بمكان، جعلت أمير المؤمنين يسأل عنها أهل العلم والفقه.

كما يظهر من خلال دراستنا للنشاط الزراعى فى هذه الفترة التاريخية أن الزراعة قد ازدهرت ازدهارا عظيما، كما أنها بلغت الذروة فى عهد الرشيد فتوسعت الأراضى الزراعية، وتنوعت المحصولات، وتكدس الانتاج الزراعى فى اسواق العراق وايران ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية ورخصت الاسعار.

يقول الخطيب البغدادى(١) : [سمعت داود بن صفير يقول «رأيت فى زمن أبى جعفر المنصور كبشا بدرهم وجملا بأربعة دوانق والتمر ستين رطلا بدرهم، ،الزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية ارطال بدرهم...وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم»].

وهذا كله يكشف عن توفر الثروات الزراعية المختلفة وذلك كان نتيجة طبيعية لتطبيق الطرق الفنية الزراعية من جهة، واساليب التنمية الزراعية فى الاسلام فى جهة اخرى.

---

(١) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص٧٠، آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٢٩٨/٣٤٤

ولا شك أن تطبيق اساليب التنمية الزراعية بالاسلوب الاسلامى على أساس المزارعة أو المساقاة أو الاحياء أو غيرها من الأساليب فى أى مجتمع معاصر سوف يؤثر على الناحية الاقتصادية وعلى أوضاع المجتمع الاقتصادية فمن حيث الانتاج سيزداد الانتاج الزراعى وخاصة إذا ما علم أن معظم الدولة الاسلامية تملك من الأراضى الزراعية المساحات الشاسعة، وإذا ما استخدمت هذه الأساليب فى عصرنا الحاضر فى اطار الخطط القومية لعمليات الاحياء وغيرها من الاساليب سوف يؤدى تطبيق هذه الاساليب الزراعة الاسلامية الى اعطاء الفرصة لكثير من العمال الزراعيين للعمل، وبالتالى سيؤثر ذلك على عنصر التشغيل ومحاربة البطالة باشكالها المختلفة وسيؤدى ذلك الى زيادة مستمرة فى دخول العمال ايضا كما أن التدريب والعناية بالمهارات الفنية، واكتساب الخبرة الجديدة فى مجال الزراعية يعنى النهوض بالعمالة الزراعية داخل المجتمع، وهذا من شأنه زيادة الناتج والانفاق لذا فان على الدولة المسلمة أن تقوم بتوفير الآلات والمعدات المتطورة أو أن تعطى الافراد قروضا ميسرة · وبغير فائدة بالطبع - فتكون الدولة بذلك قد افادت المجتمع من عدة نواحى، عمرت الارض، وشغلت افراد المجتمع، مما سيترتب عليه زيادة الدخل القومى من ناحية وزيادة دخول الافراد من ناحية اخرى·

ولاشك أن المجتمع العباسى الأول قد طبق الاساليب الزراعية المختلفة، وترتب على الأخذ بها، زيادة المساحات الزراعية وتنوعت المحاصيل، وزادت ايضا العمالة الزراعية وهو ما اكدته كثير من المصادر التاريخية، وسيتضح لنا ذلك جليا فى الفقرات التالية إن شاء الله تعالى·

سابعا : أهم الحاصلات الزراعية فى العصر العباسى الأول :

ازدهرت الزراعة فى العصر العباسى الأول ازدهارا عظيما، كما تنوعت المحاصيل الزراعية، وذلك لأن الدولة العباسية كانت مترامية الاطراف،

فتنوعت تربتها ومناخها ووسائل الرى فيها فاستخدمت جميع وسائل الرى المعروفة آنذاك، وكان طبيعيا لمثل هذه الدولة أن يوجد بها أنواعا مختلفة من المزروعات فوجدت بها الحبوب والأشجار والفواكه وشتى أنواع النباتات الأخرى التى عرفت فى ذلك العصر، فقد كانت بغداد محاطة برساتيق وقرى وبساتين.(١) وكانت واسط منطقة زراعية تمد بيت المال بمبالغ طائلة سنويا.(٢) وكان بالبصرة ايضا بساتين كثيرة، وقد وصف الجغرافيون بساتين النخيل فيها كأنها صف واحد يبلغ طوله اكثر من خمسين فرسخا.(٣)

كما كانت البطائح تزود العراق بمختلف منتوجاتها.(٤) وكان ذلك يسرى ايضا على الموصل والجزيرة وغيرها. اضف الى ذلك الأماكن الزراعية الأخرى فى بلاد الشام والحجاز ومصر وبلاد المغرب العربى، وفيما يلى سنحاول القاء الضوء على أهم هذه المحاصيل الزراعية بايجاز:

١ - الحبوب والمنتجات الزراعية :

عرفت الدولة العباسية أنواعا كثيرة من الحبوب وفى مقدمتها القمح وذلك لاعتماد الناس عليه فى صناعة الخبز، فقد كان يخبز أرغفة رقيقة ومستديرة.(٥) وقد عرف القمح فى البلاد الاسلامية منذ زمن طويل، وكان يزرع فى كافة البلاد الاسلامية تقريبا، والغريب أن أوربا لم تعرف زراعة القمح إلا فى العصور الوسطى المتأخرة، واعتبر التحول اليه بدلا من الذرة والشعير

---

(١) - رساتيق : واحدة رستاق، الجمع رساتيق فارسى معرب ومعناه السواد.ابن المنظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ١٠ ص١١٦، مسكوية، تجارة الأمم، المرجع السابق حـ١ ص١٥٥

(٢) - الاضطحرى، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبدالعال عام ١٩٦١ ص٨٥، ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢١٢

(٣) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢١٢

(٤) - المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، المرجع السابق ص١١٩.

(٥) - آدم ميتز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٢

من أهم احداث الاقتصاد الزراعى فى العصور الوسطى.(١) ومن البلاد التى كانت تزرعه العراق والشام ومصر، والمدينة المنورة والطائف، وكان لقمح الطائف شهرة عظيمة فى ذلك الوقت فقد أشار ابن المجاور الى أن أهل الطائف بشبه الجزيرة العربية كانوا يزرعون الحنطة اللقمية التى تشبه اللؤلؤ.(٢) ومن البلاد التى اشتهرت بزراعته ايضا بلاد المغرب.(٣)

وكان للقمح أهمية كبيرة فى الدولة العباسية، حتى ان ارتفاع اسعاره فى كثير من الأحيان كان يعد دليلا على غلاء المعيشة فى البلاد.(٤)

٢ - الحبوب الأخرى :

يلى القمح فى المرتبة الشعير من حيث أهميته الغذائية ذلك لأنه ارخص ثمنا، كما كان اكثر استعمالا فى الأكل، ومنه كان خبز اكثر الناس.(٥) كذلك من الحبوب الشائعة الاستخدام فى ذلك الوقت الذرة وبصفة خاصة فى الأجزاء الجافة من الدولة العباسية، مثل جنوب الجزيرة العربية وذلك لأنها لاتحتاج الى مياه كثيرة(٦) كذلك الأرز كان يلى الشعير فى المرتبة، وقد شد ذلك انتباه الرحالة الصينى (لنج وى تى تا) عن بغداد فقال : «ان الناس جميعا فيها يأكلون الخبز واللحم والسولو، ولكنهم قل أن يأكلوا السمك والفول والأرز»، وكتب صينى آخر عن مصر فقال : «الناس فيها يعيشون على اللحم والخبز، ولا يأكلون أرزا قط».(٧)

---

(١) - المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٢

(٢) - جواد على، المفصل فى تاريخ العرب قبل الاسلام حـ٧ ص٥٧/٥٨

(٣) القلقشندى، صبح الاعشى فى صناعة الانشا، المرجع السابق حـ٥ ص١٦٤/١٦٥

(٤) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٢

(٥) - جواد على، المفصل، المرجع السابق حـ٧ ص٥٨

(٦) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٢

(٧) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٢٩٧، سعيد اسماعيل على ، النبات والفلاحة والرى عند العرب ، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة عام ١٩٨٣م ص١٧٢

والسولو ولم اعثر على معناها -

ومن المحاصيل ايضا البقول كالباقلاء أو الباقلى (الفول) وكان منه المصرى، ومنه النبطى(١)، والفاصوليا واللوبية وغيرها من البقول.

ومن المنتجات الزراعية التى عرفت فى الدولة العباسية ايضا قصب السكر فكان يزرع فى البصرة وصور وقد بلغت زراعته فيهما شأنا عظيما.(٢) وبلاد الشام وسفاقس، كما اشتهرت مصر بقصب السكر ايضا، ومن طرائف ما ذكر عنه فى مصر ما رواه الربيع بن سليمان قال سمعت الشافعى رضى الله عنه يقول : «ثلاثة أشياء دواء للداء الذى لا دواء له، الذى اعيا الاطباء أن يداووه، العنب ولبن اللقاح، وقصب السكر ولولا قصب السكر ما أقمت فى مصر».(٣)

هذا ولم تعرف أوربا قصب السكر فى تلك الفترة، وكانوا يعتمدون فى تحلية الطعام على عسل النحل وحده»(٤).

ومن الحاصلات الزراعية ايضا الزيتون، وقد انتشر فى بلاد الشام ومصر وسفاقس، وقد كانت غابة من الزيتون(٥)، وانتشر الزيتون ايضا فى الاسكندرية وليبيا ذكر ذلك المسعودى فى كتابه التنبيه والاشراف فقال : «وأما خاصة الأسكندرية ولوبية - ليبيا - والمراقية فبرارى وجبال وغياض وزيتون وكروم جبلية بحرية بلاد عسل ولبن، وذكر أهلها أنهم اكثر الناس قندا وشهدا وعبدا ونقدا وصوفا وبغالا وحميرا وخيلا».(٦)

---

(١) - النويرى، نهاية الارب فى فنون الأدب، مطابع كوستاتسوماس وشركاه القاهرة حـ١١ ص١٨

(٢) - أنور الرفاعى، الاسلام فى حضارته ونظمه الادارية والسياسية والأدبية والعملية والاجتماعية والاقتصادية والفنية، دار الفكر عام ١٩٧٣م/١٣٩٣هـ ص٩٢

(٣) - السيوطى، حسن المحاضرة، المرجع السابق حـ٢ ص٣٢٥

(٤) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٧٠

(٥) - شيخ الربوة، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، المرجع السابق ص٢٣٣/٢٣٥

(٦) - المسعودى، التنبيه والاشراف، المرجع السابق ص٢٠

٣ - الفواكه :

كان العنب من أهم الفواكه السائدة فى ذلك الغصر، وكان أكثر ما يكون فى اليمن ويحكى أن بعض عمال الرشيد حملوا اليه وهو يؤدى فريضة الحج ذات مرة عنقودين من العنب محملين على بعير - والعهدة على الراوى - وكان للعنب اسماء كثيرة شعبية فكان يقال على بعضها عين البقرة، والسكر، وانملة القزم والقوارير ونحوها·(١)

وقد اشتهر ايضا فى بلاد زبيد وقرية خيوان وقد وصف كرومها بكبر العناقيد وقرية اثافت ايضا كان بها الكروم وربدة وغيرها من بلاد الحجاز·(٢) ومن الفواكه ايضا الاترج(٣)، والنارنج، وقد جلب النارنج من بلاد الهند فقد ذكر المسعودى انه جلب من الهند، ثم زرع بعمان والبصرة، والعراق، والشام، وقد ذكر المقدسى أن ثمار النارنج فى فلسطين كانت احسن منها فى غيرها من البلاد·(٤)

ومن الفواكه ايضا التمر وقد كان يحظى بأهيمة كبيرة فى الدولة العباسية، وكانت العراق وكرمان وشمال افريقيا اكبر مراكز انتاج التمر، وكان التمر العراقى من أجود أنواع التمور ايضا·(٥)

وقد اشتهرت اسواق الواحات المصرية بالنخيل(٦) وفى بلاد الحجاز كانت تكثر النخيل فى بطن مرو وكرا، ومن كرا الى رينة اماكن عرفت بكثرة نخيلها·(٧)

---

(١) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص٢٩٨/٢٩٩

(٢) - المسعودى، التنبيه والاشراف، المرجع السابق ص٨١/٨٣

(٣) - الاترج : شجر ناعم الاعصار والورق والثمر وثمره كالليمون الكبار وهو ذهبى اللون زكى الرائحة حامض الماء، انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق جـ١ ص٤، النارنج : من الموالح ويشبه البرتقال·

(٤) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ض٨١

(٥) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص٣٠٤

(٦) - شيخ الربوة، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، المرجع السابق ص٢٣٢/٢٣٣

(٧) - المسعودى، التنبيه والاشراف، المرجع السابق ص٨١

ومن الفواكه ايضا التين والبرتقال والخوخ والكمثرى والمشمش والجوز والسفرجل والرمان والكرز والبطيخ وغيرها.(١)

٤ - الزهور :

عرفت الزهور فى الدولة العباسية كالورد والزنبق والبنفسج والنرجس والاقحوان(٢)، والياسمين، والنرين وغيرها من الزهور ذات الروائح الطيبة، والتى كان لها أثر كبير فى وجود صناعة استخراج الروائح العطرية ونموها.(٣) وكان يحمل مع خراج فارس الى خلفاء الدولة العباسية كل عام من ماء الورد ثلاثون الف قارورة، وقد كانت سابور تنتج من زيوت الطيب عشرة أنواع مشهورة تستحضر من زهر البنفسج والزنبق والنرجس والسوسن والمرسين والنارنج والمارده والليمون والبرتقال...»(٤)

٤ - الخضروات :

كما كانت فى الدولة العباسية أنواع كثيرة من الخضروات منها الفجل والجزر والقنبيط، ،الكرنب والسلجم - اللفت - والكراث الشامى والنبطى والقثاء، والخيار والقرع والباذنجان والقلقاس والبطيخ الاصفر والأخضر وغير ذلك من الخضروات(٥) التى يصعب الاحاطة بها. اضافة الى ما سبق بيانه من الحاصلات الزراعية كانت هناك ثروات حيوانية كثيرة فى الدولة العباسية الأولى تجدر الاشارة اليها فيما يلى بايجاز .

---

(١) - شيخ الربوة، نخبة الدهر، المرجع السابق ص٢٣٣

(٢) - هو نبات برى نقل من البرارى، واتخذوه فى البساتين وهو يحمل ورد طيب الرائحة، ابن وحشية، كتاب الفلاحة النبطية ورقة ٢٨

(٣) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢١٣، فليب حتى وآخرون، تاريخ العرب، حـ٢ ص٤٣٠/٤٣١

(٤) . فيليب حتى وآخرون، تاريخ العرب، المرجع السابق حـ٢ ص٤٣١

(٥) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص١٠٠/١٠٣، النويرى، نهاية الارب، المرجع السابق حـ١١ ص٥٨/٦٢

الثروة الحيوانية :

عرفت الدولة العباسية كثيرا من الحيوانات، وقلما وجد حيوان إلا وعرف فى الدولة العباسية، سواء فى ذلك الحيوانات الأليفة أو الوحشية أو الداجنة، فقد وجدت الفيلة والاسود والنمور والذئاب والضباع والقردة والثعالب وغيرها، كذلك وجدت الماشية كالبقر والغنم والابل والخيل والبغال والحمير، وكذلك الطيور الداجنة والجارحة والنحل والسمك وما يعيش فى البحر.

وقد اشتهرت بلاد العراق وخاصة منطقة الجزيرة الفراتية بتربية الاغنام بصفة خاصة حيث توفرت فيها المراعى الواسعة، والمروج(١) الكثيرة.

ولعل ذلك كان سببا فى اشتهارها بانتاج الاصواف على نطاق واسع، واختصت بصناعة النسيج الصوفى الذى كان غالبا يعتبر سلعة تصديرية. كذلك اشتهرت بصناعة الجبن واللبن واللحم المجفف حيث كانت هناك المنتوجات تصدر الى خارج الاقليم لوفرتها وزيادتها. ويعد هذا تطور هائلا فى مجال صناعة الالبان وتجفيف اللحوم، وهو يظهر تطورا فى مجال الصناعات المعتمدة على الثروة الحيوانية. كذلك اشتهرت الجزيرة الفراتة بتربية النحل حتى أن الموصل كانت ترسل كميات من العسل مع واردات الخراج وصل وزنها أربعة وعشرين الف الف درهم وعشرين الف رطل.(٢)

---

(١) - المروج : الارض الواسعة التى فيها نبت كثير يمرج فيها الدواب أى تذهب وتجىء. ياقوت الحموى، معجم البلدان حـ٤ ص٤٨٧

(٢) - الرطل يساوى (١٢) أوقية وكان يقدر فى العراق بـ ٨١٢،٥ جرام، انظر المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها فى النظام المترى، ترجمة كامل العسلى، تأليف فاترهينتس، المرجع السابق ص٣٠

كذلك اشتهرت الجزيرة بجودة الخيول فيقول ابن حوقل : «انها كانت ينبوع الخيول»·(١)

ويصفها المقدسى بقوله : «انها معدن الخيل العتاق»(٢) واشتهرت الموصل بالاغنام والابقار·

أما فى مصر فقد اشتهرت بكثير من الحيوانات فذكر السيوطى فى حسن المحاضرة بعضا من فضائل مصر فقال : «بمصر الحمير والبقر، والأغنام، والدجاج»·(٣) وبها من النتاج العجيب من الخيل والبغال والحمير ما يفوق نتاج أهل الدنيا، وليس فى الدنيا فرس فى نهاية الصورة فى العنق غير الفرس المصرى···ويحكى ان الوليد عزم على اجراء الحلبة، فكتب الى الامصار ان يوجه اليه بخيار خيل كل بلد فلما اجتمعت عرضت عليه، فمرت عليه المصرية، فلما رآها دقيقة العصب لينة المفاصل والاعطاف قال : «هذه خيل ما عندها طائل، فقال له عمر بن العزيز رضى الله عنه، واين الخير كله إلا لهذه، فقال له ما تترك تعصبك لمصر يا أباحفص، فلما اجريت الخيل جاءت المصرية كلها سابقة ما خالطها غيرها·(٤) ومن الدواب البقر والجواميس ومما يوصف من دوابها بالجودة الحمر لفراهتها والبقر والغنم لعظمها، وبها الاوز والدجاج والحمام· ومن الوحوش الغزلان والنعام والأرنب(٥)·

---

(١) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص١٩٠

(٢) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٧٦، محمد جاسم حمادى، الجزيرة الفراتية والموصل، دراسة فى التاريخ السياسى والادارى، طبعة عام ١٩٧٧م١٣٩٧هـ، دار الرسالة - بغداد ص٢١٢/٢١٧·

(٣) - السيوطى، حسن المحاضرة، المرجع السابق حـ٢ ص٣٢٥

(٤) - السيوطى، حسن المحاضرة، المرجع السابق حـ٢ ص٣٢٨

(٥) - المرجع السابق حـ٢ ص٣٣٣

والثروة الحيوانية كثيرة ومتعددة الأنواع مما لا يتسع المقام لذكره فما ذكرناه هنا كان من قبيل التمثيل لا الحصر. وبهذا يتضح أن الثروة الحيوانية كانت لها أهميتها، كما كان لجميع الثروات الأخرى أهميتها فى الدولة العباسية.

ومن خلال العرض السابق يتضح أن الدولة العباسية فى المجال الزراعى بشتى أنواعه (محاصيل - فواكه - زهور - ثروة حيوانية)، استطاعت أن تحقق وفرة فى الانتاج ليس فحسب من أجل تحقيق الاكتفاء الذاتى فى كثير من أنواع الانتاج الزراعى، ولكن الأمر تعدى ذلك واستطاعت أن تحقق فائضا تصديريا من ناحية أخرى أدت هذه النهضة الزراعية مترامية الأطراف الى تشجيع قيام العديد من الصناعات التى استخدمت المواد الخام الزراعية كمدخلات لها وساعد ذلك على تحقيق نهضة صناعية فى ذاك الوقت ايضا وهو ما سيتضح فيما بعد عند الحديث عن الصناعة إن شاء الله.

المبحث الثالث

السياسات الزراعية ودورها فى تطور النشاط الاقتصادى

السياسات الزراعية هى جزء من السياسات العامة للدولة(١) وقد عرفت السياسات الزراعية بتعاريف كثيرة منها :

١ - الاجراءات العملية التى تقوم بها الدولة والتى تتضمن مجموعة منتقاة من الوسائل الاصلاحية الزراعية المناسبة، والتى يمكن بموجبها توفير اكبر قسط من الرفاهية للمشتغلين بالزراعة عن طريق زيادة انتاجهم، وتحسين نوعيته وضمان استمراره.(٢)

وعرفها باحث آخر(٣) بأنها : مجموعة الخطط والبرامج والاجراءات التى تستهدف تحقيق اكبر قدر من الرفاهية الاقتصادية للمجتمع الزراعى وللمجتمع عامة عن طريق زيادة الانتاج وعدالة التوزيع. واذا اردنا تعريفها اسلاميا فنقول أن السياسات الزراعية فى الاسلام هى عبارة عن : مجموعة الاجراءات التى تتخذها الدولة بقصد التأثير فى الحياة الاقتصادية الزراعية(٤)، وفق قواعد الشريعة ومقاصدها العامة وذلك بغية تحقيق الاستقرار الاقتصادى وعدالة التوزيع للفرد والجماعة.

ومن هنا يتضح لنا الفارق الواضح بين مفهوم السياسة الزراعية فى النظام الوضعى، ومفهومها فى الاسلام، فالسياسة الزراعية فىالنظام الوضعى تهدف الى الرفاهية الاقتصادية والاجتماعية. أما فى النظام الاسلامى فانها تهدف الى زيادة الانتاج، واشباع الحاجات الاساسية للافراد مع تحقيق مصلحة

---

(١) - السياسات العامة للدولة هى عبارة عن مجموعة من الوسائل والاجراءات التى تتخذها الدولة بغية التأثير فى الحياة الاقتصادية.

(٢) - عبدالوهاب مطر الداهرى، الاقتصاد الزراعى، دار المعرفة، الطبعة الأولى عام ١٩٨٠م ص٣٥٢

(٣) - أمين منتصر وآخرون، المعارف الاساسية، العلم الاقتصاد الزراعى نقلا عن /خلف النمرى، التنمية الزراعية، المرجع السابق حـ١ ص٣١٣/٣١٥

(٤) - د/محمد عبدالمنعم عفر، الاقتصاد الاسلامى - الاقتصاد الكلى، المرجع السابق حـ٤ ص٣٠١

المجتمع وعدالة التوزيع وذلك فى اطار قواعد الشريعة وضوابطها العامة، وبحيث لا تؤدى الى التضحية بالمصلحة العامة من أجل المصلحة الخاصة أو التضحية بالمصلحة الخاصة فى سبيل العامة إلا فى حالات الضرورة التى تستوجب ذلك، وبالتالى يجب التوفيق بين المصلحتين، الأمر الذى يجعل المفهوم الاسلامى للسياسة الزراعية اشمل واعظم أثرا على الفرد والجماعة.

وبعد أن أنتهينا من بيان ماهية السياسة الزراعية من الناحية الوضعية والاسلامية اود أن أشير الى أهم السياسات الزراعية التى اتبعت فى الدولة العباسية الأولى لكنه قبل ذلك لابد أن نشير بايجاز الى أهم السياسات الزراعية التى اتبعت فى العصر الأموى وذلك ليتضح لنا مدى التطور فى هذا المجال.

أهم السياسات الزراعية فى الدولة العباسية الأولى

مقدمة :

من أهم السياسات الزراعية التى اتبعت فى عهد الدولة الأموية سياسة اصلاح الأراضى وتنمية الموارد مثل حفر الأنهار والآبار وصيانتها، واصلاح الطرق وتأمينها.(١) واستخراج العيون فى كل الأقاليم، وكذلك اصلاح الأراضى الزراعية، فقد تم استصلاح البطائح بالعراق فى عهد معاوية - رضى الله عنه - حتى بلغ غلة ما استصلحه خمسة آلاف الف درهم.(٢) وسهلت الدولة طرق الاستثمار الزراعى وجعلت لذلك الحوافز لعمارة الأرض كالاقطاع وغيره.(٣)

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٥٥/٣٥٦

(٢) - المرجع السابق حـ٢ ص٣٥٩/٣٦٠، الخضرى، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص١٦٧/١٦٨

(٣) - البلاذرى،فتوح البلدان، المرجع السابق حـ١ ص١٧٥

كما اهتمت الدولة الأموية بسياسة تنمية الثروة الحيوانية وقامت بنقل الحيوانات المنتجة من اماكن تكاثرها الى أماكن تقل فيها ومن ذلك الجواميس فقد نقلت من أرض السند الى أرض العراق، وقد اعتنت بها ومنعت احيانا ذبحها استكثارا وابقاء لها لاستخدامها فى الزراعة والانتاج. فقد روى أن الحجاج منع أهل السواد من ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة فقال الشاعر :

شكونا اليه خراب السواد * فحرم جهلا لحوم البقر.(١)

وبعد أن انتهينا من هذه الاشارة السريعة - الموجزة لأهم السياسات فى العصر الأموى نحاول أن نبين أهم السياسات الزراعية فى العصر العباسى الأول وكيف أنها أثرت فى نمو النشاط الزراعى وتطوره.

شهد النشاط الزراعي فى العصر العباسى الأول سياسات كثيرة متنوعة ومتعددة ساهمت الى حد كبير فى تطور النشاط الزراعى فى الدولة العباسية، وفيما يلى عرض لأهم هذه السياسات بشىء من التفصيل :

أولا : سياسة تنمية الموارد الزراعية وتطبيقاتها فى الدولة العباسية

وتعنى سياسة تنمية الموارد الزراعية، استصلاح الأراضى القابلة للزراعة، وتنمية الموارد المائية والموارد البشرية لها.

ولتطبيق ذلك تقوم الدولة بحصر الأرض القابلة للزراعة ومن ثم توزيعها وفق خطة قومية باقطاعها على المزارعين القادرين على زراعتها وذلك للتوسع فى الحيازات الزراعية، كما تقوم الدولة بمتابعة ذلك باستمرار خلال الفترة التى حددها الامام لاحياء الأرض وتعميرها وعدم تعطيلها حتى لا يؤثر عدم زراعتها على كمية الانتاج أو تتعرض للخراب والاهمال.(٢)

---

(١) - ابن خردادبة ، المسالك والممالك، مكتبة المثنى بغداد ص١٥، محمد ضياء الدين الريس، الخراج، المرجع السابق ص٢٢٠، ابن خردادبة، المسالك والممالك، المرجع السابق ص١٥

(٢) - خلف النمرى، التنمية الزراعية، المرجع السابق حـ١ ص٢٩٢

وتشير المصادر التاريخية الى أن الدولة العباسية قامت بحصر الاراضى الزراعية من بداية عهدها الأول فقد قام السفاح بمسح الأرض الزراعية، كما قام بتوزيع بعض منها فى عهده.(١) وقام المنصور بارسال عماله الى الشام لكى يميزوا بين أنواع الأراضى، والنظر فى وظائفها، واعادة تقويمها بواسطة المعدلين.(٢)

وقد نصح أبو يوسف هارون الرشيد بتعمير الأرض واستصلاحها والنظر فى خرابها بالتعمير بالاقطاع والاحياء يقول أبو يوسف رحمه الله «لا أرى أن تترك أرضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك أعمر للبلاد».(٣)

وقال ايضا : «انظر الخراب...واصلحه حتى يعمر»(٤) بل يطالبه فيما بعد بما يشبه اعداد خطة قومية لتحقيق التنمية الاقتصادية، فيقول : «ورأيت أن تأمر عمال الخراج إذا أتاهم قوم من أهل خراجهم، فذكروا لهم أن فى بلادهم انهارا عادية، وأرضين كثيرة غامرة، وأنهم أن استخرجوا لهم تلك الأنهار واحتفروها واجرى الماء فيها عمرت هذه الأرضون الغامرة...كتب بذلك اليك فأمرت رجلا من أهل الخير والصلاح يوثق بدينه وامانته فتوجهه فى ذلك حتى ينظر فيه ويسأل عنه أهل ذلك البلد ممن له بصيرة ومعرفة...فاذا اجتمعوا على أن فى ذلك صلاحا وزيادة فى الخراج أمرت بحفر تلك الأنهار، وجعلت النفقة من بيت المال ولا تحمل النفقة على أهل البلد، فانهم ان يعمروا خير من أن يخربوا وأن يفروا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا».(٥)

---

(١) - حسن خليفة، الدولة العباسية، المرجع السابق ص٢٩٢

(٢) - ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، المرجع السابق حـ١ ص٥٩٦

(٣) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٦٦

(٤) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٩٣

(٥) - المرجع السابق ص١١٨/١١٩، يفروا من الوفرة وفى نسخة اخرى يقدروا.

أما بالنسبة لتنمية الموارد المائية فان الدولة العباسية - كما سبق - اهتمت اهتماما بالغا بالمياه فأقامت السدود والقنوات والآبار وما شاكلها من وسائل الرى، واستقدمت من أهل الخبرة من المهندسين للمياه والسدود والمساحة لوضع تصاميم القنوات والسدود وغيرها مما تحتاجه المياه. كما أن الدولة تحملت نفقات الرى بما فيها انشاء شبكات المياه والتصريف وبناء السدود وتقوية الضفاف ويظهر ذلك من خلال نصيحة الوزير معاوية بن يسار للخليفة المهدى بضرورة تحمل الدولة ذلك.(١)

كذلك اهتمت الدولة العباسية بالموارد البشرية، ذلك لأن الانسان عامل اساسى فى التنمية الزراعية، إذ ان علاقة الانسان بالتنمية - بشكل عام - علاقة لا تنفك، علاقة بين الشىء ونفسه، فالانسان هو صانعها، والقائم بها، وهو فى نفس الوقت الهدف منها، فهو الوسيلة والغاية السبب والتنمية.(٢) ولذلك فان تنمية الموارد البشرية شىء مهم جدا فى التشريع الاسلامى، وقد اهتمت به الدولة العباسية، فاستقدمت المهندسين ذوى الخبرة والكفاءة العالية، وبالتالى كان لذلك أثره على اكساب عمال الدولة الخبرة وتنمية مواهبهم.

ويعتبر نظام احياء الأرض الموات سياسة اصلاحية لعمارة الاراضى الميتة قال عليه الصلاة والسلام : «من أحيا ارضا ميتة فهى له»(٣)، وكل ارض ليست لأحد فيها ملك واحياها فرد بأى كيفية للاحياء فهى له امتثالا لقول الرسول ﷺ السابق. كما أن نظام اقطاع الاراضى، ومنحها لمن يقدر على استغلالها واستثمارها يعتبر من أهم السياسات التنموية فى اصلاح الارض الزراعية الذى أخذ قسطا أوفر من اهتمام الدولة وازداد نشاطها فى هذا الاتجاه.

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص١٠٥/١٠٦، حسام الدين السامرائى، دراسات فى الاقتصاد الزراعى ص٣٦٢

(٢) - يوسف ابراهيم يوسف، استراتيجية وتكنيك التنمية، المرجع السابق ص٢٤٤.

(٣) - رواه البخارى، ابن حجر، فتح البارى، المرجع السابق جـ٥ ص١٨

ومن السياسات التى اتخذت وكان من شأنها تنمية الموارد ايضا ما يلى :-

أ - التخفيف من الاعباء المالية على المزارعين، وقد كان لهذا التحقيق تطبيقات كثيرة منها ما قام به المنصور من الغاء الخراج النقدى على الحنطة وأحل محله نظام (المقاسمة) وهو دفع الخراج عينا بنسبة خاصة من المحصول، وابقى النظام النقدى على النخيل والفواكه ونحوها ثم رفع بعد المنصور والمهدى فعدل عن تقديرها حسب المساحة فكان يؤخذ من النخيل والكروم قيمة الثلثا أو النصف حسب انتاج غرسه وقربه من الاسواق. وبذلك يتضح ان نظام جباية الخراج اتخذ شكلا من المرونة فى العصر محل الدراسة حيث كان فى عهد المنصور عينا ثم رفع بعده فى عهد الرشيد فيما يتعلق بالنخيل والكروم وما شاكلهما فكان يؤخذ قيمة الثلث أو النصف، وكان المنصور يفرض الخراج على الزراع تبعا لحالة الأرض فاذا كانت ممتازة الخصب ولا تحتاج الى عمل كثير، جعل خراجها النصف وإلا فالربع أو الخمس، أو دون ذلك على حسب جودة الأرض وخصوبتها.(١)

ب - وفى عهد الرشيد خففت المقاسمة فكانت على الأراضى التى تسقى سيحا الخمسين وعلى التى تسقى بالدوالى خمس ونصف، وأما النخل والكرم والرطاب والبساتين فعلى الثلث وأما غلال الصيف فالربع...وتكون المقاسمات فى ذلك فى اثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لا يكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر.(٢)

جـ - وفى عهد المأمون خفض خراج الأرض مرة أخرى، فأصبح يجبى الخمسان بدلا من النصف، حتى على أكثر الأرض انتاجا.

ولهذا فان التحول من نظام خراج الوظيفة الى خراج المقاسمة كان نتيجة لوقوع الظلم على أصحاب الأرض، فوجدت الدولة العباسية أنه من

---

(١) - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، المرجع السابق جـ٢ ص٣٠٥ ص٣٠٦

(٢) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٥٤

الأحسن التحول الى نظام المقاسمة لأنه يحقق العدالة ويخفف من العبء المالى عليهم ولاشك أن فى مثل هذا التخفيف ما يدفع المزارع على التنمية الزراعية بشكل عام.

ومن سياسات التخفيف من العبء المالى ايضا أن الدولة فى بعض الأحيان كانت تقوم بتقسيط الخراج على أهله تخفيفا عنهم فتذكر المصادر التاريخية أن المهدى ارسل خالد الى فارس عاملا عليها فاستخلف خالد ابنه يحيى فقسط الخراج على أهله ووضع عنهم خراج الشجر، وكانوا يلزمون له خراجا ثقيلا.(١)

د - كما يلاحظ أن اساليب السياسة الزراعية فى هذا العهد اعفت بعض البقول والخضر مثل القثاء والبطيخ والخيار والقرع والباذنجان والرياحين، وما اشبه ذلك مما لا يبقى فى ايدى الناس وقد أدت هذه السياسة الى وفرة محصولات هذه البقول والخضر ورخص اسعارها.

قال أبو يوسف : «ولست أرى العشر إلا على ما يبقى فى أيدى الناس، وليس على الخضر التى لا بقاء لها ولا على الاعلاف ولا على الحطب عشر، والذى لا يبقى فى أيدى الناس هو مثل البطيخ والقثاء والخيار والقرع والباذنجان والجزر والبقول والرياحين واشباه هذا فليس فى هذا عشر».(٢) وقال ايضا « وكذا العسل الذى يستخرج من الكهوف فلا شىء فيه وهو بمنزلة الثمار تكون فى الجبال والاودية لا خراج عليها ولا عشر».(٣) «وليس فى القصب ولا فى الحطب، ولا فى الحشيش ولا فى التبن، ولا فى السعف عشر ولا خمس ولا خراج».(٤)

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص١٥١

(٢) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٥٦

(٣) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٧٦

(٤) - المرجع السابق ص٧٧

ويلاحظ - مما سبق - أن أبا يوسف قد رجح مذهبا آخر غير المذهب السائد حيث أن أباحنيفة كان يرى أن الزكاة تجب فى كل ما أخرجت الأرض مما يقصد بزراعته نماء الأرض وتستغل به عادة، واستثنى من ذلك الحطب والحشيش والقصب الفارسى لأنها مما لا يستنبته الناس فى العادة أما ما استنبته الناس فيجب فيه الزكاة.(١)

وقد رجح أحد الباحثين المعاصرين(٢) رأى أبى حنيفة حيث قال أنه الموافق لحكمه التشريع الاسلامى فى الزكاة إذ ليس من الحكمة - فيما يبدو له - أن يفرض الشارع الزكاة على زارع الشعير والقمح ويعفى صاحب البساتين من البرتقال أو «المانجو» أو التفاح أو غيرها والتى ربما يكون دخلها اكثر بكثير فى بعض الاحيان الاقوات المختلفة.

ومن كل ما تقدم يتضح أن التطور الاقتصادى فى مجال السياسات الزراعية فى العصر العباسى الأول يتحدد فى النقاط التالية :

١ - تخفيف العبء المالى على المزارعين اذا كانت لمصلحة شرعية وفى أمر ليس منصوصا عليه.

٢ - مخالفة المذهب الفقهى السائد طالما فى ذلك مصلحة شرعية بشرط أن يتفق ذلك مع النصوص ومقاصد الشريعة وضوابطها العامة.

٣ - مرونة نظام جباية الخراج حيث كان يتغير من نظام المساحة الى نظام المقاسمة أو بالعكس ومن النوع الى النقد تبعا لما تمليه المصلحة الزراعية والشرعية وتحقيق العدالة لابناء الأمة.

وبهذا يتضح أن سياسة تنمية الموارد الزراعية فى الدولة العباسية كانت موجودة وكان العمل بها قائما، وكانت لها دور عظيم فى المجال الزراعى حيث أدت الى استصلاح كثير من الاراضى عن طريق الاحياء والاقطاع، كما كان لتخفيف العبء المالى على المزارعين آثاره العظيمة على زيادة المحاصيل

---

(١) - الكاسانى، بدائع الصنائع، المرجع السابق حـ٢ ص٩٢٥

(٢) - يوسف القرضاوى، فقه الزكاة، المرجع السابق حـ١ ص٣٤٩/٣٥٩

المختلفة، وخاصة الضرورية منها كالقمح والشعير وغيرها، وقد عزا البعض(١) اسباب تضخم موارد الخراج فى عهد المنصور - مثلا - الى النقاط التالية :

١ - زيادة مساحة الاراضى الزراعية

٢ - اهتمام المنصور نفسه بالزراعة وتشجيعها، وحسن سياسته مع الفلاحين، وحرية العمل للعرب وغير العرب وتوفر الأمن فى سائر انحاء الدولة، مما دفع الناس الى استغلال الأرض وزراعتها.

٣ - معالجته لمشكلات الخراج بنفسه، والتوسط فى نسبته.

٤ - خصوبة الأرض، وسخاؤها بالغلة مع ما كانت تقوم به الدولة من توفير وسائل الرى ونحو ذلك مما جعل خراج الدولة وافيا الى حد بعيد.

ثانيا : سياسة تمويل التنمية الزراعية وتطبيقاتها فى العصر العباسى الأول :

وتعنى سياسة تمويل التنمية الزراعية التى تتخذها الحكومة : هو توفير الأموال اللازمة للمشروعات الزراعية من اصلاح للاراضى وتوفير للخدمات الزراعية ومستلزمات الانتاج المختلفة.(٢)

وتعتبر سياسة تمويل التنمية الزراعية ذات أهمية كبيرة فى النشاط الاقتصادى نظرا لتأثيرها المباشر على القطاع الزراعى، ذلك لأنها تؤثر من حيث الأداء على الانتاجية والنمو والاستقرار فى الانتاج الزراعى(٣)، ومن ثم النشاط الاقتصادى بصفة عامة.

وقد أولت الدولة العباسية اهتماما كبيرا بالزراعة وتمويلها، حيث أدرك المسؤلون من رجال الدولة العلاقة الوثيقة بين الانتاج الزراعى من ناحية، وموارد وواردات الدولة المالية من ناحية أخرى، وان كل تحسن يطرأ على النشاط الزراعى، ينعكس أثره على الخراج.(٤)

---

(١) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٢ ص٧٣

(٢) - خلف النمرى، السياسات الزراعية، المرجع السابق حـ١ ص٢٩٤

(٣) - غانم الخالدى، السياسة الزراعية فى الوطن العربى، مجلس الوحدة الاقتصادية العربية - عمان ١٩٨٦م ص٣٦

(٤) - حسام الدين السامرائى، دراسات فى الاقتصاد الزراعى، المرجع السابق ص٣٦١، التنوخى، نشوار المحاضرة، المرجع السابق حـ٨ ص٨٩

من أجل ذلك اتخذ خلفاء الدولة العباسية عدة سياسات تتعلق بتمويل التنمية الزراعية منها ما يتعلق بصيانة المرافق الزراعية ومنها ما يختص بالاعانات والمساعدات المالية اللازمة لمواجهة الكوارث المختلفة، وهو ما سنعرضه بايجاز :

١ - صيانة المرافق الزراعية والمحافظة عليها :

المتتبع للواقع التاريخى للدولة العباسية يتبين له اهتمام الخلفاء العباسيين بالزراعة ووسائلها، ووسائل النهوض بها، وقد أخذت هذه السياسة اشكالا مختلفة مثل الاهتمام بمشروعات الرى كحفر الانهار والقنوات واقامة السدود وجلب المتخصصين من أهل الخبرة فى وسائل الرى والمساحة وغيرها -.

وإذا تتبعنا الوقائع التاريخية فى ذلك وجدنا نماذج تؤكد ما ذكرنا فى هذا المجال منها ما قام به المهدى من حفر نهر الصلة من أعمال واسط فحفر وأحيى ما عليه من الأراضين وجعلت غلته لصلات أهل الحرمين.(١)

كما زودنا الجهشيارى بمعلومات مفصلة بخصوص انشاء نهر القاطول، وانشاء قنوات توصيلية جديدة على عهد هارون الرشيد حيث بلغت كلفته عشرين مليونا من الدراهم وقد تحمل نفقتها بيت المال.(٢)

وكانت الطريقة المتبعة فى الانفاق على مثل هذه المشروعات هو أن تتحمل الدولة تغطية نفقات الحفر والصيانة، كما كان ذلك هو رأى بعض الفقهاء الذين يثق فيهم خلفاء الدولة العباسية كأبى يوسف - رحمه الله - حيث كان يرى أن نفقات الرى من المسئوليات المنوطة بالدولة، وأن مسئولية الدولة لا تقتصر على دجلة والفرات فقط، وانما تشمل المشاركة فى انشاء

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٥٧

(٢) - الجهشيارى، الوزراء والكتاب، المرجع السابق ص١٧٧، البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٦٤

قنوات الأرواء الرئيسية، قال أبو يوسف : «وعلى الامام كرى النهر الأعظم الذى لعامة المسلمين ان احتاج الى كرى»·(١)

وكان يرى ايضا أن نفقات القنوات ينبغى أن يتحملها بيت المال والفلاحون المستفيدون منها مناصفة بينهما، أما القنوات الفرعية التى تسقى المزارع والبساتين المملوكة لاناس معينين فان جميع النفقات تقع على عاتق اصحاب الارض·(٢) قال أبو يوسف : «وسألت عن نهر بين قوم خاصة يأخذ من دجلة أو الفرات ارادوا أن يكروه أو يحفروه فكيف الحفر عليهم فانهم يجتمعون جميعا فيكرونه من اعلاه الى أسفله فكلما جازوا أرض رجل رفع عنه الكرى، وكرى بقيتهم»·(٣)

ومن الأمثلة على ذلك ايضا أن الدولة كانت تستقدم أهل الخبرة فى مجال صيانة المرافق ووضع التصاميم الهندسية لها، فذكر أن المعتصم قد جلب من الصين عددا من (مهندسى الرى) وكان ديوان الخراج هو الذى يقوم بالاشراف على الارواء وادامة وسائل الرى والسدود وما شاكلها· وقد احتاجت متطلبات التنمية الزراعية الى وجود بعض المساحين لوضع التصاميم لحفر القنوات الجديدة فاستقدم عددا منهم لذلك، كما أن استمرار التنمية وتأديتها لمهمتها تقتضى أن يسود الوئام بين الفلاحين خصوصا إذا كانوا مشتركين فى السقى من نهر خاص بهم من اجل ذلك حرص الخلفاء أن تكون هناك جهات اختصاص لفض المنازعات الزراعية التى قد تنشب نتيجة المياه أو غيرها وبالطبع أدى ذلك كله الى أن الدولة احتاجت الى المال الكثير لدعم النشاط الزراعى والنهوض به·

وقد انفقت الدولة العباسية الكثير على هذه المشروعات وتلك المتطلبات، وتحملت كافة تكاليف تمويلها وخاصة تلك النفقات التى ليست من طاقة الافراد تحملها ثم لادراك الخلفاء ايضا بأن ذلك ينعكس ايجابا على النشاط الاقتصادى بصفة عامة، وعلى التنمية الزراعية بصفة خاصة·

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص١٠٥/١٠٦

(٢) - · حسام الدين السامرائى، دراسات فى الاقتصاد الزراعى، المرجع السابق ص٣٦٢

(٣) - المرجع السابق ص١٠٢

٢ - تقديم الاعانات والمساعدات المالية فى حالات الكوارث المختلفة :

ومن السياسات التى اتخذت فى عصر الدولة العباسبة الأولى ايضا تقديم الاعانات والمساعدات وكانت هذه الاعانات والمساعدات اما نقدية كتلك المساهمات التى قدمتها الدولة فى المشروعات العامة من صيانة الانهار وتطهيرها واصلاح ضفافها واقامة سدودها٠٠٠الخ واما عينية كتقديم البذور والمواشى والحيوانات المساعدة فى الزراعة ومن ذلك ما كانت تقدمه من مساعدات مالية للمتضررين من الكوارث والجوائح المختلفة، فكانت الدولة تبادر بالمساعدات المادية حتى لا ينصرف الناس عن الزراعة والعمل فى الأرض وكمثال على ذلك ما قدمه المعتصم كاعانات لعدد من المزارعين الذين تلفت مزارعهم وقدر ذلك المبلغ بـ ٠٠٠ر٠٠٠ره درهم٠(١) وعوض الواثق منازل الكرخ والتى قام بها حريق دمرها بمبلغ ٠٠٠ر٠٠٠ر١ درهم٠(٢)

وكانت سياسة الدولة العباسية ان الدولة تتحمل كافة ما يصيب المزروعات، وما يقع من اضرار قد تنجم عن الفيضانات حينا أو نقص المياه حينا آخر أو غيرها من الكوارث فان اصلاحها كان على عاتق بيت مال المسلمين، ويسرى ذلك ايضا على البثوق والمسنيات والبريدات التى تكون من دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام ، فان النفقة على هذا كله كانت من بيت المال٠(٣)

---

(١) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد ، المرجع السابق حـ٤ ص١٤٩

(٢) - وكيع، اخبار القضاة، المرجع السابق حـ١ ص١٣٩٨

(٣) - الرحبى، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج، بتحقيق أحمد الكبيسى، مطبعة الارشاد بغداد عام ١٩٧٥م حـ٢ ص٢٦٠

والثبوق : جمع بثق كفلس وفلوس، وهو الخرق الذى يخرقه الماء من جلب النهر٠

المسنيات : جمع مسناة، وهو ما يبنى على جانب النهر ليمنع الماء٠

البريدات : كلمة فارسية معناها مفاتيح المياه والبريدات هى البستات بالفارسية، والبست قياس تصالح عليه أهل مرو وهو مخرج للماء من ثقب طوله شعيرة وعرضه شعيرة، انظر الخوارزمى، مفاتيح العلوم، المرجع السابق ص٤٥، السيدادى شير، معجم الالفاظ الفارسية المعربة، المرجع السابق ص٢٢

قلت وهذا تطور هام فى مجال صيانة مجارى المياه من ناحية والتحكم فى كميتها من ناحية أخرى وهو يشبه ما هو موجود فى وقتنا المعاصر حيث توضع على بعض الترع ابواب ومنافذ للمياه للتحكم فى نسبها والكمية المرسلة من الماء لكل بلد٠

وتقديم هذه الاعانات والتعويضات النقدية والعينية للمزارعين يؤكد على أن الدولة العباسية، كانت تنهض كلما احتاج الأمر الى الأخذ بسياسة تمويل التنمية الزراعية بالوسائل المختلفة والتى اشرنا الى بعض منها، ولاشك أن تحمل الدولة لذلك يعطى المزارع دافعا معنويا وماديا للعملية الانتاجية فاذا ما استشعر بالأمن والطمأنينة ضد المخاطر المختلفة، فانه سينهض بالعمليات الاستثمارية المختلفة الزراعية والتجارية وغيرها، ومن ثم ينعكس ذلك على مستوى الانتاج، وهو ما يلمس من خلال درستنا للعصر العباسى الأول.

ثالثا : سياسة التسعير عند الحاجة :

ومن السياسات التى اتبعت ابان الدولة العباسية ايضا التأثير فى الاسعار، بل وحتى السيطرة عليها فى بعض الأحيان وخاصة فى أوقات الكوارث كحدوث فيضانات أو قلة المياه، أو حالات التمرد السياسى أو غيرها من الأزمات التى قد ينتج عنها عرقلة الطرق التجارية، أو تهديد سلامة التجار والبضائع على حد سواء، مما ينتج عنه ارتفاع فى الاسعار، وقد يكون هناك اضطراب فى الانتاج الزراعى بالزيادة أو النقص، فتقوم الدولة بالتدخل لحماية الاسواق من جشع التجار ومحاولة الموازنة بين العرض والطلب من المنتج الزراعى.

وقد تحدثت المصادر التاريخية أنه فى كثير من الاحيان كانت تتدخل الحكومة للتأثير على حالات ارتفاع الاسعار بوسائل مختلفة، كدخول الحكومة كمنافس فى اسواق المنتجات الزراعية، وبشكل خاص ما يتعلق منها بالسلع الضرورية كالحنطة والشعير فتقوم بانزال كميات كبيرة من الحبوب المخزونة فى مخازن الدولة للتأثير عن طريقها على معدلات الاسعار.

وبهذه الطريقة تمكنت السلطة من التحكم فى مستويات معتدلة ومعقولة لاسعار هذه المنتجات فى الأسواق ولم يعد بامكان المحتكرين من التجار التأثير فى رفع مستويات الاسعار فانهم ان قاموا بذلك تدخلت الدولة فرضت

مخزوناتها بأسعار مخفضة مما يضطر التجار الى مجارات اسعار الحكومة بل وحتى التنافس معها بتخفيض اسعارهم، قليلا عن اسعارها للحصول على الارباح عن طريق بيع سلعتهم الى المستهلكين، كما تشر الوقائع الى أن الدولة فى حالات تأثر اسعار المنتجات كانت تسعى لحماية بيت المال بالدرجة الأولى بحيث يصبح وضع بيت المال فى وضع جيد.(١)

وقد حفظ لنا الدمشقى فى كتابه الاشارة الى محاسن التجارة نص رسالة الخطاب الذى بعثه الخليفة المأمون الى متولى ديوان الخراج أحمد بن يوسف الكاتب تضمنت الاشارة الى الموسم الزراعى الممتاز والحاصل الغزير الناجم عن الحصاد، كما تضمنت الاشارة الى الخسارة المتوقعة مما ينجم عن هذا الانتاج الكثير، ولذلك أصدر الخليفة المأمون أمره الى متولى ديوان الخراج هذا بأن يعمم أمرا الى جميع عمال الخراج فى الدولة بأن يبادروا ببيع ما فى عهدتهم من مخزون الحبوب فى مخازن ديوان الخراج فى الاقاليم(٢).

ويرى بعض الباحثين(٣) : بأن هذا الأمر ينبغى أن يفهم على أساس النظر فى مصلحة بيت المال بشكل مباشر دون النظر فى مصلحة المزارعين إذ أنه يعبر عن عدم ادراك الاضرار الكبيرة التى سيلحقها مثل هذا الاجراء لمصالحهم حيث أن مخازن الديوان تحتوى على كميات كبيرة من أغلب منتوجات الحبوب التى يحتاجها المستهلكون، ويتركز عليها الطلب فى الاسواق. الأمر الذى يؤدى دون أدنى شك الى اغراق الاسواق بهذه السلع وتدهور الاسعار بشكل حاد نتيجة لذلك، وهو بدوره يؤدى الى عرقلة المنافسة بين المنتجين والتجار الذين لم يعد بامكانهم شراء كميات اضافية من الانتاج - هى فى الواقع كميات الانتاج للموسم الجديد - أن العبء الأكبر من الآثار السيئة لكل ذلك يقع بشكل مضنى على كواهل المنتجين الزراعين».(٤)

---

(١) - حسام الدين السامرائى، دراسات فى الاقتصاد الزراعى، مجلة البحث العلمى جـ٥ ص٣٧٢

(٢) - الدمشقى، الاشارة الى محاسن التجارة، المرجع السابق ص٤٨/٤٩

(٣) - حسام الدين السامرائى، دراسات فى الاقتصاد الزراعى، المرجع السابق ص٣٧٢

(٤) - حسام الدين السامرائى، دراسات فى الاقتصاد الزراعى، مجلة البحث العلمى، العدد الخامس ص٣٧٢

ويمكن تفسير هذه الواقعة بأن المأمون قد تصرف فى ذلك بما رآه مناسبا لمصلحة الأمة، إذ ان التصرف فى مثل هذه الكميات الكبيرة المخزونة لدى الحكومة يعتبر من قبيل المصلحة العامة، والقاعدة أن ولى الأمر عليه أن يقدم المصلحة العامة على المصالح الخاصة اذا لم يستطع التوفيق بينهما، ولاشك أن بقاء هذا المخزون الكبير قد يؤدى الى خسائر فادحة فى جانب الحكومة تؤثر بالتأكيد على اقتصاد الدولة، إذا ما ظلت بالمخازن حتى يأتى المحصول الجديد اذ من المعلوم انه قبل جنى المحصول الجديد تكن هناك ندرة فيه يترتب عليها ارتفاع الاسعار، فاذا ما استشعر المأمون غزارة المنتوج الجديد فيطرح كميات كثيرة من المخزون القديم فانه بلا شك يكون قد تصرف تصرفا غاية فى الحنكة، ويدل على دراية كاملة بالأوضاع الاقتصادية، إذ أنه حينما يطرح كميات كبيرة من المخزون فانه يقطع بذلك الطريق على الارتفاع فى الاسعار من ناحية ومن ناحية أخرى فانه يحافظ على المنتج الجديد من أن يتراكم مع المنتج القديم فتحدث بذلك وفرة فى المحصول القديم والجديد معا مما قد يترتب عليه تلف جزء كبير منها وحدوث تدهور فى اسعارها معا.

لذا فانه فى مثل هذا التصرف لا يمكن أن نحمله باطلاق على أنه عدم اعتبار لمصلحة المزارعين والتجار، وخاصة اذا ما علم أن المأمون قد تصرف هذا التصرف عندما علم بأن المحصول غزير فى هذا العام - كما جاء فى نص الرسالة -. ومن المعلوم أن ذلك لا يعرف إلا قبل الحصاد وبفترة يمكن أن تكون فرصة لاستهلاك كميات من المنتج القديم وفرصة ايضا للتخفيف من حدة تدهور الاسعار.

فتصرف المأمون من وجهة نظر الباحث يعتبر سليما على أنه يجب على الامام فى مثل هذه الحالات أن يراعى الظروف العامة والخاصة وأن يحاول التوفيق بينهما بما يملك من تصور لحال الدولة وظروفها وأوضاعها وحال الناس ايضا، كما يجب أن يكون اتخاذ القرار فى مثل هذه الأمور مصحوبا باستشارة أهل الخبرة والحل والعقد من الأمة حتى يخفف وقوع الضرر بالفرد والجماعة والله أعلم.

الفصــــل الثانـى

اقتصاديات الصناعة والحرف وتطورها فى العصر العباسى الأول

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : هيكل العمالة وتنظيمات العمل ٠

المبحث الثانى : أهم الصناعات والحرف فـى العصر العباسـى الأول ومراحل تطورها وأهمية ذلـك فـى النشـاط الاقتصادى ٠

المبحث الثالث : أثر تطور الصناعة فى المجتمع العباسى ٠

المبحث الأول

هيكل العمالة وتنظيمات العمل

مقدمة :

اهتم العباسيون بالعمل والعمال وتنظيمات العمل المختلفة التى سادت إبان تلك الفترة، وسيتضح لنا هذا الأمر من خلال شرحنا لأهم التركيبات السكانية والمهنية للدولة العباسية ثم أهم الصناعات والحرف التى سادت فى هذا المجتمع وفيما يلى عرض لأهم التركيبات السكانية والمهنية لهذا المجتمع.

أولا : التركيب السكاني للمجتمع العباسي :

ان الدراسة لهذا المجتمع تؤكد وجود عناصر مختلفة وثقافات متنوعة سادت فى المجتمع العباسى - كما سبق أن أشرنا -، وقد كان لهذه العناصر وتلك الثقافات تأثيرها على هيكل العمالة وتنظيمات العمل، والتى انعكست بدورها على الحياة الاقتصادية للمجتمع، فقد كان يقطن المجتمع العباسى عناصر مختلفة من البشر منهم العربى والفارسى والتركى والزنجى، ومنهم احرار وعبيد، كما كان بالمجتمع ديانات مختلفة منهم المسلم والذمى - يهود ونصارى - ومجوس وغيرهم، وكل هذه العناصر افرزت فى المجتمع العباسي حضاراتها وثقافاتها، وكان لها أثرها ايضا على الحياة الاقتصادية بصفة عامة وفيما عرض لأهم هذه العناصر بايجاز :-

أ - العرب :

وطبيعى أن نبدأ بالعنصر العربى، فالعرب هم أصل هذه الدولة فالرسول أرسل من العرب والقرآن قد نزل بلغة العرب، وقد ظل العرب يحكمون الدولة الاسلامية منذ عهد الرسول ﷺ، فلما جاءت الدولة العباسية اعتمدت على العنصر الفارسي فى الحكم والسيطرة على مقاليد الدولة ولا عيب فى ذلك مادامت لا تقوم على عنصرية، إذ الشريعة الاسلامية لا تفرق بين عنصر وآخر مادام الحاكم مسلما ويحكم بكتاب الله عز وجل، وظل للعرب دورهم السياسي فى الدولة العباسية، وان كان قد اضمحل فى العصر العباسى شيئا ما.

وقد أهتم العباسيون بالعرب فى المجال الاقتصادى فاقطعوهم القطائع فى احياء بغداد وأرباضها(١)، فقد أهتم المنصور بهم وكان شديد العناية ببنى العباسي فأكرمهم بالعطايا، وجعل العديد منهم قوادا وحكاما للاقاليم.(٢)

كما أوصى ابنه المهدى بالعباسيين، وحثه على اظهار كرامتهم وأن يقدمهم ويكثر الاحسان اليهم، وأن يعظم أمرهم، وقد عمل المهدى بوصية أبيه، فرد فى سنة ١٦٠هـ على أهل بيته وغيرهم قطائعهم التى كانت قد قبض عليها، ثم أقطع بعضا منهم نهر الصلة ووقف عليهم غلته.(٣)

ويشير احصاء تم فى عهد المأمون الى تزايد عدد العباسيين، إذ بلغ عددهم فى سنة مائتين للهجرة ثلاثين الفا فى بغداد فحسب.(٤)

وقد كان للعرب أهمية كبيرة فى الدولة العباسية فقد انتشروا فى مختلف المدن العباسية، وكانوا دائما القوة السياسية المؤثرة والتى يحسب حسابها، نعم انهم كانوا كل شىء فى الدولة الأموية، لكنهم وان ضعف سلطانهم فى العهد العباسى إلا أنهم كانوا فى كل الأحوال قوة سياسية لا يستهان بها ويحسب حسابها.(٥)

أما عن نشاطهم الاقتصادى فقد كان طابعهم الميل الى البداوة والرعى كما كانوا يعملون فى الزراعة، وان كانت الزراعة بالنسبة لهم لم تمثل العمل الرئيسى، وقد كان لأهل اليمن خاصة السبق على غيرهم من أهل الجزيرة فى الزراعة، وهم حتى الآن على ما كانوا عليه من ميل اليها، لكن الغالب فى استغلال الأرض عند العرب أنهم كانوا يزرعونها بواسطة العبيد والاجراء وكراء الأرض وأهل الذمة والنبط وسكان الأرضين المفتوحة.(٦)

---

(١) - الارباض جمع ربض، وربض المدينة ما حولها من الاحياء، انظر الفيومى، المصباح المنير،المرجع السابق حـ١ ص٢٣٠

(٢) - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، المرجع السابق حـ٨ ص٨٤/٨٥

(٣) - المرجع السابق حـ٨ ص١٠٣/١٣٤/١٦٧

(٤) - الطبرى، المرجع السابق حـ٨ ص٥٤٥

(٥) - أحمد أمين، ظهر الاسلام،المرجع السابق حـ١ ص٥٧

(٦) - جواد على، المفصل فى تاريخ العرب، المرجع السابق حـ٧ ص٢٦/٢٨، والنبط : هم سكان العراق وأربابها، انظر لسان العرب، المرجع السابق حـ٧ ص٤١٢

وقد كانت لهم أنشطة تجارية ايضا، فقد كان منهم المتخصصون فى أنواع معينة من التجارات فهناك التاجر المختص ببيع الحبوب، بل وكان منهم من يختص بنوع معين منها كالحنطة مثلا فيقال له (حناط)٠(١) وقد يتخصص بعضهم ببيع وشراء (البز) فيقال له : (البزاز) وبعضهم يختص ببيع الزيت فيقال له : (الزيات)٠ وقد كان أهل مكة خبراء بالتجارة من قديم، وكانت لهم تجارات داخلية وخارجية، كما كانت لهم أصول وقواعد لتنمية الأموال وكيفية استثمارها واستغلالها٠(٢)

وقد تحدث القرآن الكريم عنهم وعن تجارتهم فى سورة قريش قال تعالى ﴿لايلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف٠٠٠﴾ السورة(٣)، وكانت رحلاتهم التجارية مستمرة حتى العصر العباسى، وقد تعددت أنشطتهم الاقتصادية الزراعية والتجارية، كما احترفوا ايضا بعض الحرف والصنائع كصناعة السيوف والدروع وغيرها مما سيأتى ذكره(٤)٠

وهكذا يتضح أن العرب كان لهم دورهم فى الحياة الاقتصادية فى الدولة العباسية، كما أثروا فى مختلف الأنشطة الاقتصادية التى سادت المجتمع العباسى آنذاك، وكانوا أحد العناصر السكانية الهامة فى المجتمع العباسى٠

ب - الفرس :

يتعبر الفرس من العناصر الهامة فى الدولة العباسية، إذ أن العباسيين قد اعتمدوا عليهم فى تأسيس دولتهم وتنظيمها وحمايتها، وبعد أن كان الأمويون

---

(١) - الزبيدى، تاج العروس، المرجع السابق جـ٢ ص١٢١٠

(٢) - جواد على، المفصل فى تاريخ العرب، المرجع السابق جـ٧ ص٢٢٩/٢٣٠، والبز الثياب والسلاح، والبزاز هو بائعها، انظر ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المرجع السابق جـ١ ص٥٤

(٣) - سورة قريش٠

(٤) - راجع ص٨٤٢ من هذا البحث٠

يعتمدون على العنصر العربى، فقد اسند الخلفاء العباسيون لهم المناصب المدنية والعسكرية، وظل الأمر كذلك حتى جاء المعتصم - وكانت أمه تركية - فاعتمد على الاتراك واتخذهم حراسا له، واسند اليهم مناصب الدولة المختلفة العسكرية والمدنية.(١)

على أنه يمكن القول أن العصر العباسى الأول اعتمد على العنصر الفارسى فى المرحلة الأولى من قيام الدولة العباسية الى نهاية عهد المأمون ثم بدأت المرحلة الثانية، وهى مرحلة الاعتماد على العنصر التركى، وهى من بداية عهد المعتصم. وكان لذلك أسباب مختلفة سنوضحها فيما بعد.(٢)

ومن الفرس كان (البرامكة) الذين كانوا أصحاب الكلمة العليا فى الدولة لفترة طويلة حتى عهد المعتصم، ثم جاء بعدهم (آل سهل) ومنهم الفضل والحسن ابنا سهل، وقد استوزر المأمون الحسن بن سهل(٣). ومن بعدهم (آل طاهر) الذين اطلقت أيديهم، فصاروا يحكمون حكما مستقلا لأهم الولايات «كرمان والرى وخراسان وما وراء النهر» بالاضافة الى شرطة بغداد وولايتها.(٤)

وبسبب هذا قيل إن دولة بني العباس غير عربية يقول الجاحظ : «دولة بنى العباس أعجمية خراسانية، ودولة بنى مروان عربية»(٥).

وقد كان للفرس دور كبير فى الحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول ذلك لأن العباسيين، قد استخدموهم فى جميع مصالح الدولة، والتى كان لها أثرها على الحياة الاقتصادية، فقد كانوا جنودا وقوادا وولاة ووزراء،

---

(١) - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المرجع السابق حـ٢ ص٣٨١

(٢) - انظر ص٢٧٦ من هذا البحث

(٣) - ابن الطقطقى، الفخرى، المرجع السابق ص٢٠٣

(٤) - الدورى، تاريخ العراق، المرجع السابق ص١١١

(٥) - الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للجمع، بيروت لبنان عام ١٩٦٨م حـ٣ ص٢٩٧

فولى الرشيد يحيى بن خالد البرمكى وزارة التفويض واطلق يده فى كل شىء، وتولى الفضل بن يحيى المشرق كله سنة ١٧٨هـ(١).

وتولى جعفر بن يحيى البريد ودور الضرب والطراز، ثم تولى على المغرب كله ١٨٦هـ(٢). وقد عاش الفرس حياة البذخ والترف، وكانت دور البرامكة لا تقل بهاء عن دور الخلافة نفسها حتى ذكر ان جعفر بن يحيى البرمكى انفق على بناء داره عشرين مليونا من الدراهم غير ما يحتاج اليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم ومالى ذلك من أسباب.

وقد جمعوا الأموال الطائلة وكانت من الأسباب الرئيسية لنكبتهم يقول المسعودي : «لما أفضت الخلافة الى الرشيد استوزر البرامكة فاحتازو الأموال دونه حتى كان يحتاج الى اليسير من المال فلا يقدر»(٣). مما جعل الرشيد يعجل بأخذ أموالهم، ويروى ذلك الطبرى فيقول «وأخذ الرشيد مالهم وضياعهم ومتاعهم، كما أخذ ما كان لرقيقهم ومواليهم وحشمهم من أموال»(٤).

وبناء على ما سبق فقد أثر الفرس فى الحياة الاقتصادية فى المجتمع العباسى الأول، وكان لهم دور بارز فى توجيه الأموال والسيطرة عليها، كما كان لهم دور ايضا فى مجال الأنشطة الاقتصادية الأخرى، الزراعية والتجارية والصناعية اذ بدخول الاسلام الى بلاد فارس واعتناقهم الاسلام انتقلت كثير من الصناعات والحرف ومختلف الخبرات الفارسية الى المجتمع الاسلامى وكانت ذات طابع فارسى خاص، فصبغت بعد ذلك بصفتين الفارسية والاسلامية فزادتا رونقا وجمالا على جمالها، وهو ما سيتضح لنا فيما بعد (٥) ان شاء الله تعالى.

---

(١) - ابن الطقطقى، الفخرى، المرجع السابق ص١٩٨، الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ص٨٩، المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٢ ص٢٨٢

(٢) - ابن الطقطقى، الفخرى، المرجع السابق ص١٧٩/١٨٠

(٣) - المسعودي، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٣ ص٣٧٧

(٤) - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، المرجع السابق حـ٨ ص٢٩٦

(٥) - انظر ص٢٧٦/٢٤١/٣٤٢من هذا البحث.

حـ الاتراك :

لما ظهر الاسلام وانتشر المسلمون فى انحاء العالم، ووطئت حوافر خيولهم بلاد الترك - وهى تلك البلاد التى تعرف ببلاد ما وراء النهر - ففتحوا بخارى وسمرقند وفرغانة واشروسنة وغيرها من بلاد تركستان فى أيام بني أمية، ولما تولى العباسيون الخلافة كانت تلك المدن خاضعة للمسلمين يؤدون عنها الجزية والخراج، وكانوا يحملون مع جملة الجزية أولادا من أهل تركستان من الرقيق، كما كانوا يأخذون بعضهم كسبايا حرب، وكانوا يسمونهم بالمماليك.

وكان الاتراك يومئذ يمتازون عن سائر الشعوب التى دانت للمسلمين بقوة البدن والشجاعة والمهارة فى الرمى، والصبر على الاسفار الشاقة فوق ظهور الخيل، والثبات فى ساحة الوغى(١)، وأول من استخدم الاتراك فى الجندية من الخلفاء «المنصور» ولكنهم يومئذ كانوا قلة وكان الشأن الاكبر للفرس والعرب.

ويبدو أن المأمون هو الذى استكثر من جلب العناصر التركية فكان يسترضيهم ويفرض لمن يرغب فى الديوان منهم، ويأتى قبول الاتراك فى الجيش العباسى ملبيا لحاجات عسكرية بحتة. فقد اضعفت الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون جند خراسان وكشفت الحروب المختلفة فى تلك الفترة عن ضعف الجانب العسكرى وتشتته، ومن ثم بات ضروريا البحث عن كفاءات عسكرية جديدة قادرة على خوض حروب الجبال، فكان الحل هو اللجوء الى الاتراك(٢). وقد سنحت الفرصة للمعتصم أن يحقق هذه الأمنية، إذ بالاضافة الى ما سبق من الرغبة فى تطعيم القوات المسلحة بكفاءات عالية، وعناصر جديدة تتجمع فيهم صفات الجندية فقد فكر المعتصم فى العنصر التركى الذى

---

(١) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٤ ص١٧٧

(٢) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق ص٥٢٨

يتصف بتلك الصفات الهامة، ومما زاد رغبته فى جلب العنصر التركى أن أمه كانت تركية، وما لمسه من الفرس من جرأة وتطاول بعد مقتل أخيه الأمين فأصبح يخافهم على نفسه ولذلك رأى أن يتقوى بالاتراك، فهم أخواله ولا يزالون على البداوة وقوة البطش والجرأة على الحرب والصبر على شظف العيش، فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم فى العراق أو يبعث فى طلبهم من تركستان وغيرها، فاجتمع عنده عدة آلاف، وفيهم الجمال والصحة والقوة البدنية والمهارة العسكرية، فألبسهم الديباج والمناطق الذهبية، والحلية المذهبة وميزهم بالزى على سائر الجنود(١).

فلما آلت الخلافة اليه كان الاتراك عونا له وتكاثروا حتى ضاقت بغداد بهم، وصاروا يؤذون العوام فى الاسواق فينال الضعفاء والصبيان من ذلك أذى كثيرا(٢). وكان المعتصم شديد الرغبة فى استبقاء اتراكه على فطرتهم ويخاف من اختلاطهم بالامم الأخرى، فتذهب عصبيتهم وتضعف نجدتهم، فابتاع لهم الجوارى التركيات وزوجهم من بعضهم ومنعم من أن يتزوجوا أو يصاهروا أحدا من المولدين حتى ينشأ الولد منهم. وأجرى للجوارى ارزاقا قائمة، واثبت اسماءهن فى الدواوين(٣).

فلما تقدم الاتراك فى الدولة العباسية وتولوا المناصب، وأصبح لهم شأن عظيم فى الدولة تهافت الاتراك بالمئات يطلبون الارتزاق بالجندية، حتى اجتمع لدى المعتصم فى دولته منهم «سبعون» بل «ثمانون» الفا(٤).

---

(١) - المسعودي، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٢ ص٢٤٦

(٢) - ابن الأثير، الكامل ، المرجع السابق حـ٦ ص٤٥٢

(٣) - اليعقوبى، البلدان ص٣٣، والباحث هنا يحكى واقعا ولا يقرر حكما شرعيا وإلا فللمسلم أن يتزوج من أى مسلمة وليس من حق الحاكم أن يمنع المسلم من أن يتزوج من مسلمة مثله إلا إذا وجدت ضرورة شرعية كانتشار مرض...الخ.

(٤) - الاتابكى، النجوم الزاهرة، المرجع السابق حـ٢ ص٢٣٣، الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١٠ ص١٧٤

وبناء على ما تقدم فان الاتراك كان نشاطهم فى الدولة العباسية هو الجندية، وحمل السلاح وحماية الدولة، وقد اتخذوا كجنود أمن داخل الدولة فيذكر ابن الأثير(١)، ان المعتصم خرج بموكبه يوم عيد فقام اليه شيخ فقال له : يا أبا اسحاق فاراد الجندى ضربه فمنعه وقال يا شيخ مالك، مالك؟ قال لا جزاك الله عن الجوار خيرا، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الاتراك فاسكنتهم بيتنا فأيتمت صبياننا، وأرملت بهم نسواننا وقتلت رجالنا.

ولم يكن هم الاتراك إلا الغزو والغارات والصيد وغيرها مما يطلبه الجندى والى ذلك يشير الجاحظ بقوله : «ولم يكن همهم غير الغزو والغارات والصيد وركوب الخيل ومقارعة الابطال وتدويخ البلدان».

ويقول أيضا : «احكموا ذلك الامر بأسره، وأتوا على آخره وصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ولذتهم وفخرهم وحديثهم وسمرهم».(٢)

وبناء على ما سبق فان الاتراك لم يلعبوا دورا بارزا فى النشاط الاقتصادي إلا فيما يتعلق باعمال الخدمة فى المنازل والجندية ولا يعنى ذلك اغفال أهمية الدور الذى لعبوه فى الجندية والحراسة وتوفير الأمن وحماية الهياكل الانتاجية وهذا الدور لا يقل أهمية عن ذلك الدور الذى يمكن أن يمارس فى مجال النشاط الاقتصادى.

د - أهل الذمة :

عاش أهل الذمة فى ظل الاسلام هانئين مكرمين لهم جميع الحقوق الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية كما تمتعوا فى ظل الحكم الاسلامى بالحماية والأمن والعدالة، والحقيقة التاريخية التى اعترف بها الاعداء قبل الاصدقاء هى أن أهل الذمة عاشوا فى كنف الحكم الاسلامى متمتعين بمختلف الحقوق فضلا عن حسن المعاملة والجوار، وقد تمتع أهل

---

(١) - ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٦ ص٤٥٢

(٢) - الجاحظ، رسائل الجاحظ نشر مكتبة الجاحظ القاهرة عام ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م حـ١ ص٧١

الذمة فى العصر العباسى الأول بمختلف الحقوق وشاركوا المسلمين فى نهضة الدولة وتطورها وكان لهم حق العمل والتملك . وتذكر المصادر أنه كان فى بغداد كثير من أديرة العبادة، كما كانت لهم فيها قطائع مخصصة كقطيعة النصارى على نهر النجاج(١)، وبحق عاش أهل الذمة من يهود ونصارى وغيرهم ومارسوا مختلف المهن والحرف فى المجتمع الاسلامى منذ عهد الرسول ﷺ وعهود الخلافة المختلفة، وقد كان فى عهد الرسول ﷺ حدادون يهود وقد مارسوا اعمالهم فى عهد الرسول الكريم(٢)، وأخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه منهم الجزية كل حسب صناعته ومهنته بقيمة ما يجب عليهم(٣)، وكان من النصارى عطارون وصيارفه(٤)، كما اشتغلوا فى البناء وغيره من الاعمال الأخرى(٥).

وفى عهد الدولة العباسية عمل النصارى فى مختلف الأنشطة واكرموا اعظم تكريما، ويذكر أن المنصور قد دعا الطبيب جرجيس بن بختيشوع لعلاجه، وقد كان بختيشوع بن جبرائيل وجبرائيل بن بختيشوع طبيبين للرشيد، وقد استدعى الرشيد يوما ما سويه لعلاج أخته(٦)، كما اشتغلوا أيضا بالترجمة والكتابة وخصوصا نصارى الشام فقد استخدمهم المسلمون فى نقل العلوم من اليونانية والفارسية والسريانية وغيرها الى اللغة العربية.

---

(١) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٥ ص ٣٢٠

(٢) - الكتانى، نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيب الادارية، دار الكتاب العربى - بيروت ح٢ ص٧٥

(٣) - اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، دار بيروت للطباعة والنشر طبعة عام ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، أبو عبيد، الأموال، المرجع السابق ص٦٢

(٤) - الجاحظ، رسائل الجاحظ، المرجع السابق ص١٧

(٥) - المقريزي، الخطط، المرجع السابق حـ٢ ص٤٨/٢٦٥

(٦) - ابن أبى اصيبعة، عيون الانباء فى طبقات الاطباء، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان حـ١ ص١٢٥، ابن النديم، كتاب الفهرست، طبع فى مطبعة دانشكاه طهران ايران طبعة عام ١٣٩١هـ ص٢٩٦

وقد كان أكثر النصارى يعملون بالزراعة، وفيهم ايضا الصناع والعيار والشطار والتجار.(١) أما اليهود فقد احترفوا الدباغة والصباغة(٢)، ومارسوا الحدادة وصناعة الحرير والزجاج(٣)، بالاضافة الى احترافهم الصيرفة، وقد كان اكثر الصيارفة من اليهود(٤)، وقد جنو الآرباح الطائلة.

كما أنهم اشتغلوا بالصناعة والطب، وقد كان المسلمون يعرفون اليهود وخبراتهم المختلفة، وخاصة يهود أوربا فقد عرفوا بالتجارة وركوب البحار، والتنقل بين المشرق والمغرب برا وبحرا، فتراهم يجلبون من الغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسيوف، ويبدأون سفرهم من بلاد الفرنجة وييممون شطر «الفرما»(٥) ثم برا حاملين تجارتهم الى القلزم(٦) ومنه الى الجار(٧) وجدة فالهند فالصين، ومن هناك يحملون المسك

---

(١) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٤ ص١٣٧،

العيار : هم جماعة ظهرت ببغداد فى أواخر القرن الثامن الهجرى وكان لهم شأن كبير فى الفتنة التى حدثت بين الأمين والمأمون، وكذا الفتن التى حدثت بعد ذلك فى الدولة الاسلامية، انظر جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، طبعة دار الهلال حـ٥ ص٥٢

الشطار : هم طائفة من الرعاع كانت لهم ملابس خاصة ولهم مآزر يأتزرون بها على صدورهم تعرف بأزرة الشطار، وكانت لهم أسماء متعددة فى البلاد الاسلامية، ففى العراق كانوا يسمون بالشطار وفى المغرب يسمون بالصقور وسماهم ابن بطوطة بالفتاك وكانوا يعدون اللصوصية صناعة وعملا حلالا، انظر ، المرجع السابق حـ٥ ص٥٤

(٢) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٨٣

(٣) - ترتون، أهل الذمة فى الاسلام، طبعة المعارف، مصر عام ١٩٦٧م، الطبعة الثانية ص١٠٨

(٤) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٨٣

(٥) - الفرما : مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط من ناحية مصر وهى مدينة قديمة بين العريش والفسطاط، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، حـ٤ ص٢٥٦، ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار الحياة بيروت ص١٣٦.

(٦) - القلزم : هى مدينة على ساحل البحر الأحمر قيل كانت عند المكان الذى عرف فيه فرعون، وهى قريبة من بلدة يقال لها سويس، انظر، المرجع السابق حـ٤ ص٣٨٨

(٧) - الجار : مدينة على ساحل بحر القلزم (البحر الأحمر) بينها وبين المدينة يوم وليلة وبينها وبين أيله نحو عشر مراحل، والى ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل، انظر المرجع السابق حـ٢ ص٩٢

والعود والكافور وغير ذلك مما كان يحمل من تلك النواحى ثم يرجعون من نفس الطريق.(١) وبالتالى فقد اشترك أهل الذمة وغيرهم فى النشاط الاقتصادى فى المجتمع العباسى فى الزراعة والصناعة والتجارة، وكان لهم دورهم فى الأنشطة الاقتصادية المختلفة، وقد شاركوا المسلمين فى مختلف الأنشطة الاقتصادية نهضتهم الزراعية والتجارية والصناعية، وحياتهم العلمية فى مجال الترجمة ونقل المعلومات - على ما مر بيانه - وهو ما يوضح حسن معاملة المسلمين لهم، فقد اعتبروهم من أجناس المجتمع عليهم أن يشاركوا فى جميع مجالاته الاقتصادية وغير الاقتصادية ودون تفرقة فى أى مجال، على أساس أنهم يخالفون فى العقيدة ويقف الباحث هنا مليا لينظر الى حال المسلمين اليوم وكيف يعاملهم النصارى واليهود فى مختلف بلاد العالم من الظلم والقهر، وكبت الحريات وأخذ الحقوق، وأكل أموالهم وهدم بيوتهم ، لمجرد أنهم يدينون بالاسلام.

هـ - الرقيق :

كان من أبرز عناصر السكان فى العصر العباسى الأول الرقيق الأبيض منه والاسود على حد سواء، وقد انتشرت هذه التجارة وازدهرت وكان لهذه التجارة فى عاصمة الدولة العباسية شأن عظيم، اذ كان لها سوق خاص بها فى بغداد بل وشارع عظيم يسمى باسمها. وكان الرقيق يجلب من أماكن عديدة فى أفريقيا والهند وأواسط آسيا وجنوب أوربا(٢)، وكانوا يقومون بأعمال مختلفة كزراعة الأرض أو الحرف اليدوية أو أعمال المنازل، وقد كان بعضهم يتبوؤون مراكز عالية فى الدولة العباسية مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه. وقد شغف بهم الخلفاء واستكثروا منهم فى بلاطهم، وممن اكثر منهم الرشيد والمعتصم فقد قيل أن الرشيد قد سار يوما وبين يديه أربعمائة منهم.

---

(١) - ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المرجع السابق ص١٥٣، جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق جـ٤ ص١٣٧/١٣٨

(٢) - نحن هنا نذكر واقعا كان قائما فترة الدراسة بصرف النظر عما إذا كان جلبهم الى البلاد الاسلامية بطريق مشروع أو غير مشروع فهذه قضية أخرى.

أما المعتصم فقد كان شديد التعلق بالرقيق وخاصة التركى منهم يواهم ويقتنى منهم اعدادا كبيرة . ومن ثم كانوا يشكلون شريحة كبيرة من المجتمع العباسى تتميز بملامح خاصة، كان لها أثرها السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى المجتمع العباسى.

ولا يخفى أن معظم خلفاء الدولة العباسية الأولى كانت أمهاتهم من الاماء فأم المنصور حبشية، وأم الهادى والرشيد - الخيزران - رومية، أما المأمون فأمه فارسية وكانت أم الواثق رومية، وبالطبع كان لذلك أثره على واقع المجتمع العباسى السياسي والاجتماعى والاقتصادى.

كما كان لتجارة الرقيق أهميتها الخاصة فى الدولة العباسية، فقد انفقت الأموال الطائلة عليها، إذ كان الناس يشترون الرقيق لمنافع مختلفة، فالبعض كان يستخدمهم فى الاعمال الزراعية، وقد استقدموا الرقيق الزنج من أفريقية لهذا الغرض، فكانوا يستخدمون فى استصلاح الأراضى والحفر أو الأعمال الشاقة المختلفة والتى كان الزنوج يتحملونها، كتجفيف المستنقعات، وازالة الملح عن الأرض، وكان الملح الذى يكسحونه فى أراضى الدولة العباسية يشكل كميات كبيرة يتجمع على شكل كثبان متراكمة، ثم ينقلونه بواسطة البغال.(١) ومن الزنج من كان يعمل ايضا فى استخراج الدبس(٢) من التمر، وهم غلمان الدباسين والتمارين(٣)، وكان استصلاح الأرض واعدادها للحرث والبذر عملا شاقا، لا قبل لأحد به إلا الزنج الذين هم جلد على الكد.

كما كانوا يقتنونهم للعمل والخدمة فى البيوت، واستخدموا ايضا كجنود فى الجيش العباسي، وكان فى الجيش منهم فرقة من المشاة.

---

(١) - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، المرجع السابق حـ٦ ص٥٤٨، آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٢٣٦

(٢) - الدبس : عسل التمر، وما يسيل من الرطب، انظر مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط ، المرجع السابق حـ١ ص٢٦٩ ، أحمد أمين، ظهر الاسلام، المرجع السابق حـ١ ص٢٣٦

(٣) - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، المرجع السابق حـ٧ ص٥٤٦/٥٦٠

وكانت تجارة الرقيق الأسود متدوالة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندي، والخليج العربى الى الجزيرة العربية والعراق وعبر النيل الى مصر، وعبر الصحراء الكبرى الى شمال افريقيا وغربها، وكانوا يمثلون فى العصر العباسى مجتمعا يعد بالالوف وكانت طريقتهم فى العمل، ان يتشكلوا فى شكل جماعات كل جماعة تجيد عملا معينا(١).

وكانت لتجارة الجوارى على الخصوص أهمية كبرى فى العصر العباسى الأول، فقد انفقت الأموال الكثيرة فى سبيل شرائهم واقتنائهم، فقد ذكر ان المعتصم اشترى عريب الجارية بمائة الف دينار.(٢)

يقول الجاحظ : ان ابن الزيات - وزير المعتصم والواثق - دفع فى جارية خمسين الف درهم وولى من اشتراها له خراج ديار ربيعة. وقد كانت هذه التجارة هامة بالنسبة لتجارها ايضا، فكانت تمثل بابا هاما من أبواب الرزق والكسب الواسع وذلك أنهم كانوا يأتون بهم من أماكن مختلفة حيث يتوسمون فى بعضهم ذكاء معينا فى جانب من الجوانب، فيأتى التاجر بالجارية ويحفظها شيئا من القرآن الكريم أو الشعر أو الغناء أو يكسبها أى مهنة من المهن ثم يردها الى السوق مرة أخرى بعد أن تكون قد اكتسبت قيمة أخرى مضافة فيجنى من ذلك الارباح الطائلة، وكان لهذه التجارة متخصصون كابراهيم الموصلى وابنه اسحاق فربما ابتاع الجارية بمائة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسائة أو الف دينار.(٣)

وكانت قيمة العبد ايضا تختلف باختلاف صنعته ومهنته التى يجيدها، وقد قدر عبد اسود أيام عبد الملك بن مروان فى عهد الدولة الأموية بألف دينار، لأنه كان يجيد عدة صناعات ومهن(٤).

---

(١) - فاروق عمر، الخلافة العباسية فى عصر الغوضى العسكرى، مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة الثانية عام ١٩٧٧م، مؤسسة المطبوعات العربية بيروت ص١٤٣/١٤٤

(٢) - الاصفهانى، الاغانى، المرجع السابق حـ٢١ ص٥٨، الشابشتى، الديارات، تحقيق كوركيس عواد المجمع العلمى العراقى، الطبعة الثانية عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ص٦٤/٦٥/٩٩/١٠٥

(٣) - الاصفهانى، الاغانى، المرجع السابق حـ١ ص١٥٤. جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٥ ص٣٦/٣٧

(٤) - الاصفهانى، الاغانى، المرجع السابق حـ١ ص٣١٣

ومن المهن التى زاولها العبيد بالاضافة الى ما سبق الحجامة والطبخ(١) والحياكة(٢)، والجزارة(٣) وغيرها.

وهكذا كان الرق وسيلة من وسائل الربح والكسب، وقد راجت هذه التجارة فى العصر العباسى الأول، وكان لها قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب لتصب تجارتها فى أسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية الكبرى فى ذلك الوقت، وكان اكثر تجارها من اليهود الرازانية(٤)، وكانت لليهود جاليات فى المدن الواقعة على مصبه واشهرها مرسيليا، وكانوا يتخذون مجرى النهر وسيلة لنقل المتاجر التى يجمعونها من غالية ويتجرون بها فى البحر الأبيض المتوسط.(٥)

واذا انتقلنا للحديث عن الرق فى أوربا فنقول أن أوربا ظلت تؤكد على نظام الرق أيضا، ولم تهاجمه إلا فى القرن التاسع عشر الميلادي عندما هاجم ارسطو نظام الرق، ومع أنه كان يهاجمه إلا أنه كان يقرر أن التفاوت الطبيعى بين بنى الانسان حقيقة لا تقبل المراوغة وأن عدم التساوى بين بنى الانسان مسألة طبيعية أو فطرية لا سبيل الى انكارها، فالانسان لم يولد متساويا مع الآخرين، ويعتقد ارسطو أن هذه الحقيقة فى صالح المجتمع الانسانى على غير ما قد يتصوره البعض بحجة التعلق بوهم المساواة المطلقة.(٦)

---

(١) - الجاحظ، راسل الجاحظ، المرجع السابق حـ١ ص٢٢٤

(٢) - المسعودى، روج الذهب، المرجع السابق حـ٣ ص٣٦١

(٣) - الاصفهانى، الاغانى، المرجع السابق حـ١٨ ص٢٥٣

(٤) - اليهود الردنانية أو الردانية نسبة الى ردانس بالفتح أو الضم، وهو نهر الرون فى أوربا.

(٥) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٥ ص٤٦

(٦) - عبدالرحمن يسرى أحمد، تطور الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص٢٠/٢١

لكن الفكر الاسلامى منذ الوهلة الأولى لوجوده سارع الى الحد من نظام الرق الذى كان موجودا قبل الاسلام ووقف الاسلام أمام مصادره ومنابعه، ووضع الحواجز أمام سيله المتدفق بقدر الامكان وحصر حدوده فى الحرب المشروعة والتى تكون بين الحق والباطل والتى مبعثها صد البغى والعدوان واعلاء كلمة الله، وأن تكون الحرب بين المسلمين وغيرهم، فلو كانت بين المسلمين مع بعضهم البعض فقد وضع التشريع قيودا على ذلك - فمثلا - لا يكون الاسير من المسلمين رقيقا، وأن يضرب الامام عليه الرق فلو من عليه واطلق سراحه أو قبل منه الفداء فلا يكون رقيقا. وألا يكون قد قبل الجزية والتزم باحكام المسلمين، فالذمى لا يكون رقيقا مادام قد التزم بالعقد الذى أبرمه مع المسلمين.

وبهذا وغيره انحصرت دائرة الرق فى مصدر واحد مقيد بتلك القيود السالفة، ومع كل ما تقدم من القيود فتح الاسلام مجالات كثيرة لتحرير الارقاء لا مجال لذكرها ههنا(١)، على أنه يمكن أن يقال أن الاسلام قد عالج مشكلة الرق بما شرعه من وسائل تتفق ومصلحة السيد ومملوكه، كما حافظ على حقوق الرقيق فى حال رقه التى لم يكن يحكم الارقاء بمثلها فى وقت من الاوقات مما دعا أحد الأوربيين الى القول «أن لفظة الرق اذا ذكرت أمام الأوربى الذى اعتاد تلاوة الروايات الأمريكية ورد على خاطره استعمال هؤلاء المساكين المثقلين بالسلاسل المكلبين بالاغلال المسوقين بضرب السياط الذين لا يكاد يكفى غذاؤهم لسد رمقهم، وليس لهم من المساكن إلا محبس مظلم» الى أن قال : «وانما الذى أراه صدقا لاريب فيه هو أن الرق عند المسلمين غيره عند النصارى، وان حال الارقاء فى الشرق أفضل من حال الخدم فى أوربا ولم

---

(١) - كالكفارات والترغيب فى العتق، والمكاتبة والتدبير، ومعنى التدبير : تعليق عتق عبده بموته، والوفاة دبر الحياة يقال دابر الرجل يدابر مدابرة اذا مات فسمى العتق بعد الموت تدبيرا لانه اعتاق فى دبر الحياة، انظر ابن قدامة، المغنى، المرجع السابق ص٩ ص٣٨٦

تكن زمرة المماليك التى ملكت مصر زمنا طويلا من غير الارقاء... وليست مصر القطر الوحيد الذى يعامل فيه الارقاء بالرفق والحسنى، فما تراه فى مصر ترى مثله فى كل بلد خضع للاسلام».(١)

وبعد أن أنتهينا من التركيبة السكانية للمجتمع العباسى والتى كان لها أثرها على التركيبة المهنية للقوى العاملة فى الدولة العباسية بحيث انصهرت جميع هذه العناصر المختلفة من عرب وعجم وفرس واتراك وغيرهم، وعبيد وأحرار فانتجت نموذجا اسلاميا لا يعرف تفرقة لعنصر أو دين فالكل يعمل لخدمة الوطن الذى يعيشون على ترابه تحفهم رعاية دولة اسلامية عرفت منهج الله وشريعته، فنشأت من ذلك كله توليفة جديدة من الحرف والصناعات لها طابعها الخاص ولونها المميز، ولو كان صانعها غير مسلم أحيانا إلا ان موطنها كان يميزها، وقد أثرت بالطبع هذه التركيبة السكانية المختلفة على المجتمع بأسره فى صناعاته وحرفه، بل وعلى تركيبته المهنية العاملة فيه وفى شتى الأنشطة الاقتصادية وفيما يلى نشير الى التركيبة المهنية للمجتمع العباسى الأول والتى أثرت صناعاته وحرفه فى مختلف الأنشطة الاقتصادية فى الدولة بشىء من التفصيل.

ثانيا : التركيب المهنى للقوى العاملة :

إذا أردنا دراسة تركيبة المهن فى العصر العباسى الأول، نجد أن المهن قد تنوعت حسب نوعية العمل الذى كان يقوم به العامل فهناك عمل زراعى، وعمل صناعة، وآخر تجارى وفيما يلى عرض لأهم الصناعات والمهن للقوى العاملة فى تلك الفترة بشىء من التفصيل .

---

(١) - غوستاف لوبون، حضارة العرب، مطبعة الحلبى، القاهرة الطبعة الرابعة ترجمة عادل زعيتر، ص٣٧٥/٣٧٦، محمد الطيب النجار، الموالى فى العصر الاموى، الطبعة الأولى عام ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م طبعة دار النيل للطباعة القاهرة ص١٥٣/١٥٥، ١٦٧/١٦٨

أ - العمل فى المجال الزراعى :

ويتكون عنصر العمال فيه من مالكى الأرض، والعمال الزراعيين وهؤلاء العمال كانوا اما احرارا أو عبيدا. فالاحرار يزرعون الأرض بموجب عقود مختلفة تعقد بينهم وبين الملاك، وتثبت الأسس والشروط التى يتم بموجبها العمل الزراعى فى العقد.(١)

أما العمال العبيد، فكانوا يعملون فى الأرض إما لمالكها أو لغيره بالأجر. ويمكن أن نميز بين العمال الزراعيين على أساس صفة ونوع الأرض التى عاشوا عليها على النحو التالى :

١ - فلاحو الأراضى الخاصة :

وهم الذين يعملون فى الأرض التى تخص الافراد، وكان هؤلاء الفلاحون اما أرقاء أو احرار، يقومون بفلاحة الأرض وزراعتها، وكان أجرهم، اما على شكل مقاسمة فى الريع أو بالأجر النقدى أو العينى موسمى أو سنوى.

٢ - فلاحو أراضى الدولة :

ومن هؤلاء : الفلاحون الذين يعملون على أراضى تعود ملكيتها للدولة كأراضى الخراج وغيرها. ومن هؤلاء أيضا : الفلاحون الذين يعملون على أراضى الصوافى وهى التى تعود ملكيتها للخليفة باعتباره حاكم الدولة.

قال الماوردى - رحمه الله - : «وهذا النوع من العامر لا يجوز اقطاع رقبته لأنه قد صار باصطفائه لبيت المال ملكا لكافة المسلمين فجرى على رقبته حكم الوقوف المؤبدة.....والسلطان فيه بالخيار على وجه النظر فى الاصلح بين أن يستغله لبيت المال كما فعل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وبين أن يتخير له من ذوى المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته بخراج يوضع عليه مقدور بوفور الاستغلال ونقصه كما فعل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ويكون الخراج أجرة تصرف فى وجوه المصالح».(٢)

---

(١) - كالاجارة والمزارعة والمساقاة، انظر، أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٦٥

(٢) - الماوردى، الاحكام السلطانية، المرجع السابق ص١٩٣

وكان الغالب فى خراج هذه الأراضى وفرة غلتها بالمقارنة بالأنواع الأخرى من الأراضى، وكتطبيق عملى على ذلك، ففى عهد عمر بن الخطاب بلغت غلتها - كما ذكر الماوردى - تسعة آلاف الف درهم أو سبعة آلاف الف درهم كما ذكر أبو يوسف.(١)

وقد زادت اكثر من ذلك فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه فبلغت غلتها على ما قيل خمسين الف الف درهم(٢). وربما كان يرجع ذلك الى أن الاصطفاء كان يقع غالبا فى الأراضى الجيدة.

٣ - فلاحو أرض الصلح :

وهم الذين يعملون فى الأراضى التى صالح الامام أهلها عليها على أن تكون الأرض مملوكة للمسلمين وهم يعملون عليها بأجرة، وقد كان أهل هذه الأرض يؤدون عادة الى المسلمين خراجا معلوما يدخل بيت المال.

على أنه يمكن القول بأنه كان بين العمال الزراعيين نوع من التخصص وشيء من تقسيم العمل فقد كان بينهم من يسمون "بالحراثين" وهم الاجراء الذين يحرثون الأرض لمالكها مقابل أجر نقدى، وقد اعتبروا فئة من العمال الفقراء(٣)، كذلك نجد «الحواصد» وهم العمال الموسميون الذين يشتغلون خلال موسم الحصاد فقط(٤)، وهناك عمال البساتين، وهم الذين يعملون فى البساتين كما تدل عليه تسميتهم.

---

(١) - الماوردى، الاحكام السلطانية، المرجع السابق ص١٩٣، أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص٦٣

(٢) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص١٩٣

(٣) - الجاحظ، الحيوان، الطبعة الأولى بتحقيق عبدالسلام محمد هارون، طبعة الحلبى عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٨م القاهرة حـ٤ ص٢٩

(٤) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٣٨

وفى مجال الرى نجد تخصصا بين الذين يعملون فيه فهناك عمال غير مهرة يديرون الدواليب، والنواعير، وعمال مهرة يشرفون على توزيع المياه فى القنوات الرئيسية والفرعية، ويسمون بالقياسية أو الحسابية وهناك مهندسون لحفر القنوات.(١)

وبصفة عامة كان الفلاحون يسكنون القرى، وقد كان لهم أهمية كبيرة فى الدولة العباسية حيث ان الزراعة كانت مصدر ثروة الدولة العباسية، وموارد انتاجها.

وبعد أن القينا الضوء على التركيب المهنى للعمل الزراعى حسب صفة ونوع الأرض ننتقل الى تركيبة العمل الصناعى والحرفى.

ب - العمل الصناعى والحرفى :

من المعلوم أن العمل الصناعى والحرفى فى الدولة العباسية، قد ازدهر وترعرع، مما أدى الى كثرة الصنائع والحرف وتعددها وتنوعها، فوجد النساجون والسقاؤون والملاحون والسباحون، والحفارون(٢)، والنفاطون(٣) والوقادون(٤)، والفخارون، والحدادون والخواصون(٥)، والحصارون والبياطرة والدباغون والطباخون، وصناع الورق والجواهر وغيرهم مما سيأتى بيانه.(٦)

---

(١) - صباح الشيخلى، الاصناف فى العصر العباسى نشأتها وتطورها بحث فى التنظيمات الحرفية فى المجتمع العربى الاسلامى، دار الحرية للطباعة بغداد عام ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

(٢) - الحفار : من صناعته الحفارة، ومنه من يحفر الخشب ونحوه ليعده للزينة. انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص١٨٤

(٣) - النفاط : مستخرج النفط من معدنه انظر معجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ٩٥٠٢

(٤) - الوقاد : من يوقد النار ومن يقدم الوقود الى القاطرة ونحوها، المرجع السابق حـ٢ ص١٠٦٠

(٥) - الخواص : بائع الخوص، والذى يعمل الاشياء منه، المرجع السابق حـ١ ص٢٦١

(٦) - راجع ص٢٧٢ من هذا البحث ومابعدها

كما شهد هذا العصر نوعا من التخصص فى مجال الصناعة والحرف مما جعل الكثير من أهل العلم ممن عاشوا فى تلك الفترة أو قريبا منها يهتمون بها فى مجال فتواهم وآرائهم، وكانت لهم تقسيمات مختلفة للصناعات كل حسب رأيه وفكره، وفيما يلى نتعرض لبعض من الفقهاء وأهل العلم الذين اهتموا بقضية التخصص وتقسيم العمل بإختصار:

- محمد بن الحسن الشيبانى (١٣١هـ/١٨٩هـ -٧٤٨م/٨٠٤م)(١)

وهو من الفقهاء الذين اهتموا بتقسيم الأنشطة الاقتصادية بشكل عام وقضية التخصص وتقسيم العمل بشكل خاص، كما أنه من الفقهاء الذين عاشوا الفترة العباسية موضوع البحث ايضا وبالتالى تبدو أهمية دراسة فكرة من هذه الناحية. وقد تناول رحمه الله فى كتابه الاكتساب قضيتين رئيستين من الناحية الاقتصادية : الأولى : هى تقسيم النشاط الاقتصادى، والثانية : التخصص وتقسيم العمل. وفيما يلى نعرض لرأيه فى تقسيم الأنشطة الاقتصادية المختلفة فيقسم رحمه الله الأنشطة الاقتصادية الى أربعة أقسام فيقول : «المكاسب أربعة : الاجارة والتجارة والزراعة والصناعة، وكل ذلك فى الاباحة سواء عند جمهور الفقهاء، وقال بعضهم : الزراعة مذمومة، لما روى أن النبى ﷺ ازدرع بالجرف...وكان له فدك وسهم خيبر وكان قوته فى آخر عمره ذلك...وتأويل الآثار المروية فيما اذا اشتغل الناس كلهم بالزراعة واعرضوا عن الجهاد وحتى يطمع فيهم عدوهم فاذا اشتغل بعضهم بالجهاد وبعضهم بالزراعة ففى عمل الزراعة معاونة للمجاهد، وفى عمل المجاهد دفع

---

(١) - هو محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى من موالى بنى شيبان، أبو عبدالله امام بالفقه والأصول، وهو الذى نشر علم أبى حنيفة رضى الله عنه ولد بواسط ونشأ بالكوفة، فسمع من أبى حنيفة، وغلب عليه مذهبه وعرف به ثم انتقل الى بغداد، فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله. ولما خرج الرشيد الى خراسان صحبه، فمات فى السرى، انظر الزركلى الاعلام، المرجع السابق حـ٦ ص٣٠٩

المزارع، قال ﷺ : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»(١) الى أن قال: «ثم اختلف مشايخنا فى التجارة والزراعة، قال بعضهم التجارة أفضل لقوله تعالى : ﴿وآخرون يضربون فى الأرض﴾(٢) والمراد بالضرب فى الأرض للتجارة فقدمه فى الذكر على الجهاد الذى هو سنام الدين، وقال ﷺ : «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»(٣)، ثم قال : «وأكد مشايخنا على أن الزراعة أفضل من التجارة لأنها أعم نفعا فبعمل الزراعة يحصل ما يقيم المرء به صلبه، ويتقوى على الطاعة، وبالتجارة لا يحصل ذلك، ولكن ينمو المال، والاشتغال بما يكون نفعه اعم يكون أفضل، ولأن الصدقة فى الزراعة اظهر، فلابد أن يتناول مما يكتسبه الزراع الناس والدواب والطيور، وكل ذلك صدقة له، قال ﷺ : «ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا فيأكل منه انسان أو طير، أو بهيمة إلا كانت له صدقة»(٤)، ثم الكسب الذى ينعدم فيه التصدق لا توجد فيه الافضلية كعمل الحياكة مع أنه من التعاون على اقامة الصلاة فعرفنا أن ما يكون التصدق فيه اكثر من الكسب فهو أفضل»(٥).

ومن خلال النصوص المتقدمة للشيبانى - رحمه الله - تتضح لنا النقاط التالية :-

أ - بين - رحمه الله - أن الأنشطة الاقتصادية المختلفة أربعة: الاجارة والتجارة والزراعة والصناعة، وأنها لا تختلف من حيث الاباحة، فهى كلها فى الاباحة سواء.

---

(١) - الحديث متفق عليه، انظر النووى، رياض الصالحين بتحقيق محمد ناصر الدين الالبانى ص١١٨، وانظر مسلم، صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبدالباقى، المرجع السابق حـ٤ ص١٩٩٩، الشيبانى، الاكتساب فى الرزق المستطاب، تحقيق محمد عرنوس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى عام ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م ص٤٠/٤١

(٢) - سورة المزمل الآية رقم ٢٠

(٣) - رواه الترمذى عن أبى سعيد الخدرى وقال حديث حسن، انظر المباركفورى، تحفة الأحوذى، المرجع السابق حـ٤ ص٣٩٩

(٤) - رواه الترمذى من حديث أنس وقال حديث حسن صحيح، انظر الماركفورى، تحفة الأحوذى، المرجع السابق حـ٤ ص٦٣٦

(٥) - الشيبانى، الاكتساب، المرجع السابق ص٤١/٤٢

ب - يلاحظ أنه جعل الاجارة ضمن الأنشطة الاقتصادية المختلفة على خلاف ما هو سائد الآن، حيث أن التقسيم الحديث للانشطة الاقتصادية فى اجماله لا يخرج عن تقسيمه، فالاقتصاديون يقولون بأن النشاط الاقتصادى يقسم الى ثلاثة قطاعات : الزراعة والصناعة والخدمات، وهذا القطاع الاخير يشمل التجارة وغيرها من الخدمات، لكن الذى يجذب الانتباه فى تقسيمات الشيبانى - رحمه الله - هو أن الاجارة كانت تعد من وجهة نظره نشاطا اقتصاديا منفردا، وهو يعكس قضية تاريخية، وهى أن هذا النشاط كان من الأهمية بمكان فى هذا العصر شأنه فى ذلك شأن الزراعة والصناعة والتجارة.

ويلمس الباحث : أن ذلك ربما كان لأن الاجارة كانت عمل كثير من الناس فى ذلك الوقت، كما يبدو ذلك واضحا من دراسة واقع الفترة العباسية، حيث ان الدولة قد أنشأت ديوانا خاصا بالأكرة كان يسمى "ديوان الأكرة" للاشراف على اعمال الترع والجسور وشؤون الرى وغيرها من الأعمال، والاهتمام بشؤون الاكرة بشكل عام.(١)

كما أن اهتمام الشيبانى - رحمه الله - بالاجارة راجع ايضا الى أن الاجارة تعد عنصرا هاما فى النشاط الاقتصادى، اذ يندر أن لا يعتمد أى نشاط اقتصادى زراعى وتجارى وصناعى - فى نشاطة على الاجارة فى أى عمل من الاعمال الخاصة بها، من أجل ذلك اهتم بالاجارة كوسيلة من وسائل تحقيق التنمية الاقتصادية فى الانشطة الاقتصادية المختلفة، وهو تقسيم يعتقد الباحث انه راجع الى الواقع العملى للمجتمع العباسى واهتمامه بالاجارة فى تلك الفترة.

حـ - بين - رحمه الله - الجدل القائم بين الفقهاء حول افضلية المكاسب على بعضها البعض، ورأى أن غالبية الفقهاء يرون تفضيل جانب الزراعة حيث هى أعم نفعا للناس، كما بين العلاقة الوثيقة بين النفع العام وقضية الثواب، وقضية الثواب الآخروى التى يجب أن لا تهمل، وتجعل الى جانب النفع الاقتصادى للكسب.(٢)

---

(١) - حسن ابراهيم حسن تاريخ الاسلام، المرجع السابق حـ٢ ص٢٦٨

(٢) - شوقى أحمد دنيا، سلسلة اعلام الاقتصاد الاسلامى، الكتاب الأول، ص٩٧/١٠٠

وقد دافع - رحمه الله - عن الزراعة وجعلها تساوى فى الأهمية قضية الجهاد، ففى الزراعة معاونة للمجاهد، وفى عمل المجاهد مدافعة عن الزارع، وهذا يوضح أهمية النشاط الاقتصادى فى فكر الشيبانى - رحمه الله - وأن الأنشطة الاقتصادية وممارستها على حد سواء عند جمهور الفقهاء بل بين أن القيام بأى نشاط من هذه الأنشطة اللازمة للجماعة الاسلامية هو فرض من فروض الكفايات والتى إذا فعلها البعض سقطت عن الآخرين، وقد تأخذ حكم فرض العين اذا امتنع الناس عن القيام بها ثم بين رحمه الله قضية التخصص وتقسيم العمل وفيما يلى محاولة لبيان رأيه فى ذلك.

التخصص وتقسيم العمل :

اهتم رحمه الله ايضا بقضية التخصص وتقسيم العمل لما له من آثار ايجابية على الانتاج فى مختلف الأنشطة الاقتصادية حيث تظهر أهمية التخصص وتقسيم العمل فى تطور الانتاج والمساهمة فى اشباع حاجات الناس المتعددة والمتنوعة، والتى تزداد نموا مع زيادة النمو السكانى، ومن ثم فأنها تحتاج الى نوع من التخصص وشىء من تقسيم العمل لما فى ذلك من زيادة فى الانتاجية فقال رحمه الله :

«....وقدر الله للناس المعاش بأسباب فيها حكمة بالغة يعنى أن كل أحد لا يتمكن من تعلم جميع ما يحتاج اليه فى عمره فلو اشتغل بذلك فنى عمره قبل أن يتعلم، وما لا يتعلم لا يمكنه أن يحصله لنفسه، وقد تعلق بهذا مصالح المعيشة فيسر الله تعالى على كل واحد منهم تعلم نوع من ذلك يعنى يتوصل الى ما يحتاج اليه من ذلك بعلمه ايضا، واليه أشار رسول الله ﷺ فى قوله : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»(١). وبيان هذا من قوله تعالى : ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾(٢) يعنى أن الفقير يحتاج الى مال الغنى، والغنى

---

(١) - الحديث رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، انظر اللؤلؤ والمرجان، المرجع السابق حـ٣ ص١٩٥

(٢) - الزخرف الآية رقم ٣٢

يحتاج الى عمل الفقير، فهناك ايضا الزارع يحتاج الى عمل النساج ليحصل على اللباس لنفسه، والنساج يحتاج الى عمل الزراع لتحصيل الطعام...والقطن الذى يكون منه اللباس لنفسه، ثم كل واحد منهما يقيم من العمل ما يكون معينا لغيره».(١)

ومن أقواله ايضا : «اذا قصد العامل بعمله التمكن من اقامة الطاعة أو تمكين أخيه من ذلك كان مثابا على عمله باعتبار نيته».(٢)

وعلى أية حال فان قضية التخصص وتقسيم العمل التى اهتم بها الشيبانى - رحمه الله - وهو من معاصرى الدولة العباسية الأولى كموضوع اقتصادى، إذا اردنا تحليلها فاننا نقول : ان التخصص وتقسيم العمل يعتبر ضرورة اقتصادية وهو عنصر واضح فى نص الشيبانى السابق الذكر، كما هو واضح عند افلاطون، وآدم سميث وغيرهما من الاقتصاديين. حيث قالوا : بأن تقسيم العمل ضرورى جدا للتنظيم الاجتماعى حيث ان كل انسان مهيىء بطبيعته لعمل معين أو لحرفة معينة يتقنها اكثر من غيرها، فاذا تخصص فيها أصبح اكثر كفاءة وانتاجا واتقانا لها.(٣) لكن الشيبانى - رحمه الله - يزيد على ذلك بميزة اسلامية لا توجد عند غيره، حيث أن التخصص وتقسيم العمل عنده ليس ضرورة اقتصادية، فحسب، ولكن الزام دينى وعقائدى. ذلك أن الأدلة التى ساقها تجعل التخصص وتقسيم العمل بجانب أنه وسيلة لتوفير المتطلبات الاقتصادية للجماعة ككل، فانه ايضا وسيلة للحصول على الأجر والثواب من الله عز وجل لأنه بذلك يكون فى عون أخيه المسلم.(٤)

---

(١) - الشيبانى، الاكتساب، المرجع السابق ص٤٧/٤٨

(٢) - المرجع السابق ص٤٩

(٣) - عبدالرحمن يسرى، تطور الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص١٨/١٩/٨٢

(٤) - رفعت العوضى، من التراث الاقتصادى للمسلمين، المرجع السابق ص٣٨/٣٩

كما أن الشيبانى - رحمه الله - يفضل آدم سميث وغيره الذين اعتقدوا أن الخدمات لا تدخل فى النشاط الاقتصادى المنتج.(١)

وقد تساءل البعض(٢)، عن الأهمية الاقتصادية لما ذكره الشيبانى - رحمه الله - من اباحة ممارسة كل أنواع النشاط الاقتصادى، فقال : أن الأهمية الاقتصادية لما ذكره الشيبانى، أهمية تاريخية، بالدرجة الأولى، ذلك أن تقسيم الأنشطة الاقتصادية الى زراعة وصناعة وتجارة هى مسألة قديمة، لكن الذى ينبغى ذكره هنا هو أن المدارس الاقتصادية اختلفت حول اباحة ممارسة كل هذه الأنشطة، فبعض المدارس رأت أن بعض هذه الأنشطة الاقتصادية لا يباح ممارستها اقتصاديا، وكان المنع باستخدام مصطلحات معينة، وذلك مثل وصف أحد الأنشطة الاقتصادية وهو التبادل بأنه غير نظيف، وهذا كان عند اليونان والرومان، وفى العصور الوسطى، وبعض المدارس رأت أن بعض الأنشطة غير منتج أو عقيم وهذا ينطبق على الأنشطة الاقتصادية غير الزراعية وكان هذا الفكر لمدرسة الطبيعيين التى ظهرت فى القرن الثامن عشر الميلادى(٣) حيث قالوا بأن الصناعة والتجارة من الأنشطة العقيمة من الناحية الانتاجية، وبمعنى آخر انها لا تخلق قيمة جديدة ولا تضيف ثروة الى الدولة، حيث لا يتولد عنها ناتج صافى، وبالطبع لا يعنى ذلك أنها غير مفيدة، فكلاهما نشاط اقتصادى مفيد حيث تعمل الصناعة على تحويل المواد الأولية الى سلع صالحة لاشباع الحاجات الانسانية والتجارة تعمل على تيسير وصول المنتجات والسلع من المنتجين الى المستهلكين.(٤)

---

(١) - عبدالرحمن يسرى أحمد، تطور الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص٦٤

(٢) - رفعت العوضى، من التراث الاسلامى للمسلمين، المرجع السابق ص٣٤

(٣) - رفعت العوضى، من التراث الاقتصادية للمسلمين، المرجع السابق ص٣٤، عبدالرحمن يسرى، تطور الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص٦٢/٦٤

(٤) - عادل أحمد حشيش، تاريخ الفكر الاقتصادى، دار النهضة العربية، بيروت عام ١٩٧٤م/١٣٩٤هـ ص١٠٦/١٠٧

وما قاله الشيبانى له أهمية اقتصادية تاريخية فاباحة الأنشطة الاقتصادية المختلفة اسلاميا على حد سواء هو ما تقرر شرعا منذ عهد الرسول ﷺ وما ذكره الشيبانى من التقسيم الرباعى السابق الذكر ما هو إلا تأكيد لهذه الاباحة وبذا يصبح الفكر الاسلامى تاريخيا اسبق من الفكر الأوربى الذى لم يهتم بذلك إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى وظل الفكر الأوربى حتى القرن الثامن عشر يعتقد بأن الصناعة والتجارة أنشطة غير نظيفة وعقيمة اقتصاديا، وهو ما يعنى أن الفكر الاسلامى سابق للفكر الأوربى فى ذلك بنحو الف عام تقريبا(١).

ويبدو أيضا أن قضية التخصص وتقسيم العمل كانت تشغل بال كثير من أهل الفكر فى العصر العباسى الأول فقد لاحظ الجاحظ أيضا وهو من أدباء هذا العصر هذه القضية فتجده يصف صناعة السيف وصفا دقيقا يؤكد فيها اهتمامه بهذه القضية فيقول : «ان السيف الذى يتقلده متقلد أو يضرب به ضارب قد مر على أيد كثيرة وعلى طبقات من الصناع كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه ولا يحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه لأن الذى يذيب حديد السيف ويميعه، ويصيغه، ويهذبه غير الذى يمده ويمطله، والذى يمده ويمطله (المد) غير الذى يطبعه ويسوى متنه، ويقيم خشبته، والذى يطبعه ويسوى متنه غير الذى يسقيه ويرهفه، والذى يرهفه غير الذى يركب قبيعته(٢) ويستوثق من سيلانه (اصل مقبضه) والذى يعمل مسامير السيلان(٣) وشاربى(٤) القبيعة ونصل السيف غير الذى ينحت خشب غمده، والذى ينحت خشب غمده غير الذى يدبغ جلده، والذى يدبغ جلده غير الذى يجلبه، والذى يجلبه ويركب نعله غير الذى يخرز حمائله»(٥).

---

(١) - رفعت العوض، من التراث الاقتصادى للمسلمين، المرجع السابق ص٣٣/٣٤/٣٥

(٢) - القبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد

(٣) - السيلان : بالكسر : سنخ قائم السيف : أى أصل مقبضه

(٤) - الشاربان : انفان طويلان فى أصل مقبض السيف

(٥) - الجاحظ ، رسائل الجاحظ، المرجع السابق حـ١ ص٧١/٧٢

وبعد أن انتهينا من عرض آراء الفقهاء والعلماء المسلمين بخصوص تقسيم الأنشطة الاقتصادية الى زراعية وصناعية وتجارية، وتقسيم العمل والصنائع بالصورة التى عرضها العلماء المسلمون نلخص من ذلك الى النقاط التالية :-

١ - وضح مما سبق أن الفكر الاقتصادى الاسلامى قد عرف تقسيم الأنشطة الاقتصادية المختلفة الى زراعية وصناعية وتجارية وأن الفكر الاسلامى قد حقق سبقا تاريخيا فى هذا المجال على الفكر الأوربى حتى فى العصر الحديث الذى عرف هذا التقسيم فيه ايضا.

٢ - عرف الفكر الاسلامى هذا التقسيم دون تفرقة بين أى نشاط منها من حيث الأهمية او الاباحة، كما قرر بأن المجتمع بحاجة اليها جميعا، فالمجاهد يحتاج الى المزارع لتوفير الطعام وغيره، والمزارع يحتاج الى المجاهد للدفاع عنه وحمايته وهكذا.

٣ - وفى مجال التخصص وتقسيم العمل فان الفكر الاسلامى قد حقق الأسبقية التاريخية ايضا على الفكر الاوربى والذى لم يظهر الاهتمام فيه بذلك إلا فى القرن الثامن عشر عندما تبنى آدم سميث فكرة تقسيم العمل.(١)

بينما ظهرت جهود علماء المسلمين فى ذلك فى فترة مبكرة منذ منتصف القرن السابع الميلادى باعتبار أن محمد بن الحسن الشيبانى هو أول من قال بذلك - على حد علم الباحث - وهو من معاصرى الدولة العباسية ثم تبعه من بعده الغزالى وغيره من العلماء ممن لا يتسع المجال لذكرهم وهؤلاء يمثلون من وجهة نظر الباحث مدرسة اقتصادية لها بعض الافكار فى هذا المجال نلخصها فى النقاط التالية :-

أ - اتفق الجميع على فكرة تقسيم العمل وتصنيف العمالة والصنائع وان اختلف كل واحد منهم فى طريقة عرض فكره إلا أنهم يتفقون على أن التخصص وتقسيم العمل يعتبر ضرورة اقتصادية والزام دينى عقائدى لتوفير متطلبات الافراد بغية الحصول على الثواب من الله عز وجل باعتبار أنه يقصد بعمله معاونة أخيه المسلم وتوفير متطلباته المختلفة.

ب - اهتموا بالتقسيم الاجتماعى للعمل وحاجة الناس لبعضهم البعض حتى تتم العملية الانتاجية فالشخص الواحد كيف يتولى الفلاحة وحده، وهو يحتاج الى آلاتها وتحتاج الآلة الى حداد ونجار على حد قول الغزالى رحمه الله ويحتاج الطعام الى طحان وخباز. كما اهتم البعض منهم بالمفاضلة بين صنعة وأخرى من حيث الموضوع والثمرة والغاية المرجوة منها.

حـ - لاحظوا جميعا تطور العملية الانتاجية فى الصناعة بشكل عام، والتقسيم الفنى لها وحاجة الصنعة الواحدة الى الصنائع الأخرى، وكذلك الأمر بالنسبة للعمل وحاجته للاعمال الأخرى.

---

(١) - عبدالرحمن يسرى، تطور الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص٨٢

د - المفاضلة بين الصنائع والعمل واردة، فالصنائع مختلفات ولها درجات وكذلك العمل، لكن يجب أن يكون الاعتبار فى المفاضلة بين الصنائع والأعمال هو المصلحة العامة للأمة افراد وجماعات دون تفرقة،

وبعد أن بينا بعضا من فكر علماء المسلمين من حيث تقسيم الأنشطة الاقتصادية المختلفة وفكرهم حول التخصص وتقسيم العمل نعود مرة أخرة الى واقع الدولة العباسية من حيث العمل الصناعى والحرفى فنقول : أدى انفتاح الدولة العباسية على العالم الخارجى بثقافاته المختلفة الى وجود كثير من الصناعات التى لم تكن موجودة فى الدولة الاسلامية، واحتراف كثير من ابناء الدولة بهذه الصناعات، فمثلا ظهرت المصابغ ومصانع الورق، وقد سمحت الدولة لكثير من هذه الصناعات الى الاستمرار والتطور فيها، تاركين لأهل البلاد الأصليين العمل فيها، وتتلمذ كثير من أبناء الدولة على أيدي أرباب هذه الصناعات الفنية.(١)

كما حاولوا تقليد أو نقل تلك الصناعات الى الامصار التى أنشأوها.(٢) اضف الى ذلك ايضا ما قامت به الدولة فى كثير من الاحيان من استقدام كثيرا من الأيدي العاملة الى الدولة العباسية فى تلك الفترة.

فيروى المؤرخون(٣)، أن المنصور عندما أراد بناء مدينته المدورة جمع الصناع من اقاليم مختلفة، وان المعتصم ايضا لما شرع فى انشاء عاصمته

---

(١) - . زكى محمد حسن، فنون الاسلام، دار الرائد العربى، بيروت، لبنان، توزيع الشركة اللبنانية للموسوعات العالمية طبعة ١٤٠١هـ/١٩٨١م جـ٣ ص ٥٣/٥٤

(٢) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢٦١

(٣) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٣٨

الجديدة فى سنة ٢٢١هـ فوضع أساس قصره احضر الفعلة والعمال والصناع، وأرباب المهن من الامصار الاسلامية واختط فيها الخطط(١)، وافرد للتجار وأرباب الحرف والصناعات اسواق خاصة.(٢)

ولا شك أن هذا كله قد أدى الى خلق تجمعات وتكتلات عمالية واسعة، كما أن استقدام هذه الاعداد الكبيرة من العمالة أدى الى ازدهار الصناعة نتيجة الاحتكاك وتبادل الحرف والصنائع، وهو ما سيتبين لنا فيما بعد(٣)، واذا أردنا أن نتصور هيكل العمالة الصناعية والحرفية فى العصر العباسى بناء على ما تقدم من خلال دراستنا للتركيبة السكانية والمهنية لعنصر العمل بالاضافة الى دخول اجناس كثيرة فى المجتمع العباسى يتصور الباحث أن الصناعات والحرف تنوعت من حيث الدقة وعدمها الى اشكال ثلاثة من العمال وهى على النحو التالى :-

أ - عمالة بسيطة :

وهى العمالة التى تعمل فى الحرف والصناعات الخفيفة كالحدادة والنجارة والعطارة، والمواد الغذائية وغيرها من الحرف والمهن والصناعات والتى لا تحتاج الى اكثر من المادة الأولية، وتعلم الحرفة المتعلقة بها.

ب - عمالة متوسطة :

وهى تلك العمالة التى تحتاج الى نوع متوسط من المهارة كصناعة الورق والمنسوجات الحريرية والمنسوجات الملونة، وصياغة الذهب وتكشيله بشكل غير معقد والمراكب البحرية وغيرها من الصناعات والتى لاتحتاج الى نوع من المهارة الفنية الدقيقة فى الصنعة، وهى فى الغالب تحتاج الى اكثر من مرحلة انتاجية فمثلا صياغة الذهب شىء، وتطعيمه وتشكيله فى صورة جميلة شىء آخر.(٤)

---

(١) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٢ ص٢٧٣

(٢) - الجاحظ، التبصرة بالتجارة، المرجع السابق ص٤٢

(٣) - سيأتى تفصيل ذلك عند الحديث عن أنواع الصناعات المختلفة فى العصر العباسى.

(٤) - يشير الباحث الى أن هذا التقسيم على اعتبار واقع المجتمع العباسى والا فصناعة الورق وغيره تعتمد الآن على مهارات وآلات فى غاية الدقة فالباحث هنا يتحدث عن واقع الصناعات والعمالة فى تلك الفترة محل البحث.

حـ - عمالة دقيقة :

وهى العمالة التى تحتاج الى مهارة عالية فى الصنعة والدقة، وقد وجدت فى هذا العصر صناعات دقيقة احتاجت الى مهارة عالية من الدقة والصنعة كصناعة الساعات والطواحين والمعادن والزجاج وتكرير السكر وصناعة الآلات المختلفة لأغراض الزراعة والصناعة والطب وغيرها وقد وجدت هذه النوعيات المختلفة من العمالة فى العصر العباسى الأول وهو ما سيتضح عند بيان أهم الصناعات فى العصر العباسى.

وبعد أن أنتهينا من توضيح التركيبة السكانية والمهنية لعناصر المجتمع العباسى الأول بقى علينا أن نوضح تنظيمات العمل والعمال بشكل عام فى الدولة العباسية وهذا يتطلب بيان التنظيمات المختلفة للعمال من جهة، ثم بيان التنظيمات المختلفة للعمل الحرفى من جهة أخرى.

ثالثا : تنظيمات العمال والعمل

أ: تنظيمات العمال وسلمها الحرفى:

تعود التنظيمات العمالية فى العصر العباسى الأول الى تنظيم أشبه بالنقابات العمالية فى أوربا حيث انتظم أرباب الحرفة الواحدة فى تنظيم اختيارى يرأسه اكبر اعضاء الحرفة سنا، وكان لهذا التنظيم صلة وثيقة بنظام الحسبة فى الاسلام، وذلك أن مراقبة الأسواق والمنتجات والمعاملات كانت تتطلب دراية بفنون كل صناعة، ومن ثم قدرة المحتسب على كشف مواضع الغش فيها، وتقدير نفقات الانتاج وأجور كل عملية انتاجية، ولهذا اختير من اعضاء كل حرفة عضوا منهم يسمى «عريف السوق» تكون مهمته مساعدة المحتسب فى الرقابة على أنشطة اعضاء مهنته وما يأتى الى الأسواق من منتجاتهم، وحالة الاسعار، كما كان يتولى شئون اعضاء حرفته والاشراف على مراحل انتاج كل منهم، ومن ثم كان حلقة الوصل بين الحكومة - ممثلة فى المحتسب - واعضاء الطائفة، كما كان يتولى فض المنازعات القائمة بين الاعضاء وبينهم وبين الحكومة، وبينهم وبين المتعاملين، خاصة ما يتعلق منها بالاثمان والاجور وجودة المنتجات المصنعة وبذلك يبدو أن عريف السوق هو مرادف لشيخ الطائفة الحرفية(١).

---

(١) - ربيع الروبى، التطور الاقتصادى فى مصر والعالم فى العصر الحديث عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م ص٣٨

وقد شهد العصر العباسى الأول تنظيمات مختلفة للعمال، وكانت هذه التنظيمات على شكل طوائف أو عشائر لكل حرفة من الحرف، وبالطبع لم تكن هذه الطوائف كالنقابات التى عرفت فى أوربا فى العصر الوسيط، وان كانت تشبهها فى بعض الأحيان من قريب أو بعيد - على ما سيأتى - وقد كان العامل فى هذه العصور عاملا، وفى نفس الوقت صاحب العمل، فهو يعمل فى بيته أو فى دكانه يساعده صبيان لا يعدون عمالا عنده، لأنهم كانوا أشبه بالتلاميذ يتعلمون منه الصنعة ويخدمونه فى نفس الوقت، ثم يشتغل كل واحد منهم بنفسه بعد ذلك، ومن هنا كانت العملية التعليمية للحرفة تتم فى شكل هرمى وفيما يلى شرح لهذا السلم الحرفى الذى يبدأ فيه الحرفى صبيا ثم صانعا ثم استاذا أو معلما ثم شيخا للحرفة وهاك التوضيح:

١ - الشيخ: (أو المختار)

وهى أعلى رتبة فى الحرفة فيسمى بالشيخ أو المختار لأنه يختار من بين المعلمين، وأحيانا يسمى بالرئيس فهو يرأس طائفته. ويكون فى العادة من أكبر اعضاء الطائفة سنا، واكثرهم حنكة ودراية وأقواهم شخصية، وعلى قدر من الخلق والدين، وكان يتولى تنظيم أمور الحرفة، وفض المنازعات التى قد تدور بين أعضاء الطائفة، أو أى مشكلة تطرأ للطائفة.(١)

وقد وجد فى المجتمع العباسى لكل طائفة شيخ، فللبزازين شيخ(٢)، وللنخاسين شيخ(٣)، وللملاحين شيخ(٤) وللخياطين شيخ أو رئيس(٥)، وللطباخين

---

(١) - ربيع الروبى، التطور الاقتصادى فى مصر والعالم فى العصر الحديث ص٣٩

(٢) - ابن الجوزى، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الطبعة الأولى بمطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن عام ١٣٥٩هـ حـ٨ ص١٧٢

(٣) - التنوخى، نشوار المحاضرة بتحقيق عبود الشابحى نشر شركة الفجر العربى، طبع بمطابع دار صادر بيروت، لبنان عام ١٩٧٢م حـ٣ ص٧٠ والنخاس: بائع الدواب والرقيق، المعجم الوسيط حـ٢ ص٩٠٩

(٤) - الجاحظ، الحيوان ، المرجع السابق حـ٢ ص١٢٦

(٥) - التنوخى، نشوار المحاضرة، المرجع السابق حـ١ ص٦٧

رئيس ايضا(١)، وللتجار رئيس كذلك(٢)· وكان يتم تعيين الشيخ أو الرئيس بالاختيار حيث يختار من قبل أهل الحرفة لما له من حنكة ومعرفة بأمور الدين بالدين والمهنة، وحسن فى الخلق فتعترف به السلطة الحاكمة، وكثيرا ما كان يعتمد عليه المحتسب فى فض المنازعات، ومراقبة الأسواق، وكانت له وظائف متعددة، فهو يمثل الطائفة فى كافة القضايا العامة، ويتدخل فى مراقبة الاسعار والموازين بالتشاور مع المحتسب(٣)، وكان يستشار فى أمور صنعته(٤)، ويرجع اليه عند الشك أو الاختلاف فى أمر من أمور المهنة·(٥)

٢ - الاستاذ أو (المعلم) :

هو صانع احترف المهنة لمدة طويلة حتى سمح له بمزاولة المهنة لحسابه الخاص· ومن ثم فلابد أن يلم بكل دقائق الحرفة حتى ينال لقب استاذ أو معلم، وهو لقب يميز به على غيره من أهل الحرفة قليلى الكفاءة، كما أنه يمكنه بذلك أن يعلم غيره من الصبية الراغبين فى تعلم الحرفة·(٦)

ولهذه الرتبة الحرفية أهميتها فى تعلم الصبية لحرفة معينة، إذ لابد لكل صانع من استاذ يعلمه صنعة، والمعلم بلاشك يحرك القوى الكامنة لدى الصبى فيكتسب الخبرة والمعرفة وهو ما أكده ابن خلدون فى مقدمته بقوله : «اعلم

---

(١) - ابن عبدالرؤوف، رسالة فى آداب الحسبة والمحتسب، بعناية الاستاذ إليفى بروفنسال، مطبعة المعهد العلمى الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة ١٩٥٥م ص٩٦/١٠٤

(٢) - ابن عبدربه، العقد الفريد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة عام ١٣٥٩/١٩٤٠، بتعليق أحمد أمين، وأحمد الزين وابراهيم الابيارى جـ٢ ص٤١١

(٣) - ابن عبدالرؤوف، آداب الحسبة، المرجع السابق ص١٠٦

(٤) - الطبرى، تاريخ الأمم والملوك، المرجع السابق جـ٧ ص٦٥٤

(٥) - ابن بسام، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة بتحقيق حسام الدين السامرائى، مطبعة المعارف بغداد عام ١٩٦٨م ص١٠١، الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص١٠٨/١٠٩

(٦) - ربيع الروبى، التطور الاقتصادى فى مصر والعالم فى العصر الحديث، المرجع السابق ص٣٩

أن الصناعة هى ملكة فى أمر علمى فكرى٠٠٠والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى، حتى ترسخ صورته، وعلى نسبة الأصل تكون الملكة٠٠٠وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم فى الصناعة وحصول ملكته»٠(١)

اذن فلابد لكل صنعة من معلم لها، وقد كان فى المجتمع العباسى اساتذة ومعلمون لتعليم الحرف المختلفة، فللقطانين استاذ(٢)، وكان لكل استاذ أو معلم عدد من الصنائع الصغار يعلمهم صنعته ويمكنهم فيها، ويعاونونه هم بدورهم فى صنعته٠(٣) وكان هؤلاء المعلمون يحددون مستوى الصنعة، وأجورها المناسبة فى حالات الخلاف كما كان المعلم بمثابة الوالد لصناعه وصبيانه المبتدأين، يشترك فى تزويجهم، ويتوسط فى خلافاتهم٠(٤)
وفى الغالب كانت أجور الصناع أقل من أجور الاساتذة(٥) وقد يتحمل الاستاذ تبعة أعمال صناعه - فى بعض الأحيان - ، فاذا تلف شىء من المنتج فى يد الصانع، أو غش فى شىء تكون الغرامة عليه عادة٠(٦)

٣ - الصانع :

هو شخص يريد أن يتعلم صنعة أو حرفة من الحرف، فليتحق باستاذ له ليتدرب على يديه من أجل اتقان الحرفة وتعلمها٠

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق حـ٢ ص٤٨٢

(٢) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ٧ ص٧٤، القطان : من يتجر بالقطن ويغزله، انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ص٧٥٤

(٣) - أخوان الصفا، رسائل أخوان الصفا وخلان الوفاء بيروت عام ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م ص٢٩٤، ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق حـ٢ ص٤٨٢، الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص١١٠/١١١٠

(٤) - حسين مؤنس، عالم الاسلام، دار المعارف بمصر ص٢٤٣

(٥) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٧ ص٦٥٥؛ المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص٢٣١

(٦) - ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص١٣

ومن طرائف ما ذكره ابن الأثير فى ذلك أن والدة أبو يوسف - رحمه الله - كانت تأخذه وهو صغير الى القصار(١) ليتعلم منه، وكان - رحمه الله - يمر بحلقة أبى حنيفة - رحمه الله - فيجلس فيها، فكانت أمه تتبعه وتأخذ بيده من الحلقة الى القصار، فيخالفها ويذهب الى أبى حنيفة، فلما طال ذلك عليها قالت لأبى حنيفة أن هذا صبى يتيم ليس له شىء إلا ما أطعمه من مغزلى، وانك قد افسدته علىَّ، فقال لها : اسكتى يا رعناء، ها هو ذا يتعلم وسيأكل الفالوذج بدهن الفستق فى الفيروزج، وقد تحقق ذلك فعلا، فقد جلس رحمه الله مرة مع هارون الرشيد فقدموا اليه صحنا لم يعرف ما فيه فسأل ما هذا؟ فأخبره الرشيد بأنه الفالوذج فتبسم، وتذكر ما قاله أبو حنيفة - رحمه الله - لوالدته فسأله الرشيد عما يضحكه فأخبره بالقصة.(٢)

لكن الصانع يختلف عن مسمى الصبى الذى يتعلم الصنعة، إذ الصانع بدأ عملية التعليم للصنعة لكنه لم يصل الى درجة الدقة فيها لذا فهو يسمى «صانع» فهو فى مرحلة متقدمة عن مرحلة المبتدىء (الصبي)، ويقوم الصانع بمساعدة استاذه فى عمله(٣). وقد يأخذ أجرا على ذلك، وقد يكون أجره عبارة عن اطعامه وكسوته(٤). ولذلك يجب عليه أن يحترمه ويطيعه، وقد يقضى له حاجاته، ويجب عليه أن لايخطىء فى عمله، ويصبر على استاذه فى كل ما يصدر عنه من خطأ.(٥)

---

(١) - القصار : المبيض للثياب أو من يقصره ويحوره لأنه يدقه بالقصرة التى هى القطعة من الخشب ولهذا يقال حرفته القصارة أى يقصر الثياب، انظر ابن منظور ، لسان العرب، المرجع السابق جـ٥ ص١٠٤، المعجم الوسيط جـ٢ ص٧٤٥

(٢) - ابن الأثير، البداية والنهاية، مطبعة السعادة القاهرة جـ١٠ ص١٨٠

(٣) - ابن الأخوة، معالم القربة فى احكام الحسبة مطبعة دار الفنون بكيمبرج ١٩٣٧م واعادت طبعه مكتبة المثنى بغداد ص١٣٩، الاصفهانى، الاغانى، المرجع السابق جـ٥ ص١٠٤، التنوخى، نشوار المحاضرة، المرجع السابق جـ١ ص١١٠

(٤) - التنوخى، الفرج بعد الشدة، بتحقيق عبود الشايجى، دار صادر بيروت طبعة عام ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م جـ٢ ص٣٩١

(٥) - وكيع، أخبار القضاة، المرجع السابق جـ٢ ص٣٠١

٤ - المبتدىء أو (الصبى):

وهو أشبه بتلميذ فى مرحلة تعلم المهنة، يلحق بدكان أو مصنع أحد المعلمين ليقضى فترة تمرين وتعلم للحرفة تصل الى سبع سنين، ولا يتقاضى عن عمله أجرا، ويعيش عند المعلم - غالبا - مؤديا له كافة خدماته، مطيعا له، وعندما يتقن الصبى المهنة ويشتد ساعده يصبح صانعا، ويحق له أن يتقاضى أجرا على عمله، وقد كان لكل معلم عدد معين من الصبية يعلمهم الصنعة ويدربهم عليها.(١) وبالاضافة الى - ما سبق بيانه - من تنظيم للعملية التعليمية والتدرج فيها كان هناك ايضا تنظيما للعمل الحرفى، تجدر الاشارة اليه بشىء من التفصيل.

ب - تنظيمات العمل الحرفى والواجبات التى تتعلق بالعمال والعمل

١ - تنظيمات العمل الحرفى:

شهد العمل الحرفى تنظيما مختلفا لكافة الحرف التى كانت موجودة فى العصر العباسى، وقد ذكرت المصادر المختلفة كثيرا من المعلومات عن الاسواق وكيفية تنظيمها وعملها، وكذلك الرقابة عليها من محتسبين راعوا شئونها من كافة الوجوه. ويتضح لنا شكل تنظيم العمل الحرفى فى العصر العباسى الأول من خلال الاسواق المتخصصة بكل عمل، وكذلك من خلال المساكن التى خصصت لكل مهنة للاقامة فيها، فقد تجمع التجار فى اسواق متخصصة، وقد عرف هذا التخصص منذ العهد الأموى . فقد ذكر أن الحجاج حين بنى واسط «قطع لأهل كل تجارة قطعة لا يخالطهم غيرهم».(٢)

وفى عهد الدولة العباسية اهتمت الدولة بالاسواق وأعطتها عناية خاصة عندما بدأ المنصور فى بناء مدينة بغداد رتب - رحمه الله - اسواق الكرخ فخصص لكل صنف من التجارات والتجار شوارع معلومة وصفهم صفوفا فى

---

(١) - ربيع الروبى، التطور الاقتصادى فى مصر والعالم فى العصر الحديث ص٤٠، الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص١١٣/١١٤

(٢) - بحشل، تاريخ واسط، تحقيق كوركيس عواد، طبعة دار المعارف بغداد ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص٤٤

تلك الشوارع والحوانيت بحيث لا يختلط قوم بقوم، ولا تجارة بتجارة، ولايباع صنف مع غير صنفه.(١) كما سكن التجار فى محلات خاصة بهم، فخصص الكرخ لسكن التجار فى بغداد(٢)، وسوق يحيى(٣)، وسوق العطش(٤)، كما تجمع تجار خراسان من البزازين فى محلة واحدة.(٥)

أما الصيارفه فقد تجمعوا هم ايضا فى اسواق خاصة بهم، فتجمعت حوانيت الصيارفة فى الكوفة فى القرن الأول الهجرى فى مكان واحد، وقد كان درب عون فى بغداد مقرا للصيرفة فى العصر العباسى(٦)، وفى المجال الصناعى والحرفى كان فى بغداد عدد كبير من دور الصناعة ، وقد قيل انه كان بها أربعمائة رحي مائية، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف.(٧) وكان لكل حرفة سوق خاصة، كسوق الحدادين وسوق النجارين، وسوق البزازين(٨). وقد ذكر المقريزى ايضا أنه كان بمصر أماكن خاصة بالعمل التجارى والصناعى، فقد كان بها اسواق متنوعة كسوق الدجاجين (باعة الدجاج)، وسوق لبيع الاسلحة يسمى (بسوق السلاح)، وسوق للحلاوانيين (باعة ما يتخذ من السكر)، وسوق الشوايين (باعة الشواء) وسوق الصاغة...الخ من الاسواق المتخصصة.(٩)

---

(١) - اليعقوبى، البلدان، باعتناء دى غويه، ليدن ١٨٩١، المرجع السابق ص٢٤٦، الهمدانى، بغداد ، مدينة السلام، الطبعة الأولى، دار الطليعة للطباعة والنشر ، باريس ص٣٧/٣٨

(٢) - الاصطخرى، المسالك، والممالك، المرجع السابق ص٥٩، ابن الأثير ، الكامل، المرجع السابق حـ٢ ص٦١٩

(٣) - الهمدانى، بغداد مدينة السلام، المرجع السابق ص٣٨

(٤) - الصابى، الوزراء، المرجع السابق ص٢٨/٦٩، ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٣ ص٢٨٤، الهمدانى، بغداد مدينة السلام، المرجع السابق ص٥٥/٥٦

(٥) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٤٥

(٦) - التنوخى، نشوار المحاضرة، المرجع السابق حـ١ ص٢٠٤

(٧) - أمين زكى، كتاب عمران بغداد ، المرجع السابق ص٥٠

(٨) - الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص٧٤/٧٥

(٩) - المقريزي، الخطط ، المرجع السابق حـ٢ ص٩٥/٩٧

وبناء على ما تقدم فقد شهد العمل الحرفى بصفة عامة تنظيمات مختلفة فى العصر العباسى الأول، فقد كان هناك تنظيم للاسواق المختلفة، فالتجار لهم اسواق خاصة والصناع وأهل الحرف لهم أسواق خاصة بهم ايضا، وقد قامت الدولة العباسية بدور هام فى ذلك فاقطعت المساكن الخاصة لأهل كل صنعة وتجارة ليسكنوا فيها.

وهذا التنظيم فى العمل والسكن - بلا شك - يخدم العملية الانتاجية، فاذا كان أهل كل صنعة فى مكان واحد، يتصور أن يؤدى ذلك عادة الى وجود التعاون فيما بينهم فى مجال العمل، كذلك يفيد أيضا العملاء، فيستطيع العميل اذا اراد الشراء أن يمر على كل المعروض فيختار أجوده وأحسنه، وبالتالى يؤثر ذلك على جودة الصنائع، فيحاول كل صانع أن يجود من صنعته ويظهرها بالمظهر اللائق بها، وهو بلاشك يؤدى الى تطور العملية الانتاجية ويجعلها دائما فى تطور الى الأحسن، حيث يراقب الصانع صناعة زميله، أضف الى ذلك ايضا ما يفيده تجمع أهل كل تجارة أو حرفة فى مكان واحد، من الروابط الاجتماعية وغيرها فيما بينهم بعضهم بعضا فى مختلف الظروف الاجتماعية التى قد تمر بكل واحد منهم، فيقدم الواحد منهم العون لأخيه اذا احتاج الى المعاونة وهو أمر يحث عليه الدين الاسلامى، ويدعو اليه ولا يخفى ما لذلك من أثر على الاستقرار النفسى والعائلى لأهل الصنائع والحرف وغيرهم، والذى ينعكس - بلا شك - على العملية الانتاجية وكمية الانتاج وتطوره.

واذا انتقلنا الى واقع المجتمع العباسى فى تلك الفترة وما أفاده هذا التنظيم للعمل الحرفى للمجتمع يتبين لنا أن الحرف والصنائع أدت دورها فى المجتمع فوفرت كل ما تحتاجه الأمة من مصنوعات ضرورية وكمالية، ونستطيع أن نتبين ذلك من بعض المعلومات التى حصلنا عليها، عن اعداد الصناع والصنائع المختلفة فى تلك الفترة وهو ما يعكس أهمية الصناعة ودورها فى ذلك الوقت.

فقد قدر عدد العاملين يوميا فى بناء مدينة بغداد أيام المنصور بخمسة ألف رجل(١) وهو عدد كبير من العمال لا يستهان به - فى تلك الفترة - ، كذلك قدر عدد الذين جمعهم المنصور من أصناف المهن والصناعات المختلفة لبناء مدينة بغداد بمائة الف.(٢) وهو يشير الى عدد كبير وهائل فى مجال الصناعات والحرف فضلا عن الصنائع والحرف الأخرى والتى لم تشارك فى بناء المدينة، وبالتالى يمكن أن نتصور مما تقدم بيانه تكتلات حرفية كبيرة كانت فى المجتمع العباسى آنذاك.

ويؤيد ذلك ايضا أن سوق الوراقين ببغداد كان به أكثر من مائة حانوت(٣). وقد روى ابن الفقيه عدد الحجامين وأصحاب الحمامات فى بغداد بثلاثمائة الف وستين حمامى وحجامى(٤).

ومهما تكن المبالغة فى بعض الارقام إلا أنها تدل على كبر الطبقة العاملة وكثرة الصنائع والحرف فى ذلك الوقت.

كما أن وجود الاسواق فى أماكن مخصوصة وتنظيم العمل الحرفى فيها وعناية الخلفاء بها فانه يشير الى أهمية تنظيم العمل والعمال فى المجتمع العباسى وان قضية هذا التنظيم كانت تشغل فكر الخلفاء مما كان له أثره على الحياة الاقتصادية بشكل عام وعلى الانتاج والعمالة بشكل خاص.

وبعد أن بينا تنظيمات العمل والعمال وأهمية ذلك فى المجتمع العباسى نود الاشارة الى أهم الواجبات التى كان أهل الحرف والصنائع يتقيدون بها، سواء أكان ذلك على مستوى الصنعة، أو على مستوى العمل الحرفى ذاته بشىء من التفصيل.

---

(١) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق جـ٣ ص٣١٨

(٢) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٣٢/٢١

(٣) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٤٤

(٤) - ابن الفقيه الهمدانى، بغداد مدينة السلام، المرجع السابق ص٩٢/٩١

٣ـ الواجبات التى تتعلق بالعمال :

كان للتنظيمات الحرفية التى نظمها أهل كل حرفة واجباتها تجاه العامل كما كان للعامل فى المقابل واجبات أخرى ايضا.

وكان من أهم واجبات التنظيم الحرفى المحافظة على مصالح العاملين فى الحرفة، ودفع الضرر عنهم، كما كان يقتضى التنيظم الحرفى ايضا، أن يظل الصبي - مثلا - تحت التدريب عدة سنوات بدون أجر وأحيانا بأجور تشجيعية، وخلال هذه الفترة التعليمية، يكون الصبى خادما لمعلمه فى الدكان، والبيت ثم يصبح صانعا ثم استاذا (معلما) فيستطيع بعد ذلك أن يفتح دكانا، ويقبل اعمالا لحسابه الخاص، وقد يقضى فى تلك الفترة التعليمية ما بين اثنى عشر عاما أو خمسة عشر عاما.

وكان اعضاء الطوائف يرتبطون فيما بينهم بروابط مختلفة حسب العادات والتقاليد، وقد كانت هذه الروابط بمثابة قواعد يلتزمون بها، فللمعلم على الصناع والصبيان حقوق لا يمكنه تجاهلها من احترامه وخدمته والامانة من معاملته. ولهم كذلك عليه حقوق فيما يتصل بالأجور فكان الاساتذة (المعلمون) هم الذين يحددون مستوى الصنعة وأجورها المناسبة فى حالات الخلاف، وكان الاستاذ بمثابة الوالد بالنسبة للصناع والصبيان فهو يشترك فى تزويجهم ويتوسط فى خلافاتهم العائلية وفى الغالب يكون زواج أهل الحرفة فيما بينهم.(١) كذلك كان على العامل أن يحفظ اسرار مهنته، ولا يبيح بها الى غيره من العمال ممن ليسوا فى حرفته.

ونظرا لأهمية العرف والتقاليد المهنية والحرفية اعتبرها بعض الفقهاء أساسا يمكن الرجوع اليه فى حالات الخلاف، التى تتعلق باصحاب الحرف والصنائع حتى أن بعضهم اشترط فى المحتسب أن يكون من أهل الاجتهاد والعرف.(٢)

---

(١) - . حسين مؤنس، عالم الاسلام، دراسة فى تكوين العالم الاسلامي وخصائص الجماعات الاسلامية، المرجع السابق ص٢٤٢/٢٤٣

(٢) - ابن الأخوة، معالم القربة، المرجع السابق ص٩

قال الماوردى - رحمه الله - "وله (للمحتسب) اجتهاد رأيه فيما تعلق بالعرف دون الشرع كالمقاعد فى الاسواق، واخراج الأجنحة فيه فيقر وينكر من ذلك ما أداه اجتهاده اليه"٠(١)

وقد أصبح العرف بمرور الزمن نظاما أو شبه قانون يسير عليه أهل الحرف والصنائع - وبالطبع كان ذلك فيما لا نص فيه من قبل الشرع -٠

ومن العادات والتقاليد ايضا التسمى بالمهنة بين أهل الحرف والصنائع، وتعصبهم لها، حتى اصبح بعضهم اسمه مشتق من اسماء المهن نفسها فهذا جراح وذلك بزاز وآخر عطار٠٠٠الخ، وانتشرت بذلك فى كتب التاريخ والجغرافيا والأدب وغيرها القابا تدل على الحرف والمهن المختلفة فى ذلك العصر مثل السماك والتمار والجوهرى والنفاط والسراج والزجاج، والفراء، والعلاف، والوراق، والقصار والصباغ والجصاص، والنقاش والصابونى، والسباك، والصائغ والقصاب٠٠٠٠الخ٠(٢)

ومن العادات ايضا أن ابناء أهل الحرف كانوا يتوارثون المهنة نفسها، حتى قيل: "ان صناعة الآباء والاجداد أنجع فى الأولاد من صناعة الغرباء"(٣)٠ كما كانوا يتعصبون لها، وكان الواحد من أهل الحرفة يرى بأنها أهم من غيرها من الصنائع، وأن حاجة الناس اليها أشد من غيرها٠(٤)

٢- الواجبات التى تتعلق بالعمل :

ونعنى بذلك الواجبات الملقاة على عاتق العامل تجاه العمل الذى يقوم به فى مجال صنعته وحرفته من اتقانها وجودتها واظهارها بالمظهر اللائق بها، ومن ثم تبدو أهمية هذا الأمر من عدة جوانب٠

---

(١) - الماوردى، الاحكام السلطانية، المرجع السابق ص٢٤٠

(٢) - الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص١٣٠/١٣١، القصاب : الجزار، المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ص٧٤٤

(٣) - اخوان الصفا، رسائل أخوان الصفا، المرجع السابق ص٢٩١/٢٩٢

(٤) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق حـ١ ص٢٩١

أ - معرفة الصنعة واتقانها :

ويعنى ذلك المعرفة الدقيقة بالصنعة واتقان العملية الصناعية، والاتقان لأى عمل يعد من المبادىء الاساسية فى المنهج الاسلامى، اذ ان العمل المتقن هو أساس لكل عمل حرفى كان أو غير حرفى قال ﷺ :«ان الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه»(١)، وبالتالى فان اتقان الصنعة والمعرفة بها، يعد - اسلاميا - من القواعد الهامة التى يقوم عليها التصنيع فى المنهج الاسلامى. وقد طبق هذا المبدأ منذ عهد الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون، ومن بعدهم.

والواقع العملى فى المجتمع العباسى يثبت أن هذا المبدأ كان مطبقا فى المجتمع العباسى الأول، فنجد أن المنصور لما شرع فى بناء مدينة بغداد، اختار العمال المهرة والذين لديهم معرفة دقيقة بصناعتهم المختلفة، فالمعرفة بشئون البناء والهندسة كانت أمرا ضروريا فى اختيار الصناع والفعلة للعمل فى بناء مدينة بغداد.(٢) كما منع أن يتقدم على أطعمة الناس إلا من عرف جميع الاطعمة، وكان عليه أن يغسل يديه بماء طاهر، وأن يكون فى يديه خراقة نظيفة طاهرة ينشف يديه فيها(٣). وفرض على الجزارين معرفة الطرق الواجب اتباعها فى ذبح الذبائح.(٤)

---

(١) - الحديث، رواه البيهقى فى شعب الايمان عن عائشة رضى الله عنها وعن كليب فى رواية أخرى ومتنه «ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه» وقد ذكر السيوطى فى الجامع الصغير ان الروايتين ضعيفتين، انظر السيوطى، الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير حـ١ ص٢٨٤

(٢) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٧ ص٦١٨

(٣) - ابن الأخوة، معالم القربة، المرجع السابق ص١٠٩ والخراقة - القطعة من القماش القديم ينظف بها الشخص يديه

(٤) - الشيزرى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، المرجع السابق ص٢٨/٢٩

ولابد أن يتقن الصانع صنعته على يد استاذ حاذق بها يعلمه اسرارها، ويجهد الصانع فى ذلك نفسه فى تعلمها، واتقان اسرار الصنعة أمر ضروري قبل ممارستها.(١) ولذلك صار من المعروف أن اسرار الصنعة أصبحت حكرا على أفرادها يعرفونها ويحافظون عليها، فالصاغة - مثلا - يعرفون من اسرار صنعتهم مالا يعرفه غيرهم.(٢) وكان من مظاهر اتقان الصنعة بالنسبة للخبازين رقة رقائق الخبز ونضوجها، فلا تخرج من النار حتى تنضج نضوجا تاما دون أن تحترق، كذلك يجب أن يختمر العجين جيدا.(٣) كما يجب على الزجاجين أن لا يخرجوا الزجاج من الكور إلا بعد اكتمال نضجه(٤).

وهكذا كان الاهتمام بنوعية المنتج ودرجة اتقانه من المبادىء الهامة فى الصناعة، وكانت رداءتها وعدم صلاحيتها تعرض الصانع للعقاب، وهذا العقاب اما أن يكون برد المنتج اليه أو بالتشهير به أو تعزيره(٥) أو منعه من مزاولة المهنة(٦).

ب - العناية بالمواد الأولية، ونظافتها وتوفيرها للعملية الانتاجية :

اهتمت الدولة بالمواد الأولية ونظافتها، فاهتمت بتوزيع المواد الأولية، حيث منع باعة القصب - مثلا - من بيع شىء من القصب الى أن يكتفى سائر أصحاب الاشغال والنباتات وما فضل من ذلك ابتاعوه للتجار وخزنوه.

---

(١) - الاصفهانى، الاغانى، المرجع السابق حـ٥ ص٢٢٤

(٢) - الشيزرى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٧٨/٧٧، ابن الأخوة، معالم القربة، المرجع السابق ص١٤٦

(٣) - الشيزرى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٢٣، ابن الأخوة، معالم القربة، المرجع السابق ص٩١، ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٢١

(٤) - ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص١٩٠ الكور هى الأوانى المعدة بأشكال مختلفة فيوضع فيها الزجاج فيخرج الزجاج

(٥) - ابن عبدون ، رسالة فى القضاء والحسبة، المرجع السابق ص٣٢، ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٧٨

(٦) - الشيزرى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص١٣٥، ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص١٧

يقول ابن بسام : «ينبغى أن يعرف عليهم عريفا ثقة الى أرباب مراكب القصب بأن يوفروا حزمهم كلها، ولا يحيلوا على صبيان المراكب ولا يقبل لهم عذر»·(١) وقال ايضا : «ولا يبع لأحد من الخزانين شيئا من القصب الى أن يكتفى سائر أصحاب الاشغال والعمارات، ومهما فضل عن هؤلاء ابتاعوه للتجار وخزنوه»(٢)·

كما منع الحطابون الذين يبتاعون للخزين، من شراء الحطب عند قدوم المراكب الى أن يكتفى الخبازون وأهل البلد، وما فضل عنهم وكسد اشتروه(٣)، ومعنى ذلك أنه لا يجوز التصرف فى المواد الأولية التى يحتاجها مصنع من المصانع أو حرفة من الحرف حتى يكتفى من مواده الأولية، وبالطبع كان لذلك أثره على العملية الانتاجية، من ناحية كميتها وسعرها، لأنه إذا قلت المادة الأولية فى أي صنعة من الصنائع فان ذلك بلا شك سينعكس على المنتج وعلى مستوى سعره أيضا وكذلك إذا توفرت فانه ينعكس على كمية المنتج وسعره أيضا·

وأما نظافة السلع المنتجة، ونظافة وسائل الانتاج وحوانيت العمل، فقد كانت أمرا ضروريا، وقد ذكرت كتب الحسبة أمثلة كثيرة على ذلك منها أنه كان يطلب من الخبازين نظافة أوعية الماء التى يستخدمونها وتغطيتها، ونظافة ما يغطى به الخبز، وما يفرش تحته وغسل المعاجن جيدا(٤)· كما طلب من الجزارين عدم نفخ اللحم بعد السلخ لأن نكهة الآدمى تغير اللحم وتزفره·(٥) ومراعاة نظافة اللحم وخلوه من الغدد والعروق والجلود قبل نقعه فى الماء والملح لمدة طويلة·(٦)

---

(١) - ابن بسام، نهاية الرتبة بتحقيق حسام الدين السامرائى، المرجع السابق ص٦٤

(٢) - ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٦٤

(٣) - ابن بسام، المرجع السابق ص٦٣

(٤) - الشيزرى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٢٣

(٥) - ابن الأخوة، معالم القربة، المرجع السابق ص٩١

(٦) - الشيزرى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٣٦/٢٧، ولمزيد من التفصيل فى ذلك يمكن مراجعة كتب الحسبة·

وقد كان المحتسب يراقب هذه الأعمال كلها كما كان له مساعدون يساعدونه فى عمله من أهل الخبرة من كل صنعة وحرفة، وكان يسمى "العريف"، ويخضع هذا العريف لاختبارات فى مهنته وخاصة المهن التى تتصل بأرواح الناس، ومن هذه المهن الصيادلة والاطباء والكحالون وغيرهم، فالكحالون يجب عليهم أن يكونوا على علم تام بامراض العيون، وكيفية تشخيصها وعلاجها(١).

وبناء على ما تقدم فما من شك أن هذه التنظيمات المختلفة للعمل والعمال فى الدولة الاسلامية بشكل عام، والدولة العباسية بشكل خاص، كانت تشبه ما كان يعرف فى أوربا بنظام النقابات المهنية فى العصور الوسطى، ويقتضى المقام منا الآن أن نقارن بين هذين النظامين فى كلا المجتمعين بشىء من التفصيل لنقف على أوجه التشابه والاختلاف بين النظامين، ثم مميزات نظام الطوائف والتنظيمات العمالية فى الدولة الاسلامية على تلك النقابات الأوربية بشىء من التفصيل :-

رابعا: مقارنة بين نظام النقابات الأوربية ونظام الطوائف الاسلامية :

عرف نظام النقابات منذ فترة طويلة من التاريخ، إذ تشير المصادر التاريخية الى وجود النقابات فى الامبراطورية البيزنطية، وقد كانت هناك جماعة تسمى بجماعة الخبازين فى القرن السادس، وهيئات الموثقين والتجار، والصاغة والقصابين، والطحانين وصناع النسيج، وصناع الاقفال، والسباكين، وصناع الجلود والرسامين وغيرهم.(٢)

وقد كان للمنظمات الحرفية البيزنطية أحياء خاصة فى المدينة، وكان لكل أهل مدينة وحرفة سوق خاص، فكان للجزارين سوق، ولباعة السمك سوق، وتمركز العطارون فى مكان خاص بهم، واذا أراد شخص أن يفتح دكانا، وجب

---

(١) - ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٨٥، ولمزيد من التفصيل راجع ص ٦٦١

(٢) - الباز العرينى، كتاب والى المدينة، الملحق الرابع من كتاب الشيرزى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، المرجع السابق ص١٥٢.، ول ديورانت، قصة الحضارة، المرجع السابق حـ٤ ص١١١

عليه أن يجعل بينه وبين من يشغل دكانا قديما مسافة اذرع وأثنى عشر قدما، فان لم يلتزم بهذه الأوامر دفع غرامة، وطرد من النقابة.(١)

كما تدل الوثائق التاريخية ايضا على وجود هذه النقابات فى أوربا، وقد بدأت فى شكل طوائف مختلفة يقول صاحب قصة الحضارة : «وكانت الطائفية أقوى ما تكون فى ايطاليا حيث بقيت الهيئات والانظمة الرومانية القديمة حافظة لكيانها على خير وجه، ففى فلورنس مثلا نجد فى القرن الثانى عشر اتحادات للحرف - كالموثقين وصناع الملابس، وتجار الصدف، واصحاب المصارف، والاطباء، والصيادلة، والبزازين وتجار الفراء، والدباغين، وصانعى الاسلحة».(٢)

وبناء على ما تقدم فان نظام النقابات قد وجد قبل وجود الدولة الاسلامية، وخاصة إذا ما علمنا أن هذه النقابات والطوائف قد وجدت فى بعض البلاد الاسلامية، وخاصة تلك التى كانت تحت السيطرة البيزنطية قبل الاسلام كسورية، ومصر(٣)، فلما دخل المسلمون هذه البلاد وجدوا نظما وتقاليد متعددة ومتنوعة، وقد أباح بعضها الاسلام والتى كانت لا تتعارض مع مبادئه ومقاصده واستمر الحرفيون فى المدن المفتوحة بممارسة اعمالهم بحرية مضبوطة بضوابط الشريعة ومقاصدها العامة - والتى سبق أن أشرنا الى بعض منها - كما أن استيطان الحرفيين من غير العرب فى المدن الاسلامية، وممارستهم مهنا وحرفا متنوعة - كما اسلفنا - قد ساعد على نقل كثير من أساليب وتقاليد عمل هؤلاء الحرفيون الى المجتمع الاسلامى.(٤)

---

(١) - الباز العرينى، كتاب والى المدينة، المرجع السابق ص١٤١/١٥٤.

(٢) - ديورانت ول، قصة الحضارة، المرجع السابق حـ٤ ص١١٢

(٣) - ارستوفتزت، م تاريخ الأمبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى، ترجمة زكى على، القاهرة عام ١٩٥٧م حـ١ ص٢٤٤

(٤) - الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص٧٠/٧١

وبناء عليه يتضح أن النقابات أو التنظيمات الحرفية تاريخيا وجدت قبل وجود الدولة الاسلامية على أن هذه النقابات الأوربية قد ظهرت أثر وجود ظروف وأوضاع اجتماعية مختلفة احتاج الأمر فيها الى مثل هذه النقابات لتحقيق أهداف وغايات سامية تحقق نوعا من العدل والاستقرار الاقتصادى وفيما يلى محاولة لعرض مهام هذه النقابات وأهدافها فى أوربا فترة العصور الوسطى ومن ضمنها الفترة التاريخية محل البحث، وهل تحقق الهدف من قيامها أم لا؟

مهام النقابات الأوربية وأهداف قيامها :

استهدفت النقابات فى العصور الوسطى، أهدافا كثيرة اختلفت من مكان لآخر ومن نقابة الى أخرى، وقد كانت النقابات فى بدايتها تتشكل من تجار المدن، وكان الهدف من هذا التكوين حماية انفسهم من اعتداء الامراء ونهبهم من ناحية، ورعاية مصالحهم فى الاسواق البعيدة من ناحية أخرى، وفى مرحلة أخرى متأخرة فى العصور الوسطى أخذت نقابات التجار فى تنظيم شئون التجارة داخل المدينة ذاتها، ففرضت على كل فرد خارج النقابة يريد مباشرة نشاط التجارة داخل المدينة أن يخضع لتعاليم النقابة، وأن يدفع رسما معينا مقابل السماح له بمباشرة نشاطه، كذلك حرصت نقابة التجار على حماية مستوى الانتاج والبضائع والتمسك بمبادىء الكنيسة الخاصة بالامانة وعدم الغش(١).

ويبدو أن الغش والتدليس التجارى كان منتشرا فى أوربا فى تلك الفترة وكان ذلك أثره فى قيام النقابات وظهورها، يظهر ذلك من خلال النصوص الكثيرة التى وردت فى هذا الشأن ومن ذلك ما ورد فى كتاب حياة العصور الوسطى للاستاذ كولستون حيث يقول : «.... أن الغشــاشين الأوائل، إنما هم

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٣١٤

أنتم الذين تعملون فى مهنة الملابس والحرير، أو فى الصوف أو الفرو أو الأحذية، أو القفازات(١) أو الأحزمة، أن الناس لا غنى لهم عنكم بحال من الاحوال، انما هم حتما فى حاجة الى الملابس لذا وجب عليكم أن تخدموهم، وأن تقوموا بعملكم بذمة، وأمانة لا أن تسرقوا نصف القماش أو تلجأوا الى ضرب آخر من ضروب الغش، أو تخلطوا الشعر مع صوفكم، أو تشدوه بحيث يبدو طويل الفتلة، وبحيث يظن المرء أنه حصل على قماش جيد على حين أنكم حددتموه حتى صار فتلته أطول مما يجب وبذلك تكونوا قد حولتم القماش الجيد الى قماش لا فائدة منه»(٢).ثم ينتقل الى صورة أخرى فيقول : «....ولا يتسنى لأى امرىء أن يجد قبعة (٣) جيدة بسبب تزييفكم، فان المطر اذا ما هطل على أطرافها لن يلبث أن يجوس فى داخلها، ومثل هذا الغش ملحوظ حتى فى الاحذية، وفى اصناف الفرو وفى أعمال الدباغة، فثمة رجل يبيع جلدا قديما على أنه جديد، وكم بلغت أعمالكم التى يشوبها الغش، أن أحدا لا يعرف ذلك جيدا كما تعرفونه أنتم»(٤).

وهكذا فان صور الغش التجارى فى أوربا فى العصور الوسطى كانت كثيرة، وقد أورد صاحب الكتاب السابق أمثلة كثيرة عليها على أنه ظلت نقابات التجار تنظم الحياة التجارية فى العصور الوسطى طالما كانت هذه الحياة بسيطة وخالية من التعقيد، فلما أخذت الأمور تتبدل ظهرت نقابات اصحاب الحرف، وكان الغرض من هذه النقابات رعاية المصالح الاقتصادية لأحضانها، فلا يسمح لصانع أن يباشر حرفة فى مدينة إلا اذا كان عضوا فى النقابة التى تضم المشتغلين بهذه الحرفة، كما حرصت النقابة على عدم استـيراد بضـائع

---

(١) - القفاز : لباس الكف من نسيج أو جلد، انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ص٧٥٧

(٢) - نقلا عن جوزيف نسيم يوسف، عالم العصور الوسطى، المرجع السابق ص١٩٨

(٣) - القبعة : خرقة تخاط كالبرنس يلبسها الصبيان، وهى ضرب من القلانس يلبس على الرأس ليقيها الشمس والمطر، انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ص٧١٨

(٤) - نقلا عن جوزيف نسيم يوسف، عالم العصور الوسطى، المرجع السابق ص١٩٨

تضر بالانتاج المحلى للمدينة، وهكذا كانت كل نقابة تحتكر سوق المدينة فى دائرة اختصاصها، وفى الوقت الذى تحرص على عدم قيام منافسة بين اعضائها(١)٠ وكانت عضوية النقابات الحرفية تخضع لشروط بحيث يتم انتقاء وأختيار اعضائها، فكان لايسمح لفرد بعضويتها إلا بعد أن يقدم أدلة كافية على ولائه الدينى، واخلاصه السياسى، وفضلا عن مهارته الفنية، وكانت النقابة الواحدة تضم عدة فئات من الصبيان والعمال والاساتذة، أما الصبى فكان يدفع رسما ليقبل فى الحرفة ويتعهد بطاعة استاذه وتنفيذ تعاليمه والحرص على مصالحه ورعاية أمواله وأسراره٠ وفى مقابل ذلك يمده الاستاذ بالمسكن والملبس والمأكل، فلا يستطيع الصبى أن يبيت خارج منزل استاذه الذى له حق الاشراف على سلوكه وأخلاقه، زيادة على الاشراف المهنى٠

وبعد أن يقضى الصبى فى الحرفة مدة تتراوح بين عامين وسبعة أعوام يصبح عاملا يستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومى زهيد٠ أما العامل فمن الممكن أن يصبح استاذا عندما يثبت أجادته لصنعته وتفوقه فيها، كأن ينتج قطعة تشهد على براعته، فعندئذ يستطيع أن يشتغل لحسابه الخاص، إذا توافر لديه رأس المال اللازم لذلك٠ على أن الرغبة فى الاحتكار والاستئثار بأرباح المهنة لم تثبت أن جعلت اعضاء النقابة الواحدة يحرصون على عدم اشتراك منافس جديد معهم، حتى جاء وقت أصبح من الصعب على العامل أن يصبح استاذا إلا اذا كان ابنا لاستاذ أو زوجا لابنته، وبالتالى أثر ذلك على الصناعة بشكل عام فيلاحظ أن جميع الانتاج الصناعى كان منزليا، بمعنى أن الصبى والعامل والاستاذ كانوا يعملون جميعا فى منزل الأخير أو في دكان ملحق به ويبيع الاستاذ انتاجه من نافذة منزله أو من سوق المدينة على أقصى تقدير(٢)٠

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى حـ٢ ص٣١٤/٣١٥

(٢) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى حـ٢ ص٣١٥/٣١٦

ولم تلبث النقابات أن تكاثرت فى كل مدينة وتفرعت حتى شملت جميع الصناعات والحرف، فوجدت نقابات لكل من الخبازين والصيارفة، والاطباء والقصابين، وصناع الأحذية، والزياتين والنجارين والحدادين وغيرهم - وبالطبع كان ذلك فى فترة متأخرة عن الفترة محل البحث - وبازدياد التخصص فى الصناعة أو التجارة ازداد عدد هذه النقابات، مما أدى الى كثير من الخلافات بين كثير من النقابات حول حدود كل منها وتخصصها.(١)

واذا أردنا أن نعقد مقارنة بين النقابات الأوربية فى العصور الوسطى ونظام الطوائف الحرفية فى الدولة الاسلامية بشكل عام فان الاستعراض السابق للنقابات الأوربية الوسطية والطوائف الاسلامية يوضح لنا أن هناك بعض أوجه شبه بين النقابات الأوربية وبين التنظيمات الحرفية الاسلامية، كما نجد أوجه اختلاف كثيرة ايضا.

أ- أما أوجه الشبه :

ففى كلا التنظيمين نجد تدرجا فى الرتب بين اعضاء النقابة حيث تجد الاستاذ، والصانع والصبى، كما تجد تشابها كبيرا فى مهام كلا التنظيمين منها ومراقبة الاوزان والمكاييل، ورعاية مصالح اعضائها والاهتمام بالمواد الأولية، والاسعار وغير ذلك من الامور - التى سبق ذكرها - كما كان على العضو فى كلا التنظيمين ضرورة تعلم المهنة على يد استاذ قبل ممارستها وذلك لاتقانها ومعرفة اسرارها. وكانت المحافظة على الصنعة وعدم تلقينها الى غير المنتمين الى تلك الحرفة خاصيه مشتركة بينهما.

ومن أوجه التشابه ايضا اجتماع أهل كل حرفة فى احياء واسواق متخصصة.(٢)

---

(١) - د/ سعيد عبدالفتاح عاشور، المرجع السابق جـ٢ ص٣١٥/٣١٦

(٢) - الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص١٦٧/١٦٨

ب - أما أوجه الاختلاف :

١ - فان نظام الطوائف الحرفية فى الدولة الاسلامية بشكل عام نشأ بين أهل الحرفة نتيجة الواقع الاجتماعى والحرفى الذى كانوا يعيشونه، وقد كانت هذه التنظيمات فى الدولة الاسلامية بمثابة رابطة بين أهلها لمواجهة متطلبات الحياة الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، ولم تظهر الطوائف الاسلامية نتيجة ظلم وقع عليهم، كما كان الحال فى أوربا فى العصور الوسطى، فقد ظهرت كثير من النقابات لرفع الظلم والقمع الواقع عليهم من الامراء والنبلاء وغيرهم، كما أن الواقع الاجتماعى للدولة الاسلامية تطلب وجود مثل هذه التنظيمات، حيث لا يخلو أى مجتمع من وقوع الانحرافات فى بعض افراده عن جادة الطريق، ولذا وجد نظام الحسبة كجهاز رقابة فى الدولة الاسلامية، وكانت هذه التنظيمات تقدم يد العون لجهاز الحسبة اذا ما حدث أى انحراف داخل أوساط العمالة وشتى انواع العمل.

زد على ذلك اتساع رقعة الدولة الاسلامية، وكثرة مسئولياتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وخاصة فى الدولة العباسية كان له دوره فى ظهور مثل هذه التنظيمات والحاجة اليه كجهة مساعدة لجهاز رقابة الدولة لمختلف الأنشطة الاقتصادية وهو ما يظهر بوضوح من خلال دراستنا لكتب وموضوعات الحسبة فى الاسلام، والمسئوليات التى نيطت بالمحتسب من مراقبة أهل الحرف والصنائع، والغش التجارى بجميع اشكاله. وبالتالى فقد كان للتنظيمات الحرفية فى الدولة الاسلامية مهام وأهداف سامية، كجمع الروابط الاجتماعية بين افراد الحرفة ومساعدة الدولة تجاه المنحرفين، وبناء عليه فان هذه التنظيمات الاسلامية - كما سبق - كانت وليدة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية، ونتيجة الرغبة بين افراد الحرف للتجمع والتكتل بغرض تحسين أحوالهم المعيشية وجمع الشمل بينهم. ولم تظهر نتيجة الظلم والحرمان كما كان الحال فى أوربا فى العصور الوسطى.

٢ - كذلك تميزت الطوائف الحرفية فى الدولة الاسلامية عن النقابات الأوربية بأنها ضمت افرادا من مختلف الطوائف، فكانت مفتوحة للمسلمين وأهل الذمة على السواء فى حين نجد أن النقابات الأوربية ابعدت اليهود، ولم تتعامل معهم، بل أن بعض النقابات أبعدت بعض المذاهب النصرانية نفسها عن صفوفها.

٣ - ومن أوجه الاختلاف ايضا، أن النقابات الأوربية شهدت انقساما الى نقابات اساتذة وأخرى خاصة بالصناع، لتضارب مصالح الفئتين بينما لم يحدث هذا فى التنظيمات الحرفية الاسلامية، حيث كان الاساتذة والصناع فئة واحدة يضمهم تنظيم واحد.(١)

٤ - ويعاب على نظام النقابات الأوربية ايضا أنه كانت تسوده الرغبة فى الاحتكار والاستئثار بالارباح - كما سبق -، مما جعل اعضاء النقابة الواحدة يحرصون على عدم اشراك العامل أن يصبح استاذا إلا اذا كان ابنا لاستاذ أو زوجا لابنته.(٢)

٥ - ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الانتاج الصناعى كان منزليا بمعنى أن الصبى والعامل والاستاذ كانوا يعملون جميعا فى منزل الأخير أو فى دكان ملحق به ويبيع الاستاذ انتاجه من نافذة منزله، أو فى سوق المدينة على أقصى تقدير(٣)، مما يعنى ضيق حدود السوق، وعدم وجود المنافسة فى العملية الانتاجية وجودتها، ومن ثم اثر ذلك ايضا على حجم الانتاج ونموه.

٦ - كذلك ادت القوانين النقابية للعمل وأدواته فى أوربا فى العصور الوسطى الى عرقلة التقدم الصناعى وتأخر تطوره، إذ ان كل نقابة اشترطت على المشتغلين بالصنعة عدم استعمال أى آلة أو وسيلة جديدة لا تقرها النقابة مما قتل روح الابتكار والتجديد.(٤)

---

(١) - الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص١٦٨

(٢) - د. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى حـ٢ ص٣١٥

(٣) - المرجع السابق حـ٢ ص٣١٥

(٤) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصر الوسطى حـ٢ ص٣١٥، جوزيف نسيم يوسف، عالم العصور الوسطى، المرجع السابق ص١٩٩

٧ - ومما تتميز به التنظيمات الحرفية فى الدولة الاسلامية اهتمامها بالنواحى الدينية والخلقية لأعضائها أكثر من اهتمام النقابات الأوربية بهذه الجوانب، ومما يذكر فى ذلك أن النقابة الأوربية فى كثير من الأحيان ايضا كانت متجردة من عنصر الرحمة حيال التنظيمات الأخرى المنافسة لها، أو حيال المجتمع بوجه عام، فقد ذكرت بعض المصادر أنه إذا أراد أحد اعضاء النقابة شراء صنف من السلع فلا يجرؤ أحد من خارج اعضاء النقابة على شرائه، كما أن صاحبه ايضا لا يجرؤ على بيعه إلا لرجل من اعضاء النقابة، كما لا يستطيع أن يبيعه بأغلى من السعر الذى عرضه.(١)

٨ - ومما تتميز به التنظيمات الحرفية فى الدولة الاسلامية مواكبتها للعملية التعليمية، فأهل الحرف كان منهم المتعلمون فأبو حنيفة مثلا كان خزازا يبيع الحرير الخالص أو المخلوط بالصوف وأبو يوسف نشأ قصارا ويدهش الانسان عندما يرى كثرة ما ألف أهل الحرف المسلمون فى حرفهم فما من صنعة إلا ولدينا عنها كتب كثيرة، ولا يقتصر هذا على الصناعات الكبيرة كالبناء والحدادة والنجارة والفلاحة بل لدينا كتب عن صناعة الجلد، وأدوات الكتابة، وصناعة الورق والزجاج والصياغة، وسك النقود وفن الطبخ، وهذه الكتب فى العادة كانت تتناول الحرفة من كل نواحيها، اعنى ما يتصل بأصول الصنعة وأصنافها ومواردها الخام ومقومات الجودة فيها، وفى حالات كثيرة يتناول المؤلف الناحية الشرعية فى موضوعه.

كما نجد بعض الكتب المؤلفة عن المبانى والعمارة وكل هذا يدل على أن العامل المسلم فى تلك الفترة كان رجلا متعلما يمارس صنعته على أصول مقررة مسطورة فى كتب، ولو لم يكن هناك عمال يقرءون هذه الكتب المؤلفة فى فنونهم لما ألفها أحد. لأن أسلوب معظمها يدل على أن مؤلفيها كانوا رجال الصنعة الممارسين لها، يكتبون لأهل صنعة مثلهم. فهم يستخدمون المصطلح الدارج بينهم والعبارات التى لا يفهمها إلا العمال أنفسهم(٢).

---

(١) - جوزيف نسيم يوسف، عالم العصور الوسطى، المرجع السابق ص١٩٦

(٢) - حسين مؤنس، عالم الاسلام، المرجع السابق ص٢٤٣/٢٤٤

ولاشك أن الربط بين الصنعة والعلم بها، ونقل معلوماتها الى التنظيم الحرفى له أثره على نهضة الصنعة وعلى الانتاج من هذه الصنعة، وقد كان لذلك أثره فى المجتمع الاسلامى ولولا ذلك لاندثرت الصناعات الجميلة التى أضفت على مجتمعنا طابع الفن الذى لا غنى عنه لمجتمع متحضر، ولولا هذه التنظيمات الحرفية ايضا فى المجتمع الاسلامى لضاعت تقاليد هذه الصناعات خلال العصور الوسطى المتأخرة خاصة بعد ما ظهرت الآلة لكن دقة صناعات المسلمين جعلتها تحتفظ بهويتها الى الآن فهذا مصنوع أموى، وهذا عباسى وذاك فاطمي... الخ ولازالت تعجز الأيدى الحافرة عن تقليدها وتقف أمامها بكل فخر واعزاز(١).

ولقد استطاع الصانع المسلم أن يلبى حاجة بلاده المختلفة من اطعمة وملبوسات قطنية وغير قطنية، وفرش، وأوانى واسلحة وأدوات زينة وورق وغيرها، وكان للصناعات الاسلامية أثرها الواضح على المجتمعات الأوربية وهو ما سيتضح عند استعراض الصناعات المختلفة فى العصر العباسى.

وبعد أن أنتهينا من هيكل العمالة وتنظيمات العمل والعمال فى المجتمع العباسى الأول تجدر الاشارة الى أهم صناعات وحرف ذلك العصر ومراحل تطورها بشىء من التفصيل.

---

(١) - حسين مؤنس، المرجع السابق ص٢٤٤

المبحث الثاني

أهم الصناعات والحرف في العصر العباسي الأول ومراحل تطورها وأهمية ذلك في النشاط الاقتصادي،

تعددت الصناعات والحرف في الدولة العباسية، كما كان لها أهميتها في تطور النشاط الصناعي بشكل خاص، والنشاط الاقتصادي بشكل عام، وفيما يلي محاولة لبيان أهم الصناعات والحرف في المجتمع العباسي، وأثرهما على النشاط الاقتصادي بشيء من التفصيل :-

المطلب الأول: أهم الصناعات :

ازدهرت في العصر العباسي الأول عدة صناعات أثرت على النشاط الاقتصادي، كما أثرت على النشاط الصناعي بصفة خاصة، وساهمت مساهمة فعالة في تطور صناعة المجتمع العباسي الأول وازدهارها، وفيما يلي محاولة لبيان أهم هذه الصناعات بشيء من التفصيل :-

أولا : صناعة الورق :

لعل من أهم الصناعات التي عرفتها البشرية صناعة الورق بأشكاله المختلفة البدائية والمتطورة، فقد أثرت صناعة الورق في تطور الفكر البشري ونموه، ولايستطيع أحد أن ينكر أهمية صناعة الورق بشكل عام على الحياة العلمية والفكرية لأي مجتمع من المجتمعات فهو من دواعي العمران وتوابعه، كما يقول ابن خلدون في مقدمته : «هو من توابع العمران واتساع نطاق الدولة».(١)

والورق من الصناعات الهامة التي ترك المسلمون عليها بصمات تذكر، برغم أن المسلمين قد عرفوها عن طريق بلاد الصين، فقد عرف الورق في الصين منذ عام ١٠٥م، لكن المسلمين كان لهم دور هام وبارز في تطور صناعته وانتقالها الى البلاد الأخرى. ونحاول فيما يلي استعراض تطور هذه الصناعة في العصر العباسي بإيجاز :

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٤٢١

ظلت القراطيس فترة طويلة فى العصر العباسى لها أهميتها بالرغم من ظهور الكاغد، فقد ذكر الجهشيارى فى التعليق على خبر اورده عن المنصور إذ استكثر القراطيس فى خزائنه، فهم ببيعها ثم عدل عن ذلك وقال : إذ ليس يؤمن حادث بمصر فتنقطع القراطيس بسببه، وقال الجهشيارى : ولهذه العلة كانت الفرس تكتب فى الجلود والرق، وتقول : لا نكتب فى شىء ليس فى بلادنا.(١)

ويرى الباحث أن هذا النص الذى ورد عن المنصور يظهر أهمية القراطيس المصرية فى ذلك الوقت، وأن مصر قد بلغت فى هذه الصناعة شأنا عظيما كما أنها كانت شبه محتكرة لهذه الصناعة بالفعل. فكان لابد من دخول الورق (الكاغد) كحل لذلك لمواجهة متطلبات الحياة العلمية والفكرية التى صاحبت العصر العباسى الأول ونهضته العلمية.

على أن دخول (الكاغد) فى الدولة الاسلامية لم يتم إلا بعد أن ولى الرشيد الخلافة، فقد كثر الورق، وفشا استعماله بين الناس، فاتخذ سياسة جديدة فى شأن الكتابة بشكل عام حيث أمر الناس ألا يكتبوا إلا فى الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة، فتقبل التزوير، بخلاف الورق فانه متى محى منه فسد، وان كشط ظهر كشطه، فانتشرت بذلك الكتابة على الورق فى سائر الامصار، وتداولها الناس واستمروا على ذلك حتى انشىء أول مصنع للورق فى بغداد عام ٧٩٤م ثم انتشرت هذه الصناعة فى سوريا ومصر وشمالى افريقية واسبانيا.(٢) وكان أمر الرشيد بالكتابة على الكاغد وانشاء مصنع للورق ببغداد لهما أثرهما على تطور صناعة الورق فى الدولة الاسلامية. لكن بالرغم من ذلك فان القراطيس المصرية، ظلت تتداول فى السوق ولم تنته هذه الصناعة إلا فى القرن الرابع الهجرى، فان الوثائق التاريخية المكتوبة على الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام ٣٠٠هـ مما يؤكد استمرار قراطيس البردى فترة الدولة العباسية وبرغم تحول الناس الى الكاغد إلا أن ذلك التحول لم يأت بين ليلة وضحاها(٣)، وانما استمر وقتا طويلا.

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ص١٣٨

(٢) - القلقشندى، صبح الاعشى، المرجع السابق جـ٢ ص٤٨٦

(٣) - د سيدة اسماعيل كاشف، مصر فى عصر الولاة من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ص١٦٢، آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص٣٠٥، د. سيدة كاشف، مصر فى فجر الاسلام، دار النهضة العربية القاهرة عام ١٩٧٠م، ص٢٥٨

مظاهر تطور صناعة الورق فى الدولة العباسية

مرت صناعة الورق فى الدولة العباسية بمظاهر فى تطورها، فقد بدل الصناع المسلمون ابان تلك الفترة الطرق البدائية التى استخدمها الصينيون، وأحلوا محلها طرقا جديدة فأخترعوا الورق المصنوع من الخرق البالية، وهو نوع من الورق تحتاج الى مهارة حرفية بالغة، ودقة يدوية كبيرة، وتحسنت صناعة الورق تحسنا ملموسا وبسرعة فائقة، وانتجت المصانع الاسلامية نوعا ممتازا من الورق المصنوع من القطن(١)· وفى مكتبة الاسكوربال مخطط مكتوبة فى سنة ١٠٠٩م على ورق مصنوع من القطن وتعتبر من أقدم المخطوطات الموجودة فى مكتبات أوربا·(٢)

وقد أدى هذا التطور فى صناعة الورق الى تسهيل انتاج الكتب، ففى أقل من قرن من الزمان انتشرت مئات الألوف من نسخ الكتب العلمية والفنية والأدبية والفقهية فى جميع اقطار الدولة·

ويكفى هنا أن نتأمل مدى أثر هذه الصناعة وتطورها على الوضع العلمى فى داخل الدولة العباسية وخارجها فيقول أحد الأوربيين : «ظل الأوربيون فى القرون الوسطى زمنا طويلا لا يكتبون إلا على رقوق الحيوان، وكان ثمنها المرتفع عائقا كبيرا وقف أمام انتشار المؤلفات المكتوبة وسرعان ما أصبحت هذه الرقوق نادرة الوجود حتى اعتاد الرهبان على حك مؤلفات عظماء اليونان والرومان ليستبدلوا بها مواعظهم الدينية، ولولا العرب لضاعت معظم المؤلفات الفريدة للاعصر القديمة، تلك المؤلفات التى ادعى الرهبان لنا أنهم حفظوها بعناية داخل الأديرة»(٣)·

---

(١) - محمد ابراهيم الصيحى، التجارة والاقتصاد عند العرب، مكتبة الوعى العربى القاهرة عام ١٩٦٩م ص٣١

(٢) - جوستاف لوبون، حضارة العرب، المرجع السابق ص٤٨٢

(٣) - جوستاف لوبون، حضارة العرب، المرجع السابق ص٤٨١/٤٨٢

والواقع ان البداية المتطورة لصناعة الورق وانتشاره بين المسلمين بدأ مع بداية العصر العباسى الأول كما اسلفنا - ، إذ كان استخدام الورق حدثا تاريخيا سبقت به الدولة الاسلامية أوربا بقرون طويلة، كما أنه من المعروف أن أقدم المصانع التى أنشئت لصناعة الورق فى كل من فرنسا وايطاليا وغيرها ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر والرابع عشر الميلادى، أما فى انجلترا فجاءت بعد ذلك التاريخ بكثير.(١) ولم تعرف أوربا صناعة الورق إلا عن طريق المسلمين فى بلاد الاندلس كشاطبة وطليلة وغيرها من المدن الاندلسية.

ولما انتقلت الصناعة الى أوربا لم تكن تماثل الورق فى البلاد الاسلامية من ناحية الجودة والكفاءة فتتحدث الموسوعة البريطانية عن ذلك فتقول : «لما سقطت دولة العرب فى أسبانيا انتقلت صناعة الورق من ايديهم الى النصارى الاقل كفاءة منهم فانحطت الصناعة وانحط الصنف».(٢)

وعن صناعة الورق وتطوره فى البلاد الاسلامية، ومعرفتهم لهذا الفن من ناحية الجودة وعدمها يقول القلقشندى : «وأحسن الورق - يقصد الكاغد - ما كان ناصع البياض غرفا صقيلا متناسب الاطراف صبورا على الزمان، واعلى اجناس الورق فيما رأينا البغدادى، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدا، ودونه الشامى ودونهما المصرى، ودون ذلك ورق أهل المغرب والفرنجة فهو ردىء جدا سريع البلى قليل المكث»(٣).

وبعد هذا العرض عن صناعة الورق وتطوره فى الدولة الاسلامية بشكل عام، والدولة العباسية بصفة خاصة يتضح لنا مدى أهمية هذه الصناعة وأثرها الكبير على الحركة الثقافية والفكرية والعلمية - فى ذلك الوقت - ليس فى بلاد

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور وآخرون دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية ص٣٥٥

(٢) - نقلا عن جلال مظهر، حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالمى، المرجع السابق ص٣٨٥

(٣) - القلقشندى، صبح الاعشى، المرجع السابق جـ٢ ص٤٧٥

المسلمين فحسب، بل وفى العالم اجمع كما لا يخفى علينا ايضا أن هذا التطور تبعه زيادة فى ايرادات الدولة العباسية من صادرات الورق إذ غدت الدولة العباسية المصدر الأول لهذا الورق ويدل على ذلك انتشار مصانعه فى شتى انحاء الدولة العباسية والتى سبقت الاشارة الى بعض منها.

ثانيا صناعة النسيج

صناعة النسيج من الصناعات القديمة والمعروفة لدى كثير من ابناء الشعوب، إذ أن حاجة الناس الى الملبس كحاجة الناس الى الغذاء والطعام، ومن أقدم البلاد التى نهضت فيها هذه الصناعة ايران ومصر فقد كانت لهما منذ قديم الزمان شهرة واسعة فى انتاج المنسوجات كما أن الاقاليم البيزنطية فى الشام وآسيا الصغرى كانت تضم قبل الاسلام مراكز هامة لنسج الأقمشة الحريرية الممتازة.

وتعتبر هذه الصناعة من الصناعات القديمة فى مصر، وقد سارت فيها بخطى سريعة، كذلك كان للمنسوجات الايرانية شهرتها العظيمة قبل الاسلام، وكانت روما تدفع الاثمان الباهظة للحصول على المنسوجات الايرانية والمصرية، كما أن أهل بيزنطية كانوا يقلدون صناعة النسيج الايرانية فى أوج عزها فى العصر الساسانى، ولازالت هناك قطع جميلة من هذه المنسوجات حتى الآن فى بعض المتاحف العالمية.(١)

فلما فتح المسلمون مصر وبلاد فارس تطورت صناعة النسيج فى تلك البلاد وخضعت هذه الصناعة لتعاليم الاسلام كمنع الصور والرسوم الأدمية والحيوانية وغيرها. واعتمدت الصناعة فيها على صناع أهل هذه البلاد من حيث الخبرة فيها فقد كان لهم خبرة فى هذا المجال، وتطورت واكتسبت فنا مستقلا يوافق تعاليم الاسلام ومبادئه.

---

(١) - د. زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق ص٣٤٥

كما ازدهرت هذه الصناعة فى البلاد المفتوحة والتى لم تكن فيها هذه الصناعة وخاصة بعد أن انتشرت عادة الخلفاء والامراء فى مكافأة رجال الدولة بخلع الملابس الثمينة والفاخرة واعطائها لكل من أظهر شيئا يستحق المكافأة كنوع من التكريم له.

ومن العوامل التى زادت صناعة النسيج الاسلامى رقيا وازدهارا ايضا ما كان يقدمه الخلفاء من كسوة الكعبة المشرفة من المنسوجات النفيسة، فكان الصناع يتبارون ويتسابقون فيما بينهم كل واحد منهم يريد أن يكون له السبق فى الابداع الفنى فى صناعة كسوة الكعبة لينال بذلك الشرف العظيم. ولقد اهتم المسلمون فى حقب التاريخ المختلفة بهذه الصناعة فأنشأوا المصانع وجلبوا الفنيين فيها، حتى احتكرت البلاد الاسلامية فى العصور الوسطى تجارة الحرير على المستوى العالمى، وكانت مصر وايران والشام تصدر منتوجاتها لسائر الاقاليم الاسلامية وخارج البلاد عبر أوربا وغيرها من البلاد(١).

أ- اهتمام الدولة العباسية بصناعة النسيج

اهتمت الدولة العباسية بصناعة النسيج فأنشأت المصانع ودور الطراز، فذاع صيت هذه الصناعة فى بلاد العالم كله آنذاك.

ويبدو أن اهتمام الدولة العباسية كان من خلال ما اقامته من دور للطراز (العامة والخاصة) على نحو ما كان فى الدولة الأموية، وفيما يلى محاولة لعرض ذلك بشىء من التفصيل.

ب- دور الطراز وأهميتها فى تطور صناعة المنسوجات :-

كان لدور الطراز دور هام فى تطور صناعة النسيج فى الدولة الاسلامية بشكل عام، وقد بدأت هذه الدور عملها منذ العهد الأموى لكنها تطورت وازدهرت فى العصر العباسى الأول، فقد كانت هذه الدور تقوم بعمل ملابس الخليفة وكسوة الكعبة وكان لعملها أهمية سياسية فى حياة المجتمع العباسى، حيث كان ينقش على الملابس اسم الخليفة، لذلك اهتمت الدولة بهذه الدور وجعلت من يقوم على تنظيم شئونها - فى الغالب - بدرجة وزير إذ كان فى استطاعة صاحب الدار أن يخلع الخليفة أو يثبته، ومن هنا غدت هذه الدور ذات أهمية سياسية كبيرة فى المجتمع العباسى.

---

(١) - د زكى محمد حسن، المرجع السابق ص٣٤٦

ولمزيد من التوضيح يقتضى الأمر أن نوضح عمل هذه الدور وكيفية الاشراف عليها لما لذلك من أهمية فى تطور هذه الصناعة، إذن فما معنى الطراز وما عمل صاحب الطراز.

معنى الطراز : الطراز لفظ فارسى مأخوذ من كلمة (طرازيدن) ومعناها : التطريز، ثم اتسع مدلولها فاصبحت تستعمل للكتابة على الورق والنسيج.

وقد ذكر القلقشندى معناه فقال : الطراز : نقش اسم الخليفة على ما ينسج من الكسوة، والطرز من الحرير والذهب بلون مخالف للون الاصلى ليمتاز بذلك ما يختص بالخلافة عن غيره، وهو رسم قديم للخلفاء فى الدولتين الأموية والعباسية.(١)

وربما يدل هذا التطريز ايضا على المصنع الذى يصنع هذه الاردية ثم تطور معنى الطراز فاصبح يعنى الشريط المكتوب والموضوع على النسيج وقد يطلق ايضا على الكتابة نفسها المنقوشة على الشريط.(٢)

ويقول ابن خلدون فى معرض حديثه عن الطراز "من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم اسماؤهم أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير والديباج أو الابريسم، تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب الحاما واسداء بخيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيط الملون من غير الذهب، فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك قصد التنويه بلابسها من السلطان فيمن دونه، أو التنويه بمن يختصه السلطان بملبوسه، إذا قصد تشريفه بذلك أو ولايته لوظيفة من وظائف دولته".(٣)

(١) - القلقشندى، مآثر الانافة فى معالم الخلافة، المرجع السابق حـ٢ ص٣٢٠

(٢) - انظر، دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق حـ١٥ ص١٢١

(٣) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٢٦٦، واللحمة : بالفتح والضم للثوب/ما ينسج عرضا وقد جمعه ابن خلدون على الحام، والسدى: ما يمد طولا فى النسج وجمعه اسداء كما فى المصباح المنير، انظر : الفيومى، المصابح المنير، المرجع السابق حـ٢ص٢١٣، حـ١ ص٢٩١

وكان القائم على النظر فى دور الطراز يسمى صاحب الطراز وكان عمله النظر والاشراف على جميع اعمالها من الصباغة والآلة، واجراء الارزاق وما الى ذلك. ونظرا لأهمية هذه الدور فقد كان الخلفاء يقلدونها لخواصهم من الثقات وكان فى الغالب القائم عليها بدرجة وزير - كما سبق وأن أشرنا -.

وقد تطور وضع هذه الدور فى الدولة العباسية فوجدت دور طراز للخاصة، وأخرى للعامة، ويعنى ذلك أن مصانع النسيج كانت فى الدولة العباسية على نوعين : مصانع عامة ومصانع خاصة وفيما يلى توضيح لذلك :

١- المصانع الخاصة :

كانت تختص بصناعة ملابس الخليفة وولاته، واعيان الدولة وكان يكتب على الطراز البسملة والدعاء للخليفة ثم اسم الخليفة، واسم المشرف على دار الطراز ثم مكان الصناعة. وكان ذلك بمثابة وثيقة رسمية من قبل الدولة لها أهميتها السياسية والاقتصادية. ومن أمثلة ذلك قطعة من اخميم(١) بمصر محفوظة فى متحف القيصر فريدريك ببرلين عليها آيات من القرآن فى الوسط، وقد طرز فى اعلاها وفى اسفلها ما يلى : «بسم الله بركة من الله لعبدالله هارون الرشيد أمير المؤمنين صنعه مروان بن هادى».(٢) وبناء عليه فقد كانت هذه الدور الخاصة مصانع حكومية كانت تعمل للخليفة وكبار رجال الدولة.(٣)

٢- المصانع العامة :

وهى مصانع لطراز العامة من الناس، وقد كان فى الدولة العباسية مصانع لصناعة النسيج لعامة الناس فضلا عن ملابس الخليفة اذا دعت الحاجة، وتدل الوثائق التاريخية على وجود مثل هذه المصانع من ذلك، ما وجد من بعض المنسوجات المحفوظة بدار الآثار العربية بالقاهرة، والتى عثر عليها

---

(١) - دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق حـ١٥ ص١٢٢/١٢٣

إخميم : بالكسر والسكون وكسر الميم وياء ساكنة وميم أخرى، بلد بالصعيد على شاطىء النيل بمصر، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١ ص١٢٣

(٢) - دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق حـ١٥ ص١٢٦

(٣) - د. زكى محمد حسن، الفنون الاسلامية، المرجع السابق ص٣٤٦

بالفسطاط مكتوب عليها الكتابة التالية : «بسم الله بركة من الله لعبد الله محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر بصنعته فى طراز العامة بمصر على يدى الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين».

وكان الفضل وزيرا لهارون الرشيد وأمين خزائنه، فلما توفى الخليفة هارون الرشيد حفظ الفضل خزائنه وسلمها فى بغداد للأمين خليفة هارون الرشيد وحمل اليه فى الوقت نفسه شارات الملك وهى العباءة والصولجان(١)، والخاتم مما جعل الأمين يبدى له مظاهر التكريم ويكل اليه ادارة شئونه، وتولى بصفته وزيرا للأمين الاشراف ايضا على صناعة المنسوجات الخاصة بالخليفة، كما تبين لنا من الطراز السابق. كما جاء اسم الفضل ايضا فى طراز كسوتين للكعبة كما ذكر المقريزى فى خططه.(٢)

ومما تقدم يتضح أن مصانع النسيج فى الدولة العباسية كانت على نوعين مصانع خاصة، ومصانع عامة، وليس معنى ذلك أن كل نوع لا يقوم بعمل المنسوجات لغير ما خصص له، بل أنه قد وردت بعض الوثائق التاريخية والتى تفيد بأن دور المصانع العامة - مثلا - كانت تقوم بصنع ملابس الخليفة، كما أن المصانع الخاصة كانت تقوم أحيانا بصناعة الملابس لعامة الناس ايضا.(٣)

وقد كان لهذه الدور العامة، والخاصة أهميتها الاقتصادية، فقد وفرت الملابس لأفراد الأمة، كما أنها استوعبت كثيراً من الأيدى العاملة فى الدولة العباسية، فيذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد(٤) : «انه كان فى تنيس خمسة آلاف مغزل يعمل من أجل الخليفة، وهو عدد كبير من المصانع فى مدينة واحدة، فكم كان عدد العمال يا ترى فى تلك المدينة؟ وكم كان عدد العمال الذين يعملون

---

(١) - الصولجان هو الصوجان ومعناهما : الشدة والصلابة، انظر ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق حـ٢ ص٣١٢

(٢) - دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق حـ١٥ ص١٢٥، المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص١٨١/٢٢٦

(٣) - راجع دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق حـ١٥ ص١٣١

(٤) - ابن عبد ربه، العقد الفريد، المرجع السابق حـ٣ ص٣٦٢

فى المدن الأخرى؟ والتى اشتهرت بهذه الصناعة مثل تونة(١)، ودمياط والاسكندرية، ودبيق والفرما، وغيرها من البلاد الأخرى بمصر، وكم كان عدد العمال فى المصانع فى المدن الأخرى والاقطار الأخرى للدولة العباسية، أن المصادر لا تشير إلى مثل تلك الاحصائيات إلا القليل - كما سبق أن أشرنا - وقد اشارت الى بعض منها فى بغداد، وقد كان لهذه الدور أثر كبير فى انتشار كثير من الحرف المتعلقة بصناعة النسيج كالصباغة، وخاصة صباغة الستائر، فقد عرفت الستور الواسطية - مثلا - وكان لها شهرة عظيمة(٢)، وقد كانت هذه الستائر تستخدم للزينة حيث كانت تعلق على الحوائط(٣) وبما أن الستائر كانت تتكون من الوان متعددة فقد ازدهرت الصباغة، وخاصة فى واسط، حتى قال الجاحظ: «خير ما يصبغ فى الاماكن بارض واسط»(٤).

ومن الحرف التى ازدهرت ايضا الحياكة، وصناعة البسط المختلفة كما كان لصناعة النسيج ايضا دورها فى انتشار بعض المزروعات التى تعتمد عليها كالقطن والكتان لمواجهة ما تتطلبه من المادة الخام فى شتى اقطار الدولة، وقد بلغت صناعة النسيج شأوا عظيما فى الجودة والاتقان، وكانت الدولة تصدر منه كميات كبيرة الى خارج الدولة الى بلاد أوربا وغيرها، وبالتالى فقد كانت هذه الصناعة تمثل مصدرا كبيرا للدخل فى الدولة العباسية مما يعنى انها كانت ذات أهمية اقتصادية كبيرة فى صناعات الدولة لما توفره من ايرادات، وهو ما سيتضح لنا من خلال بيان أثر تلك الصناعة على صناعة النسيج فى أوربا.

---

(١) - تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط من الديار المصرية، انظر ياقوت الحمى، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٢ ص٦٢

(٢) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٢٩

(٣) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص٢٥٧

(٤) - الجاحظ، التبصر بالتجارة بتحقيق حسن حسنى عبدالوهاب، دار الكتاب الجديد عام ١٩٦٦ ص٣٢

د - أثر صناعة المنسوجات العباسية على صناعة المنسوجات الأوربية :

كان لصناعة المنسوجات فى الدولة العباسية أثرها بصفة عامة على صناعة المنسوجات الأوربية، يظهر ذلك من خلال تتبعنا لسلسلة منتوجات الاقمشة الأوربية، فقد استوردت أوربا ابان العصور الوسطى كل ما تحتاجه من منسوجات من بلاد المسلمين، وراجت تلك المنسوجات فى أوسواقها وبأسمائها العربية الاصلية. فاستوردت أوربا قماشا حريريا رفيعا سمى بالفستان Fustian وأصله مصنوع فى فسطاط مصر، ومن هنا جاء اسمه. وقد جودت أوربا بعد ذلك صنعته، وصدرته الينا فى القرن الثامن عشر، فكانت تصنع منه أرفع أثواب النساء حتى سمى ثوب المرأة فى مصر بالفستان. واستوردت أوربا ايضا الدمقش الذى كان يصنع فى دمشق وسمى فى أوربا بالبدماسك damask وكانت توجد منه أنواع شتى. واستورد الايطاليون الحرير الموصلى الرفيع، وشاع فى أوربا باسم الموسلين، وصنعوه فى بلادهم واستوردناه بهذا الاسم نفسه muslin. سواء أكان حريريا خالصا أم مخلوطا بشىء من الصوف.

ومثل هذا ايضا حدث للحرير البغدادى، فكان الايطاليون يحرفون اسم بغداد الى بالداكو (Baladacho)، ونسبوا الى اللفظ ذلك الحرير البغدادى فسموه بالداكينو (Baldachino) أى البغدادى واستعملوه بصورة خاصة فى ستائر الكنائس. كما نقلوا من ايران قطيفة حمراء مما كان يصنع فى تفتازان وسموها بالتافتا (Taffata) ولازلنا نستعمل هذا اللفظ حتى الآن فنقول ثوب من التافتا.(١)

وكان الناس يصنعون فى حى العتابية فى بغداد قماشا ممتازا يسمى بالعتابى فوصل هذا النسيج الى أوربا وسمى (Attabi) بنفس الاسم وقلد صناعته الاندلسيون وصدروه الى فرنسا حيث عرف باسم Tabi.

---

(١) - / حسين مؤنس، عالم الاسلام، المرجع السابق ص٢٤٦/٢٤٧

وفى مصر اشتهر القماش المعروف بالتنيسي والذى ذاعت شهرته فى أوربا واستورد بكميات كبيرة لجودته ومتانته ونعومته فضلا عن جمال شكله، وكان يباع بأسعار مرتفعة وكثيرا ما كان يباع بقدر وزنه فضة.(١)

على أنه تبقى حقيقة تاريخية يجب التنبيه عليها وهى أن صناعة النسيج فى أوربا لم تنقل من البلاد الاسلامية الى البلاد الأوربية إلا فى القرن الثالث عشر الميلادى ومعنى ذلك أن هذه الصناعة قد شقت طريقها فى البلاد الاسلامية قبل أوربا بحوالى خمسة قرون وهو ما أكده أحد الأوربيين حيث قال: «تطورت صناعة النسيج فى الدولة العباسية تطورا كبيرا وكانت الانسجة الموسيلينة (الموصل) كما يدل عليها اسمها، والدمشقية، والاطلسية وحرير حلب تأتى من الشرق، وقد حافظت هذه الانسجة على اسمائها حتى عندما نقلت صناعتها الى فرنسا وأوربا فى القرن الثالث عشر الميلادى وفى الوقت نفسه نقلت صناعة السجاجيد تبعا للطرق الفنية الشرقية».(٢)

وهذه الأمثلة وغيرها تدل على تأثر صناعات المنسوجات الأوربية بصناعة المنسوجات فى الدولة الاسلامية، إذ ان الدولة الاسلامية فى تلك الفترة كانت حافلة بالمناسج والناسجين الذين أخرجوا للناس كل صنف من النسيج وسدوا حاجات المجتمع حتى أن عدد البلاد والتى كانت تعمل فى مجال النسيج اكثر من عشرين بلدا، ويكفى فخرا للدولة الاسلامية أن أوربا لم تعرف القطن ايضا إلا عن طريق العرب المسلمين، وبقى القطن باسمه العربى فى لغاتها وأصبح القطن والفحم فيما بعد - فى أوربا - أهم المواد الخام التى قامت عليها الثورة الصناعية.(٣)

---

(١) - محمد ابراهيم الصيحى، التجارة والاقتصاد عند العرب، المرجع السابق ص٢٩

(٢) - جاك س رسيلر، الحضارة العربية، المرجع السابق ص١٨٧

(٣) - سعيد عبدالفتاح عاشور، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية، المرجع السابق ص٣٤١، حسن مؤنس، عالم الاسلام، المرجع السابق ص٢٤٧

جـ - صناعة السلاح فى الدولة العباسية :

شهدت صناعة السلاح فى الدولة العباسية تطورا كبيرا، برغم ان المصادر التاريخية ايضا عن هذه الصناعة تعد قليلة جدا، اذا ما قورنت بغيرها من الصناعات الأخرى كالعمارة والورق والنسيج والأوانى وغيرها من الصناعات التى تحدث الكثير عنها. ولعل رسالة الكندى الى المعتصم عن موضوع الحديد واستخداماته عند العرب وأنواع الحديد المختلفة والتى يصنع منها السيوف هى من اقدم ما وصل الينا عن هذا الموضوع، وقد تحدث الكندى عن السيوف فقال : انها اما أن تصنع من الحديد الخام الذى يستخرج من المناجم، أو من الحديد المصنوع الذى يضاف اليه مواد أخرى اثناء الصهر.(١)

---

(١) - نقلا عن عبدالرحمن زكى، السيف فى العالم الاسلامى، المرجع السابق ص٤٧

والى هذا أشار القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فقال : «السيف ان كان من حديد ذكر وهو المعبر عنه بالفولاذ (هو الحديد المصفى من خبثه) قيل سيف فولاذى، وان كان من حديد أنثى وهو المعبر عنه فى زماننا - القلقشندى- بالحديد قيل سيف انيث... الخ»(١). كما أن المؤرخين القدماء تحدثوا عن وفرة السلاح فى خزائن العباسيين، فقال واحد منهم ،انه كان فى خزانة السلاح أيام أبى العباس عبدالله السفاح (١٣٢هـ/١٣٦هـ) خمسون الف درع ومثلها من السيوف، وثلاثون الف جوشن(٢) ومائة الف رمح.(٣) كما أن عدد الجند بلغ حدا كبير فى الدولة العباسية يقدر بمئات الالوف، ووصل العدد فى بغداد وحدها الى ١٢٥،٠٠٠ جندى، وهؤلاء يكونون الجيش النظامى للدولة تدفع لهم رواتبهم بانتظام.

كما كان مع الجند فرق من المتطوعين من البدو والزراع، وسكان المدن وغيرهم اشتركوا فى المعارك مدفوعين برغبتهم فى الجهاد، وكان من الجند الفرسان والمشاة، وقد ذكر أنه فى عهد المعتصم استجلب من الاتراك حوالى سبعين أو ثمانين الفا من الجنود(٤)، وهذه الفرق الكبيرة - بلا شك - تحتاج الى سلاح وعتاد كبير، مما يؤكد كثرة السلاح وأهميته ايضا فى الدولة العباسية.

اضف الى ذلك ما ورد من بعض الاحصائيات والتى ذكرها بعض المؤرخين فيروى لنا الغزولى ايضا انه لما ولى محمد الأمين الخلافة فى عام

---

(١) - القلقشندى، صبح الأعشى، المرجع السابق حـ٢ ص١٣٩/١٤٠

(٢) - الجوشن جمعها جواشن وهى الواح صغار من حديد أو الجلد أو القرن تلبس على الصدر من الجسم فوق الثياب ويقال له الذراع أو صدر الذراع، الفيروز آبادى، القاموس المحيط، المرجع السابق حـ٤ ص٢٠٩

(٣) - الغزولى، مطالع البدور فى منازل السرور حـ٢ ص١٦٢، نقلا عن عبدالرحمن زكى حيث لم يتوفر لنا المرجع.

(٤) - د/حسن ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص١٨

(١٩٣هـ/٨٠٩م) أن الفضل بن الربيع أراد أن يحصى ما فى الخزائن من الكسوة والفرش والآنية والآلة عثر على عشرة آلف سيف محلاة بالذهب وخمسين الفا للشاكرية(١)، والغلمان ومائة وخمسين ألف رمح، ومائة الف قوس وألف درع خاصة محلاة، وألف درع عامة وعشرين ألف بيضة (خوذة) وعشرين ألف جوشن، ومائة الف وخمسين الف ترس وأربعة آلاف سرج محلاة خاصة، وثلاثين الف سرج عامة(٢).

ومثل تلك الاحصائية تعطينا صورة لما كانت عليه جيوش العباسيين فى التسلح، وان كانت لا تمدنا بمعلومات وافية عن اشكال ونماذج هذه الاسلحة ودرجة اتقانها الصناعى. كما تؤكد الاحصائية ايضا أن الحكومة العباسية كان لها خزائن خاصة بالسلاح، ولوازم القتال الأمر الذى يعكس أهمية السلاح لدى المسئولين عن الدولة، وأن أمر التسليح لم يكن يختص به المقاتل وحده، وانما كانت الدولة تقوم ايضا بجانب التجهيز والتحضير من جهتها.(٣)

اما عن جودة السلاح وتطوره فان الباحث يرى بأن هذه الصناعة كانت متطورة وعلى درجة كبيرة من الاتقان يشهد لذلك ما ذكره الجاحظ فى وصف مراحل صناعة السيف فى عصره وهو ممن عاشوا فى الدولة العباسية الأولى فيقول : «ان السيف الذي يتقلده متقلد أو يضرب به ضارب قد مر على أيد كثيرة، وعلى طبقات من الصناع كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه، ولا يحسنه ولا يدعيه ولا يتكلفه، لأن الذى يذيب حديد السيف ويميعه ويصفيه ويهذبه غير الذى يمده ويمطله، والذى يمده ويمطله غير الذى يطبعه، ويسوى متنه، ويقيم

---

(١) - شاكر : قبيلة فى اليمن، وبنو شاكر فى همدان باليمن، ابن منظور، لسان العرب، المرجع السابق جـ٤ ص٤٠٧

(٢) - الغزولى، مطالع البدور فى منازل السرور جـ٢ ص١٦٢

(٣) - عبدالرحمن زكى، السيف فى العالم الاسلامى ص٤٧/٤٨

خشبته والذى يطبعه ويسوى متنه غير الذى يسقيه ويرهفه والذى يرهفه غير الذى يركب قبيعته ويستوثق من سيلانه، والذى يعمل مسامير السيلان وشاربى القبيعة ونصل السيف غير الذى ينحت خشبة غمده، والذى ينحت خشبة غمده، غير الذى يدبغ جلده، والذى يدبغ جلده غير الذى يحليه، والذى يحليه ويركب نعله غير الذى يخرز حمائله»(١).

قلت : فوصف هذه الصناعة بهذه الدقة والجودة يؤكد أن هذه الصناعة بلغت درجة من الاتقان والجودة حدا بعيدا فى تلك الفترة، على أن أهم ما يميز صناعة السلاح فى العصر الأموى والعباسى، هو صناعة السفن الحربية، ودخولها مجال التسليح، ويدين الأوربيون للعرب بالفضل الاكبر فى تعلمهم الفنون البحرية يدل على ذلك أن كثيرا من المصطلحات البحرية المستعملة فى أوربا لاتزال تحتفظ بعربيتها حتى الآن.

وقد كان أثر المسلمين فى شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط بوجه خاص أبعد مدى فى ذلك يقول فون كريمر : «ومما يوضح لنا أن الاسطول العربى القديم كان نموذجا لاساطيل الاقطار المسيحية، أن كثيرا من الاصطلاحات العربية البحرية لا تزال شائعة على ألسنة البحارة فى جنوب أوربا، نذكر من تلك الاصطلاحات كلمة cable المأخوذة عن لفظ «حبل» العربى، وكلمة Arsenal وبالايطالية Darsonal المأخوذة عن لفظ «دار الصناعة» بالعربية وكذا كلمة Convette المأخوذة عن لفظ «غراب» «العربية»(٢)

وبهذا يتضح لنا أن السلاح قد اهتم به المسلمون فى العصر العباسى الأول، كما أهتموا به منذ العهود الأولى للدولة الاسلامية، لكن صناعة السلاح بشكل عام يكتنفها بعض الغموض، وعدم توفر المعلومات عنها.

---

(١) - الجاحظ، رسائل الجاحظ، المرجع السابق حـ١ ص٧١/٧٢
وسبق لنا أن بينا المعانى الصعبة فى هذا النص فقد مر ذكر هذا النص ص٢٤٢ من هذا البحث.

(٢) - نقلا عن حسن ابراهيم حسن، على ابراهيم، النظم الاسلامية ص٢٠٤

ويرى الباحث أن صناعة السلاح عادة ما تخضع لكثير من الرقابة والسرية في كثير من المجتمعات ومنها البلاد الاسلامية ايضا، كما أن هناك أسبابا أخرى كثيرة كانت وراء اختفاء المعلومات عن تلك الصناعة منها ما يلي :-

١ - قلة عمليات التجديد والاحلال لبعض أنواع السلاح فى الدولة الاسلامية، وذلك لأن المسلم لم يكن بحاجة دائمة الى ذلك، حيث أن السلاح كان اذا لحقه كسر أو عطب فانه يستصلح، وفى الغالب كان يرجع الى حالته الأولى، كالانواع المختلفة من السيوف وما شابهها.

٢ - كما أن المسلم كانت لديه باستمرار اسحلة كثيرة نظرا لكثرة الغنائم وما يتبع ذلك من وفرة فى السلاح، حيث ان المسلم يستحق سلب مقتوله هذا من جهة ومن جهة ثانية حب المسلم ورغبته فى أن ينال شرف الجهاد والقتال فى سبيل الله إذ ما دعى اليه فى أى وقت، وبالتالى فقد كان المجاهد المسلم يمتلك فى الغالب عدة أنواع من الاسلحة مما جعل الحاجة الى التجديد قليلة.

٣ - اضف الى ذلك ارتباط هذه الصناعة بحرفة الحدادة - فى الغالب - مما جعلها دائمة داخلة تحت مسمى الحدادة، فقد كان الحدادون يقومون بصناعة آلات السلاح المختلفة وأدوات الجنود، وبالتالى لم تظهر مصانع خاصة بالسلاح.

٤ - ويغلب على ظن الباحث أن الاستعمار الأوربى لكثير من بلاد المسلمين كان له دور أساسى فى الغموض الذى يكتنف هذه الصناعة أيضا ولا يستبعد الباحث أن تكون آثار السلاح قد نالها شيء من التغطية بشكل متعمد، حيث أن كثيرا من البلاد الاسلامية خضعت للاستعمار الأوربى فترات طويلة من الزمن، وخاصة اذا ما علمنا أنهم قد اظهروا كثيرا من الفنون والصناعات الأخرى الاسلامية وتحدثوا عنها ، وعن ابداع المسلمين فيها، ولم نجد أحدا منهم يتحدث عن صناعة السلاح فى الدولة الاسلامية إلا القليل منهم يقول سيديو فى كتابه خلاصة تاريخ العرب : «وقد اخترع العرب الورق، وبيت الأبرة (البوصلة) وبارود المدافع، ولا عبرة ببعض الفرنج الذى سلب عن العرب شرف اختراعها وتعليمها لأهل أوربا زاعما أن أهل الصين عرفوا تلك الاشياء منذ زمن قديم عملا بما اطلع عليه من نسبها الى غيرهم»(١).

---

(١) - سيديو، خلاصة تاريخ العرب، دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع ص٢٦٨

كما أن الجاحظ - وهو ممن عاشوا فى الفترة العباسية الأولى - ذكر فى كتابه التبصرة بالتجارة نصا يفيد وجود حركة تجارية فى مجال صناعة السلاح فى داخل الدولة وخارجها فيقول : «انه كان يجلب من الصين الفرند (النصال المجوهرة)، والحرير والكاغد والمداد (الحبر) والطواويس، ومن الخزر : العبيد والاماء والدروع، والبيض والمغافر، ومن دنباونر (جبل عال بناحية كرمان) نصال السهام، ومن الرى : الاسلحة والثياب والرقاق، والامشاط،ومن بلاد ما وراء النهر : السلاح كالسيوف، والآقواس، ومن الهند : الرماح، ومن اليمن : الدروع والسيوف ومن شمال افريقية : السيوف».(١)

(١) - الجاحظ، التبصر بالتجارة، المرجع السابق ص٣٨/٣٣

رابعا : صناعة السكر

من الصناعات التى ازدهرت فى الدولة الاسلامية، وخاصة فى الدولة العباسية صناعة السكر، فكان القصب يعصر ويطبخ ويوزع فى كثير من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية.

وفيما يلى محاولة للوقوف على نشأة هذه الصناعة وتطورها؛ مع بيان فضل المسلمين فى تلك الصناعة على العالم وخاصة أوربا، فما هو السكر إذن وما مراحل تطور صناعته؟

أ- ما هو السكر ؟

السكر لفظ فارسى معرب، الواحدة منه، سكرة، والسكر فى الفارسية، شكر وشكر بفتح الشين وفتح الكاف وتشديدها. وقد عرف بأنه العصير المستخرج من قصب السكر أو البنجر(٢)، ويقال : أنه موطنه الاساسى أراضى البنغال، وقيل : أنه نقل من هناك الى الصين فى القرن السابع قبل الميلاد وقديما قيل : بان بالهند قصبا يخرج منه عسل «من غير نحل» وقد عرف تكرير السكر لأول مرة فى الهند حوالى عام ٢٠٠ للميلاد وقد صلت صناعة السكر وزراعة قصبه الى بلاد فارس حوالى عام ٦٢٧م، وقد ساعد على ذلك استواء الاراضى هناك ورطوبتها والتى تلائم زراعة قصب السكر، وقد عرفت زراعة قصب السكر بادىء الأمر للاغراض الطبية أو بوصفة مادة حلوة، ولكنه بعد ذلك انتشر انتشارا واسعا وسريعا على أيدى العرب، بعد فتح فارس فى كل الاماكن التى تلائم زراعة قصب السكر.

---

(٢) - انظر المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٤٤١

وخاصة فى مصر، وعلى طول الشاطىء الشمالى لأفريقية حتى مراكش، واسبانيا، وصقلية على أن الهند وبلاد فارس لاتزالان أهم مراكز قصب السكر(١).

ب - المسلمون وصناعة السكر :

يعتبر السكر من مآثر المسلمين، وان كان قد ظهر بداية فى غير بلاد المسلمين، ذلك أن الأيادى البيضاء للمسلمين فى تطور صناعته وانتشاره فى العالم لا يمكن أن تذكر إلا للمسلمين.

فبرغم وجوده فى بلاد الهند من قديم الزمان اذ كان يسمى بـ «الملح الهندى»، وبالرغم ايضا من أن اليونان قديما عند غزوهم لبلاد الهند، وأشاروا اليه وللنبات الذى ينتج منه بقولهم : «ضرب من القصب المدهش ينتج نوعا من العسل بدون تدخل النحل» فانهم لم يدخوله الى مناطق البحر المتوسط، ولم يهتموا بنقله، وظل مجهولا لهذا الجزء من العالم حتى قدم المسلمون فجعلوا منه تجارة عالمية، ونشروا زراعته فى جميع انحاء العالم(٢).

وقد نشر المسلمون زراعة قصب السكر فى جميع دولتهم فاسسوا معامل لتكرير السكر، وان كان أول ذكر لزراعة قصب السكر وتكريره كان فى اقليم خوزستان (الاهواز) فى القرن الثانى الهجرى، وان محصوله كان على درجة عالية من الجودة.

يقول آدم متيز : «وكان أكبر مركز لصناعة السكر اقليم خوزستان (الاهواز) وخصوصا مدينة جنديسابور، حتى كان يقال ان عامة سكر خراسان والجبال منها»(٣).

---

(١) - انظر، دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق جـ١٢ ص١٦/١٤

(٢) - جلال مظهر، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق ص١١٦

(٣) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص٣٠٥، المقدسي، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص٤٠٢، ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢٢٩

وقد ذكر ابن خلدون فى قائمته فى اقليم الاهواز أيام المأمون أن كمية السكر بلغت ٣٠،٠٠٠ ثلاثون ألف رطل من السكر، وهذا فى اقليم واحد.(١) كما أسسوا ايضا معامل لتكرير السكر كل من سوريا وفلسطين والعراق(٢) ومصر، لكنه برز فى مصر فى جميع مناطقها ، ولايزال من المحاصيل الزراعية الهامة حتى الآن وخاصة فى الوجه القبلى لمصر.(٣) وكانت لمصر شهرة عظيمة فى مجال زراعة القصب وصناعة السكر فيذكر القلقشندى : ان شهرة سكر مصر كانت تفوق شهرة سكر الاهواز(٤).

وكانت مراكز صناعته تعرف بالمعاصر والمطابخ، والمسابك، وقد انتشرت فى مختلف المدن المصرية، ولاسيما فى الأماكن القريبة من زراعته ومنها الفسطاط والمنيا والفيوم واسيوط ثم قفط، وقد ذكر المقريزى ان قفط وحدها بلغ ما كان فيها بعد السبعمائة من سني الهجرة أربعون مسبكا للسكر وست معاصر للقصب(٥). كما تشير أوراق البردى التى ترجع الى القرن الثانى الهجرى الى زراعة قصب السكر فى مصر بكثرة(٦).

وقد نسب الى الامام الشافعى - رحمه الله - الذى عاش بمصر فى أواخر القرن الثانى الهجرى مقولة توضح أهمية القصب فى مصر فيقول : «لولا قصب السكر ما أقمت فى مصر».(٧)

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص١٧٩

(٢) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٨١

(٣) - سعيد عبدالفتاح عاشور وآخرون، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية والاسلامية، بحث أحمد مختار العبادى بعنوان الحياة الاقتصادية فى الدولة الاسلامية ص٣٥٣

(٤) - القلقشندى، صبح الاعشى، المرجع السابق حـ١ ص٣٠٨

(٥) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص٢٣٢

قفط بكسر أوله وسكون ثانيه كلمة عجمية لا يعرف لها أصل فى العربية وهى مسماة بقفط بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وهى بلدة قديمة بصعيد مصر كانت قريبة من مدينة اسوان، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان حـ٤ ص٣٨٣.

(٦) - آدم متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٥

(٧) - السيوطى، حسن المحاضرة، المرجع السابق حـ٢ ص٤٣٧

هذا وتطنب المصادر المعاصرة فى وصف كميات السكر الضخمة التى كان حكام مصر يستهلكونها فى عمل الحلوى التى توزع على الناس فى الاعياد والمواسم، أما فى العراق فيذكر الثعالبى : ان قصب السكر كان ينتج بوفرة فيه ولاسيما حول البصرة وفى سنجار.(١)

وإذا كانت البلاد الاسلامية قد عرفت زراعة قصب السكر وتكريره فى كثير من بلادها وادخلت كثيرا من التطور على هذه الصناعة ، فيذكر المقدسى : أن المسلمين قد صنعوا السكر ايضا من العنب، مما يعنى تطورا وابتكارا فى هذا المجال(٢) قد سبق التطور الحادث الآن فى مجال صناعة السكر، وقد كان لهذه الصناعة عند المسلمين أثرها الكبير على دول أوربا، حيث أن البلاد الأوربية لم تعرف السكر إلا فى نهاية القرن التاسع الميلادى إذ تشير الوثائق التاريخية الى أن أول شحنة هامة من السكر وصلت الى ميناء البندقية فى سنة ٩٩٨م غير أن هذه التجارة ظلت محدودة وفى حدود ضيقة فى بلاد أوربا. وأن أول معمل لتكرير السكر فى أوربا كان فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى(٣).

يقول روم لاند فى كتابه الاسلام والعرب : "ويوم كان العرب قد فرغوا من ادخال السكر الى اسبانيا، كانت بقية البلدان الأوربية لاتزال تجهل وجوده"(٤)، وكان أول مؤلف أوربى وصف تكرير السكر كان فى القرن السابع عشر، وقد استقى مادته العلمية فى اغلب الظن من مؤلفات العربية، ذلك ان طرق زراعة قصب السكر وطرق تكريره كانت شائعة، ومشروحة فى عدد من المؤلفات العربية ابتداءا من القرن الثامن الميلادى.

---

(١) - البيهقى، المحاسن والمساوى، المرجع السابق ص٦٢٣

(٢) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص٤١٦

(٣) - جلال مظهر، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق ص١١٦، حسن أحمد السيد حماد، الحضارة العربية، المرجع السابق ص٨٠

(٤) - روم لاند، الاسلام والعرب، المرجع السابق ص٢٧٨

على أنه يجب أن نلفت الانتباه الى أن الاستهلاك العالمى للسكر، ظل مدة طويلة يعتمد على صناعة السكر لكل من سوريا ومصر وصقلية وبلاد الاندلس فقد كانت الاماكن الاساسية لانتاج السكر فى العالم هى بطبيعة الحال البلاد الاسلامية.(١)

ومن خلال ما تقدم من عرض حول صناعة السكر تتضح لنا عدة أمور هي :-

١ - ان تطور صناعة السكر يرجع فى أساسه الى جهود المسلمين فى تلك الصناعة، واهتمامهم بزراعة القصب بشكل عام.

٢ - ان العالم الاسلامى ظل يحتكر التجارة العالمية للسكر على مدى اكثر من تسعة قرون.

٣ - ان تطور صناعة السكر فى أوربا يرجع الفضل الأكبر فيه الى الخبرات الاسلامية التى انتقلت الى بلاد أوربا عن طريق بلاد الاندلس الاسلامية ويؤكد ذلك ايضا ان المراجع العلمية الاسلامية ظلت الى وقت قريب هى المرجع الاساسى لدراسة هذه الصناعة فى أوربا.

٤ - لكن الآثار الاقتصادية لهذه التجارة تظل مجهولة، حيث لا تتوفر لدينا معلومات عن عدد معامل التكرير، كما لا تعرف بدقة مساحة الأراضى التى كانت تزرع بالقصب فى الدولة العباسية، والدولة الاسلامية بشكل عام، لكننا إذا نظرنا الى سعة الدولة العباسية وتلبية حاجتها منه، وكذلك لتصدير بعض منه الى البلاد الأخرى، فان ذلك كله يعكس - بلا شك - أهمية السكر وصناعته فى تجارة الدولة العباسية الداخلية والخارجية، كما يعكس ذلك ايضا حجم العمالة الكبيرة التى كانت تعمل فيه والكميات الهائلة التى كانت تنتج منه فى الدولة العباسية، مما يؤكد تطور هذه الصناعة وازدهارها ايضا.

---

(١) - جلال مظهر، حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العالم، المرجع السابق ص٣٨٨/٣٨٩

خامسا: صناعة الأوانى :

ازدهرت صناعة الأوانى الزجاجية والمعدنية والفخارية والخزفية فى الدولة الاسلامية بصفة عامة، ولازالت توجد بعض الآثار الاسلامية فى هذا المجال قبل العصر العباسى وبعده.

وقد اشتهرت بلاد مصر والشام بصناعة الأوانى الزجاجية منذ العصر الرومانى، فلما دخلت هذه البلاد حظيرة الاسلام ظلت صناعة الأوانى الزجاجية فيهما متأثرة بالعصر الرومانى خلال القرون الأربعة الأولى الاسلامية، وكان التطور فى هذه الصناعة ابطأ من غيره من الفنون الاسلامية الأخرى، لكن الاقبال على استعمال الأوانى الزجاجية كان عظيما، كما كانت الاساليب الفنية مشتركة بين الاقاليم الاسلامية المختلفة، مما أدى الى صعوبة معرفة منشأ آى آنية فى تلك الفترة هل هى صنعت بمصر أم الشام أم ايران ؟ ومهما يكن من شىء فان الزعامة فى انتاج الأوانى الزجاجية فى الدولة الاسلامية الأولى كانت لمصر والشام، وكان صانعوا الزجاج فى العراق يقلدون اشكال الأوانى والاساليب الفنية التى تنتجها سوريا وفلسطين، وعلى الخصوص صور وانطاكية وعكا والخليل ودمشق وحلب، وكان الزجاج السورى يضرب به المثل فى الرقة والنقاوة(١).

على أنه يمكن القول - على حد قول أحد الباحثين(٢) - ان الأوانى الزجاجية فىالدولة الاسلامية حتى نهاية القرن الخامس الهجرى كانت لا تختلف كثيرا عن الأوانى الزجاجية التى عرفتها هذه الاقاليم المفتوحة وانها ظلت كذلك دون تغيير يذكر، وأن أسهل ما يمكن التعرف عليه من صناعة الأوانى هو ما صنع بعد القرن الخامس الهجرى حتى ابتكر المسلمون اساليب جديدة فى هذه الصناعة(٣).

---

(١) - زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٥٨١ ٥٨٢

(٢) - زكى محمد حسن، المرجع السابق حـ٣ ص٥٨٢

(٣) - المرجع السابق حـ٣ ص٥٨٢

وقد برع المسلمون فى هذه الصناعة فهناك الزجاج المزخرف بأنواع كثيرة من الزخارف، وهناك الزجاج المضلع وذوو الثنايا، وفى دار الآثار العربية بالقاهرة ومتحف الآثار الاسلامية بكلية الآداب جامعة القاهرة مجموعات من الأوانى الزجاجية التى ترجع الى الدولة الاسلامية الأولى، ومنها أوانى محفوظة فى المتاحف الأوربية والامريكية، وهى مما صنع فى القرون الخمسة الأولى للدولة الاسلامية والطريف أن اشكالها من التنوع والابداع بحيث يشمل معظم الاشكال التى تصنع فى وقتنا الحاضر.(١)

ويبدو أن صناعة الزجاج بصفة عامة كان لها أهميتها فى الدولة الاسلامية وبخاصة سوريا، فقد ظل الأوربيون وخاصة فرنسا يستوردون من سوريا المواد الأولية ويحتفظون بسر هذه الصناعة وخبرة صناعها الذين كانوا فى بداية الأمر من بين العرب، ويلاحظ - كما يقول رسيلر - أن صناعة المرايا واستخدام الزجاج بالكنائس حتى القرن الثانى عشر الميلادى انما يرجع لنشاط العرب.(٢)

كما كانت مخترعات حلب فى هذه الصناعة مرغوبا فيها، وكانت تصنع أكوابا وقوارير، وزجاجات متداولة الاستعمال، وأوانى أو آلات من الزجاج من أجل الكيمياء مثل انابيب التقطير وغيرها. وكانت دمشق تصنع الزجاج المذهب، والقاهرة القديمة اقداحا شفافة.

وأما العراق وفارس فقد صنع البلور المصفى لأول مرة ويحتفظ المتحف البريطانى بتحف فاخرة من سامراء والفسطاط من اقداح، وآنية وأباريق، وقناديل مواشاة بألوان براقة ومغطاة بطلاء ملون بألوان الطيف أو ببلاتين معدنى ذى الوان متغيرة.

---

(١) - زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٥٨٢/٥٨٥ بتصرف.

(٢) - جاك رسيلر، الحضارة العربية، ترجمة غنيم عبدون ومراجعة . أحمد فؤاد الاهوانى، الدار المصرية للتأليف والترجمة ص١٨٦، سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، المرجع السابق ص٣٦٤/٣٦٥

وقد ادخلت هذه الصناعة فى صقلية فى القرن الثانى عشر، وفى ذلك العصر كانت حلب ودمشق تصنعان عجائب من الزجاج بمساعدة رسوم بألوان الطيف المختلفة، وأما البندقية فقد حصلت من سوريا ومصر على المواد الأولية والعمال العرب الاخصائيين وعلى طرائق هذه الصناعة الخفية التى احتفظت بها عن جدارة وخاصة الزجاج المموه بالميناء القصديرية مما يعنى أن دخول هذه الصناعة الى أوربا لم يتم إلا عن طريق المسلمين وفى القرن الثالث عشر الميلادى، بينما كانت معروفة فى البلاد الاسلامية قبل ذلك بعدة قرون(١).

بالاضافة الى ما تقدم فقد عرفت فى الدولة العباسية الأوانى المعدنية كالاباريق والصحون والصوانى، لكن غالبه كان متأثرا بالصناعة الساسانية فى ايران والقبطية فى مصر، وأهم الأوانى مما ينسب الى الدولة الاسلامية فى القرون الأولى مجموعة من الاباريق والأوانى المعدنية على هيئة حيوان أو طائر ومجموعة من الأوانى الفضية والذهبية، والتى ظلت محتفظة بالفن الساسانى الى حد كبير ولم يدخل عليه أى تعديل إلا الشىء اليسير من الاناقة والجمال(٢).

كذلك استخدم المسلمون الأوانى الفخارية والخزفية وبرعوا فى صناعتها، وان كانوا قد تأثروا فى تشكيلها بالصناعة الصينية فى بداية الأمر، إلا أن الفخار الاسلامى الذى صنع فى ظل الدولة الاسلامية يختلف اختلافا كبيرا من حيث قيمة زخرفته واساليب صناعته، لكن أعظم أنواعه ما صنع لكبار

---

(١) - جاك رسيلر، الحضارة العربية، المرجع السابق ص٢١٢، زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٦٦٣/٦٦٤

(٢) - زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٥٩٨، عمر رضا كحالة، الفنون الجميلة، المرجع السابق ص١٩٩
سبق أن قلنا أن الصناعة الاسلامية تخلصت من الرسوم الحيوانية والآدمية، لكن المذكور هنا لعله مما كان موجودا عند دخول هذه البلاد فى الاسلام حديثا، بالطبع لم يتم التغيير بين ليلة وضحاها ولكن ذلك تم بعد فترة من الوقت حينما توغل الاسلام، وتأكدت تعاليمه فى القلوب حينها اقلع عن مثل هذه الرسوم المحرمة.

رجال الدولة، أما ماعدا ذلك فيمكن اعتباره من الانتاج الشعبى، وان لم يعدم الزخارف الجميلة القديمة والتى تميز بها الفن الاسلامى بصفة عامة(١).

وكانت صناعة الفخار فى الدولة الاسلامية الأموية والعباسية على شكلين :

أولا : صناعة ذات ذوق رفيع ودقة عالية فى الصنعة وهى خاصة بالحكام وكبار رجال الدولة وذوى اليسر من التجار وغيرهم، وكانت تطلى فى الغاليب بالمينا القصديرية وهى تعتبر من الصناعات الفخارية الثمنية، وكان احسنه فى سامراء - وان لم يعثر على شىء منها - إلا أن المصادر التاريخية قد ذكرت ذلك(٢).

الثانى : صناعة خاصة بالاستهلاك الشعبى، وهى أقل جودة واتقانا لكنها ايضا لا تخلو عادة من التزيين بالرسم عليها أو بحفرها أو تجعيدها ودهنها بلون واحد أو بعدة ألوان.

ويبدو أن صناعة الأوانى الفخارية الايرانية كانت أجود الصناعات الفخارية، وذلك خلال القرنين الثامن والتاسع الميلادى، فقد برعوا فى الزخرفة والرسم وكانت لهم طرق خاصة فى هذا الفن يظهر ذلك من خلال ما عثر عليه من كميات ضخمة من الآثار فى حفريات الآثار فى المدن الايرانية(٣). وكان الفخار فى ظل الدولة العباسية فى الغالب ذو لون واحد أو لونين وقد وجدت بعض أوانى هذا العصر فى سامرا وسوس(٤) والفسطاط وهى فى الغالب تشبه الأوانى التى انتجت فى العصر الساسانى ولها بريق معدنى.

---

(١) - عمر رضا كحالة، الفنون الجميلة، المرجع السابق ص٢١٤

(٢) - زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٢٦٣

(٣) - عمر رضا كحالة، الفنون الجميلة، المرجع السابق ص٢١٢

(٤) - سوس : بضم أوله وسكون ثانية وسين مهملة أخرى بلدة بخوستان وهى من آخر ما فتح فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٣ ص٢٨٠/٢٨١

ويعتبر هذا البريق المعنى من الابتكارات العظيمة التى اهتدى اليها الصناع المسلمون فى القرنين الثامن والتاسع الميلادى(١)٠ وقد انتشر هذا الفن ذو البريق المعدنى فى ايران والعراق وأنتقل بعد ذلك الى مصر وجلبت منه نماذج، كما اقبل الصناع المصريون على صناعته بهذه الطريقة، ولاسيما فى عصر الدولة الطولونية٠(٢)

وكان لصناعة الخزف الاسلامى أثر كبير فى تطور صناعة الخزف فى أوربا ولاسيما عن طريق بلاد الاندلس التى ازدهرت فيها صناعة الخزف ذى البريق المعدنى، وكانت مصانعها تعمل لحساب كثير من الاسر النبيلة فى اسبانيا والبرتغال وايطاليا وفرنسا٠ وقد نقل الايطاليون هذه الصناعة من بلاد الاندلس فى القرن الخامس عشر، كما تأثر الأوربيون كثيرا بالاساليب الفنية فى صناعة الأوانى المعدنية الاسلامية التى كان الاقبال عليها عظيما فى أوربا، فاقبل الصناع على تقليدها ولاسيما فى ايطاليا وأوربا الوسطى ولاسيما البندقية التى ورثت هذه الصناعة بعد أن بدأت فى الاضمحلال فى البلاد الاسلامية منذ القرن الخامس عشر الميلادى٠(٣)

سادسا : صناعات أخرى:

بالاضافة الى ما تقدم من الصناعات المختلفة، وجدت صناعات أخرى كثيرة ومتنوعة يصعب حصرها وتتميما للفائدة نضرب لبعض مما تبقى منها على سبيل المثال لا الحصر ٠

أ - الصناعات المعدنية :

ازدهرت كثير من الصناعات المعدنية فى هذا العصر، وإن كانت لم تعرف فى الدولة العباسية الصناعات الكبيرة، ولا الخطوات الفنية المتعددة فى ميدان التعدين، فقد ظلت على مستوى الصناعات اليدوية المتعلقة بالحدادة

---

(١) - عمر رضا كحالة، الفنون الجميلة، المرجع السابق ص٢١٦/٢٢٠

(٢) - زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٢٢٦

(٣) - زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٦٦٣

كالسيوف والأوانى المعدنية النحاسية والتى سبق ذكرها وغيرها(١) من الحرف المساعدة، لكنها كانت كثيرة ومتعددة ومتنوعة ودقيقة وفيما يلى عرضا لأهم الصناعات المعدنية التى وجدت فى هذا العصر.

١ - صياغة الذهب والفضة :

اهتمت الدولة العباسية فى التوسع باستخراج الثروات المعدنية ولاسيما الذهب والفضة، وكان ذلك من أهم اسباب الانطلاق الصناعى فى العصر العباسى الأول، وقد أشار الرحالة والجغرافيون الى النشاط الكبير الذى بذله العباسيون فى استخراج المعادن من مواردها الأصلية(٢)، فكان الذهب يستخرج من القسم الغربى من الدولة العباسية من صحراء مصر الشرقية فى منطقة تمتد بين اسوان وعيذاب، وكانت مدينة العلاقى(٣) أكبر مدينة تقع بها مناجم الذهب، وقد اهتمت الدولة العباسية بهذه المنطقة اهتماما بلغ اقصاه فى منتصف القرن الثالث الهجرى.

أما مورد الذهب الآخر فكان فى غرب أفريقية عند الطرف الجنوبى للصحراء الكبرى، وكان التبر - الذهب - اكبر غلات القبائل الزنجية الضاربة على اطراف الصحراء، وكانت قوافل التبر تعبر الصحراء الكبرى متجهة الى تونس والقيروان حيث ينقل الذهب الى موضع التصنيع.

أما الفضة فكانت تستخرج بكميات وفيرة من مدينة بنجهير(٤) بجبال هندكوسن فى الوقت الذى استنفذت فيه مناجم الفضة بأصبهان، وباداغيس

---

(١) - راجع ص٢٨٤/٢٩٠ من هذا البحث

(٢) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص٣٠٩/٤١٢

(٣) - حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى، طبعة دار الفكر العربى عام ١٩٦٦م مطبعة المدنى القاهرة ص١٩٦/١٩٧

(٤) - بنجهير : بباء مفتوحة ونون ساكنة وهاء مكسورة وياء ساكنة وراء، مدينة بنواحى بلخ فيها جبل الفضة وبلخ مدينة مشهورة بخراسان، انظر ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١ ص٤٧٩

ببلاد فرغانة واشتهرت بغداد ومصر بالصياغة، ونبغ فيها الفرس وبلغت صناعتهم شأنا عظيما فى الدقة والجمال.(١)

وقد أشار أحد الأوربيين الصناعات المعدنية الاسلامية بصفة عامة فقال: «وفى جانب المعادن لم تعرف الصناعات الكبيرة، ولا الخطوات الفنية فى ميدان التعدين، وظلت الصناعة فى مستوى الصانع اليدوي، وبقيت (الورش) والمحال الصغيرة كما كانت عليه فى الماضى إلا أن العامل كان يتمتع بمهارة وحذقا وصبرا مما جعل هذه الدقة - أحيانا - تعد معوقا للانتاج الوفير، لكنها كانت تمنحه صفة الاتقان وطابع الطلاوة، وقد بلغ صانع المعادن ما بلغ، ولاشك أن كل عمل متقن له أهمتيه مهما يكن هذا العمل الفنى الشخصى متواضعا. ومن أمثلة هذه الصناعات القوية تلك السلاسل الضخمة التى كانت تشد بها الأبواب، وكانت الحلقة الصغيرة منها فى طول الذراع وفى الميناء الذى انشأه المهدى على مقربة من تونس كانت الأبواب قوية يزيد الواحد منها على خمسة اطنان، وكانت معظم المدن المحصنة توصد بواسطة أبواب قوية من الحديد المطروق(٢).

ومن الصناعات المعدنية ايضا ما سبق أن ذكرناه من الاسلحة والأوانى وغيرها كثير لايتسع المقام لذكره.

ب - الصناعات الخشبية :

ازدهرت الصناعات الخشبية فى عصور الدولة الاسلامية المختلفة ومنها العصر العباسى الأول، وقد بلغت هذه الصناعة درجة عالية من الدقة والاتقان

---

(١) - د/زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٢٤٩ ، ٢٥٠، د/حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المرجع السابق حـ٢ ص٢٤٨، نخلة المدور، كتاب حضارة الاسلام فى دار السلام، المرجع السابق ص٢٥

(٢) - جاك رسيلر، الحضارة العربية، المرجع السابق ص١١٨/١١٩

والذوق الرفيع الذى لا مثيل له، ويكفى أنها مازالت تحتفظ بجودتها وروعتها حتى الآن مما تبقى من آثارها وبرغم أن مواردها الخام كانت تستورد فى الغالب من خارج الدولة الاسلامية، مما جعل أحد الأوربيين يقول عنها : «كانت صناعة الأخشاب فى الدولة الاسلامية بصفة عامة دقيقة وذات ذوق رفيع، حتى أن أى أوربى يزور أى بلد اسلامى يدهش لما يراه من المشربيات المصنوعة من الخشب المفرغ والتى تكسو النوافذ فى المساجد والدور والمحاريب والمنابر وآرائك العلماء وغيرها مما يظهر دقة الصانع فى الدولة الاسلامية، وذلك على الرغم من أن الخشب فى معظم البلاد الاسلامية آنذاك لم يكن متوفرا بصورة عامة باستثناء لبنان التى كان بها خشب الارز، وبالتالى فقد كانت الدولة الاسلامية تستورد معظم الاخشاب وبرغم ذلك كانت صناعة الاخشاب على درجة كبيرة من المهارة وفى غاية من الدقة، والصنعة بحيث لا يستطيع أحد حتى الآن أن يقلد ما صنعوه إلا بصعوبة شديدة(١)».

حـ- صناعة المطاحن (الارحاء)

انتشرت الطواحين فى الدولة العباسية الأولى وكثرت صناعتها، وقد كانت تعتمد فى تصنيعها على الخشب والحديد اللذين يستخدمان فى صنع اجزائها، وكانت تستعمل فى طحن الحبوب، ولعلها من أبرز ما اشتهرت به مناطق الموصل حيث كانت فى وسط دجلة المطاحن التى لايوجد لها مثيل لأنها قائمة فى وسط ماء شديد الجريان موثقة بسلاسل الحديد فى كل واحد منها أربعة احجار ويطحن كل حجر فى اليوم والليلة خمسين وقرا(٢).

وهذه المطاحن من الخشب والحديد ربما دخل شىء فيها من خشب الساج، وكان ببلد على بعد سبع فراسخ من الموصل كثير من هذه المطاحن، وكذلك فى مدينة الحديثة العديد منها تعمل فى وسط دجلة.

---

(١) - جاك س رسيلر، الحضارة العربية، المرجع السابق ص١١٩

(٢) - الوقر : مكيال كان يستعمل لقياس كمية الحبوب، انظر الخوارزمى، مفاتيح العلوم، المرجع السابق ص١١

ويبدو أن وارداتها فى الفترة المتأخرة كانت كبيرة، إذ بلغ خمسين ألف دينار وكثرت بالفرات، وخاصة فى الرقة وقلعة جعبر.(١) وفى بعشقيا من مدن الموصل الشرقية عدة ارحاء حيث استعمل تيار الماء لتشغيلها.(٢)

د - الصناعات الميكانيكية :

الصناعات الميكانيكية - وهى الصناعات ذات الحركة الذاتية - لم تظهر فى العصور الأولى للدولة الاسلامية، غير أن بوادر الصناعات الميكانيكية قد ظهرت ابان الفترة العباسية الأولى، كما أنه من المؤكد أن الصناعات الميكانيكية عرفت فى الدولة الاسلامية قبل أوربا بعدة قرون، ففى الدولة العباسية الأولى، عرفت الطواحين التى تستخدم فيها حركة الماء والهواء - كا سبق وأن أشرنا -، وكذلك عرفت صناعة الساعات ومنها الساعة التى اهداها هارون الرشيد لشارلمان تعمل بالماء مصنوعة من جلد ونحاس موشى باسلاك من اللجين أو الذهب...ويحكى أنه لما نظر شارلمان ورجاله الى الساعة ظنوها ضربا من السحر، وأوقعتهم فى حيرة حتى هموا بكسرها تلك الساعة التى علق عليها اجينهاز المؤرخ الفرنسي فقال : انها من أدق المصنوعات الميكانيكية»(٣). كما أن العرب قد سبقوا - جاليليوا - فى اختراع الرقاص واستعماله فى الساعات الدقاقة.

وقد اعترف (سارطون) و (سدويك) بأن العرب استعملوا الرقاص لقياس الزمان.(٤)

---

(١) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص١٩٨

(٢) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ١ ص٤٥٢، محمد جاسم حمادى، الجزيرة الفراتية والموصل، المرجع السابق ص٢٢٣/٢٢٤

(٣) - عبدالله بن العباس الجرارى، تقدم العرب فى العلوم والصناعات واستاذيتهم لاوربا، دار الفكر العربى القاهرة الطبعة الأولى عام ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ص٢٠

(٤) - عبدالله بن العباس الجرارى، تقدم العرب فى العلوم والصناعات، المرجع السابق ص٢٤

وبالتالى فان بداية الصناعات الميكانيكية كانت فى عصور الدولة الاسلامية وبخاصة فى العصر العباسى، وقد شهد بذلك الأوربيون أنفسهم، ومن المؤكد أنها ظهرت قبل ظهورها فى أوربا بعدة قرون، فيقول أحدهم - وان كانت فى فترة متأخرة عن العصر العباسى الأول - : «وكان من أعظم ما أدهش رسل قسطنطين السابع البيزنطي فى زيارتهم الرسمية عام ٩١٧م للخليفة المقتدر «قاعة الشجرة» التى اشتملت على شجرة مصنوعة من الذهب والفضة ذات اغصان كانت طيور أوتوماتيكية ذهبية تنتقل عليها مغردة فى مرح وابتهاج».(١)

ومن خلال ما تقدم يتضح أن الصناعات الميكانيكية قد ظهرت مع بداية الفترة العباسية الأولى، وانها تطورت مع بداية القرن العاشر الميلادى وهو ما يؤكد السبق التاريخي للمسلمين لهذه الصناعة، ويؤكد ما سبق ذكره ايضا ان الامام الغزالى - رحمه الله - وهو ممن عاشوا فى القرن الرابع الهجرى قد تحدث عن الآلات، وآلات الآلات فى معرض حديثه عن الحرف والصنائع فقال : «فهذه الحرف والصناعات لا تتم إلا بالأموال والآلات والمال عبارة عن أعيان الأرض وما عليها مما ينتفع به. واعلاها الأغذية، ثم الأمكنة التى يأوى الانسان اليها وهى الدور، ثم الأمكنة التى يسعى منها للتعيش كالحوانيت والاسواق والمزارع، ثم اثاث البيت وآلاته، ثم آلات الآلات».(٢)

وبالتالى فان ظهور الآلات الميكانيكية وتصنيعها فى هذا العصر يعد تطورا صناعيا فى الدولة الاسلامية وفى مرحلة مبكرة من التاريخ فى الوقت الذى لم تظهر فيه المصانع اليدوية فى انجلترا مثلا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى.(٣)

---

(١) - روم لاند، الاسلام والعرب ترجمة منير البعلبكى، بيروت، دار العلم للملايين الطبعة الأولى عام ١٩٦٢م ص٢٧٤، جاك س رسيلر، الحضارة العربية، المرجع السابق ص١٢٨

(٢) - الغزالى، احياء علوم الدين، المرجع السابق حـ٣ ص٢٢٧

(٣) - عاصم الدسوقى، دراسات فى التاريخ الاقتصادى، الطبعة الأولى عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ص١٠٩، محمد دويدار، تاريخ الفكر الاقتصادى، دار الجامعات المصرية الاسكندرية ص٧٥

هـ - صناعة الصابون :

من الصناعات التى اشتهرت فى الدولة الاسلامية، وفى الدولة العباسية ايضا صناعة الصابون، فقد اشتهرت الرقة بصناعة الصابون والزيت، وقد قال عنها المقدسى : «انها معدن الصابون الجيد»(١)· وشهرتها بالصابون تعود لكثرة انتاج المنطقة للزيتون(٢)·

ويبدو أن صناعة الصابون قد ازدهرت فى عصر الدولة العباسية وأن الميل للرفاهية، جعل المنتج منه لا يكفى للاستهلاك مما أدى الى ضرورة البحث عن صناعة مواد أخرى بديلة أو منتجات بديلة، وعن هذه الوقائع يتحدث أحد الأوربيين فيقول : «وقد برعت صناعة الصابون فى الدولة العباسية، وكانوا يمزجون الصودا مع شحم الاغنام أو الزيت وأنشأوا صناعة من افخر الصناعات فى بغداد، ومنها انتقلت بسرعة الى مصر وسوريا وبلاد تونس ثم الى بلاد الاندلس···ثم يقول : وقد استقرت الدولة الاسلامية بحيث أن الميل الى الرفاهية - على حد قوله - تملك جميع طبقات المجتمع حتى أن الانتاج لم يستطع مواجهة الاستهلاك فاحتاج الأمر الى اختراع صناعة مواد بديلة أو منتجات اخرى مساعدة»(٣)·

ويرجع أهمية الصابون فى الدولة العباسية بصفة خاصة وفى الدولة الاسلامية بشكل عام الى كثرة الحمامات فى الحياة الاجتماعية فى الدولة الاسلامية، فقد كان الفرد يستهلك فى ليلة العيد رطلا من الصابون فى الحمام، وكانت بغداد سوق خاصة بأصحاب الصابون، كما عرف فيها شارع النفاطين حيث يعد ويباع فيه(٤)·

---

(١) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٤١

(٢) - محمد جاسم حمادى، الجزيرة الفراتية، المرجع السابق ص٢٢٢

(٣) - جاك س رسيلر، الحضارة العربية، المرجع السابق ص١٢٤

(٤) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق جـ١ ص١١٣/١١٨، ابن الفقيه الهمذانى، بغداد مدينة السلام، المرجع السابق ص٥٧

و - الصناعات الغذائية :

ومن الصناعات الهامة التى انتشرت فى الدولة العباسية الصناعات الغذائية كصناعة المربيات (المربى) والمعجنات والحلويات والاجبان والالبان، وما يصنع من الحليب.

وقد ذكرت كتب الحسبة كثيرا منها وكانت هذه الصناعات تخضع لرقابة شديدة من قبل المحتسبين، فينبغى أن ترفع سقائف حوانيت الخبازين، وتفتح أبوابها ويجعل فى سقوف الافران منافس واسعة يخرج منها الدخان، لئلا يتضرر بذلك الناس، واذا فرغ الخباز من احمائه، مسح داخل التنور بخرقة نظيفة، ثم شرع فى الخبز. وكان يأمر الخباز بنظافة أوعية الماء وتغطيتها، وغسيل المعاجن ونظافتها، وما يغطى به الخبز وما يحمل عليه. ولا يعجن العجان بقدميه ولا بركبتيه ولا بمرفقيه، لأن فى ذلك مهانة للطعام، وقد ذكر الشيرزى وغيره أمورا كثيرة يحسن الرجوع اليها فى كتب الحسبة(١).

اما صناع الزلابية(٢)، فيأمرون بأن يكون مقلى الزيت من النحاس الأحمر الجيد، ويكون ثلث دقيق الزلابية ناعما وثلثاه سميدا خشنا، ولا يشرع فى قليها حتى يختمر عجنها، وعلامة اختمارها أن تطفو على درجة الزيت(٣).

وكانت مراقبة الصناعات الغذائية من مهمة المحتسب، وقد روعى فى ذلك جودة الصنعة، ومكونات المصنوع وعدم الغش فيها، ومراعاة النظافة والصحة بشكل عام فى تصنيعها.

وبعد أن أنتهينا من أهم الصناعات التى وجدت فى المجتمع العباسى الأول وهى بالطبع كثيرة لا يمكن حصرها وقد كان ما سبق أن أشرنا الى بعض منها على سبيل المثال لا الحصر، ونحاول الآن عرض أهم الحرف التى وجدت فى المجتمع العباسى الأول ليتبين لنا بعد ذلك كله أثر هذه الصناعات والحرف على اقتصاديات المجتمع العباسى الأول.

---

(١) - الشيرزى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، المرجع السابق ص٢٢

(٢) - نوع من الحلوى يدخل فى عملها العسل واللوز والدقيق.

(٣) - الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٢٥

المطلب الثاني: أهم الحرف في المجتمع العباسي الأول

وجد فى المجتمع العباسى كثير من الحرف فى جميع الأنشطة الاقتصادية المختلفة، وقد كان لهذه الحرف أثرها الاقتصادى فى تطور المجتمع العباسى وازدهاره ، وفيما يلى عرض لأهم هذه الحرف على سبيل المثال لا الحصر.

١ - الحرف المتعلقة بالجلود :

من الحرف المتعلقة بالجلود الدباغة، والدباغ هو الذى يدبغ الجلود، والمحل الذى يدبغ فيه يسمى بالمدبغة - والجمع مدابغ، وقد كانت الدباغة من الحرف المقلقة لما كان يصدر عنها من روائح كريهة، لذا كان يؤمر أهلولها بأن يكونوا فى أطراف المدن كما كان يشترط فى انشاء المدبغة شروطا صحية مختلفة مثل سعة الأماكن، وتهويتها وارتفاع سقفها، وكان الاشراف عليها من مهام المحتسب(١). وكان للدباغين سوق مخصوصة فى البصرة، اشار الى ذلك الطبرى فى تاريخه(٢). كما كان للدباغين اسواق فى معظم المدن الاسلامية كبغداد والشام، ومصر، ومن الحرف المتعلقة بصناعة الجلود ايضا الحذائين، وهم صناع الأحذية والنعال، وكان للمحتسب ايضا دور فى مراقبة حرفتهم والاشراف عليها(٣). فمثلا كان على المحتسب ان ينبههم ألا يستعملوا من الخيط إلا قلب الكتان، ولا يخيطوا إلا بالابرة الرفيعة ولا يخيطوا بشىء من شعر الخنزير، وألا يكثروا من حشو الخرق فى النعال(٤). وهذا وغيره كان يقصد به ضرورة اجادة الحرفة واتقانها وعدم الغش فيها، ولاشك أن ذلك له أثره الهام على النشاط الاقتصادى وبشكل خاص على الصناعة وتطويرها بالاضافة الى أنه هدف من أهداف التشريع الاسلامى الذى يوجب على المسلم أن يتقن صنعته بحيث يستفيد المستهلك منها بأكبر قدر ممكن.

---

(١) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٥١٢، الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٧٣

(٢) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٤ ص٤٦٥

(٣) - الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٧٣

(٤) - ابن الأخوة، معالم القربة فى أحكام الحسبة، المرجع السابق ص٢٣٣

٢ - الحرف المتعلقة بالصناعات الخشبية :

ومن الحرف الهامة المتعلقة بصناعة الاخشاب والتى ازدهرت فى عصر الدولة العباسية الأولى النجارة، والنجار هو صانع الاثاث وغيرها من المنتوجات الخشبية، ولا شك أن النجارة من الحرف القديمة ويقال أن اليونانيين القدماء كانوا أئمة فى النجارة مثل اوقليدوس(١) وغيره، وقد زاول هذه الحرفة كثير من اشراف العرب مثل عتبة بن أبى وقاص وغيره.(٢) ويتفرع عن هذه الحرفة عدد كبير من الحرف كالمطعم والمرصع والنقاش والحفار والدهان، وغيرها من الحرف التى عرفت فى التاريخ الاسلامى.

وهذه الحرفة من ضروريات العمران - كما يقول ابن خلدون - وتمتاز المجتمعات المتحضرة بارتقاء مهنة النجارة وتوابعها فيها وهى من الحرف المتعلقة بصناعة الاخشاب، وقد ارتقت هذه الحرفة فى عهود الدولة الاسلامية المختلفة بشكل عام، وفى الدولة العباسية ايضا.

وظهرت على أثرها كثير من الفنون الأخرى كالحفر والرسم على الخشب وتطعيمه مختلف الاحجار التى تعطيه رونقا وجمالا، وكان النجارون فى المجتمع العباسى اصنافا، فهناك نجاروا الضب (الاقفال) ونجارو المراكب، والسفن، وقد مهر المصريون فى صناعة السفن، وبصفة خاصة المراكب النيلية التى كانت تسير فى النيل تحمل حاصلات البلاد بين الوجهين البحرى والقبلى، كما اشتهروا بصناعة السفن التى تكون منها الأسطول الاسلامى فى ذلك العصر، وكانت السفن تشحن بالاسلحة والمقاتلة والبضائع.(٣) كما كان فى بغداد ايضا ورش لاصلاح السفن، وقد عرف فيها منذ نشأتها دارا لصناعة الجسر مهمتها صيانة وتجهيز سفن جسور عاصمة الدولة العباسية.(٤)

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٤١٠/٤١١

(٢) - ابن رسته، الاعلاق النفيسة، المرجع السابق ص٢١٥

(٣) - . حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المرجع السابق جـ٢ ص٢٤٨، ابن بسام، نهاية الرتبة المرجع السابق ص١٤٧/١٤٨

(٤) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٤٩

وكان لحرفة النجارة وغيرها من الحرف المتعلقة بها دور اساسى فى حياة المجتمع العباسى، من حيث توفير الأثاث اللازم للمنازل، وكذا الادوات الخشبية التى يحتاجها ارباب المهن الأخرى التى تعمل بآلات خشبية، مما يعنى التقليل من عمليات الاستيراد لها من خارج الدولة. وبالطبع فان ذلك يقلل من انفاق الدولة على المستوردات الخارجية، وقد تفى احتياجات البلاد المجاورة لها من الدول الأخرى، مما يعنى زيادة حصيلة الدولة من اثمان هذه الآلات أو مختلف قطع الاثاث التى كانت تصدرها فى تلك الفترة.

٣ - الحرف المتعلقة بالصناعات المعدنية :

الحرف المعدنية بصفة عامة كانت كثيرة ومتنوعة، فقد كان منهم الصفارون - صناع الأدوات النحاسية - والحدادون والسباكون، والصاغة وغيرهم، والصفر نوع من النحاس الاصفر الذى تصنع منه الأوعية والقدور، والصفار من مستلزمات المجتمعات المتحضرة - كما قال ابن خلدون -(١) وقد اشتهرت مدينة الموصل بصناعة الصفر، ومن الصفارين المشهورين من الموصل على بن عبدالله العلوى النقاش الموصلى، ويعتبر من أوائل الصفارين فى الموصل، وبالمتحف الاسلامى ببرلين ابريق وطست من صناعته.(٢) وكانت لهم أسواق خاصة فى بغداد ومصر وحلبه، وكانت تسمى بسوق النحاسين.

ومن الحرف المعدنية ايضا الحدادة، والحداد هو معالج الحديد وصانع الأدوات الحديدية من سلاح ومبارد وغيرها. وقد قام الحدادون بدور هام فى الدولة الاسلامية وخاصة فى مجال صناعة السلاح، إذ يقع عليهم عبء كبير فى صناعة الاسلحة وتزويد الجيوش بها، وامداد بيوت السلاح بما يلزمها من

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٤٢٢

(٢) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٧٠٥/٧٠٦، التنوخى، الفرج بعد الشدة، المرجع السباق حـ٢ ص٣٧٨

الاسلحة المختلفة.(١) وقد كانت لهم اسواق خاصة ايضا فى المدن الكبرى كبغداد والفسطاط وغيرها من المدن الاسلامية الأخرى، وكان يسمى باسمهم "سوق الحدادين"(٢)

ومن الحرف المعدنية ايضا السباكون : والسباك يقصد به الصانع الذى يذيب المعادن ليشكلها بمختلف الاشكال ويدخل فى هذه الحرفة صاغة الذهب والفضة ايضا، فيقوم بعمل الحلى للنساء يصوغها ويشكلها بمختلف الاشكال، ومن السباكين ايضا ضراب النقود، وقد خلف الصاغة المسلمون حليا ومصوغات على مستوى رفيع من الدقة والجمال، وكانت لهم اسواق خاصة بهم فى شتى نواحى المدن الاسلامية(٣).

وقد قام السباكون بدور هام فى الحياة الاقتصادية فى الدولة العباسية حيث وفروا كثيرا من المنتجات التى كان يمكن ان تستورد من خارج البلاد كالحلى والنقود التى انتشرت بانتشار دور الضرب فى المدن الاسلامية الكبرى كبغداد ودمشق ومصر وغيرها وبذلك تحققت ذاتية المجتمع الاسلامى فى هذا المجال واعتماده على سواعد ابنائه، كما استفاد المجتمع ايضا من تطور هذه الحرف المعدنية فتوفرت مختلف الصناعات المعدنية التى يحتاجها المجتمع فى ذلك الوقت واعتمدت الدولة على ذاتها، بل وصدرت الفائض منه.

---

(١) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق جـ١ ص٤٢

(٢) - ابن طيفور، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية، بيروت عام ١٩٦٨م ص٩٨، ابن الجوزى، مناقب بغداد، المرجع السابق ص٢٩، ابن الأثير، الكامل ، المرجع السابق جـ١١ ص٢١٧

(٣) - ابن الجوزى، مناقب بغداد، المرجع السابق ص١٦، ابن الاثير، الكامل، المرجع السابق جـ١٠ ص٢١٧، حسن الباشا، الفنون الاسلامية جـ٢ ص٥٨٨

٤ - الحرف المتعلقة بالحياكة (الخياطة) :

الخياطة حرفة من الحرف المختصة بالعمران الحضرى - كما قال ابن خلدون - والخياط هو الذى يخيط الثياب، وقد كان الخياط يخضع لمراقبة المحتسب فعليه أن يجود الثياب ويضيق الغرز، ولا يخيط الحرير للرجال، كما أن عليه أن يحترز عند قطع القماش ليتأكد من الكفاية.(١) وتحتاج الخياطة الى حرف أخرى مساعدة كالصباغة لتلوين الملابس بمختلف الألوان التى تناسب اذواق المجتمع والرفاؤن والقصارون والدقاقون وصناع القلانس، والمطرزون وغيرهم، وقد كانت هذه الحرف موجودة فى معظم البلاد الاسلامية، كما كان لهم أسواق خاصة فى بغداد ومصر وسائر المدن الأخرى.(٢) وقد كان لهذه الحرف أهميتها فى الدولة العباسية، حيث وفرت المنسوجات المتنوعة لابناء المجتمع، كما وفرت فائضا للتصدير الى خارج البلاد - على نحو ما ذكر سابقا - حيث كان للنسيج الاسلامى سمعته العالمية بين سائر المنسوجات فى تلك الفترة(٣).

٥ - حرف البناء وما يتعلق بها

البناء حرفة عظيمة لها أهميتها فى التاريخ البشرى، حيث يوفر المساكن لايواء الناس من حر الصيف وبرد الشتاء، وقد مرت هذه الحرفة بتطورات مختلفة على مر التاريخ الانسانى، فعرفت الكهوف المنحوتة فى الجبال، والمساكن المنسوجة من الوبر والشعر، ثم مبانى الطوب اللبن ثم استخدمت الاحجار المختلفة بمراحل مختلفة من حياة البشر، وقد تطورت هذه الحرفة وتفرعت عنها كثير من الحرف المكملة والمساعدة لها كالنقاشة وغيرها.

---

(١) - السبكى، معيد النعم، المرجع السابق ص١٣٥

(٢) - الشيرزى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، المرجع السابق ص٦٧/٦٨، ابن الأخوة، معالم القربة فى أحكام الحسبة، المرجع السابق ص١٣٧

(٣) - لمزيد من التفصيل راجع صناعة النسيج ص٣١٢ ومابعدها.

وقد أهتمت الدولة العباسية بعمليات البناء فاستقدمت أهل الخبرة فيها من شتى بقاع العالم لبناء مدينة بغداد وغيرها من المدن التى بنيت فى تلك الفترة٠

والبناء هو اسم لمن يحترف مهنة البناء سواء أكان البناء بالحجر أو بالطوب أو بغيرها٠(١) وقد يمتد عمل البناء الى نحت الاحجار وحفرها والى زخرفتها(٢)٠ وقد كان لحرفة البناء أهمية خاصة عند المسلمين فذكر المؤرخون بعض اسماء البنائين كسعد بن أبى عثمان الذى بنى قنطرة عبدالعزيز بن مروان فى مصر سنة ٦٩هـ على الخليج الكبير(٣)٠

ومن الحرف المكملة لعمليات البناء الجصاصون ، والجصاص هو : الذى يختص بقلع الاحجار وعمل الجص منها، وقد جرت العادة أن تكون محاجر الجصاص خارج المدن، وكان بالموصل درب يسمى (درب الجصاصين)، وأحيانا كان المحترف يجمع بين حرفتين أو أكثر كالبناءة والجصاصة٠(٤)

ومن الحرف المكملة ايضا النقاشون أو الدهانون، والنقش تلوين الشيء بلونين أو بأكثر، ويبدو أن كثيرا من النقاشين كانوا يجيدون الكتابة والخط بجانب حرفة النقاشة٠(٥) والدهان وهو طلاء الجدران والاسقف والأدوات المختلفة هى من الحرف التى توجد فى المدن المستبحرة فى العمارة - كما يقول ابن خلدون(٦) -، وقد أجاد المسلمون فى العصر العباسى الأول الحرف المختلفة المتعلقة بالبناء والتشييد، وكان البناء لا يقتصر على مجرد التنفيذ والعمل اليدوي بل كان يقوم ايضا على التصميم، واعداد الرسوم والاشراف عليه من قبل المختصين به حسب الطرق المستخدمة آنذاك والمتاح لديهم من المواد الخام٠

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٤٥٤

(٢) - السبكى، معين النعم، المرجع السابق ص١٢٩

(٣) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ٢ ص١٤٦

(٤) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٣٥٣

(٥) - المرجع السابق حـ٣ ص١٢٨٢/١٢٨٥

(٦) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٤٢٢

ومن آثار هذه الحرفة بناء مدينة بغداد على يد الخليفة المنصور الذى أمر ببنائها بين عامى (١٤٥هـ/١٤٩هـ). وقد شيدها أحسن التشييد واستقدم لها خبراء كل مهنه من شتى الاقاليم.

ومن الآثار أيضا بناء مدينة سامرا (سرمن راى) وقد أمر ببنائها الخليفة المعتصم بالله سنة ٢٢١هـ وأتخذها عاصمة للخلافة وهناك آثار كثيرة للبناء والعمارة يطول علينا عرضها

وقد كان لهذه النهضة العمرانية أثرها على المجتمع الاسلامى فى العهود اللاحقة والتى تطور فيها فن العمارة، وخرج الى خارج دائرة الدولة الاسلامية الى البلاد الأخرى غير الاسلامية، وتذكر المصادر التاريخية أن بلاد أوربا قد تأثرت بالفن المعمارى الاسلامى أيما أثر، ونحاول فيما يلى أن نعرض نماذج من هذا التأثر على سبيل المثال :

فقد تأثر الفن المعمارى الفرنسى بالفن المعمارى الاسلامى فيقال: أن الطراز القوطى أخذ عن العرب فى القرون الوسطى يقول باتيسييه : «انه لا يجوز الشك فى أن البنائيين الفرنسيين أخذوا عن العرب فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلادى كثيرا من العناصر المعمارية المهمة والزخارف الفنية الجملية، ألا نجد فى كتدرائية يوى التى هى من أهم البنايات النصرانية بابا مستورا بالكتابات العربية؟ أو لم تقم فى أربونة وغيرها حصون على حسب الذوق العربى؟. وذكر مسيو لو نورما «ان تأثير العرب واضح فى كثير من الكنائس الفرنسية ككنيسة ماغليون سنة ١١٧٨م، وكنيسة كاندا، وكنيسة غاماش»(١)

وقد كتب بريس دافزن Davesne «انهم العرب الذين اعاروا الغرب الابراج المنزلية والمشربيات، والتى أصبحت منذ نهاية القرن السادس عشر واسعة الانتشار فى الغرب».

ويجب أن نذكر أن الأوربيين فى العصور الوسطى استعانوا بكثرة بالمعاريين الاجانب فيقول دولين عن تاريخ باريس «ولقد اشترك فى عمارة النوتروام فى باريس معماريون عرب».(٢)

أما فى انجلترا فقد اقتبسوا النقوش البارزة والتى اطلقوا عليها اسم «النقوش العربية» وبنوا قلاعهم بعد الحروب الصليبية على طراز يقارب الطراز العربى فى مضاعفة الجدران واقامة البروج وتخطيط الحصون(٣) والتى اشتهرت فى الدولة العباسية وتعتبر من أهم مبتكراتهم. وقد استخدم البناة المسلمون الاعمدة فى البناء قبل الأوربيين بزمن لا يقل عن ثلاثة قرون، ومن بقاياها جامع عقبة والابنية الطولونية بالقاهرة والمسجد الاقصى بالمقدس، ويعد أكبر بناء المانى فى شرق المانيا وهو «مرينبورج» يحمل آثارا اسلامية.

---

(١) غوستاف لوبون، حضارة العرب، المرجع السابق ص٥٩٣:٥٩٥

(٢) - عفيف البهنسى، الفن والاستشراف، دار الرائد العربى، دار الرائد اللبنانى، بيروت ١٩٨٣م ص١٦/١٧

(٣) - العقاد، اثر العرب فى الحضارة الأروبية، المرجع السابق ص٧٩

أما فى فن العمارة الحربى فيلاحظ أن الصليبيين أخذوا عن المسلمين كثيرا من فن التحصين، وعمل الاستحكامات عن طريق تقليد الفنون المعمارية التى تمثلت فى قلاع سوريا ومصر.(١)

وبهذا يبدو أن تطور حرفة البناء والعمارة فى الدولة الاسلامية وتأثيرها على الفن المعمارى الأوربى واضحا ومما لايدع مجالا للشك تأثر العمارة الأوربية بالعمارة الاسلامية كما سبق وأن أشرنا وباعتراف الأوربيين أنفسهم، ولاشك أن هذه الاستفادة المعمارية كان لها آثارها الاقتصادية على المجتمع العباسى سواء بتشغيل العمال والفنيين فى البلاد الأوربية، أو ما تمثله من عائدات مالية كايرادات لخزانة الدولة العباسية.

٦ - الحرف التجارية :

بالاضافة الى ما تقدم من أنواع الحرف المختلفة فى المجال الصناعى فقد كانت هناك حرف أخرى فى مجال التجارة والخدمات كالتعليم والصحة والبريد والقضاء والشرطة وغيرها من الحرف التى كانت معروفة فى تلك الفترة،وفيما يلى عرض لأهم هذه الحرف بايجاز، ففى مجال التجارة عرفت كثير من الحرف منها :

أ - الصيرفة

الصيرفى هو الذى يتولى قبض الأموال وصرفها، وهو مأخوذ من الصرف : وهو صرف الذهب، والفضة فى الميزان، وكان يقال له أيضا : الجهبذ، وكان يخضع لمراقبة شديدة فى الدولة بواسطة المحتسب، حيث كان المحتسب يتفقد سوقهم ويتجسس عليهم، فان عثر بمن رأى أو فعل فى الصرف ما لايجوز فى الشريعة عزره وأقامه من السوق، وأن يكون الصيرفى عارفا بأحكام الربا، وكانت هذه الحرفة من الحرف المستكرهه - عند أهل الورع -

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، فضل العرب على الحضارة الأوربية ص٨٧،حسنى أحمد السيد حماد، الحضارة العربية نشأتها وتطورها آثارها، نشر وزارة الثقافة مؤسسة التأليف والنشر دار الكاتب العربى القاهرة عام ١٩٦٧م ص١٠٢/١٠٣

إذ يقول الشيرزى «التعيش بالصرف خطر على دين متعاطيه بل لابقاء للدين معه اذا كان الصيرفى جاهلا بالشريعة غير عالم باحكام الربا، فالواجب ألا يتعاطاه أحد إلا بعد معرفة بالشرع ليتجنب الوقوع فى المحظور من أبوابه».

والصراف هو الذى يتولى عملية الصرف، والصرف هو عقد بيع السلعة أو العملة بعضها ببعض بشروط خاصة وردت فى كتب الفقه(١).

وقد كانت الصيرفة من الحرف الضرورية فى الاسواق الاسلامية وكان عمله أشبه ما يكون بعمل البنوك فى العصر الحاضر وكان التجار مضطرين الى التعامل مع الصرافين نظرا لحركة التجارة الكبيرة آنذاك، وقد كانت بعض البلاد تتعامل بالدرهم وبعضها تتعامل بالدينار كما كانت هناك صادرات وواردات من بلاد أخرى غير اسلامية ولها عملتها الخاصة بها لذا كان لابد من الصرافين لتقدير اسعار المعادن والسلع والعملات الأخرى. وكان الصرافون يزاولون عملهم فى محلات خاصة بهم وفى اسواق مخصوصة بهم فى الكوفة وغيرها من المدن فى ذلك الوقت، فقد كانت حوانيت الصيارفة فى الكوفة بالقرب من مسجد الكوفة(٢)، كما كانت فى بغداد ايضا اسواق خاصة بالصيارفة(٣). كما وجد الصيارفة فى مختلف البلدان الاسلامية الأخرى، فقد تحدث ناصر خسروا فى رحلته الى أن دكاكين الصرافة فى القاهرة فى العصر الفاطمى كانت مملوءة بالنقد وغيره، بحيث كان لا يوجد بها متسع لمن يريد أن يجلس فيها(٤).

---

(١) - الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٧٤، ابن منظور لسان العرب، المرجع السابق حـ٩ ص١٩

(٢) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق ص٣٤٩

(٣) - ابن طيفور، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية، المرجع السابق ص٩٨، ابن الجوزى، مناقب بغداد، المرجع السابق ص٢٩، ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ١١ ص٢١٧

(٤) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٧٠٥

ب - الضرابون :

من الحرف التجارية ايضا المعروفة آنذاك الضراب، وهو العامل الذى يقوم بضرب العملة أو سكها، وقد كانت دور الضرب مفتوحة للناس يجلب كل منهم ما يشاء من معادن لتضرب لهم نقودا، وكان عليهم أن يدفعوا أجرة الضرابين وثمن الوقود.(١)

حـ - البزازون :

ومن الحرف التجارية ايضا البزاز، وهو بائع الثياب أو تاجرها وقد كان أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - بزازا(٢) وكان أبو حنيفة بزازا وهو من الذين عاشوا تلك الفترة، وقد جرت العادة أن ينفرد البزازون فى المدن الكبيرة بحانات واسواق خاصة بهم(٣).

د - الدلالون :

الدلال هو السمسار وهو الذى يتوسط بين البائع والمشترى، ويحاول التوفيق بينهما. فينبغى أن يكونوا أخيارا ثقاة، من أهل الدين والأمانة وصدق القول(٤). والدلالة عمل تجارى قديم، يأخذ صاحبه أجرا على انجاز البيع يسمى السمسرة أو الدلالة، وهى من المهن الهامة فى التجارة، وقد جرت العادة فى البلاد الاسلامية أن يتخصص الدلالون فى السلع والعقارات كما هو الحال اليوم فى مجتمعاتنا المعاصرة حيث يتخصص بعضهم فى الدلالة على السيارات، وبعضهم فى العمائر وآخرون فى الأرض... الخ وفى العصر العباسى كان هناك دلالون للرقيق والكتب وغيرها من السلع الأخرى(٥).

---

(١) - ابن مماتى، قوانين الدواوين، المرجع السابق ص٢٥

(٢) - ابن رستة، الاعلاق النفيسة، المرجع السابق ص٢١٥

(٣) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص١١٦

(٤) - الشيزرى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٦٤

(٥) - المقريزى، السلوك، المرجع السابق حـ٢ ص٥٤٦، الشيزرى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٦٤، الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ٦ ص١٧٦

بالاضافة الى ما تقدم فقد كانت هناك مهن أخرى تجارية كثيرة يصعب حصرها كالنخاسين(١)، والعطارين وغيرهما. وقد كانت لهم اسواق خاصة فى الدولة العباسية والدولة الاسلامية بشكل عام.

وكما تنوعت الحرف التجارية فقد تنوع التجار ايضا فهناك التاجر (الركاد) أو (الركاض) وهو التاجر المتنقل، و (الخزان) وهو تاجر الجملة. و(المجهز) وهو التاجر المصدر، فقد كان بعض التجار يسافرون الاقطار بقصد نقل المتاجر بين البلدان الأخرى بهدف الربح وقد كان لهؤلاء التجار دورهم فى تنشيط حركة التجارة فى داخل الدولة وخارجها(٢).

٧ - الحرف المتعلقة بالتعليم :

ومن الحرف الهامة التى كان لها دورها فى الحياة الثقافية والعلمية ومن ثم الاقتصادية فى المجتمع العباسى الأول الوراقون، والخطاطون، وخزان الكتب والمجلدون والمترجمون وغيرها من الحرف التى كان لها أثرها على الحياة العلمية والثقافية فى المجتمع العباسي وفيما يلى بعضا من هذه الحرف بشكل موجز :

أ - الوراقون :

الوراق هو المشتغل بصناعة الورق والكتب وبيعها، وقد كان عمله يتربط بالنسخ والتصحيح والتجليد وسائر أمور الكتب والدواوين(٣).

ونظرا لأهميتها فقد افرد ابن خلدون فى مقدمته فصلا لصناعة الوراقة حيث اعتبرها من خصائص الامصار العظيمة وتوابع العمران والحضارة.(٤)

---

(١) - النخاس : هو بائع الدواب والعبيد، حسن ابراهيم حسن النظم الاسلامية، المرجع السابق ص٣٦٠

(٢) - الدمشقى، الاشارة الى محاسن التجارة، المرجع السابق ص٧٠/٧٣/٧٥

(٣) - السبكى، معيد النعم، المرجع السابق ص١٣٢

(٤) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٣٨٢

وقد كان بالمدن الكبرى فى الدولة العباسية الأولى سوق للوراقين تجمع المشتغلين بهذه الحرفة والتجارة فيها كبغداد ومصر وغيرها من البلدان(١)، وكان ذلك نتيجة للازدهار العلمى فى تلك الفترة، كما كانت مجالا خصبا للرزق وطلب الكسب الحلال الذى يجمع بين المال والمعرفة.

ب - الخطاطون :

والخطاط هو كاتب الخط ومحترف الكتابة، ولذلك يقال له ايضا الكاتب، وهو من يشتغل بتجويد الخط وبالتدوين والنسخ. وقد كان للخط أهمية كبيرة فى الدولة العباسية وزاول كثير من كبار رجال الدولة والمفكرين فيها تجويد الخط واعتبروا ذلك شرفا كبيرا لهم. وبرع كثير من المسلمين فى الخط والنسخ فكتبوا على الورق باشكال وأنواع مختلفة من الخطوط، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل ادخلوا عليه نوعيات مختلفة من الجمال فلونوه ورصعوه، وحفروه فى الجص والحجر والخشب وغير ذلك من مواد البناء والزخرفة مما يعنى تطورا فى هذه المهنة، وقد انعكس ذلك على التعليم والثقافة فى الدولة، وكان من نتيجة ذلك اثراء الحركة الفكرية فى الدولة العباسية الأولى والدولة الاسلامية بشكل عام.(٢)

حـ خزان الكتب :

وهو خازن الكتب، ووظيفة خازن الكتب مشتقة من الخزن، وترجع هذه الوظيفة الى العصور الاسلامية الأولى، وقد وجدت هذه الوظيفة عند العباسيين كما عرفت فى الدول التى جاءت بعدها نظرا لعناية المسلمين فى العصور الاسلامية بالقراءة والعلم والكتب - بشكل عام - وقد كان بعض المسلمين يرصدون الاوقاف على الكتب وخزانات الكتب، وكانوا بطبيعة الحال يوظفون لها خزنة، وربما سمى أحد هؤلاء "بخازن الكتب"(٣).

---

(١) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق، حـ٣ ص١٣٢١، ابن الجوزى، مناقب بغداد، المرجع السابق ص٢٦

(٢) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٤٧٤/٤٧٧

(٣) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٤٥٢.

وقد ذكر السبكى فى كتابه معيد النعم هذه الوظيفة وأشار الى أن من واجبات خازن الكتب الاحتفاظ بالكتب التى فى عهدته وصيانتها، وترميم شعثها وتجليدها إذا احتاجت الى ذلك، وعدم اعارتها لمن لا يعرف قيمتها، وبذلها للمحتاج اليها، وتنفيذ شرط الواقف بخصوص احراز رهن بقيمة الكتاب المعار، كما نصحه بأن يقدم فى العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الاغنياء(١).

د - المجلدون :

ومن الحرف المتعلقة بجانب التعليم ايضا حرفة التجليد، والمجلد هو صانع أجلدة الكتب اى اغلفتها، وقد كان للمجلدين المسلمين فضل كبير فى تطور التجليد فى أوربا وتقدمه، وقد وصلتنا اسماء بعض المجلدين فى العصور الاسلامية المختلفة، وقد اشتهر فى عصر المأمون مجلد كان يدعى ابن أبى الهريش وكان يعمل فى خزانة المأمون المسماة ب"خزانة الحكمة". ومن المجلدين الذين عاشوا فيما قبل القرن الحادى عشر شفة المقراض والعجيفى، وأبو عيسى ابن شيران ودميانة الاعسر بن الحجام، وابراهيم وابنه محمد والحسن بن الصفار وغيره.(٢)

وقد أشار السبكى فى كتابه معيد النعم الى المجلد وأوصاه بما أوصى به الوراق والناسخ من حيث الامانة فى العمل، والرفق بطالب العلم وعدم تجليد الكتب المضلة(٣). وبالتالى فقد كانت هذه المهنة مصدرا للرزق الحلال، وغالبا ما كان اهلها من طلاب العلم الذين يريدون الجمع بين العلم والنفع المادى.

---

(١) - السبكى، معيد النعم، المرجع السابق ص١١١، حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٤٥٢

(٢) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ٣ ص١٠٢٣

(٣) - السبكى، معيد النعم، المرجع السابق ص١٣٢، حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ٣ ص١٠٢٥ والكتب المضلة: اى المخزية عن الملة.

هـ - الترجمة :

ازدهرت مهنة الترجمة فى العصر العباسى الأول - كما سبق أن أشرنا - وذلك للتطور العملى الذى حدث فى ذلك العصر، ولتشجيع الخلفاء على نقل العلوم والمعارف، وقد صحب هذا التشجيع لترجمة الكتب غير العربية، الاهتمام بالترجمة بشكل عام، خدمة لطلاب العلم والعلماء، وقد كانت الترجمة من المهن الهامة التى كان لها أثرها فى الحياة الثقافية والعلمية فى الدولة الاسلامية، والدولة العباسية بشكل خاص، فقد عنى أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب، ونقل له حنين بن اسحاق بعض كتب ابقراط وجالينوس فى الطب، وزادت العناية بالترجمة فى عهد هارون الرشيد بعد أن وقع فى حوزته بعض المدن الرومية الكبرى، فأمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان، كما نشطت حركة الترجمة بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وادرار الارزاق عليهم.

وفى عهد المأمون قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية الى العربية، ولم تكن الترجمة مقصورة على الخلفاء، بل عنى جماعة من ذوى اليسار ايضا بنقل الكتب وترجمتها، ومن هؤلاء محمد واحمد والحسن ابناء موسى بن شاكر المنجم الذين انفقوا الأموال الضخمة فى الحصول على كتب الرياضيات، وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة فى عهد المأمون أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التى ترجمت الى العربية وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها، واصلاح اغلاطها مما أثرى المكتبة الاسلامية.

وقصارى القول أن مهنة المترجم وهو من يقوم بنقل الكلام من لغة الى لغة أخرى كانت من المهن الهامة فى تلك الفترة وكان من أشهر المترجمين المسلمين فى ذلك العصر حنين بن اسحاق، ويعقوب الكندى وثابت بن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى. وقد ترجم العباسيون ما وصل اليه اليونان والفرس وغيرهم من العلوم(١)، وكانت هذه المهنة بالطبع مصدر للرزق الحلال لابناء المجتمع الاسلامى فى ذلك الوقت.

---

(١) - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام، المرجع السابق السياسى، حـ٢ ص٣٤٠/٣٤٢، ابن النديم، كتاب الفهرست، المرجع السابق ص٣٣٩/٣٤٠

٨ - الحرف المتعلقة بالصحة :

الحرف المتعلقة بالصحة متعددة وكثيرة فمنها الاطباء والجراحون والكحالون والحجامون، والمجبرون والبياطرة والصيادلة...الخ. وقد عنى المسلمون بالصحة بشكل عام سواء أكانت للانسان أم للحيوان كما كتب كثيرون عن الطب والاطباء والبيمارستانات (المستشفيات) فكتب ابن خلدون فى مقدمته فصلا عن حرف الطب، وذكر أن هذه الصناعة من ضرورات المدن والأمصار، لما عرف من فائدتها فان ثمرتها حفظ الصحة للاصحاء، ودفع المرض عن المرضى بالمداواة وحتى يحصل لهم البرء من امراضهم - باذن الله -(١).

وقد اهتم خلفاء الدولة الاسلامية، وخاصة خلفاء الدولة العباسية الأولى بالاطباء وكان لهم اطباء متخصصون بعلاجهم، فكانوا يجزلون لهم العطاء، فيذكر المؤرخون أن المنصور أصابه فى أواخر عام ١٤٨هـ مرض فى معدته، فكان الأطباء القائمون على خدمته يعالجونه ولا يجدى علاجهم نفعا فجمعهم يوما وقال لهم هل تعرفون من الأطباء فى سائر المدن طبيبا ماهرا؟

فقالوا : ليس فى وقتنا هذا أحد يشبه جورجيس رئيس أطباء جنديسابور وهو جورجيس بن بختيشوع فبعث اليه المنصور فى طلبه على عجل فجاء ومعه أثنين من تلامذته هما ابراهيم وعيسى بن شهلا، وقام بعلاج المنصور ثم أقام فى بغداد وكان قد خلف امرأته فى جنديسابور وليس عنده فى بغداد من يخدمه، فارسل اليه المنصور ثلاث جوار روميات وثلاثة آلاف دينار فقبل الدنانير ورد الجوارى(٢). ثم تتابع اهتمام الخلفاء بالطب والأطباء فى عصر الدولة العباسية الأولى.

---

(١) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق ص٤١٥

(٢) - ابن أبى اصيبعة، عيون الانباء فى طبقات الأطباء، المرجع السابق ص١٨٣/١٨٥، جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق جـ٣ ص١٥٦

ويذكر المؤرخون أن جبرائيل بن بختيشوع طبيب الرشيد حصل من الأموال مالم يحصله غيره ففى يوم واحد حصل خمسمائة ألف درهم، وجعله الرشيد رئيسا للأطباء ولما توفى الرشيد وتولى محمد الأمين وهبه أموالا جليلة اكثر مما كان أبوه قد وهبه له(١).

ويبدو أن الأطباء فى العصر العباسى الأول كان غالبهم من أهل الذمة من اليهود والنصارى، وقد اهتمت الدولة العباسية اهتماما بالغا بالطب والأطباء، وترجمة الكتب الطبية الى اللغة العربية حتى ازدهر الطب ولم يمض وقت طويل حتى أصبح الطب له مكانته فى الدولة العباسية الأولى.

وقام بهذه الترجمة علماء مهرة مجددون كان أغلبهم من غير المسلمين، فكان منهم السووريون واليهود والفارسيون ممن يدينون بالمسيحية واليهودية والمجوسية.(٢)

---

(١) - ابن أبى أصيبعة، عيون الانباء، المرجع السابق ص١٨٨/١٨٩

(٢) - ادوارد ج.ران، الطب العربى، ترجمة أحمد شوقى حسن ومراجعة محمد عبد الحليم العقبى، مؤسسة سجل العرب القاهرة عام ١٩٦٦ ص١٨

وقد كانت حرفة الطب تخضع للاشراف من قبل المحتسب فيجب على الطبيب بذل النصح، والرفق بالمريض وكان المحتسب يحذره من الاستعجال وعدم الفهم وجلوسه لطب الناس قبل استكماله الخبرة والأهلية العلمية(١).

وقد تطور الطب وعلومه فى العصر العباسى الأول بسبب تشجيع الخلفاء للأطباء، وكثرة الترجمات الطبية من اللغات الأخرى كاليونان والفارسية والسريانية ولم يمر وقت طويل فى عمر الدولة العباسية حتى صارت تتبوأ مكانة عالمية فى مجال الطب.(٢)

كما أهتم المسلمون بعلاج الانسان اهتموا أيضا بعلاج الحيوانات، فقد برعوا ايضا فى البيطرة، وهى الطب المتعلق بعلاج الحيوانات وكان المعالج للحيوانات يخضع أيضا لمراقبة المحتسب، فيجب على البيطار أن يكون على حذق وبصيرة بعلل الدواب، لأنه يعالج حيوانا لا يعبر عما به من ألم ولا يتعاطى البيطرة إلا من له دين يصده عن التهجم على الدواب بفصد أو قطع أو كى، وما أشبه ذلك، فيؤدى الى هلاكها، وقد برع المسلمون ايضا فى هذه الحرفة حتى ان أحدهم قد عدد علل الدواب فبلغت ثلثمائة وعشرون علة ذكر بعضا منها الشيرزى فى كتابه نهاية الرتبة(٣). ولاشك أن هذه الحرف كانت مصدرا من مصادر الدخل والرزق الحلال لأبناء الأمة.

ومن الحرف ايضا التى ازدهرت فى العصر العباسى والمتعلقة بالصحة الصيدلة، والصيدلي هو صانع الأدوية والعقاقير الطبية، وبائعها(٤).

---

(١) - السبكى، معيد النعم، المرجع السابق ص١٣٣

(٢) - محمد الصادق عفيفى، تطور الفكر العلمى عند المسلمين، مكتبة الخانجى، القاهرة عام ١٩٧٦م/١٩٧٧م ص١٧٢/١٧٦

(٣) - لمزيد من التفصيل عن هذه العلل راجع الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٨٠

(٤) - الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٤٢، جرجى زيدان، تاريخ التمدن، المرجع السابق حـ٣ ص١٨٠

وقد أهتم المسلمون بالصيدلية، فكانت فى بغداد أول صيدلية منظمة تمد الناس بالأدوية كما وضعوا كثيرا من المصنفات والكتب فى خواص الأدوية وتركيبها وتصنيفها وفصولها وخواصها(١). وكانت الأدوية تباع فى دكاكين العطارين أيضا، ولما تفشى الغش فيها فى العصر العباسى الأول، اضطر المسئولون الى تنصيب رؤساء للامتحانات واعطاء الاجازات الى اللذين يحسنون الصناعة، ونفى الآخرين، وكانت الصيدلة تخضع لاشراف المحتسب وذلك منذ عهد المعتصم سن ٢٢١هـ(٢).

فيجب على المحتسب أن يخوفهم ويعظهم وينذرهم بالعقوبة والتعزير، وتخضع عقاقيرهم للمراقبة فى كل أسبوع(٣).

وبعد أن أنتهينا من أهم الصناعات والحرف التى وجدت فى العصر العباسى الأول أؤكد ايضا أن هناك كثيرا من الصناعات والحرف لاتزال محتاجة الى جهد كبير، وقد جمعت أهمها واعظمها أثرا فى المجتمع العباسى الأول وفيما يلى محاولة لبيان أهم الآثار التى ترتبت على تلك الصناعات والحرف فى المجتمع العباسى بشىء من التفصيل.

---

(١) - عز الدين فراج، فضل علماء المسلمين على الحضارة الآوربية، دار الفكر العربى، القاهرة ص٢١٤

(٢) - محمد الصادق عفيفى، تطور الفكر العملى عند المسلمين، المرجع السابق ص١٨٨/١٨٩

(٣) - الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٤٢

المبحث الثالث

أثر تطور الصناعة فى المجتمع العباسى الأول

احدث تطور الصناعة فى الدولة العباسية آثارا كثيرة فى المجتمع العباسى الأول تجدر الاشارة اليها بشىء من التفصيل :-

أولا: أثر تطور الصناعة على العمل والتشغيل :

أثر تطور الصناعة فى المجتمع العباسى الأول على الحياة العامة بشكل عام، وعلى النشاط الاقتصادى بشكل خاص، فقد أثرت الصناعة على العمل ، والتشغيل، والانتاج وغيرها مما سيأتى ذكره. فقد أثرت الصناعة على العمل من عدة نواحى، من حيث حجم العمالة، ونوعيتها وتطور/الفن الانتاجى للصناعات المختلفة، فزادت اعداد العمال بشكل كبير منذ بداية العصر العباسى الأول ، كما تشير الى ذلك المصادر التاريخية.

فمن خلال ما سبق عرضه من الصنائع والحرف التى كانت موجودة فى العصر العباسى الأول، ومن واقع ما تشير اليه بعض الاحصاءات عن أعداد العاملين فى بعض المدن - وبرغم أن هذه الاحصائيات تعتبر قليلة - فى هذا الجانب حيث أن المؤرخين المسلمين لم يهتموا كثيرا بمثل هذه الأمور إلا أن تلك الاحصاءات تعطينا مؤشرا واقعيا على حجم العمالة، وكذا مستواها الفنى من خلال تأثيرها على البلاد الأخرى، فمثلا قدر عدد العاملين يوميا فى مدينة بغداد بخمسين الف رجل.(١)

كما قدر عدد الذين جمعهم المنصور من أصناف المهن والصناعات لبناء مدينة (بغداد) بمائة الف عامل(٢)، كما أن عدد المحلات والحوانيت التجارية، قد بلغ عددا كبيرا ايضا، فذكر اليعقوبى - مثلا - أن سوق الوراقين فى بغداد كان فيها اكثر من مائة حانوت(٣).

---

(١) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٣ ص٣١٨

(٢) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٥٨

(٣) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٤٤

كما أن مئات الالوف من الناس كانت تكتسب رزقها من عملها فى مجال صناعة الورق، مما جعل المستشرقة هونكة تصف ذلك فتقول : «وفتحت اللهفة على اقتناء الكتب الباب أمام مئات الالوف من البشر لكسب عيشهم، فأصبح النساخ والخطاطون مهرة فى فنهم، ووظفت كل مكتبة أو متجر للكتب عددا من هؤلاء، وكان أغلبهم من الطلبة وانصاف المتعلمين، الذين أرادوا عن هذا الطريق كسب رزقهم، وانتشر منتجوا الورق بطواحينهم فى سمرقند، وبغداد، ودمشق، وطرابلس، وفلسطين ومصر، وتبعهم المجلدون متأثرين بفن التجليد الصينى، يعدون غلافات رائعة للكتب، وكم من رزم الاوراق ولترات من الحبر صنعت من السناج والصمغ العربى استهلكتها الايدي الدائبة على الكتابة فى كل عام، وكم من جلود امدتهم بها صغار الغزلان الماعز قد استنفذت فى هذا الغرض، وهكذا اصبحت تجارة الكتب تماما كالصيدلة، هدية قدمها العرب للبشرية. وفى سوق الكتب عند بوابة البصرة ببغداد التى كانت تضم أكثر من مائة متجر كان المتعلمون من أنحاء العالم الاسلامى يجتمعون يفتشون عن العلماء وعما صدر حديثا من الكتب(١). وكان عدد الدكاكين بباب الطاق فى بغداد (سنة ٢٩٢هـ/٩٠٤م) ثلثمائة دكان(٢). وقدر ابن الفقيه (ت ٢٨٩هـ/٩٠٢م) عدد الحجامين وأصحاب الحمامات فى بغداد بثلثمائة الف وستين(٣). كما قيل أنه كان فى بغداد أربعمائة رحى مائية، واربعة آلاف معمل لصنع الزجاج، وثلاثون الف معمل لصنع الخزف(٤).

---

(١) - زيغريد هونكة، شمس العرب تشرق على الغرب «أثر الحضارة العربية فى أوربا» منشورات المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت نقله عن الالمانية فاروق بيضون، كمال دسوقى وراجعه ووضع حواشيه هارون عيسى الخورى، الطبعة الأولى ١٩٦٤م والطبعة الثانية ١٩٦٩م ص٣٨٩/٣٩٠

(٢) - المسعودى، مروج الذهب،المرجع السابق جـ٤ ص٢٨٦

(٣) - ابن الفقيه، البلدان، المرجع السابق ص٦٤

(٤) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق جـ٢ ص٣٥٦

وقد قيل أن المأمون كان يجرى الارزاق على ستة وثلاثين الف ملاح مقيمين عنده(١)٠ وكانت اعداد العمال تعمل دون تفرقة بين مسلم وغير مسلم، فكان يعمل - النصارى واليهود والمجوس دون تفرقة - إلا أن عملهم كان يخضع للمراقبة من قبل الحكومة، فتؤكد المصادر التاريخية أن كثيرا من القبط - مثلا - كانوا يعملون فى صناعة النسيج فى مصر، وأن اعدادهم كانت كبيرة، لكن صناعتهم كانت تخضع لرقابة دقيقة من قبل الدولة، فيؤكد ذلك المقدسى فيقول : «وأما الثياب الشطوية فلا يمكن للقبطي أن ينسج شيئا منها إلا بعد ما يختم عليها بختم السلطان»(٢)٠ وتشير الى ذلك دائرة المعارف الاسلامية فتقول : «وكانت عملية الرقابة على عمل القبطى تبدأ منذ قيام النساج بالعمل على نوله، وكان يختم على هذه المنسوجات بختم السلطان»(٣)٠

وقال الفاكهى (فى أخبار مكة)، ورأيت أيضا كسوة لهارون الرشيد، من قباطى مصر مكتوبا عليها «باسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هارون أمير المؤمنين اكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع أن يعمل فى طراز تونه سنة تسعين ومائة»(٤)٠

وبناء على ما تقدم فان عنصر العمل كان يشمل المسلم وغير المسلم ودون تفرقة، كما كان عنصر العمل فى مجال الصناعة كبيرا يؤكد ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية، ففى مجال صناعة النسيج كانت دور الطراز - مثلا - كثيرة ففى اقليم فارس وحده، والذى اشتهر بغزل الكتان مصانع مثل التى كانت بمصر تعمل للخليفة وللتجار(٥)، واصبحت كازرون «دمياط فارس» تعمل الثياب للخليفة وكبار رجال الدولة(٦)٠

---

(١) - الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، جـ١ ص١١٧، فهمى عبدالرزاق، العامة فى بغداد فى القرنين الثالث والرابع الهجرى الأهلية للنشر والتوزيع بيروت عام ١٩٨٣م ص١٣٢

(٢) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص٢١٣ والثياب الشطوية نسبة الى بلدة من مصر، معجم البلدان جـ٢ ص٢٤٤

(٣) - دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق جـ٥ ص١٣٣

(٤) نقلا عن المقريزي، الخطط، المرجع السابق جـ١ ص١٨١

(٥) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٢٣٩

(٦) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق جـ٣ ص٤٥٨

ويذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد : «ان فى تنيس التى كان بها خمسة آلاف مغزل يعمل من أجل الخليفة، وهو عدد كبير من المصانع فى مدينة واحدة، فكم كان يا ترى عدد العمال فى تلك المدينة؟ وكم كان عدد العمال فى المدن الأخرى؟ والتى اشتهرت بصناعة النسيج كتونة، ودمياط والاسكندرية ودبيق والفرما، ودميرة، وغيرها من البلاد الأخرى بمصر وغيرها.

ولاشك أن هذه الاحصائيات وغيرها، - وان كان فيها شىء من المبالغة فى بعضها كما ذكر بعض المؤرخين - إلا أنها تعكس بلاشك أهمية الصنائع والحرف، وتعددها، كما تعطينا مؤشرا الى كبر حجم العمالة، وتشير أيضا الى أهميتها فى مجال الدخول والانتاج، ومن ثم أهميتها فى مجال اقتصاد الدولة بشكل عام، الأمر الذى يبرز دور أهمية الصنائع والحرف فى المجال الاقتصادى فى تلك الفترة.

كما كان لاختلاط العمالة الاسلامية بغيرها وانفتاح الدولة العباسية على كثير من البلاد الأخرى نتيجة الفتوحات الاسلامية أثره أيضا على الصناعة وتطور الفن الانتاجى فى الدولة العباسية، كما أدت الى دخول صنائع أخرى لم تكن موجودة فى بعض البلاد الاسلامية، كدور السكة - ضرب النقود - والورق، والسكر...الخ، وكان لحسن السياسة التى اتخذتها الدولة، والسماح لأهل البلاد الاصليين بالعمل دوره فى تعلم كثير من ابناء المسلمين على أيديهم فنونا جديدة، أدت الى انتقال هذه الخبرات الفنية لمختلف البلاد الأخرى فى الدولة العباسية(١).

وأدى استقدام كثير من الصناع المهرة من البلاد الأخرى أثره الكبير فى عملية تطور الصناعة فى الدولة العباسية، كاستقدام المهندسين والمساحين، وخبراء الرى، وحذاق الحرف، والصناعات وغيرها - مما تقدم

---

(١) - زكى محمد حسن، فنون الاسلام، المرجع السابق حـ٣ ص٥٣/٥٤، سيديو، خلاصة تاريخ العرب، المرجع السابق ص١٣٦

ذكره - وكان من نتيجة ذلك كما يرى بعض الباحثين(١) : هو تأثر كثير من الصنائع والحرف، فبناء المدن الاسلامية - مثلا - اشترك فيها كثير من الفرس، وكان من عاداتهم جعل الاسواق خارج المدينة، وقد نقل المنصور هذه العادة الى الدولة الاسلامية، فنقل اسواق بغداد الى خارج المدينة فى ربض الكرخ، وربما كان ذلك من التراث الفارسى - على حد قوله -(٢).

وقد كان لتكتل الصناع وأهل الحرف ايضا فى اسواق وأماكن مخصوصة للعمل في الصناعة أثره فى ازدهار الصناعة نتيجة الاحتكاك بين العمال وأهل الحرف المختلفة وما يتبع ذلك من تبادل المعارف والخبرات الفنية، مما يعنى ذلك التطور الفنى فى مجال الصناعة والحرف، وهو الأمر الذى كان سمة أهل الصناع والحرف فى تلك الفترة.

وبرغم ما كان للصنائع والحرف من أهمية اقتصادية فى المجتمع العباسى فى تلك الفترة، فان المصادر التاريخية تشير الى تواضع أجور بعض العمال فى المجتمع العباسى، ولنضرب لذلك بأمثلة، فقد كانت أجرة نجار زمن المنصور درهمين فى اليوم، وأجرة بناء خمسة دراهم أو أربعة فى اليوم(٣).

وبالنظر الى ذلك نجد التفاوت فيما بين الصنعتين من ناحية الاجور، وربما كان ذلك يرجع الى العرض الكبير فى جانب حرفة النجارة مما أدى الى تدهور أجورها، بينما كان العرض قليلا فى جانب البناء مما جعلها مرتفعة الأجر، ويمكن أن يكون ذلك مرده راجعا الى النهضة العمرانية فى تلك الفترة،

---

(١) - كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الاسلامية ترجمة تنبيه أمين فارس ومنير البعلبكى، الطبعة السادسة دار العلم للملايين بيروت عام ١٩٧٤م ص٢١١

(٢) - الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص٣٤/٣٥

(٣) - البيهقى، المحاسن والمساوىء، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م

والتى أدت الى كثرة الطلب عليها، ومن ثم ارتفاع أجور عمالها، وهو ما يرجحه الباحث حيث أنه ذكر أن عمال البناء فى زمن الرشيد هبطت الى درهم وسدس كما سيأتى وكانت أجرة عامل الطين زمن الرشيد أربعة دوانيق فى اليوم(١)، وكانت أجرة عامل البناء سنة (١٨٤هـ/٨٠٠م) . درهما ودانقا أى درهما وسدس(٢).

ويبدو أن أجور بعض الصناع والعمال كانت متواضعة مما حدا بالجاحظ - وهو ممن عاشوا تلك الفترة - الى القول : «ان الفقر ملازم للقصابين، والجزارين، والشوائين، وأصناف الصيادين، وكذلك ضراب اللبن والطيان، والحراث»(٣).

لكنه لم تتوفر لنا معلومات عن أسباب هذا التواضع فى الأجور فى مثل هذه الصنائع والحرف، ويرى الباحث أن ذلك قد يرجع أما لكثرة عرض هذه الحرف فى المجتمع العباسى أو لتضاءل أهميتها فى بعض الفترات، ومن واقع ما سبق بيانه يتضح كثرة عدد العاملين فى الحرف والصنائع فى المجتمع العباسى الأول، وكثرة الصنائع ايضا، وهو ما يعنى أن حجم العمالة والتشغيل فى المجتمع العباسى الأول كان كبيرا ايضا، وبالتالى انعكس ذلك على الدخول ومستوى الانتاج، لكن يجب التحفظ ايضا بأن هذه الاحصائيات المذكورة لا يمكن أن نعتبرها مقياسا دقيقا للوضع الاقتصادى فى تلك الفترة نظرا لضآلتها، والمبالغة أحيانا فى بعض منها. لكنها فى مجموعها تشير الى زيادة حجم العمالة، وتطورها الفنى نظرا لتأثرها بكثير من البلاد المفتوحة، وهو الأمر كان له أثره الكبير على الصناعة والحرف وكان سمة من سمات الصنائع فى تلك الفترة.

---

(١) - الدانق : ٦/١ الدرهم، الاوزان والمكاييل الاسلامية وأهميتها، مجلة كلية الآداب، العدد الرابع عشر، بغداد عام ١٩٧١م ص٧١٠، فالترهنس، المكاييل والاوزان الاسلامية، المرجع السابق ص٢٩

(٢) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ٦ ص٢٧٥

(٣) - الجاحظ، الحيوان، المرجع السابق حـ٤ ص٤٣٢/٤٣٤

ثانياً: أثر الصناعة على الانتاج :

تشير لنا كتب التاريخ والأدب والجغرافيا بالاضافة الى كتب الحسبة ايضا الى تطور الفن الانتاجي والتخصص فيه فى المجتمع العباسى الأول، وأنه وصل الى درجة كبيرة من الدقة، حيث نجد أن الحرفة الواحدة كان بها عدة تخصصات فرعية متنوعة، ورتبا مختلفة، فالجاحظ مثلا - وهو من الذين عاشوا هذه الفترة - يصف لنا مراحل صناعة السيف واعداده فيقول : «ان السيف الذى يتقلده متقلد أو يضرب به ضارب قد مر على أيد كثيرة وعلى طبقات من الصناع، كل واحد منهم لا يعمل عمل صاحبه، ولايحسنه، ولايدعيه، ولايتكلفه، لأن الذى يذيب حديد السيف ويميعه ويصغه ويهذبه غير الذى يمده ويمطله، والذى يمده ويمطله غير الذى يطبعه والذى يسوى متنه غير الذى يسقيه ويرهفه والذى يرهفه غير الذى يركب قبيعته ويستوثق من سيلانه، والذى يعمل مسامير السيلان، وشاربى القبيعة ونصل السيف غير الذى ينحت خشبة غمده، والذى ينحت خشبة غمده غير الذى يدبغ جلده، والذى يدبغ جلده غير الذى يحليه والذى يحليه ويركب نعله غير الذى يخرز حمائله».(١)

ونظرة الى هذا النص نجد أن الجاحظ قد وصف لنا بدقة مراحل تطور الفن الانتاجى لصناعة السيف فى عصره، وانها بلغت من الدقة درجة كبيرة من الاتقان والجودة وحسن المنظر وروعته وهو أمر يعكس لنا مقدار التطور الفنى فى هذه الصناعة.

وإذا نظرنا الى الحرف والصنائع المختلفة - والتى سبق ذكرها - فانها تعكس - بلاشك - تطورا كبيرا فى الفن الانتاجى فى الدولة العباسية فى كل صناعة وحرفة. فالخياطون - مثلا - لهم اختصاصات مختلفة فمنهم الرفاؤن والقصارون والدقاقون، وصناع القلانس، والطرازون وغيرهم(٢). والنجارون ايضا اصناف فهناك نجارو الضب (الاقفال) ونجارو المراكب، ونجارو الاثاث.... الخ(٣).

---

(١) - الجاحظ، رسائل الجاحظ، المرجع السابق حـ١ ص٧١/٧٢ وبينا المفردات الصعبة.

(٢) - الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٦٧/٦٨

(٣) - ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص١٤٧/١٤٨

أما الحلوانيين فكثيرون منهم من اختص بصناعة الفالوذج أو اللوزينج أو القطائف أو كعب الغزال... الخ(١).

وكل ذلك وغيره - مما سبق ذكره من الصنائع المختلفة كالورق والنسيج والسكر... الخ - يدل بوضوح على تطور الفن الانتاجى فى المجتمع العباسى، وأنه بلغ درجة كبيرة من التخصص والمهارة الفنية. وقد انعكس ذلك - بلا شك - على مستوى الدخول، والاستهلاك وغيرها من المؤشرات الاقتصادية داخل المجتمع العباسى الذى اتسم بالرفاهية فى الاستهلاك، والذوق الرفيع، وقد ظهر ذلك فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم، إذ كانت غاية الفرد فى المجتمع العباسى أن يظهر بلباس حسن جميل، وان يكون منزله مزينا من الداخل بالستائر الملونة - لذلك ازدهرت صناعة الملابس والمنسوجات والبسط والحلى فى نواحى كثيرة من الدولة العباسية - كما سبق أن أشرنا- فازدهرت صناعة المنسوجات فى العراق ومصر واليمن وغيرها من البلاد.

وكانت الملابس والمنسوجات بأشكال وأنواع مختلفة وكان لكل بلد ذوق خاص حتى انه كان ينظر الى الشىء المصنوع فيعرف فى أى البلاد صنع، ففى مصر - مثلا - انتشرت العمائم الدبيقية الطويلة التى كان يبلغ الواحد منها مائة ذراع(٢)، وقد سبق ذكر أمثلة على تطور هذه الصناعة وغيرها، والتى تعكس بلاشك رفاهية فى الاستهلاك فى المجتمع العباسى الأول، وذلك بالطبع كان نتيجة للانتاج الجيد الذى عم مختلف الصنائع والحرف.

ثالثاً: أثر الأنشطة الاقتصادية المختلفة على الصناعة:

مما لا شك فيه أن النشاط الصناعى قد تأثر بالانشطة الاقتصادية الأخرى كالزراعة والتجارة، كما تأثرت ايضا بعض الصنائع والحرف بغيرها من الصنائع والحرف الأخرى، وفيما يلى محاولة لالقاء الضوء على بعض هذه التأثيرات على سبيل المثال.

---

(١) - الشيرزى، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٤٠، ابن بسام، نهاية الرتبة، المرجع السابق ص٤٧

(٢) - المقريزى، الخطط، المرجع السابق حـ١ ص٢٢٩

أ - أثر النشاط الزراعي على الصناعة :

أثرت الزراعة بشكل عام على الصناعة بمراحلها المختلفة من عدة نواحي:

١ - فقد قدمت الزراعة للمشروعات الصناعية رؤوس الأموال اللازمة للعملية الصناعية، وذلك لأن منتجات الأرض ذهبت فى الغالب لأصحاب الأملاك المقيمين فى بغداد والمدن الكبرى الأخرى كدمشق وحلب والفسطاط وغيرها، وقد عاش اصحاب هذه المدن عيشة الترف أو زيادة الاستهلاك. وقد تطلب ذلك توفر جميع المنتجات الصناعية وحاجات هذا الاستهلاك، فقدم أصحاب الاملاك رؤوس الأموال اللازمة لتدعيم النشاط الصناعى حتى تتوفر لهم المنتجات الصناعية التى يرغبونها.

٢ - قدمت الزراعة المواد الخام للصناعات التى اعتمدت بالدرجة الأولى على الحاصلات الزراعية، فاعتمدت صناعة الورق - مثلا على توفر نبات البردى - والذى كان يزرع بمصر، كما اعتمدت صناعة النسيج على توفر القطن والكتان، وصناعة العطور اعتمدت ايضا على زراعة الزهور والرياحيين والتى كانت تزرع فى الكوفة(١). وصناعة السكر كانت تعتمد على زراعة القصب، وكان يزرع فى مصر والبصرة وغيرها من المدن الأخرى. كما اعتمدت صناعة الزيوت والصابون على حاصلات السمسم والزيتون، فقد استخرج زيت المصابيح فى العراق - مثلا - من زيت السمسم(٢).

ولا يخفى ما كان للزراعة من دور هام فى عملية التصنيع فى الدولة العباسية بشكل عام، حيث وفرت الزراعة - كما سبق - رؤوس الأموال اللازمة لها من ناحية، والمواد الخام لبعض الصناعات من ناحية أخرى، وهذا يوضح - بلاشك - مدى الدور الذى قدمته الزراعة فى سبيل تطور النشاط الصناعى بشكل عام فى الدولة العباسية.

---

(١) - ابن حوقل، صورة الأرض المرجع السابق ص٢٦١

(٢) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٠٥/٣٤٤ ص٣٥٢، الشيخلى، الاصناف، المرجع السابق ص١٩

ب- أثر النشاط التجارى على الصناعة :

ذكرنا فيما سبق أن النشاط الزراعى كان له أثره على النشاط الصناعى، وقد أثر ايضا النشاط التجارى على الصناعة فى بعض النواحى. وكان من أثر حركة التجارة التى ازدهرت فى العصر العباسى أن انتقلت بعض الصناعات من بلد الى بلد اخر، فانتقلت صناعة الكتان - مثلا - من مصر الى بلاد فارس وخاصة مدينة كازرون حتى كانت تسمى بـ «دمياط الاعاجم»، وكانت أنواع الاقمشة بفارس هى الأنواع المصرية من الدبيقى، والشرب، والقصب، مما يدل على أن حركة التجارة كان لها أثرها على انتقال بعض الصناعات المصرية الى فارس يقول المقدسى : «ومن سنيز ثياب تشاكل القصب، وأنه ربما حمل اليهم الكتان من مصر»(١).

وفى كلام المقدسى ايضا دليل على أن صناعة نسيج الكتان قد نقلت من مصر الى فارس. وكان من أثر النشاط التجارى على الصناعة ايضا، ان انتقلت صناعة الورق المصنوع من الكاغد، فقد نقلت صناعته من بلاد الصين الى نواحى متعددة من الدولة العباسية، وقد كان الناس لا يعرفون قبل ذلك إلا البردى(٢).

جـ- أثر النشاط الصناعى على الزراعة والتجارة.

وكما كان للنشاط الزراعى والتجارى أثرهما على النشاط الصناعى كان للنشاط الصناعى ايضا أثره عليهما، وعلى بعض الصناعات والحرف الأخرى وفيما يلى نذكر بعض الأمثلة على سبيل التمثيل.

١ - أثر النشاط الصناعى على الزراعة :

كان لتطور الصناعة بشكل عام أثره على النشاط الزراعى، فقد انتقلت بعض المزروعات من بلد الى آخر نتيجة انتقال الصناعة التى تعتمد على المادة الخام المطلوبة فى مجال صناعتها. فمثلا أدى انتشار صناعة النسيج القطنى فى بلاد فارس الى انتقال زراعة القطن الى البلاد الأخرى المجاورة

---

(١) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص٤٤٢

(٢) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق ص٣٦٠

لها كالعراق والجزيرة الفراتية، ومن ثم فقد قامت صناعات قطنية فى العراق، فاشتهرت البصرة بالبز وهو نسيج قطنى ثمين تصنع منه الفوط والمآزر والطيالس. كما اختصت الموصل وحران بصناعة أقمشة قطنية ورفيعة تعرف بالشاش، بينما بغداد وغيرها كانت تصنع الثياب القطنية السميكة(١).

ولم تلبث زراعة القطن ان انتشرت فى بلاد الشام فصنع فى دمشق أقمشة مشجرة سميت باسمها يقال لها : «الدمشقيات» ثم انتقلت زراعته بعد ذلك الى بلاد الاندلس فى القرن الثالث الهجرى، حيث اشتهرت مدينة اشبيلية بزراعته وصناعته وتصديره لدرجة انها نجحت فى انتاج نوع من الأقمشة يقى من بلل الامطار(٢). وقد انتقلت كثير من المزروعات الى مناطق أخرى من الدولة الاسلامية تبعا للحاجة اليها فى المجال الصناعى مما لا يتسع المقام الى حصره. اضف الى ذلك ما قدمته الصناعة من الأدوات المختلفة والتى يحتاجها الفلاح من الفؤوس والطواحين والدواليب، والمحاريث، والمجارف والاوتاد وغيرها من الادوات التى سبق ذكرها.

٢- أثر النشاط الصناعي على التجارة :

كان لتطور الصناعة فى العصر العباسى الأول أثره على حركة التجارة الداخلية والخارجية فى المجتمع العباسى الأول، وقد أثر ذلك - بالطبع - على التجارة من نواح من متعددة منها :

- انتشار الاسواق المتخصصة فى صناعات معينة :

فقد كان من أثر تطور الصناعة فى المجال التجارى ان وجدت اسواق خاصة ببعض الصناعات فمثلا : وجدت أسواق خاصة بتجارة الورق، فقد ذكر اليعقوبى انه كان فى عصره «وهو متوفى فى سنة ٢٧٨هـ» اكثر من مائة وراق فى بغداد(٣).

---

(١) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٣٧٣

(٢) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص١١٤، سعيد عبدالفتاح عاشور وآخرون، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، المرجع السابق ص٣٣٩/٣٤١

(٣) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٤٢/٢٤٦/٥٤٨

وذكر الجاحظ «١٦٣هـ/٢٥٥هـ» وهو من الذين عاشوا فترة الدولة العباسية الأولى أنه كان فى شبابه يكترى حوانيت الوراقين ليلا فيبيت فيها بغرض المطالعة للكتب، وقد انتشرت الوراقة فى كل مدينة من بلاد الدولة العباسية فى بغداد والبصرة والفسطاط واصفهان وغيرها، وكانت هذه الأسواق مصدرا للدخل لكثير من العمال الذين يعملون فى النسخ والتجليد والتغليف ومكانا للتجارة فى الكتب، فقد كانت فيها دكاكين تقام فيها المزادات لبيع الكتب وشرائها مما جعل المشتشرقة هونكة تقول - كما سبق وأن أشرنا - «وفتحت اللهفة على اقتناء الكتب الباب امام مئات الالوف من البشر لكسب عيشهم»٠(١)

ظهور بعض المدن وازدهار التجارة الخارجية فيها :

كما كان من أثر صناعة الورق (الكاغد) فى سمرقند - مثلا - أن أصبحت تلك المدينة من المدن التجارية الهامة فى الدولة العباسية، وكان لها أهميتها فى مجال التجارة إذ كانت مصر مثلا تستورد منها الورق برغم بعد المسافة بينهما٠ الى جانب ذلك كانت هناك ايضا اسواق مختصة بالتجارة فى النسيج، فهناك اسواق لها فى بغداد ومصر والشام وغيرها من البلدان كما سبق أن أشرنا٠

وظلت الأقمشة الاسلامية تغزو اسواق العالم كله كما تدل على ذلك الوثائق التاريخية فاوربا - مثلا - ظلت تعتمد على البلاد الاسلامية فى مجال الملابس والبسط والستائر المختلفة - كما سبق أن أشرنا - فترة كبيرة من الزمن، وهذا يعنى أن حركة التجارة الخارجية قد تأثرت ايضا بتطور الصناعات العباسية، وقد غزت علامة الصنع الاسلامية (وهى ما عرف آنذاك بالطراز الاسلامى) بلاد العالم كله، وكانت تشبه علامة الصنع والجودة فى عالمنا المعاصر إذ ان كل دولة منتجة تجعل لصناعتها علامة مميزة عن طريق وضع

---

(١) - هونكة، شمس العرب تطلع على الغرب، المرجع السابق ص٣٨٩

شريط على منسوجاتها، تعرف به عن سائر صناعات الدول الأخرى، ويبدو كما يلوح للباحث أن المنسوجات الاسلامية فى ذلك الوقت كانت تتمتع بشهرة عظيمة وتعرف عن طريق هذا الشريط «الطراز»، كما اشارت لذلك المصادر التاريخية فكان يكتب على النسيج اسم الخليفة والبلد التى صنع فيها، وتاريخ صناعتها، والمشرف عليها وبالتالى فلم يكن المقصود من وضع هذا الشريط ذلك الهدف السياسى فحسب، ولكنه - وحسب ما يرى الباحث - انه كان لذلك هدف اقتصادى بجانب الهدف السياسى وأن ثقة المستوردين لهذه الصناعات جعلت الدولة العباسية حريصة على كتابة هذه العبارات على كل قطعة تصنع فى بلادها، كما ينظر الناس حاليا للصناعات اليابانية كمثال على الجودة والاتقان وحسن الصنعة، فقد كان الطراز الاسلامى دليل على جودتها ايضا، ويؤكد ذلك أن رجال الكنيسة فى أوربا كانوا يلبسون الثياب المصنوعة فى البلاد الاسلامية وعليها الأدعية الاسلامية ومع ذلك لا ينزعونها افتخارا بها، دون نظر الى ما عليها من كتابات وأدعية(١).

د- أثر تطور النشاط الصناعي على الحرف المختلفة :

سبق أن أشرت الى أن الصناعة قد تأثرت بتطور الأنشطة الاقتصادية المختلفة، الزراعية، والتجارية وغيرها، وأنها - الصناعة - أثرت ايضا فى تلك الأنشطة كما أنها ايضا أثرت على الحرف المختلفة فظهرت صناعات وحرف لم تكن موجودة من قبل وفيما يلى نحاول القاء الضوء على بعض الصناعات والحرف التى تأثرت بالنشاط الصناعى منها على سبيل المثال لا الحصر. فمثلا : أدى تطور صناعة الورق الى ظهور كثير من الحرف والصناعات المختلفة، فقد احترف كثير من الناس مهنة الخط والنسخ والتجليد وغيرها مما يتعلق عادة بالكتابة، كما ظهرت مصانع تهتم بدبغ الجلود

---

(١) - دائرة المعارف الاسلامية، المرجع السابق حـ١٥ ص١٤١

وترقيقها، وتهيئتها للكتابة، كما أدى انتقال الكاغد الى البلاد الاسلامية الى تدهور صناعة الرقوق والقراطيس - وان تأخر هذا التدهور عن العصر العباسى الأول - فلم تستطع هذه الرقوق أن تصمد فى مواجهة الكاغد والذى كان يتمتع بمميزات كثيرة من حيث السهولة والرخص والجودة حتى وصفه الثعالبى بقوله : «هو أحسن وأنعم وارفق وأوفق»(١). لكن ذلك لم يتحقق إلا بعد فترة طويلة إذ من الثابت أن القراطيس المصرية ظلت تطلب حتى القرن الرابع الهجرى.

وفى مجال صناعة النسيج ايضا ظهرت بعض الصناعات الأخرى كالصباغة - مثلا - وخاصة الستائر التى عرفت بالستور الواسطية، وقد كان لها شهرة عظيمة وكانت تستخدم للزينة، حيث تعلق على الحوائط(٢).

وبما أن هذه الستائر كانت تتكون من الوان متعددة فقد ازدهرت الصباغة وخاصة فى واسط، فكانوا يتفننون فى صناعتها حتى قال الجاحظ : «خير ما يصبغ فى الأماكن بأرض واسط»(٣).

ومن الحرف التى تأثرت بصناعة النسيج ايضا تطور حياكة الثياب بجميع أنواعها الحريرية والقطنية والكتانية، وقد تطورت النقوش المختلفة على المنسوجات تبعا لتطور صناعة النسيج حيث ترك للنقاش الحرية فى زخرفة الطراز حسب ما يريد مما أدى الى الابداع الفنى فى اشكال النسيج المختلفة. وكان لذلك ايضا أثره على الخط العربى وظهوره وزخرفته بحيث أصبح الخط العربى أحد عناصر الزخرفة فى مجال النسيج، وهو ما لا نجد له مثيلا فى القديم والحديث(٤)، وكان من آثار تطور صناعة النسيج ايضا انتقال بعض المهارات الفنية، فانتقل فن النسيج العتابى ببغداد الى مصر وبلاد

---

(١) - لطف الله قارى، الوراقة والوراقونو المرجع السابق ص١٢/١٩

(٢) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٢٥٧، المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص١٢٩

(٣) - الجاحظ، التبصرة،المرجع السابق ص٣٢

(٤) - أحمد رمضان أحمد، الخلافة فىالحضارة الاسلامية، المرجع السابق ص٢٦٥/٢٦٧

الاندلس بنفس الاسم. وانتقل ايضا فن النسيج الدبيقى المصرى الموشى بالذهب والحرير الى كل من العراق وفارس وبنفس الاسم. وكذلك انتقلت صناعة الانسجة الكتانية الرقيقة والتى كانت تصنع بمدينة الاسكندرية، فكانت تصنع فى بلاد أخرى وتباع على أنها من الاسكندرية. والمنسوجات التى اشتهرت بأصبهان وجرجان فى ايران لم تلبث ان صارت تصنع فى الاندلس وغيرها باسم الاصبهانى والجرجانى ايضا. على أن انتقال المهارات الفنية بين المدن الاسلامية فى ذلك الوقت لم يمنع استقلالية كثير من الاقاليم ببعض المنسوجات. فمثلا اشتهرت بخارى بنسيج قطنى يسمى الكرباس. وكذلك اشتهرت مرو ونيسابور ومعظم مدن خراسان بثياب القطن اللينة الفاخرة مما جعل الثعالبى يقول : «وقد علم الناس أن الكتان لمصر وأن القطن لخراسان»(١)، وغير ذلك كثير لا يتسع المقام لعرضه.

هذا وان كانت الصناعات قد أثرت فى بعضها البعض فى جوانبها الاقتصادية المختلفة، فان بعض الصناعات ايضا كان لها أثرها على الحياة العلمية والفكرية فى المجتمع العباسى، فصناعة الورق - مثلا - أثرت على الحركة العلمية والفكرية فى المجتمع العباسى بشكل خاص، وفى الدولة الاسلامية بصفة عامة وأدت الى تطور كثير من العلوم والمعارف فدونت العلوم، وترجمت المعارف المختلفة، ووجدت الكتب والخزائن الخاصة بها، وأصبحت المكتبات فى العصر العباسى الأول مصدرا هاما من مصادر الثقافة والدخل، وذلك كله يرجع الى انتشار الورق وكثرته ورخص ثمنه وبالتالى فان تطور هذه الصناعة - بلاشك - قد أثر فى الحياة العلمية والفكرية فى العصر العباسى الأول بشكل خاص والدولة الاسلامية بشكل عام.

ومن خلال ما سبق ذكره عن أهم الصناعات والحرف فى الدولة العباسية الأولى بصفة خاصة والدولة الاسلامية بصفة عامة يتبين لنا أن الصناعات والحرف الاسلامية قد تميزت بعدة أمور لعل من أهمها ما يلى :-

---

(١) - الثعالبى، لطائف المعارف، المرجع السابق ص٩٧، أحمد رمضان أحمد، الخلافة فى الحضارة الاسلامية، المرجع السابق ص٢٦٥/٢٦٧

١ - استقلالية الصناعة الإسلامية برغم ما استفاده الصناع المسلمون من غيرهم من الساسان والقبط وصنائع الهنود والصينيون وغيرهم، فقد ظهرت الصناعة الاسلامية بشكل مستقل فى ذوقها وفنها وبشكل جديد له طابعه الخاص، ونشأت فى الدولة الاسلامية طرز فنية مستقلة كانت تختلف باختلاف الاقاليم، ولكنها تشترك فى خصائصها العامة.

وقد تطورت هذه الطرز الفنية برعاية المسلمين لها. وظلت طرزا مختلفة من فن اسلامى عام، يسهل تمييزه من سائر الفنون غير الاسلامية، سواء أكان ذلك عمارة أو نسيج أو سجاد أو ورق أو أوان...الخ.

٢ - ورث المسلمون أفضل الصناعات وأجودها والتى كانت موجودة فى تلك الفترة، فانتقل الى الصناع المسلمين ما عرفه الساسانيون من اسرار صناعة النسيج الفاخرة والأوانى،وما نبغ فيه أهل الشام من صناعة الزجاج والخزف وما برز فيه المصريون من صناعة الورق وغيره، وإذا كان العرب المسلمون لم يحملوا معهم الى البلاد التى فتحوها اساليب فنية خاصة بهم، فقد كانت سياستهم الحكيمة على أصول الشريعة وأهدافها خير عون لتطوير الصناعة ونهضتها.

أضف الى ذلك تشجيع الصناع من المسلمين وغيرهم من أهل الذمة، ممن أقبلوا على الاسلام مما كان له أثره على اختصار مرحلة الانتقال الصناعى، وعلى تطور الاساليب الفنية القديمة لتتفق مع تعاليم المسلمين وأذواقهم وشريعتهم.

٣ - ومن أهم مميزات الصناعة الاسلامية كراهية تصوير الكائنات الحية، وما يتصل بهذه الكراهية، وهذا يعنى العلاقة الوطيدة بين تعاليم الدين، والفنون الصناعية، فلم يعد الفن الصناعى طقوسا دينية كما كان فى الديانات الأخرى، وانما كان الفن دائما يوجد ليخدم تعاليم الدين واهدافه، وهذا يعتبر من أهم خصائص الصناعة الاسلامية، وقد ظهر ذلك فى شتى الاقاليم الاسلامية فلم يكن مألوفا - مثلا - وجود التماثيل أو التصاوير، أو ما شاكلها من أنواع الفنون التى ظهرت فى البلاد الأخرى غير الاسلامية، وأصبحت شخصية الصانع المسلم تظهر فى ما انتجه بالفعل من زخارف وعمائر ومنسوجات وأوراق وغيرها مما سبق ذكره(١).

---

(١) - زكى محمد حسن، الفنون الاسلامية، المرجع السابق جـ١ ص٢٥٥

٤ - ارتبطت الصناعات الاسلامية بشكل عام بأماكن وجود المواد الخام، فصناعة السلاح مثلا ازدهرت فى الاماكن التى وجدت بها المواد الخام. فقد ذكر المقدسى : «أنه على مقربة من شاهق "بلدة فى اقليم فارس وايران" كانت توجد مناجم الحديد فيها، وقد اشتهرت بطبع النصال الجيد.(١) وفى جبل نقم القريب من صنعاء فى اليمن كان يوجد الذهب الجيد والحديد وكانت حمير تصنع منه السيوف الحميرية(٢). كذلك اعتمدت صناعة الورق بمصر على نبات البردى الذى كان يزرع بها. وانتشرت صناعة النسيج القطنى فى بلاد فارس نظرا لكثرة زراعة القطن بها.

كما ازدهرت صناعة السكر فى البصرة ومصر وذلك بسبب انتشار زراعة قصب السكر.

وبهذا يتضح ارتباط الصناعات فى الدولة العباسية بمناطق وجود المواد الخام، على أن ذلك لم يكن عائقا فى سبيل ازدهار بعض الصناعات التى لم تكن موادها الخام متوفرة فى الدولة العباسية فمثلا تطورت صناعة الاخشاب بشكل عام فى الدولة العباسية برغم أن معظم الصناعات الخشبية كان يستورد لها الخشب الخاص بتصنيعها وخاصة صناعة المراكب والسفن المختلفة التجارية والحربية فكان يستورد لها خشب الساج وهو غير متوفر فى أراضى الدولة العباسية، فلم يكن ذلك عائقا فى سبيل تطور هذه الصناعة وازدهارها.

وبعد أن أنتهينا من هذا النشاط الذى ظهر من خلال عرضنا له مدى التطور الذى حدث فيه ابان الدولة العباسية بصفة خاصة والدولة الاسلامية بصفة عامة يجدر بنا أن ننتقل الى نشاط هام آخر من الأنشطة الاقتصادية التى ازدهرت ابان الدولة العباسية وكان لها أثرها على الحياة الاقتصادية فى تلك الفترة وهو النشاط التجارى وذلك من خلال استعراضنا للعلاقات الاقتصادية الخارجية فى تلك الفترة وفيما يلى عرض لهذا النشاط داخليا وخارجيا.

---

(١) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص٢٢٣

(٢) - عبدالرحمن زكى، السيف، المرجع السابق ص٩١/٩٢

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية الخارجية فى العصر العباسى الأول

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : التجارة وأهميتها فى العصر العباسى الأول (العوامل المشجعة - العوامل المثبطة)

المبحث الثانى : الأسواق والتجار وتقسيماتهما الفنية

المبحث الثالث : العلاقات الاقتصادية الخارجية وأثرها على المؤشـــرات الاقتصـــادية ٠

المبحث الأول

التجارة وأهميتها فى العصر العباسى الأول

مقدمة :

شهدت التجارة فى العصر العباسى الأول ازدهارا عظيما، بفضل السياسات التى اتخذها خلفاء الدولة العباسية فى سبيل النهوض بها، ثم بفضل الموقع الممتاز الذى احتلته الدولة فى خريطة العالم آنذاك. كما كان لأخلاق المسلمين؛ وحسن معاملاتهم الأثر الأكبر فى ازدهار تلك التجارة، وهو الأمر الذى أدى الى دخول كثير من البشر فى دين الله افواجا بدون حرب أو قتال بل عن اقتناع ورغبة من أنفسهم، وقد كان لهذا الازدهار عوامل كثيرة شجعت التجارة داخليا وخارجيا، مما كان له أبلغ الأثر فى تطور حركة التجارة الاسلامية ونموها فى تلك الفترة، ولم تمض فترة كبيرة حتى سيطر المسلمون على التجارة العالمية، وعلى منافذ الطرق التجارية ايضا وعلى وسائل المواصلات العالمية المختلفة فى تلك الفترة، ولا ندعى أن التجارة كانت دائما فى طور واحد، وانما مرت بها بعض الفترات والاحداث التى أدت الى تقهقرها احيانا لكن غالب الأوقات كانت فى حركة ونشاط دائب، ونحاول فيما يلى شرح أهم العوامل التى أدت الى حركة التجارة فى تلك الفترة ثم الظروف المختلفة التى أدت الى تقهقرها أحيانا أخرى بشىء من التفصيل.

العوامل المشجعة لحركة التجارة فى العصر العباسى الأول :

كانت هناك عوامل شجعت حركة التجارة الداخلية والخارجية فى العصر العباسى الأول، كالاهتمام بالمدن والموانى والاسواق والطرق، كما اتخذ الخلفاء بعض السياسات المختلفة التى كان لها أثرها على النشاط التجارى كحرية التبادل التجارى والهجرة وتشجيع النهضة الصناعية مما كان له الاثر الأكبر فى نمو وازدهار حركة التجارة بشكل عام وفيما يلى عرض لأهم هذه العوامل بشىء من التفصيل.

أ - الاهتمام بالمدن والموانى الساحلية :

اهتم الخلفاء العباسيون عند اختيارهم لاماكن مدنهم، وموانيهم أن تكون فى مواقع ممتازة من الناحية الامنية والعسكرية والتجارية، حتى تكون مقرا حصينا للخلافة من ناحية، وسوقا للتجارة الداخلية والخارجية من ناحية أخرى، وقد ذكر الخطيب البغدادى، وياقوت الحموى عند كلامهما على سبب اختيار المنصور بغداد أن أحدا الدهاقين - هم كبار ملاك الارض - حسن له النزول ببغداد فقال له : «انك تصير بين أربعة طساسيج - جمع طسوج وهو الناحية - طسوجان فى الجانب الغربى، وطسوجان فى الجانب الشرقى، فان أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامرا وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة، تجيئوك الميرة من الغرب، وفى الفرات من الشام والجزيرة ومصر، وتحمل طرائف الهند والبصرة، وواسط فى دجلة، وتجيئوك ميرة ارمينية، وأذربيجان وما يتصل بها...، وتجيئوك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة، وأنت بين انهار لا يصل اليك عدوك، وأنت قريب من البر والبحر والجبل»(١) فازداد المنصور حرصا وجدا على بنائها لتلك الأسباب كما يقول ابن الطقطقى، فكاتب الاطراف بايفاد الصناع والفعلة لأنشائها.(٢)

وكذلك بنى المعتصم مدينة سامرا سنة ٢٢١هـ على نهر دجلة لتلك الاسباب أيضا.(٣) وكانت البصرة فى العصر العباسى الأول من أهم مراكز التجارة فكانت تعتبر باب بغداد الكبير ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من اطراف الدنيا... اذ كانت القوافل الواردة من كل حدب وصوب، ومحط رجال الشرق من مجاهل الصين الى مفاوز الصحراء الكبرى ، ولذلك استفحل بها العمران، وكثرت فيها المصانع والصنائع والمتاجر وصارت واسطة العرب والعجم.(٤)

---

(١) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص٢٣/١

(٢) - ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب، المرجع السابق ص١٦٢

(٣) - ياقوت الحموى، معجم البلدان، المرجع السابق حـ٣ ص١٧٣/١٧٤

(٤) - حسن حسنى عبدالوهاب فى مقدمته لكتاب التبصر بالتجارة للجاحظ، دار الكتاب الجديد عام ١٩٦٦م ص٥

وكما اهتموا بالمدن فقد اهتموا ايضا بالموانى بشكل عام فأقاموها فى اماكن هامة تجاريا، وأنشأوا لها السفن التجارية المناسبة لحالة كل بحر، ويحدثنا المؤرخون أن السفن التجارية الاسلامية - فى تلك الفترة - كانت تجوب البحار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، فكانت تقطع البحر الابيض المتوسط من ميناء انطاكية شرقا الى جبل طارق غربا وتعد انطاكية التى حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية، كما كانت صور ميناء حربيا انشئت به دار للصناعة تخرج منه السفن للتجارة والقتال ايضا.

وقد كان للمسلمين فى عهد الدولة العباسية، رحلات بحرية كثيرة، حيث سيطرت على معظم بحار الدنيا فى ذلك الوقت وكانت الرحلات تبدأ من بغداد وتسير فى الخليج حتى تصل الى شبه جزيرة ملقا (الملايو الآن)، وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التى تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين ايضا.

كما جاوز المسلمون جزيرة سيلان فى العصر العباسى الأول وكانت هناك رحلات طويلة الى بلاد الصين، واتخذ المسلمون ميناء سيراف مرسى للسفن التى كانت تقوم بهذه الرحلات.(١) وقد نتج عن اهتمام العباسيين بالمدن والموانى الساحلية أن شجع ذلك حركة التصدير والاستيراد وعلى نطاق واسع - وهو ما سيتضح فيما بعد - .

وقد اقتضى هذا الأمر ظهور طبقة من التجار الكبار الذين قاموا بما تتطلبه الأوضاع الجديدة من عمليات تجارية واسعة، مثل التجارة فى المواد الأولية للأغراض الصناعية المختلفة، أو المنتجات المتعدد والتى يتطلبها المجتمع، وغير ذلك من الصفقات التجارية التى تتطلب رأس مال كبير وتدر أرباحا وفيرة.(٢)

---

(١) - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المرجع السابق جـ٢ ص٢١٤

(٢) - صالح العلى، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى - دار الطليعة بيروت ١٩٦٩م ص٢٦٥/٢٦٦

ب ـ الاهتمام بالأسواق :

اهتمت الدولة العباسية بشكل عام بالاسواق - كما سبق وأن اشرنا - واعطتها اهتماما كبيرا، فخصصت لها أماكن خاصة بها، كما راعت أن تكون هذه الأسواق فى المدن الساحلية أو على مقربة منها حتى تسهل عمليات التصدير والاستيراد، فمثلا عندما بنى المنصور مدينة بغداد وضع الاسواق خارج المدينة فى الجهة الجنوبية منها. كما كانت المدن البحرية كطرابلس وبيروت وعكا لا تبعد كثيرا عن سوق دمشق الكبير، وكانت المسافة لا تستغرق إلا بضعة أيام عن السوق، وبالتالى أدى ذلك الى تلبية حاجة السوق الداخلية والخارجية. كذلك اهتمت الدولة بتنظيم الاسواق وتنويعها فهناك سوق لكل حرفة كسوق العطارين، وسوق للحدادين، وسوق للنجارين وسوق للبزازين، وسوق لاصحاب الرياحيين وسوق للقصابين... الخ.

وقد روعى بشكل عام عند تخطيط هذه الأسواق، استفادة الاسواق من بعضها البعض، ووضع بعض منها فى أماكن خاصة حتى لا تضر بالأسواق الأخرى فمثلا وضع القصابون فى آخر الأسواق - حيث كان المنصور يرى بأنهم من سفهاء الناس وفى ايديهم الحديد القاطع، فجعلهم فى آخر السوق حتى لا يتأتى منهم الضرر للآخرين.(١) كما ابعدت اسواق أصحاب الروائح الكريهة عن العطارين حتى لا يتضررون منهم.(٢) وقد كان لذلك كله أثره على حركة التجارة الداخلية والخارجية بصفة عامة.

وقد كان من أسباب تجميعهم ضرورة توفير المواد الأولية لأصحاب الصنائع والحرف، وبذلك يجتمع باعة السلع وصناعها، ولا يخفى ما لذلك من أهمية اقتصادية حيث تتوفر المنافسة فى البيع والشراء وعملية التصنيع واختصار الوقت بين احضار الخامات وتصنيعها ايضا، وبالتالى يؤثر ذلك على

---

(١) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص٨٠

(٢) - الشيخلى، الأصناف فى العصر العباسى نشأتها وتطورها، المرجع السابق ص٧٧

جودة الصناعة بسبب المنافسة، وكل ذلك فى نهاية الامر يعود على المستهلك حيث يتوفر له اكثر من منتج للسلعة الواحدة، كما أن فى قرب الأسواق الداخلية من المدن الساحلية أو وجودها بها يؤدى بلاشك الى تنشيط حركة التجارة الخارجية والاقتصاد فى نفقاتها وبالتالى ينعكس على أسعارها.

ولايخفى مالتجميع الاسواق فى مكان واحد من أهمية اجتماعية ايضا حيث توجد بين التجار والصناع روح التعاون والمشاركة فى المحن وقد اشار الجاحظ الى بعض من ذلك فقال: «انه ليبلغنى أن رجلا من القصابين يكون فى سوقه فيتلف ما فى يده، فيخلى له القصابون سوقهم يوما، ويجعلون له أرباحهم، فيكون بربحها منفردا، وبالبيع مفردا، فيسدون بذلك خلته ويجبرون من كسره»(١).

وبناء على ذلك فقد لعبت الأسواق فى الدولة العباسية دورا كبيرا فىتنشيط حركة التجارة وتشجيعها مما كان له أثره على حركة التجارة العالمية من ناحية وحركة التجارة الداخلية من ناحية أخرى حيث أدى ذلك الى رفاهية المجتمع العباسى وازدهاره.

حـ - الأمن الداخلى والخارجى:

اهتمت الدولة العباسية بالأمن الداخلى والخارجى للدولة - بشكل عام - مما كان له أثره البين على الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكانت مهمة الحفاظ على الأمن الداخلى موكولة الى رجال الشرطة ومن فى معناهم من المعاونين ورجال الحسبة وصاحب الأحداث، أما الأمن الخارجى فكانت مهمته موكولة لأهل الثغور، وهو سلاح يشبه سلاح الحدود فى وقتنا المعاصر مهمته الدفاع عن الدولة من أى اعتداء خارجى، ونحاول فيما يلى أن نعرض لنظام الأمن الداخلى والخارجى فى المجتمع العباسى، والذى كان له أثره على الاوضاع الاقتصادية فى الدولة العباسية.

---

(١) - الجاحظ، رسائل الجاحظ، المرجع السابق حـ٢ ص٢٠٠/٢٠١

أما الأمن الداخلى، فكان رجال الشرطة القائمون عليه، والشرطة هم الجند الذى يعتمد عليهم الخليفة، أو الوالى فى حفظ الأمن، والقبض على الجناة والمفسدين، والضرب على أيدى المريبين وتأديبهم، وما يتصل بذلك مما يكفل سلامة الناس وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، فهى من الوظائف الهامة للدولة.(١)

وأول من استن نظام الشرطة - أو العسس أو حراس الليل - فى الاسلام، عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ثم نظمت الشرطة فى عهد على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وسمى رئيسها «صاحب الشرطة»(٢) وكانت الغاية من وضعها - فى البداية - مساعدة القاضى فى اثبات التهم، ومساعدة الحكومة فى تنفيذ الأحكام، ثم ازدادت اهميتها، والعناية بها فى عهد الدولة الأموية، وكان صاحبها يختار من علية القوم وأهل العصبة والقوة(٣)، وفى عهد الدولة الأموية أخذت الشرطة تنفرد عن القضاء وتستقل بالنظر فى الجرائم وذلك منذ عهد هشام بن عبدالملك (١٠٥هـ/١٢٥هـ) الذى أنشأ نظاما وسطا بين شرطة الأمن وشرطة الجيش سماه «نظام الأحداث»(٤)، وكانت مهمة «نظام الأحداث» و «صاحب الأحداث» المحافظة على الأمن خارج العواصم وهى بذلك تعتبر جهاز آخر لمعاونة الشرطة ومتممة له، وكان يغلب عليها الطابع العسكرى الصارم وذلك لكثرة تعرض المناطق النائية عن العاصمة للفتن والاضطرابات من الداخل وغزوات الاعداء من الخارج.(٥)

---

(١) - أبو زيد شلبى، تاريخ الحضارة الاسلامية، والفكر الاسلامى، مكتبة وهبة القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م الطبعة الثالثة مطبعة الاستقلال الكبرى ص١٣٥

(٢) - حسن ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، المرجع السابق ص١٩٠

(٣) - حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسى، المرجع السابق جـ٢ ص٢٧٢، أبو زيد شلبى، تاريخ الحضارة الاسلامية، المرجع السابق ص١٣٦/٢٣٥

(٤) - صبحى الصالح، النظم الاسلامية، المرجع السابق ص٣٣٣

(٥) - محمد الشريف الرحمونى، نظام الشرطة فى الاسلام الى أواخر القرن الرابع الهجرى، الدار العربية للكتاب عام ١٩٨٣م ص٦٨

وقد أبقاها العباسيون على حالها تؤدى مهمتها الى جانب الشرطة والجيش خارج العواصم والمدن، وعمموها على كل المناطق المحتاجة الى ذلك وقد كان للشرطة أهمية كبيرة فى العصر العباسى، فكان أبو جعفر المنصور يعتبرها أحد أركان الملك الأربعة(١)، كما بلغ صاحب الشرطة فى هذا العهد مكانة فى الدولة لم يبلغها أحد من قبل، حيث كان من يشغل هذا المنصب ببغداد «عاصمة الخلافة» يعادل منصب الأمير أو الوالى(٢)، وقد تعددت مهامه الادارية فازداد اعوانه وقوى بهم جانبه، واتسعت اختصاصاته القضائية فصار ينظر فى الحدود والدماء باطلاق بعد أن أفردوها من نظر القاضى(٣) الى جانب التهمة والتحقيق والتنفيذ.

وقد ابقى العباسيون - كما سبق وان اشرنا - على نظام الاحداث واعتنوا به واسندوه الى أمهر القادة لمؤازرة نظام الشرطة فى الحفاظ على الأمن وراحة المجتمع، وكان الخلفاء يوصون بأن يتولى الاحداث أهل العقل والضبط والعفة والعدل والانصاف ، ويختار لها من الولاة من يخاف الله تعالى، ويتقيه ويوعز اليهم بترك المحاباة والاعراض عن المسألة والشفاعة والتشدد على أهل الريب، وأن يعملوا على ابطال الحانات والمواخير ويمنعوا من سائر المناكير، ويوزعوا عنها بالحدود والتعزير، لئلا تباح المحرمات وتضاع الصلوات وتقترف السيئات وترتكب المحظورات(٤).

ومن الملاحظ أن مهمة الشرطة فى ذلك العهد لم تكن سهلة وميسورة بل كانت مليئة بالاخطار والمفاجآت وخاصة فى مدينة بغداد عاصمة الخلافة، فكانت

---

(١) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٦ ص٣١٣ ، ابن الأثير الكامل، المرجع السابق حـ٥ ص٥١

(٢) - سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، المرجع السابق ص٣٦٢

(٣) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق حـ٢ ص٤٥٠

(٤) - القلقشندى، صبح الاعشى فى صناعة الانشا ، المرجع السابق حـ١٠ ص٢٤/٢٢

والمأخور هو بيت الريبة ومجتمع أهل الفسق والفساد وجمعها مواخير ومواخر، انظر: المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ٢ ص٨٦٣

ككل العواصم الكبرى، مكتظة بالسكان، والمبانى ويؤمها ويقطنها خلق غفير من اجناس مختلفة، فقد كان مجتمعها ذا طبقات متعددة فمنهم الاحرار والعبيد، ومنهم المسلمون وغير المسلمين، وطبيعى فى مجتمع كهذا لابد أن يظهر فيه من يعبث بمصالحه وأمنه، فيسطو، ويتلف ويحتال فيكثر فيه أهل الفساد من العيارين والشطار.(١)

ويبدو أن أهل الدعارة والفسق والتلصص والجنايات، كانت فئة غير قليلة فى المجتمع العباسى، ولذلك عقد أبو يوسف رحمه الله فصلا فى كتابه الخراج عنهم بين فيه حكم اجراء الصدقة عليهم، كما شدد فيه على أنه لا يحل للإمام أن يحابى احدا منهم، ولا أن يشفع لأحد منهم، وأن يقيم فيهم حد الله، ولا يخاف فى ذلك لومة لائم.(٢)

والى جانب الشرطة التى كانت مهتمها - كما اشرت - الحفاظ على الأمن الداخلى كانت الدولة العباسية معرضة دائما الى الغارات المختلفة من البلاد المجاورة، لذا فقد أقام العباسيون على تخوم دولتهم ما يسمى «بالثغور» كانت مهمتها حماية البلاد من الهجوم الخارجى عليها فأقام المنصور على المدن الرومية الواقعة على حدود سورية الحصون القوية فأحكم بناءها، وأطلق عليها اسم «الثغور».

---

(١) - العيارون : هم جماعة من المتلصصة ظهروا مع بداية القرن الثانى الهجرى كانوا يهاجمون الدكاكين والمنازل لنهب الأموال، وقد اشتد خطرهم فى العصر العباسى حيث تدخلوا فى الأمور السياسية وكان لهم فى الفتنة التى دارت بين الأمين والمأمون شأن كبير كما ظهروا على شكل جماعات مسلحة فى حصار بغداد عام ٢٥١هـ، واستمر ظهورهم فى فترات متوالية بعد ذلك بين فترة وأخرى.
أما الشطار : فهم طائفة أخرى من أهل الدعارة كانوا يلبسون ملابس خاصة، وكانوا أكثر انتشارا فى المدن كما ظهروا فى الاندلس وكانوا يعرفون بالصقورة وسماهم ابن بطوطة بالفتاك، انظر جرجى زيدان، تاريخ التمدن، المرجع السابق حـ٥ ص٥٢/٥٣/٥٤

(٢) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص١٤٩ وما بعدها.

ولما ولى هارون الرشيد الخلافة انشأ ولاية جديدة سميت ولاية الثغور، وجعل لها نظاما عسكريا خاصا، وأقام فيها المعاقل كما أمدها بحاميات دائمة ومنح الجند بالاضافة الى أرزاقهم ارضا قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسرهم، فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتصلة، وأصبحت أحوالها فى يسر ورخاء الى أيام الخليفة الواثق، ثم اخذت بعد ذلك فى الأفول، وكان العلماء والشعراء اللذين يؤثرون حياة الراحة والدعة يلجأون الى هذه الثغور للتفرغ للبحث والدراسة فيها.(١)

وقد ساهم نظام الأمن الداخلى والخارجي فى الدولة العباسية فى تشجيع حركة التجارة الداخلية والخاريجة وزادت حركة القوافل والسفن - كما سبق وان اشرنا - من الشرق والغرب والشمال والجنوب لتبيع فى اسواق بغداد وغيرها من المدن الأخرى.(٢)

د - الاهتمام بالطرق :

نشطت حركة التجارة نشاطا عظيما فى الدولة العباسية بفضل ما كان بها من طرق برية وبحرية، والتى أثرت بطبيعة الحال على التجارة ونموها وازدهارها حيث زادت عمليات الاستيراد والتصدير والتى أثرت بشكل عام على الوضع الاقتصادي الداخلي والخارجي في الدولة العباسية.

ويبدو أن الطرق كانت فى تلك الفترة عبارة عن شبكة من المسالك المطروقة من الابل والخيل والحمير وهى الوسائل المعروفة آنذاك، بالاضافة الى الطرق البحرية والتى ازدهرت فى هذا العصر وكان لها فضل كبير على التجارة الداخلية والخارجية.

---

(١) - حسن ابراهيم حسن، علىابراهيم حسن، النظم الاسلامية، المرجع السابق ص٢٠٢/٢٠٣

(٢) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق حـ٥ ص٤٦

وقد عرفت العناية بالطرق الدولية الاسلامية بشكل عام منذ بداية الدولة الاسلامية الاولى، ومما يؤثر فى ذلك ماقاله عمر بن الخطّاب رضى الله عنه لو تردت بغلة بالعراق لوجدت ابن الخطاب مسئولا عنها لم لم أمهد لها الطريق؟ كما اهتم بها خلفاء الدولة العباسية وأعطوها عناية فائقة ٠ على ما سيأتي بيانه: وكانت العناية بالطرق فى تلك الفترة - فيما يبدو - تتمثل في حراستها وتأمينها ووضع العلامات والاميال عليها لبيان مسافات البلاد من حيث البعد والقصر، وتحويلات طرقها ودروبها، وكذا رصفت بعض الاماكن التى لا يصلح المشي عليها إلا برصفها بالطرق التى عرفت في تلك الفترة(١)، وكذا انشاء اماكن للراحة من تعب السفر والتزود بالزاد من الماء والطعام والراحلة إن احتاج الامر، سواء أكان المسافر تاجراً أم غير تاجر، كما كانت للتجار خانات واستراحات خاصة بهم.

فكانت الدولة تبنى على الطرق أربطة تقوم على خدمة المسافرين كما كان يفعل ذلك ايضا أهل الخير من الناس، وكانت هذه الاربطة متعددة وكثيرة، وقد ذكر الاصطخرى فى بلاد ما وراء النهر أنهم اختصوا بهذا الأمر فقال : «وترى الغالب على أهل الأموال صرف نفقاتهم الى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير إلا القليل منهم وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة إلا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه، وأنه كان بهذه البلاد ما يزيد على عشرة آلاف رباط كثير منها أذا نزل النازل اقيم علف دابته وطعام نفسه ان احتاج الى ذلك، وقل ما رأيت خانا أو طرف ومحلة أو مجمع ناس فى الحائط بسمرقند تخلو من ماء جمد مسبل»(٢)٠

كما ذكر ابن حوقل(٣) «أنه كان من آل المرزبان رجل مشهور بالكرم اقام رباطات، ووقف على مصالحها بقرا سائمة وجعل عليها قوامين يحلبونها، ويأخذون

---

(١) - راجع ص ٦٩١وما بعدها

(٢) - الاصطخري، المسالك والممالك، المرجع السابق ص٣٦١

(٣) - ابن حوقل، صورة الارض، المرجع السابق ص٦٨٣ ٠

ويأخذون ألبانها ويقصدون بها المجتازين عليهم ومعهم الأطعمة منها ومن غيرها، وما من رباط إلا وفيه المائة بقرة، وما فوق ذلك لهذا الوجه.

وكان أهل القرى بفارس يختارون من بين أنفسهم رجلا مهمته توزيع الضيوف على أهل القرية، وكانوا يسمونه الجزير، وكذلك كانت توضع أواني المياه في الشوارع والطرق بخوزستان على مراحل فى الطريق، وربما حمل الماء من بعيد.

ويحكى ناصر خسرو أنه كان بمصر جسر من التراب بحذاء النيل من أول الولاية الى آخرها، وأن السلطان كان يرسل فى كل سنة عشرة آلاف دينار الى عامل معتمد ليجدد عمارته.(١)

وقد كان للطرق البرية والبحرية دور كبير فى حركة التجارة الداخلية والدولية فى تلك الفترة، وتعد الطرق والعناية بها من أهم العوامل التى شجعت على حركة التجارة الداخلية والخارجية بشكل عام(٢).

هـ- حرية التجارة :

ومن العوامل التى شجعت حركة التجارة الداخلية والخارجية فى الدولة العباسية على السواء، حرية التجارة بشكل عام، فقد فطن العباسيون إلى سبب اعاقة التجارة الدولية قبل الاسلام، وخاصة فى الخليج العربى بسبب تكالب القوى المتنازعة عليه من الروم والفرس، ومحاولة احتكارهم لهذا الطريق، فنجم عن ذلك اعتماد كل من الطرفين المتنازعين على وسطاء تابعين لهم أكثر من اعتمادهم على التجار، وهو الأمر الذى سبب خسائر فادحة لاقتصاد كل منهما، لأن نشاط الوسطاء كان محدودا، ويعتمد على احتكار التجارة والسلع الاساسية ومصانعها، ومنها صناعة الحرير(٣).

---

(١) - ميتز الحضارة الاسلامية، المرجع السابق ص٣٩٨/٤٠١

(٢) - سيأتي تفصيل لذلك فى ص٣٦٧/٦٩٦ من هذا البحث .

(٣) - ابراهيم العدوى، الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم القاهرة ص١٤٠، سليمان ابراهيم العسكري، التجارة والملاحة، فى الخليج العربى فى العصر العباسي، مطبعة المدنى، القاهرة ص١١٣.

فعمل العباسيون على تحقيق مبدأ حرية التجارة فكان ثمرة من ثمار التطور الكبير الذى طرأ على المجتمع الاسلامى - فى تلك الفترة - إذ حرص العباسيون على اتباع مبدأ المساواة بين جميع رعاياهم من عرب وغير عرب، وفتحوا المجال أمام الجميع لبناء الدولة الجديدة، كل حسب مواهبه وطاقاته وأمكاناته وطبقا لتعاليم الاسلام التى تكفل حرية التجارة وعدم التفريق بين ابناء الأمة طالما يدينون بالاسلام ويلتزمون بمنهج الدولة الاسلامية - اذا كانوا غير مسلمين - وتجلت الثمرة الأولى لهذا التطور فى مراكز التجارة الدولية حين عمل فيها الجميع من عرب وغير عرب على دعم اقتصاديات الدولة، واتخاذ الميدان التجاري سبيلا لامتزاجهم فى وحدة واحدة تجمعها عقيدة الاسلام، والانصراف الى التعاون المثمر، بدلا من التفرغ للصراع أو التنافس البغيض .

كما ساعد على دعم مبدأ حرية التجارة أيضا، أن الدولة العباسية ورثت نتيجة الفتوحات أنشطة كثيرة لسكان المناطق المفتوحة على امتداد السواحل فى الدولة وأن سكان هذه المناطق وجدوا فى تعاليم الاسلام ضالتهم، فلم يعد هناك حاجة الى احتكار التجارة الدولية، وكتطبيق لمبدأ حرية التجارة رفع العباسيون كل القيود على نقل السلع من الميادين الزراعية والصناعية الى مراكز التجارة، وصار كل مركز تجارى ينظم احواله الاقتصادية حسب موقعه ودوره فى حركة التبادل التجاري(١).

كما تركت السلطات العباسية اسعار السلع لقانون العرض والطلب حيث ساعد التوسع الزراعي والتقدم الصناعى على توفر السلع، وبالتالى اعتدال اسعارها، ولم تتدخل الدولة إلا بتدابير محدودة لحماية اسعار المواد الأولية، وفق الضوابط العامة للشريعة الاسلامية(٢).

---

(١) - الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، المرجع السابق ص ٧٩/٧٠

(٢) - صالح العلى، التنظيمات الاجتماعية الاقتصادية فى البصرة، المرجع السابق ص٢٦٣ .

وذلك بالعمل على توفيرها وحسن توزيعها بين الجهات لا بالالتجاء الى وضع تسعيرة لها. وفى نفس الوقت عمدت الدولة الى حماية المنتجين من الزراع والصناع من سوء الاستغلال، بأن اباحت جباية الخراج منهم نقدا وعينا، واستهدفت من وراء ذلك تخفيف الاعباء عنهم حتى لا يضطروا الى بيع سلعهم بأبخس الأثمان من أجل سداد الضرائب المفروضة عليهم نقدا(١).

كما ساعدت رفاهية البلاط العباسي فى بغداد، وازدياد طلب الخلفاء وكبار رجال الدولة من السلع المختلفة على مراقبة العاملين في الميدان التجاري، والحيلولة بينهم وبين الاساءة الى مبدأ حرية التجارة، وغدت الدولة وكبار رجالها السوق الأعظم للتجارة على حد قول ابن خلدون - رحمه الله -(٢)، وبالتالى أصبحت هذه الفئة العميل الأول الذى يتأثر بأى تغيير يطرأ على التجارة، أو يؤثر على نشاطها، فكانت بغداد محط كثير من السلع، واسواقها مرآة للحياة التجارية فى الدولة الاسلامية، ومركزا لتقرير الاسعار وظهور التقلبات الاقتصادية المختلفة.

وقد شجعت حرية التجارة أيضا على ظهور طبقة منظمة من التجار أخذت تزداد عددا وثراء، وتعلو جاها ونفوذا، ذلك أن التجارة فى ذلك الوقت لم تقتصر على التبادل فى السلع المحلية، وانما اشتملت كذلك على تجارة التصدير والاستيراد على نطاق واسع، واقتضى هذا الأمر ظهور طبقة من التجار الكبار الذين قاموا بما تتطلبه الاوضاع الجديدة من عمليات تجارية واسعة، مثل التجارة فى المواد الأولية اللازمة للصناعة، أو المنتجات المختلفة التى يتطلبها المجتمع، وغير ذلك من الصفقات التى تتطلب رأس مال كبير وتدر أرباحا وفيرة(٣).

---

(١) - صالح العلى ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، المرجع السابق ص٢٨٧

(٢) - ابن خلدون، المقدمة، المرجع السابق حـ٢ ص٦٧٩، الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، المرجع السابق ص ٦٩ .

(٣) - صالح العلى، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، المرجع السابق، سليمان ابراهيم العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١١٥/١١٦

وأخذت طبقة التجار توسع نشاطها فى ظل حرية التجارة وتبسط نشاطها الى سائر الجهات التى تكفل لها تحقيق مطالبها التجارية ولما لم يكن هناك قانون يحد من علاقة أولئك التجار بغيرهم من التجار فى خارج البلاد، فقد اختص كل جماعة من التجار بالمجال الذى يجيدونه، وتبادل الجميع الخبرات طواعية فيه، مع المراكز الأخرى فى الخارج، وتجلى ذلك فى استثمار كثير من أهل سيراف - مثلا - لأموالهم فى تجارة البصرة واقتناء الدور والاملاك هناك.(١)

كما تبادل التجار أيضا الوكلاء فى شتى المدن الكبيرة تسهيلا لشراء البضائع أو حسن تصريفها، وتنسيقا للجهود فيما بينهم(٢).

وكان القيد الوحيد الذى فرضه العباسيون على التجارة هو القيد الذى فرضه الاسلام، من تحريم الربا، وتحريم التجارة فى الممنوعات الشرعية كالخمور وغيرها من المحرمات، وكان التعامل فى مجال التجارة الخارجية أيضا تحكمه القاعدة التى سنها عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهى قاعدة المعاملة بالمثل ، فكانت الدولة تعامل تجار البلاد الخارجية معاملة حكوماتها للتجار المسلمين من حيث فرض الرسوم على السلع والمنتجات إذا فرضت على المسلمين شيئا فى تجاراتهم.

وقد ساعدت هذه القيود على استثمار الأموال وزيادة حركة التجارة فيها، إذ انه لما كان تحريم الربا يعنى تحريم كل فائدة على القروض أو منع كل ربح غير شرعي يتم الحصول عليه دون مقابل، فان المسلمين اتجهوا الى استثمار أموالهم فى التجارة المباحة لتجنب الوقوع فى الربا وآثاره السيئة وابتعادا عن الوسائل غير المشروعة فى الربح ذلك لأن الربح التجارى مباح شرعا طالما كان فى اطار ضوابط الاستثمار الاسلامى واساليبه الشرعية .

---

(١) - ابن حوقل، صورة الأرض، المرجع السابق ص٥٥٢/٤٥٢ .

(٢) - صالح العلى ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، المرجع السابق ص ٦٦٢ . سليمان العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١١٦ .

كما أدت حرية التجارة وازدهار عمليات الإستثمار الى ظهور المؤسسات المالية والمصرفية، فكان للصرافين دور هام فى تسليف التجار وتنشيط معاملاتهم، وتوسيع نطاق معاملات الائتمان فى جميع مراكز التجارة فى الدولة العباسية.(١)

وكان التعامل يتم عن طريق الصرافين الذين يسددون الحسابات بين التجار دون اضطرارهم الى الدفع المباشر فى كل صفقة تجارية، كما لجأ كثير من الناس الى حفظ أموالهم لدى الصرافين والجهابذة وكان هؤلاء الجهابذة أما من كبار التجار أو من الصيارفة.

كما كان للصرافين أيضا فى كل مدينة اسلامية، اسواق خاصة بهم تخضع لمراقبة الدولة عن طريق جهاز الحسبة، وقد أدى ذلك كله الى زيادة حركة التجارة الداخلية والخارجية، وساعد عليه زيادة الثقة والطمأنينة بين

---

(١) - صالح العلى، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية، المرجع السابق ص٧٩، الدورى، مقدمة فى التاريخ الاقتصادى العربى، المرجع السابق ص٧٠،

والائتمان بوجه عام هو الاقتراض وهو يعنى ايضا منح حق استخدام او امتلاك السلع والخدمات دون دفع القيمة فورا لكن المدين يكون ملتزما بعد فترة من الزمن بدفع قيمة الدين، انظر : حسين عمر، موسوعة المصطلحات الاقتصادية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة عام ١٩٦٧م ص٣

الناس والتجار به، حتى صار التجار يؤدون أعمالهم داخل البلاد وخارجها دون خوف أو خشية على متاجرهم وآية ذلك أن استخدام التجار وسيلة السفتجة والصكوك كوسيلة للدفع فى البلاد الأخرى، وهى وسيلة توفر عنصر الأمن، وعدم التعرض لأخطار حمل العملة النقدية، فقامت السفاتج والصكوك بمهمة الحوالات، ودفاتر التحويل المصرفى الخاصة بالمسافرين فى وقتنا الحاضر.(١)

وكانت النقود المذكورة فى السفتجة تدفع فى أى بلد، وكان من السهل أن يحملها التاجر عبر الطرق الطويلة، وهو آمن مطمئن، بل كانت أموال الجباية من الولايات ترسل الى عاصمة الدولة الاسلامية بهذه الوسيلة احيانا، ومما يدل على أهمية هذه السفاتج اقتصاديا كوسيلة للدفع - فى تلك الفترة - أن سفاتج التجار المسلمين كانت تصرف فى البلاد غير الاسلامية، وقد اكتسبت ثقة كبيرة، فصارت لها قيمة المال، كما ترتب على ذلك ايضا، أن الأفراد كانوا يستخدمونها فى مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة.

وقد استخدمت فى المعاملات المالية بين الافراد، وكان الجهابذة يصرفون قيمة هذه الصكوك لأصحاب الأموال التى أودعوها عندهم لقاء رسم معلوم أشار اليه ابن الأثير فى حوادث سنة ١٧٠هـ الى أن الهادى أمر لندمائة بثلاثة الف درهم وكتب صكا ليصرف من بيت المال.(٢)

---

(١) - سليمان العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١٦/١١٨،

السفتجة هى : خطاب تذكر فيه قيمة معنية من المال قابل لأن يصرف فى أى مكان من عملاء وجهابذة الشخص الذى حرر السفتجة.

والصك عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى له أجل معين.

الدورى، تاريخ العراق الاقتصادي، المرجع السابق ص ١٢٣/١٢٤

(٢) - ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٦ ص١٠٦

وترتب على زيادة حركة التجارة فى الدولة العباسية وحريتها الى زيادة دخل الدولة نتيجة المكوس التى كانت تفرض على السلع المتبادلة بين الأسواق، فكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون العشر.(١)

وكانت الرسوم الجمركية(٢) تختلف من بلد الى آخر، ففى جدة - مثلا - كان يؤخذ عن كل حمل من الحنطة نصف دينار، وعلى سفط الثياب ثلاثين دينار(٣)، وعلى سفط الدبيقى ديناران، وعلى حمل الصوف ديناران، وفى القلزم كان يؤخذ عن كل حمل درهم، وفى الاسكندرية كانت تفرض المكوس على السفن القادمة من المغرب، وفى الفرما تحصل المكوس من السفن القادمة من الشام.(٤) وكانت الرسوم الجمركية من عدن اكثر ارتفاعا إذ كانت الدولة تجبى منها ثلث أموال التجار بسبب الارباح الطائلة التى كانوا يحصلون عليها. ومن البصرة كان يجرى تفتيش دقيق حتى لقد كان يؤخذ على السلعة البسيطة أربعة دراهم(٥).

ومما يؤكد حرية التجارة الدولية فى العصر العباسى، أن أبا يوسف - رحمه الله - قد طلب من الرشيد أن يرفع الظلم عن المارين بالمصالح وأن يحول دون جور العمال فى تحصيل مالا يجوز تحصيله، ولعل هذه الملاحظة كانت نتيجة التوسع الكبير فى التجارة الدولية - فى ذلك الوقت - وهو توسع لم يقابل على ما يبدو باصلاح دقيق للجهاز الجمركى، لهذا طلب أبو يوسف من

---

(١) - اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، المرجع السابق حـ٣، ص٣٠٨

(٢) - الرسوم الجمركية هى : الرسوم التى تفرض على الواردات من دولة الى أخرى؛

(٣) - سفط الثياب : السفط : الذى يعبىء فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء، ابن منظور، اللسان، المرجع السابق حـ ٦ ص٣١٥، وفى المعجم الوسيط السفط : وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه من أدوات النساء ووعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء كالفاكهة ونحوها، ابراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٤٣٣.

(٤) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص ٢٦٣

(٥) - المرجع السابق ص ١٣٣/١٣٤ .

الرشيد أن يولى المكوس قوما من أهل الصلاح والدين وأن يأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى فلا يأخذون من الناس اكثر مما ينبغى، كما أشار على الرشيد أيضا أن يتفقد أعمالهم وأن يعزل الفاسد منهم.(١)

ونتيجة لزيادة حركة التجارة وحريتها فى المجتمع العباسى، ظهرت كثير من الشركات الدائمة والمؤقتة، وقد امتد نشاطها الى سائر السلع المصدرة والمستوردة، وتباينت أنواع هذه الشركات حسب مساهمة الشركاء فى رأس المال، إذ ساهم الشركاء بالتساوى فى رأس المال أحيانا، وأحيانا أخرى بنسب مختلفة، وربما لا يكون هناك مساهمة فى رأس المال ألبتة، وإنما يتعامل على أساس الثقة أو ما يسمى بالضمان، وقد اشتهرت عدة أنواع من الشركات - فى تلك الفترة - وإن كانت قد وجدت منذ عهد الرسول ﷺ إلا أنها ظهرت وترعرعت فى العصر العباسى - بشكل واضح - وكان للفقه الاسلامى دور مهم فى تشجيع قيام المؤسسات التجارية المختلفة، فقد عالج محمد ابن الحسن الشيبانى(٢) - رحمه الله - مسائل الشركات والعقود المختلفة بشكل مثير للإعجاب بمعظم المسائل والمشكلات التجارية والمدنية - فى تلك الفترة - كما كانت المناقشات التى عالجت مسائل الشركات متفهمة للواقع، فزودت التجار بوسائل مفيدة وفعالة لتنفيذ تجاراتهم البعيدة المدى. والقراءة الدقيقة لنصوص الفقه الحنفى المبكر فى موضوع الشركات، تعكس وعيا جديا من الفقهاء للموضوعات التى كانت موضع بحث ونظر، وقد قسم الفقهاء الشركة - بشكل عام الى أنواع وهى : شركة الأموال، وشركة الأعمال، وشركة الوجوه، وشركة المضاربة.

وفيما يلي عرض لهذه الشركات، والتى أثرت - بلا شك - على الأوضاع التجارية فى المجتمع العباسى بشكل موجز :

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص ١٣٢ .

(٢) - راجع كتابه الجامع الكبير من ص٢٥٩/٢٧٨، وكتابه الامالى راجع من ص٣٣ وما بعدها. والمخارج فى الحيل ص٥٧ وما بعدها.

١ - شركات الأموال :

وهي الشركات التى يتراضى فيها أثنان أو أكثر على أن يشترك كل منهم بمبلغ معين فى رأس المال للتجارة على أن يكون الربح أو الخسارة بينهما(١)٠

وهذه الشركات على نوعين : عنان ومفاوضة ٠

أ- شركة العنان : وهي الشركة التى يتساوى فيها الشريكان أو يتفاوتان فى رأس المال والربح، ولهما أن يخلطا رؤوس أموالهما المشتركة فيها، وسميت بشركة العنان لأن كل شريك يجعل عنان التصرف فى بعض ماله الى الشريك الآخر، حسب متطلبات التجارة، وقد كان هذا النوع من الشركات تحولا فى أساليب العمل التجارى التى من خلالها تمكن التجار من حماية أنفسهم وتجارتهم من المخاطر الناتجة عن أوضاع السوق غير المستقرة وغير المتوقعة، وهذا يفسر قبول الفقهاء فى جميع المذاهب بشركة العنان(٢)٠

ب - شركة المفاوضة: وهي الشركة التى يتساوى فيها الشركاء فى رأس المال والربح ٠ وأخذ اسمها من تفويض كل واحد منهم للآخر فى حق التصرف فى جميع مال التجارة٠(٣)

٢ - شركة الأعمال :

وهى الشركة التى تعتمد على الجهد البدنى أو الفكرى، بأن يشترك اثنان أو اكثر فى عمل معين، أو فى تقبل الأعمال ويكون ما يكسبانه مشتركا بينهما بحسب الاتفاق٠

---

(١) - . عبدالعزيز عزت الخياط، الشركات فى الشريعة الاسلامية والقانون الوضعي، الطبعة الأولى،طبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان عام حـ٢ ص٢٢ ٠

(٢) - الدورى، تاريخ العراق الاقتصادي، المرجع السابق ص ١٢٨، الرخسى، المبسوط، المرجع السابق حـ١١ ص١٥١ ٠

(٣) - الخياط، الشركات فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص ٢٣/٢٤، السرخسى، المسبوط، المرجع السابق حـ١١ ص١٥٢

فاذا اشترك كاتبان فى عمل فكرى ككتابة كتاب ونشره أو اشترك طبيبان فى فتح عيادة، أو اشترك خياطان فى تقبل الخياطة، واتفقا على أن ما يكسبانه لهما مناصفة أو غير ذلك كان ذلك شركة أعمال(١).

وبناء على هذه الشركة فان العمل يعتبر سلعة تدخل نطاق النشاط الاقتصادى من حيث العرض والطلب، والمشاركات المختلفة التى تعود بالارباح، وبالتالى فان الفكر الاسلامى كان اسبق من الفكر الأوربى فى اعتبار العمل سلعة كأى سلعة تخضع للقواعد الشرعية والاقتصادية المختلفة.(٢)

٣ - شركة الوجوه :

وهى أن يشترك اثنان وليس لهما مال، ولكن لهما وجاهة عند الناس فيقولان اشتركنا على أن نشترى بالنسيئة (المؤجل) ونبيع بالنقد على أن ما رزق الله سبحانه وتعالى من ربح فهو بيننا على شرط كذا، فهى شركة تقوم على أساس وجاهة الشريكين وثقة التجار(٣).

٤ - شركة المضاربة :

ومن الشركات التى استخدمها المسلمون أيضا فى هذا العصر شركة المضاربة وقد عرفها بعض الباحثين(٤) فقال هي : عقد على الشركة بمال من أحد الجانبين، والعمل من جانب آخر، والمقصود من العمل هو عملية التجارة أى البيع والشراء وتوابعهما.

ولاشك أن هذه الأنواع وغيرها من الشركات التى وجدت فى الدولة الاسلامية وفى العصر العباسى، قد دعت

---

(١) - الخياط، الشركات فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٥

(٢) - الخياط، الشركات فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٦

(٣) المرجع السابق حـ٢ ص٤٦، الكاسانى، بدائع الصنائع، المرجع السابق حـ٦ ص ٥٧ .

(٤) - الخياط، الشركات فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٥٠ .

الائمة والمجتهدين من الفقهاء الى دراسة هذه الشركات وتفصيل احكامها وبيان أنواعها، وما يحل منها وما لايحل واجتهدوا فى حل كثير من المشكلات التى كانت موجودة فى أزمانهم، إلا أن الشركات قد ترعرعت وازدهرت فى العصر العباسى الأول والذى وجدت فيه المذاهب الفقهية الأربعة، فتناولوا جميعا هذا الموضوع بالبحث والدراسة فبينوا أنواعها، وأحكامها والمباح منها وغير المباح، وقد ساعد على ذلك اتساع الدولة الاسلامية آنذاك ونشوء حوادث كثيرة احتاجت الى الاستنباط، واعمال العقل والفكر، ولاشك أن الفكر الاسلامى فى مجال الشركات قد شهد تطورا كبيرا فى تلك الفترة، وان النظر فى فقه المذاهب الأربعة يوضح تلك الحقيقة ويوضح مدى ما اسهم به الفقهاء فى هذا المجال، كما أن الخلاف بينهم فى بعض المسائل فى ذلك يظهر انشغال الفكر الاسلامى بتلك القضايا فى فترة مبكرة من التاريخ الاقتصادى.

وقد شهدت الشركات ايضا تطورا كبيرا فى أوربا، لكنها كانت فى فترة متأخرة عن تطورها فى الدولة الاسلامية بعدة قرون، حيث إن الشركات بدأت تتطور فى أوربا - بشكل واضح - فى أواخر القرون الوسطى مما يعد سبقا تاريخيا للفكر الاقتصادى الاسلامى فى هذا المجال ، ولعل من بين الأسباب الرئيسية لهذا التطور هو موقف الشريعة الاسلامية من القرض بفائدة، والنظر اليه باعتباره نوعا من الربا وهو محرم شرعا. أما الكنيسة فقد بدأت تحرم الربا فى بداية القرن الثانى عشر الميلادى.

ولقد دفع هذا التحريم المقرضين الى الالتجاء الى سبيل التحايل للتخلص من الخطر الذى فرضته الكنيسة، ووجدوا فى التجارة البحرية مرتعا لاستثمار أموالهم حيث اباحت الكنيسة هذا القرض فكان المقرض يقدم المال لربان السفينة مقابل وعد بالحصول على جزء كبير من الارباح، بلغ فى أحيان كثيرة الى حد السبعين بالمائة. ولم تمانع الكنيسة فى هذا القرض

الذى عرف بالقرض البحرى لما فيه من المخاطر التى تنجم عن هلاك السفينة أو غرقها فيضيع المال كله، وقد امتدت هذه القروض الى التجارة البرية ايضا، فوافقت الكنيسة على تلك القروض باعتبارها قروضا منتجة، لا يستعملها المدين فى قضاء حاجاته الذاتية، وإنما يستغلها فى تجارة تدر عليه ربحا.

وعلى كل فان الفكر الاقتصادى الاسلامى يعتبر أسبق تطورا فى مجال الشركات حيث ظهرت أنواع مختلفة من الشركات وأساليب متنوعة من العمل التجارى وفق التعاليم الاسلامية وذلك منذ القرن الثانى الهجرى (السابع الميلادى) بينما لم يتطور فى أوربا إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى عندما عرفت هذه القروض، ثم اتجه الاهتمام التشريعى نحو الشركات فى أوربا فى القرن السادس عشر الميلادى(١). مع الأخذ فى الاعتبار أن هذا التطور كان دائما مبنيا على الفوائد الربوية واباحتها واتخاذها أساسا للعمل التجارى فى جميع البلاد الأوربية، وانتقل بلاؤها الى البلاد الاسلامية، التى تحاول الآن التخلص منه بشتى الوسائل والرجوع الى منهج الله .

وبعد أن أنتهينا من أهم العوامل المشجعة على التجارة بشكل عام فى الدولة العباسية تجدر الاشارة الى أهم العوامل التى كان لها أثرها فى تطور التجارة الخارجية فى تلك الفترة وهى عديدة ومنها ما يلي :

أ - النهضة الصناعية :

سبق أن ذكرنا أن الصناعة والحرف فى العصر العباسى الأول قد شهدت تطورا كبيرا، وأنها أحدثت آثارا كثيرة فى داخل المجتمع العباسى وخارجه مع البلاد المجاورة لها، ويكاد يجمع الكثير من المؤرخين على أن

(١) . على حسين يونس، الشركات التجارية، المرجع السابق ص ٢٦٦ ، أبو زيد رضوان، الشركات التجارية فى القانون الكويتى، دار الهنا للطباعة، نشر دار الفكر العربى، القاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٧٨م ص ٦/٣

العصر العباسى الأول يعد عصرا ذهبيا للدولة الاسلامية فى مجال الصناعة، وبالتالى يعد العصر الذهبى للتجارة الخارجية ايضا، وذلك يرجع الى توفر السلع الأولية للصناعة من جهة، وتوفر الأيدى العاملة الفنية من جهة أخرى، مما ساعد على نمو الصناعة، وزيادة الانتاج الصناعى والذى احتاج فى نهاية الأمر الى اسواق خارجية لتصريف هذا المنتج، ولذلك كانت هناك حاجة الى التبادل التجارى مع الدول الأخرى المجاورة لها، وهو ما سيتضح لنا فيماسيأتى(١) فقد كان هناك تبادل تجارى مع بلاد الصين والهند وافريقيا وأوربا، وقد غزت المنتجات الاسلامية كل هذه البلاد، كما أدى ذلك الى اتساع حجم التجارة الدولية فى ذلك العصر وأصبحت الدولة فى حاجة ماسة الى أسواق خارجية لتصريف هذه المنتجات والاستفادة من عوائدها.

ب- انتشار ظاهرة التخصص وتقسيم العمل :

سبق أن بينا أن ظاهرة التخصص وتقسيم العمل كانت وليدة المجتمع العباسى، وقد تحدث عنها كثير من الفقهاء والأدباء ممن عاشوا تلك الفترة امثال الشيبانى والجاحظ وغيرهم من العلماء والأدباء ممن أتى بعدهم(٢). وقد كان لذلك أثره على التجارة الخارجية فقد احتكرت بعض البلدان الاسلامية فى تلك الفترة بعض الصناعات - كما سبق وأن اشرنا - كصناعة الورق والزجاج والسكر والمنسوجات وغيرها، وهو الأمر الذى يؤكد ما ذهبنا اليه من أن انتشار ظاهرة التخصص وتقسيم العمل كانتا وليدة وقائع وأحداث حياة ابناء المجتمع العباسى، وقد أدى تخصص بعض البلدان الاسلامية فى صناعة معنية فى ذلك الوقت الى اتساع نطاق التجارة الخارجية وضرورة تبادل هذه المنتجات داخليا وخارجيا مما أدى الى الحاجة الى أسواق خارجية لتصريف المنتجات المتنوعة والمتعددة، وبالتالى فقد كان لظاهرة التخصص وتقسيم العمل فى العصر العباسى أثرها فى تطور التجارة الخارجية وتشجيعها.

---

(١) - راجع ص٣٨٢ وما بعدها من هذا البحث .

(٢) - راجع ص ٢٤٠ وما بعدها

جـ - رفع القيود على الهجرة :

كان لرفع القيود على الهجرة من و إلى الدولة العباسية أثره الكبير على التجارة الدولية، فقد فتحت الأبواب أمام المهاجرين الباحثين عن أسباب الرزق المختلفة فى الدولة العباسية، فتدفق الرقيق والعمال والتجار والصناع من المسلمين وغير المسلمن من اليهود والنصارى والمجوس، وتذكر المصادر التاريخية أن اعدادا كبيرة من الزنوج والترك وغيرهم قد هاجروا الى الدولة العباسية بحثا عن الرزق والعمل، كما أن المصادر تذكر أيضا أن اعدادا كبيرة من تجار الدولة العباسية قد هاجروا الى بلاد الهند والصين وكونوا هناك جاليات كبيرة رغبة فى نشر الاسلام من جهة وبحثا عن أسباب الرزق والتجارة من جهة أخرى(١)، وقد كان لذلك بطبيعة الحال أثره فى اتساع حجم التجارة الدولية، فقد قام المهاجرون باستغلال ثروات البلدان التى هاجروا اليها مما أدى الى زيادة انتاجهم، ومن ثم زيادة حجم التجارة الدولية، وبناء عليه فان رفع القيود على الهجرة كان له أثره فى تشجيع التجارة الداخلية والخارجية بصفة عامة فى الدولة العباسية.

د - تقدم وسائل النقل :

كان لتقدم وسائل النقل وسهولته وخاصة النقل المائى اكبر الأثر على نمو التجارة الدولية، وتطورها فى العصر العباسى الأول مما نجم عنه تعدد الأسواق واتساعها، كذلك كان لسيطرة الدولة الاسلامية على البحار والأنهار الكبرى فى العالم آنذاك أثره الكبير فى اتساع نطاق التجارة الدولية، اضف الى ذلك ايضا وجود شبكة من الطرق البرية تربط بين الدولة العباسية وغيرها من البلدان الأخرى - وهو ما سيأتى تفصيله -(٢)

---

(١) - راجع ص٣٨٦من هذا البحث

(٢) - راجع ص٦٩٥/ ٦٩٦من هذا البحث

وقد كانت السفن الاسلامية فى تلك الفترة من الظواهر العالمية، وكانت تسيطر على التجارة الدولية فى أكبر البحار والأنهار، وكان لذلك كله اثره فى اتساع نطاق التجارة الدولية من و إلى الدولة العباسية واسهم مساهمة كبيرة فى تطور التجارة الداخلية والخارجية.

هـ- وحدة النظم النقدية :

كانت دول العالم خلال العصر العباسى الأول تقريبا تتبع نظاما واحدا وهو نظام قاعدة المعدنين والذى ترتبط بهما قيم النقد مع قيم وزن معين من الذهب أو الفضة، وكانت بعض البلاد يسود فيها الدينار كمصر وشمال افريقية، وبعضها الآخر يسود فيها الدرهم كالعراق وبلاد فارس ومن والاها من الاقاليم، إلا أن الدينار العباسى حافظ على وزنه ٤،٢٥ جرام، وقد أدى ذلك الى ثباته باستمرار بسبب تدفق الذهب من السودان من جهة، وانتشار دور الضرب فى كل اراضى الدولة العباسية من جهة أخرى(١)، فلم يكن هناك حاجة الى استيراده ولا إلى تصنيعه خارج الدولة، ولذلك لم تظهر مشكلات نقدية - بصفة عامة - فى تلك الفترة، وخاصة تقلبات القيم الخارجية للعملات، ولا شك أن اتباع هذا النظام قد ساعد كثيرا على نمو التجارة الدولية واستقرار الاوضاع الاقتصادية، ومن ثم أدى الى تطور التجارة الخارجية وزاد من حركة النشاط الاقتصادى بصفة عامة .

و- وجود السياسات التجارية :

يقصد بالسياسات التجارية، مجموعة الاجراءات التى تتخذها الحكومة بغرض تحقيق أهداف معينة فى مجال علاقاتها التجارية مع الدول الأخرى(٢). ولتلك السياسات أهداف مختلفة تسعى إليها الدول كتنمية الاقتصاد والوطن، وتثبيت سعر الصرف وتوازن الميزان التجارى وتحقيق العمالة الكاملة.. الخ.

---

(١) - محمد باقر الحسينى، مدن الضرب على النقود الاسلامية، مجلة المسكوكات العدد الخامس ص ١٠٥، د/ فهمى عبدالرزاق سعد، العامة فى بغداد فى القرن الثالث والرابع الهجريين، الاهلية للنشر والتوزيع، بيروت عام ١٩٨٣م ص ٢٠٣/٢٠٤، المقريزى، النقود الاسلامية ص٥٢/٥٣، وهناك تفصيلات أخرى ستأتى فيما بعد.

(٢) - على لطفى ، التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص ١٢١ .

وتعتبر السياسات التجارية جزء من السياسة الاقتصادية العامة للدولة، فهى وحدها لا تكفى لتحقيق الأهداف السابقة الذكر وغيرها، بل لابد من الالتجاء الى وسائل أخرى مثل السياسة المالية والسياسة النقدية والسياسات المتعلقة بالاسعار... الخ مع مراعاة التنسيق بين هذه الوسائل جميعا حتى لا تتعارض مع بعضها البعض.

والمتتبع للتاريخ الا قتصادى يلحظ أنه قد ظهرت فى العالم منذ أمد بعيد سياسات تجارية متباينة، وتدل دراسة هذه السياسات على أنها ذات اتجاهين رئيسيين اتجاه نحو الحرية التجارية، وآخر نحو الحماية(١)، وبالنظر الى واقع المجتمع الاسلامى نجد أن السياسات التجارية فى المجتمع الاسلامى قد راعت الاتجاهين - الحرية، والحماية - فالحرية التجارية مكفولة - كما سبق وان أشرنا - فى مجال التجارة ولا تتدخل الدولة إلا فى اطار المصلحة العامة للدولة الاسلامية، كما أن واقع التاريخ الاسلامي راعى حماية المنتجات الوطنية ايضا طبقا لقواعد وأهداف وضوابط الشريعة الاسلامية وضرورة أن تكون المعاملة بالمثل هى الأطار العام الذى يحكم مجال التجارة الخارجية فقد أمر عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بأخذ العشر على السلع الأجنبية معاملة بالمثل.

كما أن واقع التاريخ الاقتصادى للدولة العباسية يؤكد هذين الاتجاهين فى اطار أحكام الشرع وأهدافه على أنه ينبغى أن نشير هنا الى قضية تاريخية هامة جدا وهى أن التاريخ الاقتصادى للدولة الاسلامية، قد اهتم بهذين الاتجاهين منذ فجر الاسلام، وبذلك يكون التشريع الاسلامى أسبق زمنا مما ظهر فى أوربا فى هذا المجال حيث إن السياسات التجارية لم تظهر إلا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى.(٢)

---

(١) - على لطفى ، التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص ١٢١

(٢) - لبيب شقير، تاريخ الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص ١٠٣

فسياسة الحماية التجارية لم تبدأ فى أوربا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى أى فى عهد التجاريين، وكانت تهدف الى زيادة الصادرات دون أن تهتم بالواردات الآتية من الدول الأخرى بينما نجد أن التشريعات الاسلامية تترك المجال لمسالة العرض والطلب دون التدخل إلا فى اطار المعاملة بالمثل فى المجال الخارجى، وبالتالى فان الفكر الاسلامى فى هذا المجال كان أعمق أثرا، وهو ما أكده الواقع التاريخى لأوربا متأخرا فى القرن التاسع عشر الميلادى حيث انقسم الاقتصاديون الى فريقين أحدهما يتمسك بالحرية التجارية، وفريق آخر ينادي بمبدأ الحماية التجارية.(١)

وقد أدت السياسات التجارية التى اتبعها المسلمون منذ العصور الأولى واتباع سياسة الحرية التجارية واعتبارها الأصل فى مجال التعامل الخارجي الى تشجيع التنافس الدولى ومنع قيام الاحتكارات، ومما لاشك فيه أن المنافسة تحفز المنتجين على الابتكار، وعلى تحسين وسائل وطرق الانتاج وتخفيض تكاليفه، كما أن سياسة الحرية التجارية أدت الى اتساع حجم الاسواق، وهو ما ظهر واضحا خلال العصور الاسلامية، ومنها العصر العباسى الأول.

وبعد أن أنتهينا من بيان أهم العوامل التى شجعت التجارة الداخلية والخارجية وأهم العوامل التى أدت الى تطور التجارة الخارجية بصفة خاصة تجدر الاشارة ايضا الى أهم العوامل التى أدت الى تثبيط التجارة فى فترة الدولة العباسية الأولى، برغم أنها لم تكن ظاهرة عامة فى تلك الفترة إلا أنه قد وجدت بعض الظروف والتى كان من شأنها تثبيط حركة التجارة الداخلية والخارجية فى الدولة العباسية.

---

(١) - على لطفى، التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص ١٢٣/١٢٤

رابعا: العوامل المثبطة للتجارة.

وكما كان هناك عوامل مشجعة على حركة التجارة الداخلية والخارجية فى الدولة العباسية، فلاشك أنه كانت هناك أسباب أخرى تعيق حركة التجارة فى بعض الأحيان، ولعل من أهم هذه المعوقات والتى واجهها العباسيون بحزم وشدة تلك الاضطرابات الداخلية والخارجية على حدود الدولة العباسية - كما سبق وأن أشرنا - فقد تعددت الاضطرابات الداخلية فى العهود المختلفة للخلفاء منذ بداية العصر العباسى الأول وحتى نهايته.

وكان من أخطر هذه الاضطرابات، الحركات المناهضة للحكم العباسى ولاسيما بالشام والعراق، بل كان هناك من يرى أنه أحق بالخلافة من غيره، كعبد الله بن على الذى كان يرى أنه أحق بالخلافة من أبى جعفر المنصور كما كان هناك المناصرون لبعض الشخصيات الكبيرة كأبى مسلم الخراسانى، وقد ظهرت بعض الحركات على أثر مقتله كحركة سنباذ المجوسى الذى كان من أصحاب ابى مسلم، فلما علم بمقتله ثار ضد الحكم العباسى ودخل فى طاعته أكثر أهل خراسان وكثير من البلاد كنيسابور وقومس والرى، ومثل ذلك ايضا حركة الراوندية(١) والتى كان يدعو اليها هاشم بن حكيم ويعرف بالمقنع الخراسانى وقد كان أصحاب هذه الحركة يعتقدون بتناسخ الارواح، كما جعلوا لأبى مسلم الخراسانى أفضلية على نبى الهدى واسقطوا التكاليف الشرعية... الخ كما ظهرت كثير من ثورات العلويين والخوارج فى عمان والبحرين والموصل وبلاد المغرب العربى فى المغرب والقيروان، وقد حدثت ايضا بعض الاضطرابات بسبب العصبية، كتلك التى حدثت بين القيسية واليمانية فى بلاد الشام ومصر.(٢)

---

(١) - ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٥ ص ٥٠٢/٤٦٤، ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، المرجع السابق حـ٣ ص ٢٠٦/١٨٥/١٨٠

(٢) - حسن ابراهيم، تاريخ الاسلام، المرجع السابق حـ٢ ص٨١، وتناسخ الارواح له معان كثيرة فقد عرف قبل الاسلام عند فلاسفة اليونان كما كان معتقد بعض اليهود كما قال به الرافضة من المسلمين حيث اعتقدوا تناسخ روح الاله فى الانبياء والائمة وهى عقيدة باطلة عند أهل السنة والجماعة وفيه تفصيلات كثيرة من حيث المعنى والمعتقدين به يمكن الرجوع اليها فى كتب العقيدة ومنها: الفرق بين الفرق للبغدادى ص٢٧١ وما بعدها، والتبصر فى الدين لابى المظفر الاسفرائني ص٨٠ وما بعدها... الخ

ومن الأسباب ايضا التى كان لها أثرها السلبى على حركة التجارة تسلط بعض العناصر على مقدرات الدولة وأوضاعها الاقتصادية كما حدث من البرامكة فى عهد الرشيد، وكحدوث بعض الفتن الكبرى كالذى حدث بين الأمين والمأمون بشأن الخلافة، ومّا كان بينهم من حروب انتهت بمقتل الأمين وتولية المأمون ، وأيا كانت أسباب تلك الفتنة، ومادار فيها فانها بلا شك قد أثرت تأثيرا مباشرا على حركة التجارة فى تلك الفترة مما أدى الى نقص دخل الدولة بنحو مائة مليون درهم بسبب الحرب بين الأخوين.(١)

وكدليل على تأثر حركة التجارة فى الدولة العباسية نتيجة هذه الفتن والاضطرابات والثورات المختلفة نورد بعض الوقائع التى تشير الى تأثر بعض اسعار السلع بسبب تلك الاضطرابات إذ تشير المصادر التاريخية(٢)، اشارات واضحة الى حدوث غلاء شديد، وارتفاع فى الاسعار فى عام ١٤١هـ فى خراسان والعراق بسبب الاضطرابات التى حدثت فى تلك السنة، وفيما يلى قائمة ببعض السلع التى توفرت لنا من المصادر التاريخية المختلفة وهى توضح حركة بعض اسعار هذه السلع ارتفاعا وانخفاضا تبعا للأحداث المختلفة التى حدثت فى تلك الفترة.

---

(١) - حسن أحمد محمود ، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى الأول ص ١٨٩/١٩٠/١٩٣

(٢) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٧ ص ٥٠٩، ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٥ ص ٥٠٥

قائمة لبعض أسعار السلع في العصر العباسي ومؤشراتها الاقتصادية [١]

السلعة	السعر	الفترة التاريخية	المصدر	ملاحظات
جمل	١/٣ درهم	عهد المنصور	تاريخ بغداد حـ١ص٧٠	رخص
كبش	درهم	عهد المنصور	تاريخ بغداد حـ١ص٧٠	غلاء بالنسبة للجمل
لحم بقر	٩٠ رطلاً بدرهم	عهد المنصور	تاريخ بغداد حـ١ص٧٠	رخص
السمن	١٢ رطلاً بدرهم	عهد المنصور	تاريخ بغداد حـ١ص٧٠	رخص
العسل	١٠ ارطال بدرهم	عهد المنصور	تاريخ بغداد حـ١ص٧٠	رخص
الزيت	١٦ رطلاً بدرهم	عهد المنصور	تاريخ بغداد حـ١ص٧٠	رخص
التمر	٦٠ رطلاً بدرهم	عهد المنصور	تاريخ بغداد حـ١ص٨٧	رخص
لحم البطن (الكرش)	درهم واحد	عهد المهدي	تاريخ بغداد حـ١ص٧٠	رخص
لحم	٦درهم	عهد الرشيد	ابن الفقيه بغداد ص ٦٠	غلاء
كبش	١٥درهم	عهد الأمين	الأزدي بداية البداية ص ٤٠	غلاء
نعجة	٢٠ درهم	عهد الأمين	الأزدي بداية البداية ص ٤٠	غلاء

(١) فهمي عبد الرزاق سعد ، العامة في بغداد ، المرجع السابق ، ص ١٩٠/١٩١ بتصرف

وتشير هذه القائمة الى حدوث ارتفاع وانخفاض فى اسعار بعض السلع فى الفترة الواحدة، وفى بعض الفترات المختلفة مما يعنى تأثر الاسعار بالأوضاع السائدة فى المجتمع لكن بالرغم من وجود كثير من الفتن والاضطرابات فى الفترة العباسية الأولى إلا أن هذه الفترة تعتبر من الناحية الاقتصادية من وجهة نظر الباحث كانت تتمتع باستقرار نسبى فى مستوى الاسعار بشكل عام، ويرجع سبب ذلك الى السياسات التى كانت تتخذها الدولة لاخماد هذه الاضطرابات من ناحية واستقرار الاوضاع السياسية بشكل عام، ثم السياسات التى كانت تتخذها للاصلاح الاقتصادى من ناحية أخرى.

فمثلا أبو العباس السفاح قام بتخفيف العبء الضريبى عن كاهل الناس فى عهده، فقسط الخراج على الناس لاحساسه بالمظالم التى تعرضوا لها والاعباء الجسام التى تحملوها.(١)

ثم واصل المنصور مسيرة هذا الاصلاح، وخاصة المتعلقة بالخراج ومساوئه ومواجهة غلاء الاسعار الذى نجم عن اضطراب الاوضاع السياسية والاقتصادية منذ أواخر الدولة الأموية، فقام باصلاحات كثيرة فى الادارة، والنفقات والخراج ومعاش الرعية.(٢)

أما المهدى فقد قام باصلاحات اقتصادية استهدفت تحقيق العدالة والاستقرار الاقتصادى، وضمان اسعار متوازنة فى السوق، فساعد ذلك على حركة التجارة الداخلية والخارجية.

وكان أول هذه الاصلاحات التحول من نظام المساحة الذى كان معمولا فى الجباية الى نظام المقاسمة بحيث يؤخذ الخراج على أساس نظام المقاسمة، فأصبحت الدولة تقاسم المزارعين وفق نسب معينة دون النظر لمساحة الارض ذلك أن اسعار الحاصلات قبل تطبيق نظام المقاسمة كانت منخفضة، ولم يكن هناك تقدير صحيح لمساحة الكور، ويؤخذ مما رواه أبو يوسف أن نسبة المقاسمة فى عهد المهدى بلغت نصف المحصول على الأرض التى تسقى سحيا، وثلث المحصول على الأرض التى تسقى بالدوالى لشدة ارتفاعها،

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ص ٩٣

(٢) - حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى الأول، المرجع السابق ص ١٨٩/١٩٠ .

وربع المحصول على الأرض التى تسقى بالآلات كالسواقى، وفى بعض المناطق كانت الدولة تحصل على خمس المحصول حسب الظروف الخاصة لكل مزارع.(١)

وقد طبق نظام المقاسمة فى عهد المهدى على الغلات الزراعية فقط، أما ثمار النخيل والكروم والشجر فبقيت على نظام المساحة، وعدل خراجها حسب قربها من الأسواق أو بعدها.

وقد تحققت فوائد كثيرة من هذا الاصلاح، فقد توحد النظام فى جميع البلاد وضمنت الدولة دخلا ثابتا، واستفاد الزراع بتخفيف العبء عنهم وتجنبوا الازمات التى تنجم عن الانخفاض المفاجىء فى اسعار الغلة، ولا ريب أن ذلك كله أدى الى اطمئنان الناس وزيادة الانتاج، وارتفاع مستوى الدخل، وحال بين المزارعين، وبين عبث العمال وتشددهم.

وقد روى الجهشيارى، أن المهدى أمر العمال بالكف عن الحاق الأذى بالناس اثناء الجباية، كما نهى عن تحصيل المتأخرات، واستجابة لهذا الاتجاه قام خالد بن يحيى البرمكى حين ولى أمور فارس فى عهد المهدى بتقسيط الخراج واعفاهم من خراج الشجر.(٢)

أما فى عهد الرشيد فقد عمل على تخفيف عبء الجباية اكثر مما خففه المهدى، فقام باصلاح الخراج واهتم به من ناحية موارده وقواعده وانظمته ولعل من أهم اهتمامته هذا الاصلاح أنه كلف القاضى أبو يوسف بحل مشكلات الخراج، من أجل ذلك الف كتاب الخراج الذى نصح فيه الرشيد بمزيد من الرأفة فعدلت نسبة المقاسمة التى وضعت فى عهد المهدى فأصبحت ٢/٥ على الأرض التى تروى سيحا، ٣/١٠ على الأرض التى تروى بالدوالى، وجعل على النخل والكروم الثلث وعدل عن تقرير خراجها طبقا للمساحة، أما غلة الصيف فقد ابقى عليها الربع، لأنها كانت تسقى بالدواليب. قال أبو يوسف : «إنما أراد الرشيد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لامرهم».(٣)

---

(١) - حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى الأول، المرجع السابق ص ١٩١، أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص ٤٣ والسيح ما سقى بماء الانهار والاودية، انظر أحمد الكبيسى، الرتاج، المرجع السابق حـ١ ص٣٤٨

(٢) - الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ص ١٥١ .

(٣) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص ٣، حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى الأول، المرجع السابق ص ١٩٢.

وفى عهد المأمون قام باصلاحات كثيرة، فتوسع فى تطبيق النسب التى وضعت فى عهد الرشيد وجعل مقاسمة أهل السواد بالخمسين بدلا من النصف(١)، وأمر المأمون بتخفيف ربع خراج خراسان.(٢)
كما خفض خراج الرى، وكان يحاسب عماله محاسبة دقيقة.
كما ظلت هذه الاصلاحات الى عهد المعتصم، رغم زيادة النفقات بسبب اغداقه الأموال على جنوده الاتراك، وتأسيسه سامراء ومحاربته للبزنطيين، ولم يرو أن الواثق قد خرج عن هذه الاصلاحات التى وضعت فى عهد الرشيد.

وكان من نتيجة ذلك أن تكدس الانتاج فى أسواق العراق وايران ومصر ورخصت الاسعار فى غالب الأحوال، حتى روى أن الرجل من عامة الناس فى عصر الرشيد كان يكفيه هو وعائلته ثلاثمائة درهم فى السنة(٣)، يقول الخطيب البغدادى : سمعت صفير بن شبيب بن رستم البخارى يقول : "رأيت فى زمن أبى جعفر كبشا بدرهم وحملا بأربعة دوانق والتمر ستين رطلا بدرهم والزيت ستة عشر رطلا بدرهم والسمن ثمانية ارطال بدرهم، وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم.(٤)

وبرغم ذلك فلا يمكن اعتبار ما حدث من اضطرابات فى عصر الدولة العباسية الأولى بشكل عام معوقا للتجارة الداخلية والخارجية، بل أن هذه الفترة تعتبر من أفضل فترات التاريخ الاسلامى إذ كانت تتمتع بالاستقرار النسبى من الناحية الاقتصادية، وأن الاحصائيات التى مر ذكرها لا يمكن اعتبارها مقياسا لحالة العصر وظروفه نظرا لقلة تلك الاحصائيات - بشكل عام - وبالتالى لا يمكن الحكم على الاوضاع الاقتصادية حكما نهائيا.

وبعد أن أنتهينا من تلك العوامل المشجعة والمثبطة للتجارة فى العصر العباسى الأول تجدر الاشارة الى الأسواق وأهميتها وتقسيماتها الفنية باعتبارها عاملا مشجعا للتجارة الداخلية والخارجية من ناحية، وباعتبارها من ناحية أخرى أحد الموضوعات الهامة فى مجال التجارة الداخلية والخارجية على السواء.

---

(١) - الطبرى، تاريخ الطبرى حـ١٠ ص ٥٥
(٢) - الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ص ٢٧٨
(٣) - حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى الأول، المرجع السابق ص ١٩٣
(٤) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص ٧٠
(٥) - المرجع السابق حـ١ ص ٤٣

المبحث الثانى

الأسواق والتجار وتقسيماتهما الفنية

مقدمة :

تميزت الأسواق فى العصر العباسى الأول بميزات هامة فقد كان لها طابعها الخاص الذى تتميز به من حيث الشكل والموضوع فتنوعت وتقسمت تقسيمات فنية معينة سواء فى ذلك الأسواق أو التجار وفيما يلى توضيح لأهم مظاهر هذا التطور والتى كان لها أثرها على التجارة الداخلية والخارجية بشىء من التفصيل.

أ ـ تخصيص أماكن للأسواق

عندما قامت الدولة العباسية، اهتمت بالمدن والأسواق التجارية يتضح ذلك من خلال ما قام به الخلفاء عند بناء المدن فى تلك الفترة فيروى أن المنصور لما بدأ ببناء مدينة بغداد خصص أماكن خاصة بالاسواق، فوضع أساس الكرخ فى الجهة الجنوبية منها بين الصراة ونهر عيسى، ونقل اليها أسواق بغداد وراعى فى ذلك أن تكون هذه الأسواق على مقربة من المدن الساحلية حتى تسهل عمليات التصدير والاستيراد على المستوى الخارجى، ولا يخفى ما لذلك من أهمية فى حركة التصدير أو الاستيراد.

فقد قامت عند باب المحول سوق عظيمة فيها اصناف التجارات، والمحول هى المحطة التى كانت تنتهى اليها السفن التجارية القادمة عبر الفرات، حيث يتم تحويلها الى بغداد بسفن أخرى عبر نهر عيسى، أحد فروع الفرات الذى ينضم الى دجلة فيعاد اصعادها فى دجلة الى بغداد.(١)

كما كانت المدن الساحلية كطرابلس وبيروت، وعكا لا تبعد كثيرا عن سوق دمشق الكبير، فقد كانت المسافة لا تستغرق إلا بضعة أيام من السوق، وكان ازدهار الأسواق فى بغداد حافزا للكثيرين من أصحاب القطائع لأن يحولوا قطائعهم الى أسواق ومستغلات، وقامت فى القطائع منازل الجند وسائر الناس،

---

(١) ـ أحمد سوسه، فيضانات بغداد، فى التاريخ، مطبعة الاديب عام ١٩٦٣م حـ١ ص٢١٤

فانتشرت الأسواق واشتهرت من هذه الأسواق، سوق العطش الواسعة التى بناها المهدى، وحمل اليها كل ضرب من التجار لينافس الكرخ، وسماه سوق الرى، فغلبت عليه سوق العطش وقامت سوق "خضير" التى اختصت بالتجار الصينيين الذين يبيعون فيها طرائفهم، ثم قامت سوق يحيى بن الوليد التى عرفت باسم سوق يحيى، وفيها دكاكين عالية ضمت الدقاقين والخبازين والحلاونيين(١).

ب : التقسيم الفنى للأسواق والتجار :

لعل من أهم مظاهر تطور الأسواق والتجار فى الدولة العباسية التقسيم الفنى لها، فقد روعى عند تنظيم الأسواق وبنائها تقسيمها الى أجزاء يختص كل جزء منها بحرفة أو تجارة معينة.

فكان للعطارين - مثلا - سوق، وللحدادين سوق، وللنجارين سوق، وهناك سوق للبزازين، وسوق لأصحاب الرياحين، وسوق للقصابين... الخ.

كما روعى عند تخطيط هذه الأسواق، استفادة كل منها من الآخر، وعدم الحاق الضرر بالآخرين، فقد ذكر أن المنصور - مثلا - امر بجعل سوق القصابين آخر الأسواق حيث كان يرى بأنهم من السفهاء، وفى أيديهم الحديد القاطع فربما يضرون الناس أو التجار.(٢)

وقد ذكر المؤرخون أن الدولة قد اهتمت بالتقسيم الفنى للأسواق والتجار فوجدت اسواق رئيسية، وأخرى فرعية حتى كان لكل ناحية سوقها الخاص بها، وكان لكل أنواع التجارات والبياعات شوراع معلومة، وصفوف فى تلك الشوارع لا يختلط فيها قوم بقوم ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غيره، وكل سوق مفردة وكل اصحاب أهل صنف منفردون بتجاراتهم.(٣)

وكان من دوافع هذا التقسيم الفنى للأسواق حسب تخصصها، مراعاة عدم اختلاط اصحاب الزهائم والروائح الكريهة بالعطارين -مثلا -، وكانت

---

(١) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٥١، الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ٣ ص٩٣، فهمى عبدالرزاق سعد، العامة فى بغداد، المرجع السابق ص١٦٨/١٦٩

(٢) - الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، المرجع السابق حـ١ ص٨٠

(٣) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٢٤١/٢٤٢/٢٤٥/٢٦٧، ابن الفقيه، بغداد مدينة السلام، المرجع السابق ص٣٨

الأسواق فى المدينة الاسلامية ذات اشكال متعددة فقد تتجمع فى جزء واحد من المدينة - كما فى اسواق الكوفة.(١) أو تتجمع خارج المدينة كاسواق الكرخ فى بغداد.(٢)

أما الأسواق فى سورية ومصر فقد امتدت على طول الشوارع من الجانبين «على كل صنف منها».(٣) كما وجدت فى المدن الاسلامية ايضا دكاكين وحوانيت مفردة خارج الأسواق.(٤)

كما سكن التجار فى محلات خاصة بهم، كالكرخ فى بغداد(٥)، وكان درب عون فى بغداد مقرا للصيارفة فى العصر العباسى، وكما كان هناك تقسيم فني للأسواق فقد كان هناك ايضا تقسيم فني للتجار... فينقسم التجار الى أنواع بحسب السلع التى يتاجرون فيها فكان منهم تجار التوابل، وتجار الجواهر، وتجار البز وهكذا، وربما كان من أشهرهم تجار الرقيق وقد حظى هؤلاء التجار بأهمية خاصة - كما سبق وأن اشرنا - وبالاضافة الى تنوع التجار من حيث السلع التى يتجرون فيها كانوا يختلفون ايضا من حيث مزاولتهم للتجارة بمعنى أن منهم تجار تجزئة وتجار جملة، ومنهم تجار مصدرون، وموردون، وقد تنوع التجار الى انواع كثيرة فمنهم (الركاد) وهو التاجر المتنقل، و(الخزان) وهو تاجر الجملة، و(المجهز) وهو التاجر المصدر.(٦)

---

(١) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٣١١.

(٢) - المرجع السابق ص٢٤٦

(٣) - آدم ميتز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٨٠

(٤) - الشيخلى، الأصناف، المرجع السابق ص٣٩

(٥) - الاصطخرى، المسالك والممالك، المرجع السابق ص٥٩، ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٢ ص٦١٩

(٦) - مسكوية تجارب الأمم، المرجع السابق، حـ١ ص٢٤٧، حـ٢ ص١٨٨، التنوخى، نشوار المحاضرة، المرجع السابق حـ١ ص٢٠٤

(٧) - حسن الباشا، الفنون الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٣٢٦/٣٢٧

وكان بعض التجار يسافرون بين الاقطار بقصد نقل المتاجر بينها وقد ساهم هذا فى زيادة مالية الدولة حيث كان يؤخذ منهم الضرائب والعشور وقد كانت تمثل نسبة هامة فى ايرادات الدولة الاسلامية فى تلك الفترة.(١)

وقد أدى هذا التقسيم إلى تنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية فى الدولة العباسية، وكان لها أثرها على النشاط الاقتصادى فتوفرت المواد الأولية لأهل الحرف والصنائع، كما وفرت المنافسة الشريفة بين الصناع والتجار على السواء حيث كان يجتمع فى السوق السلعة وصناعها، وباعتها، ولا يخفى ما لذلك من أهمية تجارية على صناعة السلعة نفسها، حيث تتوفر لدى الصناع المواد الأولية بأسعار معقولة ونوعيات ممتازة نظرا لظروف التنافس التى كانت موجودة آنذاك فكان يعرض أمام الصانع افضل الخامات من السلع، فيختار أجودها، كما أن عملية التصنيع والترويج للسلعة كانت تتم داخل السوق، ولا يخفى ما لذلك من فائدة ايضا، مما أدى الى وجود سلع ممتازة، كما نتج عن ذلك ايضا استفادة الصناع من بعضهم البعض ايضا، و تبادل الخبرات الفنية، وكل ذلك وغيره كان نتيجة التنافس والتخصص فى العمل والأسواق.

ح - المشاركة الجماعية فى حالات المحن والكوارث :

كان لتجمع الأسواق فى مكان واحد، اهميته الاجتماعية ايضا حيث أوجد بين التجار وأهل الحرف روح التعاون والمشاركة فى المحن، وهى تعتبر من أهم مظاهر التطور الاجتماعى لأهل الحرف والصنائع والتجار داخل الأسواق كما أنها تطبيق عملى لمنهج الاسلام وآدابه واخلاقه وقد أشار كثير ممن عاشوا تلك الفترة الى وقائع وأحداث اجتماعية تظهر مدى المشاركة الجماعية فى المحن والكوارث، من ذلك ما اشار اليه الجاحظ فقال : «أنه ليبلغنى أن رجلا من القصابين يكون فى سوقه فيتلف ما فى يديه، فيخلى له القصابون سوقهم يوما، ويجعلون له ارباحهم، فيكون بربحها منفردا، وبالبيع مفردا، فيسدون بذلك خلته ويجبرون كسره»(٢)

---

(١) - عبدالعزيز الدورى، النظم الاسلامية، المرجع السابق ص١٢٥

(٢) - الجاحظ، رسائل الجاحظ، المرجع السابق جـ٢ ص٢٠٠/٢٠١، التنوخى، الفرج بعد الشدة، المرجع السابق جـ١ ص٩٥

ولاشك أن ذلك يعتبر من المشاركة الجماعية التى كانت بين أصحاب الحرف والتجار المسلمين فى ذلك الوقت، فالجاحظ من معاصرى هذه الدولة، ويروى هذه الحادثة، وهى تعتبر مرحلة متقدمة من المشاركات الجماعية التى عرفت فى التاريخ بشكل عام والتاريخ الاسلامى على الخصوص، وقد كان ذلك تطبيقا واقعيا لمنهج الاسلام العام الذى يحث المسلم على ضرورة أن يكون المسلم بجوار أخيه المسلم فى ساعات المحن والكوارث.

ولا شك أيضا أن ذلك النوع من التأمين اسبق مما وجد فى وقتنا الحاضر من ضرورة التأمين على الأعمال التجارية لمواجهة الكوارث وغيرها من المخاطر كما أنه يبتعد عما يوجد فى التأمين فى وقتنا الحاضر من محاذير شرعية واجتماعية وخلقية، لكن الملفت للنظر هنا أن هذه المشاركة تمت بتلقائية ودون تكلف تطبيقا لمنهج الاسلام الذى يدعو المسلم ان يتعاون مع أخيه المسلم، وأن يكون الى جواره فى السراء والضراء، كما أن ذلك تم دون تقديم اى شىء كأقساط أو غيرها مما هو معروف الآن فى وقتنا الحاضر، حيث تلزم الشركة حتى يتم التأمين عل أهل الحرف وغيرهم دفع اقساط لشركة التأمين التابع لها شهرية أو سنوية لمواجهة مثل هذه الكوارث، وما حدث فى المجتمع العباسى، قد تم بالمشاركة العملية الواقعية وبلا مقابل، وهذه خاصية من خواص التشريعات الاسلامية والتى لا توجد فى اى مجتمع أو تشريع آخر. وهنا تتأكد الرابطة الروحية القوية التى يجب أن تسود بين التجار المسلمين حيث أن ذلك يعد من اخلاقيات الاسلام وأهدافه العامة.

ولا شك أن فى تنظيم الأسواق والتجار تنظيما فنيا، واشراف الدولة عليهما، والعناية بالسلع فى عرضها وتصنيفها، وتوفيرها، ومراعاة الأوضاع الاجتماعية لأهل الحرف والصنائع والتجار، ومواجهة المخاطر والكوارث وتأمينها بالمشاركة الجماعية كان له دوره فى تنشيط الحركة التجارية الداخلية والخارجية وتأمينها، نتج عنها رفاهية المجتمع العباسى الأول وازدهار أنشطته الاقتصادية.

المبحث الثالث

العلاقات الاقتصادية الخارجية وأثرها على المؤشرات الاقتصادية

مقدمة :

كان للعلاقات الدولية الخارجية فى الدولة العباسية اهميتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقد أثرت هذه العلاقات بشكل أو بآخر على اقتصاد الدولة العباسية، ففى ظل الدولة العباسية كانت هناك علاقات دولية مع كثير من البلاد التى كانت موجودة فى تلك الفترة، وقد كان لهذه العلاقات آثارها على الجانب الاقتصادى للدولة العباسية - بشكل عام -ونحاول فيما يلى عرض أهم العلاقات التجارية بين الدولة العباسية وغيرها من الدول، ثم آثار تلك العلاقات على المؤشرات الاقتصادية فى الدولة العباسية بشىء من التفصيل وذلك فى مطلبين.

المطلب الأول

العلاقات الاقتصادية بين الدولة العباسية وغيرهامن البلاد الأخرى.

شهدت العلاقات الاقتصادية للدولة الاسلامية فى تلك الفترة - العباسية الأولى - تطورا كبيرا مع الدول المجاورة لها - من حيث العلاقات، ومن حيث التبادل التجارى وكان لهذه العلاقات، وذلك التبادل التجارى أثرهما على نواحى اقتصادية وغير اقتصادية فى الدولة العباسية تجدر الاشارة اليها بشىء من التفصيل.

أولا : العلاقات الاقتصادية مع بلاد الصين :

شهدت العلاقات الاقتصادية زمن العباسيين تطورا كبيرا مع بلاد الصين وذلك بسبب كثرة الرحلات التجارية للتجار المسلمين فى ذلك الوقت، إذ قام الرحالة المسلمون برحلات تجارية مباشرة مع بلاد الصين، بعد أن كانت السفن التجارية للفرس تنتهى رحلاتها عند جزيرة سيلان(١)، ثم تنتقل المتاجر

---

(١) - جورج فضلو حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى ، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة عام ١٩٥٨م ص ٩٦/٩٧ .

منها بطريق غير مباشر الى بلاد الصين، وقد ساعد على نشاط العلاقات الاقتصادية مع بلاد الصين أسباب عديدة منها :-

أ - الاستقرار السياسي فى معظم فترات العصر العباسى الأول وما توفر لمواطن الدولة العباسية من ثراء عريض بسبب التنمية الاقتصادية التى راعى العباسيون ازدهارها فى شتى المجالات، ولا يخفى ما للاستقرار السياسى، وتوفر رؤوس الأموال من تأثير على حركة التجارة بشكل عام.

ب - انتشار الاسلام فى بلاد فارس، والتى كان يتمتع تجارها بشهرة عظيمة فى بلاد الصين قبل الاسلام، مما جعل التاجر المسلم يرتبط بشهرة قديمة من ناحية، وباخلاق وتعاليم جديدة ذاع صيتها فى ذلك الوقت من ناحية أخرى، وكلاهما كان له أثره على النظر الى التجار والتجارات الجديدة بمعيار جديد، وفى ظل سمعة وقوة جديدة للدولة العباسية والتى تمتع خلفاؤها بسلطان قوى متين، وغدت الخبرة والقوة والتعاليم والاخلاق الجديدة دعامة قوية فى النهوض بالتجارة الخارجية مع بلاد الصين فى ذلك الوقت، اضف الى ذلك ما تمتعت به بلاد الصين ايضا فى تلك الفترة من استقرار سياسى واقتصادى كان لهما الأثر الكبير فى تعزيز العلاقات الاقتصادية مع بلاد المسلمين، فقد حكمت الصين فى تلك الفترة اسرة (تانج) ما بين (٦١٨/٩٠٧م)(١).

وقد اشتهرت هذه الاسرة باحترامها ومحافظتها على تراث الصين القديم فى دعم علاقاتها التجارية مع سائر البلاد الدانية منها والقاصية، وما يتطلب ذلك من اقامة علاقات حسن الجوار مع الدولة العباسية وخاصة بعد أن صارت حدودها تتاخم حدود بلاد الصين.(٢)

---

(١) - بدر الدين حى الصينى، العلاقات بين العرب والصين، القاهرة ١٩٥٠م ص ٣٠، حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، المرجع السابق ص٢٢٦

(٢) - حورانى، العرب والملاحة، المرجع السابق ص١٩١

حـ - اهتمام ملوك الصين بالعلاقات السياسية والاقتصادية مع بلاد المسلمين وحكامهم، وتجارهم وجمع المعلومات عن خلفائهم ودولتهم، فقد اشارت المراجع الصينية التى ترجع الى العصر العباسى الى اسم أمير المؤمنين بكلمة «هانمى مومونى Hanmi mo-mo-ni» وأن أبا العباس (السفاح) كان يدعى اسم «آ - بو - لو-با» «Abo-lo-ba» وكان اسم هارون الرشيد «أ - لون A-lun» وأطلقت تلك المراجع على من وصل الى الصين من المسلمين اسم «تا - شى، Ta -shich» وهو تحريف لكلمة «طيء» القبيلة العربية التى استقرت من أقدم الأزمان فى بلاد البحرين والخليج العربى، واشتهرت باحتراف الملاحة والتجارة.(١)

وقد أورد المسعودى محادثة دارت بين أحد التجار من مدينة سيراف وملك من أسرة تانج، يتضح منها حرص ملوك الصين على جمع المعلومات عن خلفاء الدولة العباسية، وايمان ملوك هذه الاسرة بعلو شأن العباسيين وخلفائهم، فيقول التاجر: «ان ملك الصين سألنى عن الخلفاء وزيهم، وكثير من الشرائع فأجبته على قدر ما أعلم منها» ثم قال له الملك: «انا نعد الملوك خمسة فأوسعهم ملكا الذى يملك العراق (العباسيين) لأنه فى وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه ملك الملوك، وبعده ملكنا هذا، ونجده عندنا ملك الناس - على حد قوله - لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا، ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا اطوع لملكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس، ومن بعده ملك السباع، وهو ملك الترك الذى يلينا وهم سباع الانس، ومن بعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال لأنه ليس فى الأرض أتم خلقا من رجاله ولا أحسن وجوها منهم، فهؤلاء اعيان الملوك والباقون دونهم»(٢).

---

(١) - فيليب حتى، تاريخ العرب، المرجع السابق حـ٢ ص٤٣٠/٤٣١

(٢) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ١ ص١٤٣

أما عن التبال التجاري :

فقد اشارت المصادر التاريخية الى تطور حركة التبادل التجارى مع بلاد الصين ونموها فى تلك الفترة فقد اشتهرت وكثرت فى تلك الفترة السفن التجارية الى بلاد الصين وكان يطلق عليها لكثرتها اسم خاص وهو (سفن الصين) وهى تسمية تعنى السفن المتجهة الى بلاد الصين.(١)

وكان أصحاب هذه السفن وتجارها من رعايا الدولة العباسية، وقد أشار اليها المسعودى فقال : «ان مراكب الصين كانت تأتى بلاد عمان وسيراف، وساحل فارس وساحل البحرين والأبلة والبصرة، وكذلك كانت المراكب تختلف من المواضع التى ذكرنا الى ما هناك»(٢)

كما وصلت هذه السفن الى بلاد كثيرة فى الصين منها مدينة «كولم ملى» (وهى كويلون الحالية)(٣)، ومدينة خانفو (كانتون) ولوقين (هانوى) وكانت صادرات الدولة الاسلامية الى بلاد الصين كثيرة ومتعددة منها المنسوجات الغالية من التيل والقطن والصوف والكثير من البسط الرائعة الكبيرة والصغيرة، ومن المصنوعات المعدنية وخام الحديد وسبائك الذهب والفضة.(٤)

كما تذكر المراجع الصينية ان التجار المسلمين كانوا يحملون الى الصين من منتجات بلادهم اللؤلؤ، وماء الورد والكندر - اللبان - والمر، والصبر والمنسوجات القطنية.(٥) اضف الى ذلك منتجات بلاد المسلمين المطلة على البحر الابيض المتوسط، وقد كانت لتجارات هذه السفن أهميتها الكبيرة لدى الصينيين، مما جعل الصينيين يقومون بنظام ادارة دقيق للاشراف

---

(١) - حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، المرجع السابق ص١١٠

(٢) - المسعودى، مروج الذهب،المرجع السابق حـ١ ص١٤٠

(٣) - حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، المرجع السابق ص٢٠٨

(٤) - المرجع السابق ص٢٠

(٥) - بدر الدين حى الصنيى، العلاقات بين العرب والصين، المرجع السابق ص١١٨

على عملية تفريغ هذه التجارات وبيعها، وتحصيل الرسوم عليها ففى ميناء مدينة خانفو (كانتون) كانت السفن الاسلامية تخضع لنظام دقيق بسبب كثرة تجارتها وما تحمله من متاجر عديدة وهائلة، فكان هناك مفتش للتجارة البحرية (صينى) يتولى تسجيل اسماء التجار والبحارة القادمين الى الميناء، ويطالب بحق تفتيش السفن قبل السماح لها بانزال ما تحمله الى البر، ويحصل عليها الرسوم المختلفة.(١)

ومما يؤكد نشاط التبادل التجارى مع بلاد الصين أن الجالية الاسلامية كثرت فى مدينة خانفو مما جعل السلطات الصينية تعين من بين ابناء تلك الجالية قاضيا منهم مأمورا من صاحب الصين ، فاذا كان العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين.(٢)

كما استقر نفر كثير من التجار المسلمين فى «تشوان شو» الى جانب كانتون، واعدت لهم السلطات الصينية بناءا على طلبهم ديواناً للتجارة البحرية وذلك توفيرا لأسباب الراحة وتيسيرا لعمليات الشحن من والى بلاد الصين.(٣)

أما واردات الدولة العباسية من بلاد الصين فقد كانت كثيرة فقد حرص التجار المسلمون على جمع السلع التى لاقت رواجا فى البلاد الاسلامية كالمسك، والعود وغيرها من النباتات التى زاد الطلب عليها فى بلاد المسلمين، وقد أجاد التجار المسلمون فى اختيار المنتجات الصينية الرفيعة المستوى، وكانت لهم خبرات فيها فعرفوا جيدها ورديئها، وكانت بلاد الصين تحرص على استيراد بعض أنواع جيدة من المسك من بلاد التبت وتتولى

---

(١) - حوارنى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، المرجع السابق ص٢١٧، بدر الدين الصينى، العلاقات بين العرب والصين، المرجع السابق ص١٣١/١٣٢

(٢) - رحلة السيرافى، كتاب سلسلة التواريخ، المرجع السابق حـ١ ص١٤

(٣) - ميتز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٣٨

بيعها لتجار المسلمين فى خانفو، ذلك أن «ظباء التبت» التى يستخرج من نوافجها المسك «كانت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاوية » الكثيرة بتلك النواحى، اما ظباء الصين فترعى الحشيش.

وقد اشار المسعودى الى -أن أهل الصين كانوا يلجأون الى غش المسك، غير أن الأنواع الجيدة منه كانوا يضعونها فى «برانى الزجاج» ويحكمون غطاءها حتى ترد الى بلاد الاسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الامصار.

ومن السلع التى كانوا يحملونها العود، وقد اشار اليعقوبى اليها فكان يأتى العود من بلد يقال له الصنف بناحية الصين، واشهر منه نوع يأتى من الصين اسمه « المنطاوى».(٢)

وكانت السفن تحمل ايضا الى جانب المسلك والعود الحرير بين الدولة العباسية وبلاد الصين، حتى سنة (٢٦٥هـ/٨٧٨م) حيث وقعت ثورة دامية فى بلاد الصين اثرت تأثيرا مباشرا على حركة التجارة، فانقطعت الرحلات التجارية المباشرة، ولم تكن تصل المنتجات الاسلامية إلا عن طريق جزيرة ملقا (الملايو) حيث تنتقل المتاجر بطريق غير مباشر الى بلاد الصين.

وقد شرح المسعودى هذا التغيير الذى أصاب التبادل التجارى مع بلاد الصين قائلا «...بلاد كلة، وهى على النصف من طريق الصين أو نحو ذلك، واليها تنتهى مراكب أهل الاسلام من السرافيين والعمانيين فى هذا الوقت فيجتمعون مع من يرد من أهل الصين فى مراكبهم وقد كانوا فى بدء الزمان بخلاف ذلك... ولما عدم العدل وفسدت النيات، وكان من امر الصين ماوصفنا، التقى الفريقان جميعا فى هذا النصف»(٣).

---

(١) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ١ ص١٥٨، اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٣٦٥

(٢) - اليعقوبى، المرجع السابق ص٣٦٧/٣٦٨

(٣) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ١ ص١٤٠

وقد بذلت السلطات الصينية جهودا كبيرة لاعادة العلاقات التجارية المباشرة مع العالم الخارجي، وخاصة مع الدولة العباسية لكن سوء الاوضاع السياسية، وعدم الاستقرار في بلاد الصين حال دون ذلك، وقد أدى ذلك بدوره الى توجه التبادل التجاري الى جهات أخرى اكثر اطمئنانا وحماية حيث أن رأس المال جبان، لا يعيش ولا يستقر إلا في الأماكن التي تتمتع بالاستقرار السياسي.

على أننا اذا نظرنا الى قائمة الصادرات والوردات بين الدولة العباسية، وبلاد الصين نجد أنها كانت - غالبا - في صالح الدولة العباسية حيث كانت صادرات الدولة العباسية في المنتجات ذات الاهيمة الاقتصادية مما يعكس تطورا في جميع الأنشطة الزراعية والصناعية وبينما كانت واردات الدولة العباسية من بلاد الصين في الغالب سلعا ترفيهية كمالية، وهذا يعكس قوة ومتانة الاقتصاد العباسي في تلك الفترة.(١)

كما كان لحركة التجارة بين بلاد الصين والدولة العباسية أثرها الاقتصادي على بلاد الصين نفسها فقد أثر هذا التبادل التجاري على الاوضاع الاقتصادية داخل المجتمع الصيني، وكان من نتائجه ما يلي :-

١ - ترتب على حركة التجارة التي كانت بين الدولة العباسية وبلاد الصين أن هذه البلاد عرفت ولأول مرة نظام «الجمارك» فلم تكن معروفة عندهم قبل ذلك، فأسست ادارة في مدينة كانتون ثم في المدن الأخرى مثل تشوان تشو ويانغ تشو وهانغ تشو واستحدث نظام جديد يسمى (زى به شيه) اى ادارة المراقبة على الملاحة والتجارة في الموانىء الصينية، وكانت وظيفتها التفتيش على السفن القادمة والذاهبة وكذا جباية الرسوم على البضائع الواردة، وكانت العادة أن يتولى هذه الوظيفة رجل مسـلم من الـعرب أو الايرانيين له معرفة

---

(١) - سليمان ابراهيم العسكري، التجارة والملاحة في الخيج العربي في العصر العباسي، المرجع السابق ص١٢٥/١٤٩

تامة بأوضاع التجارة البحرية وخفاياها وله صلة وثيقة بالتجار العرب والايرانيين.(١)

٢ - زيادة الايرادات الجمركية لخزانة البلاد الصينية، وقد كانت تحصل هذه الرسوم فى شكل عينى أحيانا، مما جعل الامبراطور يحصل أحيانا هذه الرسوم فى شكل عينى فقد امر سونغ تاى تونغ بتأسيس مكتب «التحويل» لغرض بيع البضائع التى جمعت كرسوم جمركية من التجار المسلمين الى الجماهير بالنقد.

٣ - وكان من نتيجة هذا التبادل التجارى ايضا أن شاعت بعض مشتقات النباتات العربية والايرانية فى الطب الصينى الذى كان يعتمد عموما على الأدوية النباتية والعصير المستخلص منها.(٢)

وبهذا يتضح أن التجارة الخارجية فى هذا العصر مع بلاد الصين كانت على درجة من التطور، وقد أثرت على اقتصاد كل من الدولة العباسية وبلاد الصين، إلا أن الظاهرة التى يجب ان نلفت اليها الاهتمام ان واردات الدولة العباسية فى الغالب كانت من السلع الكمالية والترفيهية ولم تكن فى السلع الاساسية، وهو الأمر الذى يعكس متانة الاقتصاد العباسى وتطوره واعتماده على الانتاج المحلى وعدم الاعتماد على المنتجات المستوردة.

ثانيا : العلاقات الاقتصادية مع بلاد الهند :

اتسع نطاق العلاقات الاقتصادية مع بلاد الهند فى العصر العباسى الأول حيث كثرت الرحلات التجارية، وصارت المناطق الساحلية الشمالية والغربية للهند امتدادا جغرافيا لشواطىء الدولة العباسية وقد كانت عمان نقطة انطلاق الرحلات والسفن الاسلامية والتبادل التجارى الى بلاد الهند.

وقد ساعد على نشاط الرحلات التجارية والعلاقات الاقتصادية مع بلاد الهند ما يلى :

---

(١) - بدر الدين و.ل حى، تاريخ المسلمين فى الصين فى الماضى والحاضر، دار الانشاء للطباعة والنشر - بيروت ص٢٤

(٢) - المرجع السابق ص٢٤

١ - اهتمام العباسيين ببلاد السند التى كانت تكون جزءا هاما من دولتهم الشاسعة الأطراف، وتشغل منطقة عظمى من بلاد الهند نفسها.

٢ - دخول الاسلام الى مناطق كثيرة من بلاد السند والجهات الهندية المجاورة لها، وسياسة الدولة العباسية تجاه نشر الاسلام فيها، وقد تم فتح بلاد كشمير بأعالى نهرالسند الذى اشتهر عند المسلمين باسم نهر مهران، كما تابع المهدى والمأمون سياسة الفتح فى شمال الهند ايضا حتى سيطر المسلمون على مناطق كثيرة منها.(١)

وصحب هذه الفتوح زمن العباسيين نشاط بحرى وتجارى عظيم بين الدولة العباسية وبلاد السند والهند.

لكن بالرغم من ذلك كانت هناك صعوبات تعترض الرحلات التجارية، والتى كانت تقوم بها السفن الاسلامية من الخليج العربى الى بلاد الهند والسند، إذ أن كثرة السفن التجارية والبضائع الكبيرة هناك اقترنت بكثرة القراصنة، وبخاصة قرب ميناء «المنصورة»، وقد سكن هؤلاء القراصنة المنطقة التى اطلق عليها المسلمون اسم «الميد والكيرج» من أرض السند، وهؤلاء القراصنة قبائل سندية وثنية، امتد نشاطهم فى القرصنة البحرية الى موانىء الخليج العربى والبحر الاحمر، وساحل افريقية الشرقية، واتخذت الدولة الاسلامية موقفا حازما منهم، فجهز أبو جعفر المنصور جيشا عام (١٥٣هـ/٧٧٠م) لمحاربتهم بعد هجومهم على ميناء جدة فى البحر الأحمر، وتابع هذه السياسة كل من المأمون والمعتصم حيث ارسلوا حملات بحرية كبيرة لمحاربتهم، فالحملة التى ارسلها الخليفة المأمون بلغ عددها سبعون بارجة.(٢)

---

(١) - البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ ص٥٤٣/٥٤٤

(٢) - الطبرى، تاريخ الطبرى، المرجع السابق حـ٨ ص٤٢، البلاذرى، فتوح البلدان، المرجع السابق حـ٢ هـ٥٣٤/٥٤٤/٥٤٥، سليمان ابراهيم العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١٤٨/١٥١.

وقد استهدفت تلك السياسة تحقيق الأمن الخارجى لحماية الدولة العباسية، والنهوض بتجاراتها الخارجية مع الدول الأخرى المحيطة بها، وكان من نتيجة ذلك أن حققت التجارة الخارجية نموا وازدهارا ملموسا فى جميع الأنشطة الاقتصادية، كما تحسنت علاقاتها الخارجية - بشكل عام - مع البلاد المجاورة لها، ومن ضمن هذه البلاد ما تحقق مع بلاد الهند من تبادل تجارى عظيم نحاول فيما يلى توضيحه بشىء من التفصيل.

التبادل التجارى مع بلاد الهند :

كثرت فى هذه الحقبة من الزمن الرحلات التجارية الى بلاد الهند، واتسعت قائمة التبادل التجارى بين الدول الاسلامية، وبلاد الهند، كما كثرت السلع التى احتوتها تلك القائمة سواء الاساسية منها أو الكمالية، وقد زودتنا كتب الجغرافيين والرحالة المسلمون بنماذج كثيرة من السلع التى استوردها التجار المسلمون من تلك البلاد وكان على رأس قائمة السلع التى استوردتها الدولة العباسية من بلاد الهند «خشب الساج».(١)

وقد كان هذا النوع من الخشب ضروريا لبناء السفن، نظرا لافتقار الدولة العباسية لمثل هذا النوع من الخشب لبناء سفنها، وقد أدى ذلك الى دفع التجار الى جلب مقادير كبيرة من هذا النوع من الخشب، والذى كثر الطلب عليه لبناء السفن ، وبعض منازل التجار وكبار رجال الدولة.(٢)

ومن السلع التى كانت مجالا لحركة التجارة الخارجية مع هذه البلاد ايضا «قرن الكركدن» وهو حيوان يسمى بالنشان ويسميه العامة بالكركدن، وهو حيوان دون الفيل فى الخلقة وأكبر من الجاموس ويتميز بقرون جميلة بيضاء، وبها صور سوداء، وقد كان من السلع النادرة التى تاجر فيها تجار الدولة العباسية وسلعة هامة فى عمليات التبادل التجارى فى داخل الدولة العباسية

---

(١) - مقبول أحمد، العلاقات التجارية بين الهند والعرب، من القرن العاشر قبل الميلاد الى العصر الحديث (مجلة ثقافة الهند)، دلهى عام ١٩٦٠م ص١١٣/١١٤

(٢) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٨٨

ذاتها، ومع الأسواق التجارية الأخرى مثل بلاد الصين، وكان يتخذ من هذا القرن المناطق والسيور على صورة الحلية من الذهب والفضة فتلبسها ملوك الصين وخواصها وتتنافس فى لبسها وتبالغ فى أثمانها، فتبلغ المنطقة الفى دينار الى أربعة آلاف فيها معاليق الذهب وذلك فى نهاية الحسن والاتقان، وربما تقمع بأنواع من الجوهر على قضبان الذهب»·(١)

ومن السلع التجارية التى كانت تجلب من بلاد الهند ايضا، وكانت ذات اهمية فى التجارة الخارجية العود، فقد كثر استهلاكه فى الدولة العباسية، وكان تجار المسلمين على خبرة واسعة به من حيث أنواعه وألوانه، وأماكن انتاجه، فيذكر القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى ثمانية عشرة نوعا من العود رتبها حسب جودة كل نوع وعرف أجود تلك الأنواع بقوله : «وأجود العود ما كان صلبا رزينا ظاهر الرطوبة كثير المائية والدهنية، الذى له صبر على النار وغليانه وبقاء فى الثياب»·(٢)

وكان العود المندلى اشهر تلك الأنواع زمن العباسيين وسبب هذه الشهرة ان الحسين بن برمك حمله معه الى بغداد عند عودته من الهند وعرضه على الخليفة المنصور فاستحسنه وأمر أن يكتب الى الهند بحمل كميات كبيرة منه فمن يومها اشتهر وغلى ثمنه «واحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل، وتمنع من تكونه فى الثياب» ويلى العود المندلى نوع آخر اسمه القامرونى يجلب من اقليم قامرون بالهند وبلغ من جودته وندرته أن أصبح سعر المن فيه يساوى ما ئتى دينار·(٣)

---

(١) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ١ ص١٧١/١٧٢، سليمان ابراهيم العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١٥٩/١٦٠

(٢) - القلقشندى، صبح الاعشى، المرجع السابق حـ٢ ص١٢٦

(٣) - المرجع السابق حـ٢ ص١٢٦/١٢٧، والمن معيار قديم كان يكال به أو يوزن وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان، والرطل عندهم أثنتا عشرة أوقية بأواقيهم، انظر المعجم الوسيط حـ٢ ص٨٨٨/٨٨٩

ومن السلع التى كانت مجالا للتجارة الخارجية مع بلاد الهند ايضا التوابل والدارصينى (القرفة) والهيل (الحب هان)، ونباتات العطور والقرنفل، ونبات السنبل وهو نبات يشبه الحشائش

وقد كان هذا النبات من النباتات التى تتعرض للتفتيش الدقيق نظرا لأنها كانت تتعلق بها الافاعى حيث ينمو فى أودية كثيرة الافاعى فكان لابد من تطهيره قبل دخوله الى البلاد، كما كان يختلط بهذا النبات ايضا نبات آخر يضرب الى السمرة وهو سام وربما جهله بعضهم فمات من مسه، وكان الخلفاء يأمرون بمراقبة السنبل وتفتيشه واختباره فيخرج منه/ البيش (السام) فيؤخذ بكلبتين من حديد وليس يمسه أحد إلا مات لوقته فكان يجمع فى وعاء وقد يلقى فى البحر.(١)

ومن النباتات الزكية ايضا التنبول وحب الفوفل الذى كثر استخدامه عند أهالى الجزيرة العربية وبخاصة الحجاز واليمن وكان يستخدم لعلاج اللثة وتقوية الاسنان، وازالة الرطوبة والرائحة الكريهة فى الفم، كما استخدمه الصيادلة فى علاج بعض الاورام(٢).

كما استورد المسلمون ايضا من بلاد الهند الاحجار الكريمة ومنها الزمرد، وكان التجار المسلمون يعرفون الجيد والمزيف منه والكبريت الابيض والاصفر والحديد الخام والفضة والذهب.

كما استوردوا ايضا احذية جميلة تسمى "نعال كنباية" وهى بلاد قرب بومباى، وكان من جودتها انها تقدم كنوع من الهدايا الجميلة فى المناسبات المختلفة.(٣)

---

(١) - اليعقوبى، البلدان، المرجع السابق ص٣٦٩

(٢) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ١ ص٢٠٩/٢١٠

(٣) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٢ ص٢٣/٢٥، سليمان ابراهيم العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١٥٩/١٦٤، سيد مقبول أحمد، العلاقات العربية الهندية، الدار المتحدة للنشر- بيروت ١٩٧٤م ص١٢٦/١٢٧

وقد ترتب على استيراد هذه السلع وغيرها من بلاد الهند قيام اسواق عالمية فى مدن الخليج العربى وعاصمة الخلافة العباسية وازدهار كثير من المدن الاسلامية وموانيها فى تلك الفترة - على ما سيأتى بيانه -(١)

أما صادرات الدولة العباسية الى بلاد الهند فكانت أقل عددا وقيمة ومن ضمن هذه السلع اللبان من جنوب جزيرة العرب والبخور، والخيول واللؤلؤ والتمر على أنه من الصعب أن يقال اى شىء عن التأثير العام لهذه التجارة على اقتصاديات هذه البلاد (الهندية والعباسية)، اذ ان التفاصيل المتعلقة بالواردات والصادرات والارقام المتعلقة بالاوقات والفترات والميزان التجارى ليست فى متناول أيدينا - على حد قول أحد الباحثين -(٢) لكن اذا قبلنا ما أورده المؤلفون الذين كتبوا فى تلك الفترة اساسا فاننا نستطيع ان نخلص الى نتيجة هى : أن الميزان التجارى كان فى صالح بلاد الهند وذلك لأن الذهب كان أساس التبادل التجارى بالنسبة للتجار الهنود فقد لعب الذهب دورا كبيرا فى التجارة التى كانت قائمة بين الهند والبلاد الاسلامية، فقد كان الذهب هو الشىء الوحيد الذى يقبله التجار الهنود مقابل متاجرهم، ثم أن الكميات المصدرة من الهند كانت تفوق الكميات المصدرة من البلاد الاسلامية للهند كما أن السلع المصدرة من الهند كانت فى الغالب اغلى ثمنا واكبر قيمة من تلك التى كانت الهند تستوردها لكن عوض النقص فى الميزان التجارى بالنسبة للدولة العباسية انفرادهم بالنقل البحرى، وامتلاكهم للسفن التجارية الكبرى، فكانت السفن الهندية، قليلة العدد، صغيرة الحجم، ولذا اقتصرت السفن الهندية على النقل المحلى بجوار السواحل، على حين اضطلعت سفن الدولة العباسية بنقل صادرات الهند شرقا الى الصين وغربا الى بلاد الدولة العباسية، والى أسواق البحر الابيض المتوسط.

---

(١) - راجع ص ٤٠٤ من هذا البحث.

(٢) - سيد مقبول أحمد، العلاقات العربية الهندية، المرجع السابق ص١٢٨، سليمان العسكرى، التجارة والملاحة، المرجع السابق ص١٧٦

وغدت التجارة الخارجية بين الهند والعالم الخارجى تعتمد على سفن الدولة العباسية، مما أدى الى أن أى كارثة لتلك السفن كان يتردد صداها في البلدين معا، وتؤثر بشكل عام على الانشطة الاقتصادية فى البدان التى تهتم بالتبادل التجارى، كما ظلت السفن الاسلامية تتابع نشاطها طوال العصر العباسى الأول فى نقل المتاجر الشرقية وتجوب مياه المحيط الهندى فى طمأنينة وسلام.(١)

ويظهر من خلال العرض السابق مدى أهمية التجارة الخارجية مع بلاد الهند خلال الفترة العباسية الأولى، حيث ان حركة التجارة بينهما كانت على درجة ممتازة، فقد أظهرت الدراسة السابقة مدى أهمية النقل البحرى للدولة العباسية فى تلك الفترة وبالطبع كان لها آثارها الاقتصادية المختلفة من خلال ما وفرته من ايرادات لخزينة الدولة من ناحية ومن خلال ما وفرته من السلع اللازمة لابناء المجتمع العباسى من ناحية اخرى، ثم تصدير الفائض عن حاجتها من السلع المنتجة داخليا، مما نتج عنه احداث رواج اقتصادى اكبر شمل جميع مجالات الحياة وكافة الانشطة الاقتصادية الأخرى.

ثالثا : العلاقات التجارية مع شرق افريقيا :

تمثلت العلاقات التجارية مع شرق افريقيا فى الرحلات التجارية التى قام بها تجار الدولة العباسية - فى تلك الفترة - وقد كان لهذا التبادل التجارى أهميته نظرا لما تتمتع به هذه البلاد من المنتجات الطبيعية التى انفردت بها افريقيا، والتى تهافت العالم من أجل الحصول عليها، وكانت تلك الجهات من شرق افريقيا تشمل مناطق محدودة، وبخاصة الأجزاء المشهورة باسم «القرن الافريقى» والتى تطل على خليج عدن. وقد اتصلت تلك الجهات اتصالا وثيقا قبل العصر العباسى بتجار البحر الأحمر، وبخاصة زمن التنافس

---

(١) - سليمان ابراهيم العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١٧٦

بين الروم والفرس قبل الاسلام على سيادة التجارة الشرقية، ولكن باستقرار الأمر للعباسيين واتساع الرحلات التجارية مع الشزق الاقصى والهند، انتقلت مظاهر هذا النشاط بدورها الى شرق افريقيا، لأن حاصلاتها كانت تكون ركنا أساسيا فى قائمة الصادرات التى حملتها السفن الاسلامية الى بلاد الهند والصين، وتطلب الأمر تنسيق الرحلات مع تلك الارجاء الافريقية استكمالا للسيادة العباسية على هذا المصدر الهام من مصادر التجارة الشرقية.(١)

وقد كان للرحلات التجارية التى قام بها المسلمون الى بلاد الزنج دور اساسى فى تنشيط حركة التجارة الخارجية مع الدولة الاسلامية من جهة، وبلاد الهند والصين من جهة أخرى، فقد أدت الى حدوث انقلاب عظيم فى عالم التجارة فى العصور الوسطى ، فكما كان الخليج العربى يهيمن على التجارة الخارجية مع بلاد الصين والهند فى الشرق الاقصى كان يهيمن ايضا على الرحلات التجارية مع منتجات الساحل الشرقى لافريقيا من الحبشة شمالا الى الجهات الجنوبية المواجهة لجزيرة مدغشقر.

وقد قطعت رحلات المسلمين التجارية بلاد الصومال، كما اعاد التجار المسلمون الحياة الى بعض الجهات الساحلية من الصومال التى سبق ان عرفها التجار اليونانيون القدامى، وبخاصة قبل الميلاد باسم «ابونى» للحصول على ما تجمع فيها من منتجات افريقيا من العاج والجلود والقرفة وحافظوا على نفس الاسم الذى نطقوا به «حافونى» وأحيانا «جفونى» تحريفا للاسم اليونانى، وصارت بلاد حافونى أو جفونى هى بلاد بربرى والتى تعرف اليوم باسم بلاد الصومال.(٢)

---

(١) - سليمان ابراهيم العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١٦٧/١٦٨

(٢) - حورانى، العرب والملاحة فى المحيط الهندى، المرجع السابق ص٢٣٣

كما امتدت الرحلات التجارية الاسلامية الى اقاصى بلاد الزنج التى اشتهرت عندهم باسم سفالة، وهى موزمبيق الحالية واشتهرت تلك الجهات بمعدن الذهب حتى صارت ميناء سفالة مركزا تجاريا هاما من مراكز التجارة فى هذا المعدن.(١)

وسكنت جاليات كبيرة من الدولة الاسلامية فى تلك المراكز التجارية على سواحل شرق افريقيا على نحو ما قاموا به على سواحل الهند والصين، وأسهمت تلك الجاليات بدورها فى النشاط التجارى وتسهيل مهام التجار وتنظيم أحوالهم.(٢)

التبادل التجارى مع شرق افريقيا :

كان حجم التبادل التجارى بين الدولة العباسية وبلاد الزنج كبيرا سواء اكان ذلك فى جانب الصادرات أو الواردات، فكانت السلع التى حملها تجار الدولة العباسية الى بلاد الزنج نتيجة دراستهم لاقتصادياتها تتكون من المصنوعات، وبخاصة المنسوجات القطنية لملاءمتها للجو الحار فى بلادهم ولجودة صناعتها.

كذلك حملت الى بلاد الزنج التمور من البصرة والبحرين وكرمان وكانت تمثل المادة الغذائية التى أصبح الطلب عليها كبيرا عند سكان سواحل شرق افريقيا، فيقول الادريسى : أن الزنج كانوا يعظمون العرب، واذا رأوا تاجرا عربيا عظموه، وقالوا بكلامهم هنيئا لكم يا أهل بلاد التمر.(٣)

وفيما عدا ذلك فان صادرات بلاد الزنج، كانت اكثر من وارداتها، وقد كانت المنتجات الطبيعية لبلاد شرق افريقيا تكون شطرا هاما من حركة التبادل التجارى مع الدولة العباسية وبلاد الهند ايضا، وكان الحديد فى بلاد

---

(١) - الادريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق مخطوط مصور فى دار الكتب المصرية نقلا عن سليمان العسكرى، التجارة والملاحة ص١٧٠ حـ٢ ص٤٦، حـ١ ص٤٦، ميتز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٢٩/٤٣٠

(٢) - سليمان ابراهيم العسكرى، التجارة والملاحة فى الخليج العربى، المرجع السابق ص١٧٢

(٣) - الادريسى، نزهة المشتاق، المرجع السابق حـ١ ص٤١

سفالة من اكبر ما تحمله السفن التجارية الى بلاد الهند، حيث أنه أجود وألين من الحديد الهندى وكان يستخدم فى بلاد الهند فى الصناعة، وخاصة فى صناعة السيوف الهندية(١). وكانت الجلود ايضا على رأس السلع التى حملها التجار من بلاد الزنج فهؤلاء القوم اصحاب جلود النمر الحمر، وهى لباسهم، ومن أرضهم تحمل الى بلاد الاسلام(٢). واشتد الطلب على تلك الجلود فى سائر اقطار غرب آسيا لصناعة غطاء السروج، وكذلك لتجليد الكتب القيمة(٣).

وكان يجلب من بلاد الزنج ايضا الذبل، وهو ظهور السلاحف ومنه كانت تصنع أحسن الامشاط(٤). واستخدم الغواصون الذبل فى عمل الاغطية التى تقى رؤوسهم واجسادهم عند النزول الى اعماق المياه لجمع اللؤلؤ(٥).
وصارت هاتان السلعتان - الجلود، والذبل - من أهم الواردات التى حملتها السفن التجارية الى الدولة العباسية، واشتهرت بلاد الزنج ايضا بتصدير العاج الذى فاق مثيله فى البلاد الأخرى وبخاصة العاج الهندى، ذلك أن الزنج لا تستعمل الفيلة فى حربها ولا غيرها شأن الهنود، وانما يصطادونها من أجل أنيابها، فمن أرضهم تجهز تلك الأنياب من العاج، وكان تجار عمان يستوردون أنياب الفيلة من بلاد الزنج، ويعدونها للتصدير الى بلاد الصين والهند نفسها، يقول المسعودى : «ولولا ذلك لكان العاج بأرض الاسلام كثيرا» وكان السبب فى تفضيل الصين والهند نفسهما على أنياب فيلة بلاد الزنج هو استقامتها، وكان أهل الصين يستخدمونها فى صناعة حليهم وأماكن عبادتهم(٦).

---

(١) - الادريسى، نزهة المشتاق، المرجع السابق حـ١ ص٤٦، متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٣٠

(٢) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٢ ص٤

(٣) - متز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٢٦/٣٢٧

(٤) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٢ ص٤

(٥) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٢٦

(٦) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ٢ ص٧١٦

واستخدم الهنود هذا العاج المستورد من بلاد الزنج ايضا فى نصل الخناجر وقوائم السيوف،وبخاصة الأنواع المشهورة «القراطل»(١)، وصارت تربية الفيلة والاهتمام بانتاجها من أهم السلع المربحة فى بلاد الزنج.

ومن السلع التى كانت مجالا للتجارة الخارجية مع بلاد الزنج ايضا العنبر، فقد كانت بلاد الزنج وخاصة البلاد المطلة على ساحل جنوب الجزيرة العربية، فقد كان البحر إذا اشتد هيجانه قذف من قعره العنبر ثم ترمى به الامواج الى الساحل، ثم يضربه الهواء فيجمد وعندئذ يجمعه الناس.

وقد أجاد تجار الدولة العباسية معرفة أنواعه والتفريق بينها، وكان أجود أنواعه المدور الازرق النادر كبيضة النعام أو نحو ذلك.(٢) واصبح العنبر سلعة هامة فى قائمة صادرات بلاد الزنج الى الدولة العباسية، اذ حل محل تجارة البخور واشتد الاقبال عليه عندهم.

وأخيرا كانت تجارة الرقيق من اعظم التجارات التى شهدتها سواحل بلاد الزنج، وبخاصة زمن العباسيين ، إذ اشتدت الحاجة الى الأيدى العاملة فى ارض السواد بالعراق لاستصلاح الاراضى السبخة فى الجنوب(٣) وازداد الطلب على الرقيق من بلاد الزنج، وكانت عمان مركزا هاما من مراكز تجارة هذا الرقيق وتوزيعه على سائر البلاد، حيث بلغت تلك التجارة بلاد الصين ايضا.(٤)

غير أن العراق استأثرت زمن العباسيين بنصيب كبير من تلك التجارة، وبخاصة عندما ازداد النشاط فى التنمية الزراعية، واحياء الاراضى الجديدة للتوسع فى الزراعة، وقد ازداد عددهم فى الدولة العباسية حتى أصبح مصدر قلق لهم فشقوا عصا الطاعة على السلطة العباسية وقاموا بثورتهم المشهورة فى سنة ٢٥٥هـ.

---

(١) - القراطل : واحدها قرطل وهى سيوف معوجة.

(٢) - المسعودى، مروج الذهب، المرجع السابق حـ١ ص١٥٠/١٥١

(٣) - الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، المراجع السابق ص٦٢/٦٦

(٤) - متز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٣٨

وبهذا يتضح مدى أهمية العلاقات التجارية ، والتبادل التجارى مع شرق افريقية فى ذلك الوقت، وأن صادرات هذه البلاد ومستورداتها كانت من أهم السلع، فقد وفرت وسيلة هامة فى وسائل الربح التجارى للدولة العباسية، اذ اختصت وسائل النقل فى الدولة العباسية وسفنها التجارية، بهذه التجارات استيرادا وتصديرا ونقلا، ولا يخفى ما لذلك من أهمية على دخول التجار من ناحية، وما تمثله من عائدات عينية ونقدية للدولة العباسية من جهة أخرى. وبالتالى فقد أثرت حركة التجارة مع هذه البلاد فى جانب الدخول، والايرادات، كما وفرت السلع المختلفة لكلا الجانبين، وهو الأمر الذى يعكس أهمية هذه العلاقات فى جانب التجارة الخارجية للدولة العباسية فى ذلك الوقت.

رابعا : العلاقات التجارية مع بلاد أوربا :

تمثلت العلاقات التجارية بين الدولة العباسية، وبلاد أوربا فى الرحلات التجارية التى كانت تتم عبر الطرق البحرية والبرية، وقد كانت هذه الرحلات تتم عبر طرق كثيرة منها : طريق من فرنسا الى سورية ومن هناك الى العراق والخليج العربى حتى بلاد الهند والصين، وهناك طريق عبر بلاد الاندلس (اسبانيا) عن طريق عبور مضيق جبل طارق الى الساحل الشمالى لأفريقية عبر وسط أوربا الى أرض الخزر (الاتراك الذين كانوا يعيشون حول بحر قزوين)، ومن أرض الخزر يعبر التجار داخل آسيا حتى يصلوا الى بلاد الهند.(١)

وقد لعب التجار اليهود بصفة خاصة دورا هاما فى هذه التجارة فقد كان اليهود الذين يقومون بهذه التجارة يسمون عند المسلمين باسم "تجار البحر" وكانوا يتكلمون عدة لغات من بينها العربية والفارسية والفرنسية والاسبانية،

---

(١) - . عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الأحمر،دار النهضة العربية - القاهرة ص٢٣٣.

وتبدأ رحلاتهم من بروفانس فى جنوب فرنسا، ويعبرون بسفنهم الى البحر الابيض المتوسط الى ميناء الفرما، ثم يحملون تجارتهم على ظهور الدواب الى القلزم (السويس الحالية)، ومن هناك تنقل عبر البحر الاحمر مارة بموانيه الهامة قبل جدة، ثم يخرجون الى بحر العرب متجهين الى ميناء عدن، ثم يمضون الى السند والهند والصين. وفى طريق العودة الى أوربا كانوا يحملون معهم سلع المشرق، فاذا وصلوا الى القلزم، اتجهوا الى الفرما أو الى الفسطاط والاسكندرية، ومنها يبحرون الى بروفانس، وأحيانا كانوا يتجهون الى أنطاكية أهم ميناء تجارى فى الشام الى القسطنطينية عاصمة الروم ليبيعوا بضائعهم فيها.(١)

وقد استمرت حركة التجارة الخارجية بين بلاد أوربا والدولة العباسية ونشأ عن ذلك تبادل تجارى لكثير من السلع.

ونحاول فيما يلى بيان بعض منها على سبيل المثال :

التبادل التجارى بين الدولة العباسية وأوربا :

ذكرت المصادر التاريخية والجغرافية كثيرا من السلع التى كانت مجالا للتجارة الخارجية إبان العصور الوسطى، بين الدولة العباسية وبلاد أوربا فيذكر ابن خرداذبة عند حديثة عن اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية جملة من السلع المختلفة التى كانوا يتاجرون فيها، فيذكر أنهم كانوا يسافرون من المشرق الى المغرب، ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور(٢)، والسيوف ويركبون من فرنجة (فرنسا) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على ظهر القلزم، وبينها خمسة وعشرون فرسخا ثم يركبون

---

(١) - ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المرجع السابق ص١٥٤

(٢) - السمر : حيوان برى لونه أحمر يميل الى السواد يتخذ من جلده فراء ثمينة.

البحر الشرقى (الاحمر) من القلزم الى الجار وجدة، ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى (القرفة) وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ثم يحملونه الى الفرما ثم يركبوا فى البحر الغربى فربما عدلوا بتجارتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة، فيبيعونها هناك. وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الارض ثلث مراحل الى الجابية ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة ومنها الى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض".(١)

ويظهر من نص ابن خرداذبة أن أولئك التجار كانوا يتاجرون فى أنواع خاصة من السلع وهى سلع الشرق الغالية الثمن مثل التوابل والحرير والمسك والعود والكافور.(٢)

ومن طرائف ما ذكر أن الأوربيين فى تلك الفترة كانوا يقدرون الثراء لأى أسرة من الأسر فى بلادهم بمقدار ما عندهم من كميات البهار. وقد زادت أهمية البهار عندهم وخاصة فى فرنسا حتى أصبح يقدم كمهر للعروس فى العصور الوسطى.(٣)

ولم تقتصر التجارة الخارجية على التوابل والعقاقير فقط، بل شملت ايضا العطور الزكية الرائحة مثل البخور واللبان الجاوى، وخشب الصندل، والمسك، والعنبر، وكان المسك والعنبر من أهم أنواع العطور فى تلك الفترة.(٤)

وأخيرا احتلت تجارة الرقيق الصقلبى(٥) الاوربى أهمية كبيرة، وقد اعطانا ابن حوقل صورة واضحة عن هذه التجارة وعن علاقتها بأوربا والاندلس والمغرب.

---

(١) - ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المرجع السابق ص١٥٣/١٥٤، والجابية: بكسر الباء اصله: الحوض الذى يجبى فيه الماء للابل، وهى قرية من اعمال دمشق من ناحية الجولان، انظر معجم البلدان حـ٢ ص٩١

(٢) - عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الاحمر، المراجع السابق ص٣٤

(٣) - المرجع السابق هامش ص٢٠٨

(٤) - نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ص ٢٢٧، سعيد عبدالفتاح عاشور، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، المرجع السابق ص٣٧١/٣٧٢.

(٥) الصقالبة: تعريب للكلمة الاوربية اسكلاف او سلاف بمعنى عبد أو رقيق، وقد توسع العرب من استعمالها فاطلقوها على ارقائهم الاوربيين، عاشور، دراسات فى تاريخ الحضارة هـ ٢٧٤

وكان للتجار اليهود فى المانيا وفرنسا دور كبير فى هذه التجارة التى كانت تعود عليهم بالارباح الطائلة، وكانت مصدرا هاما من مصادر دخولهم.(١)

ومن السلع التى كانت مجالا للتبادل التجارى بين الدولة العباسية وبلاد أوربا، السلع المصرية، ومنها المنسوجات والتى اشتهرت بها كثير من المدن المصرية، وخاصة مدينة تنيس ودمياط وغيرها، فقد عرفت بها أنواع جميلة من المنسوجات وخاصة الديبقى، والشرب والحلل التى كانت لها سمعة عالمية فى ذلك الوقت، وكان التجار الاوربيون يحرصون على شرائها.(٢)

كذلك كان التجار الأوربيون يشترون من أسواق مصر الأثواب المصنوعة من القصب والتى كان يصل ثمن الثوب منها الى اكثر من مائتى دينار ذهب، هذا بالاضافة الى الستور والبسط وورق البردى وغيرها من السلع التى كان الأوربيون يهتمون بشرائها.(٣)

وبهذا يتضح مدى أهمية التبادل التجارة بين الدولة العباسية، وبلاد أوربا، وحجم تلك التجارة سواء أكانت المصدرة لأوربا من داخل الدولة العباسية نفسها، أو من خارجها، وحيث ان الدولة العباسية كانت تمثل طريقا حيويا لها، وبالتالى فقد كانت الفائدة، اما مباشرة عن طريق تصدير سلع الدولة العباسية لها أو غير مباشرة بحيث كانت الدولة العباسية طريقا لهذه السلع التجارية، ولا يخفى ما لذلك من أهمية اقتصادية حيث كانت الدولة تحصل رسوما على عبور هذه التجارات فهى بذلك تمثل دخولا وايرادات لصالح الدولة العباسية، تحصل عليها من تلك التجارات، اضف الى ذلك أن هذه التجارات كانت توفر السلع المختلفة لكلا الجانبين، وبالتالى فقد كان للتبادل التجارى بين الطرفين اهميته الاقتصادية فى تلك الفترة لكنه كان فى الغالب لصالح الدولة العباسية.

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور وآخرون، دراسات فى تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، المرجع السابق ص٣٧٤

(٢) - ابن حوقل، صورة الارض، المرجع السابق ص١٠١

(٣) - عطية القوصى، تجارة مصر فى البحر الاحمر منذ فجر الاسلام وحتى سقوط الخلافة العباسية، المرجع السابق ص٢٠٩/٢١٠

المطلب الثاني :

أثر العلاقات الاقتصادية الخارجية على المؤشرات الاقتصادية.

أدت العلاقات الاقتصادية الخارجية، والتبادل التجارى النشط بين الدولة العباسية وغيرها من البلاد الأخرى الى آثار كثيرة على الاوضاع الاقتصادية فى الدولة العباسية، وفيما يلى محاولة لعرض بعض الآثار الاقتصادية التى حدثت نتيجة للعلاقات الاقتصادية الدولية من ناحية والتبادل التجارى النشط من ناحية أخرى، وقد ظهر لذلك أثر واضح فى عدة أمور لعل من أهم ما يلى :

أولا : ازدهار بعض المدن والموانى الاسلامية :

أدى ازدهار التجارة الدولية فى العصر العباسى الأول الى ظهور موانى ومدن اسلامية كثيرة ذاع صيتها، واكتسبت شهرة عالمية، فازدحمت بالسفن الغادية والعائدة، وتكدست فيها السلع، وأقام بها الغرباء كما نشأت بها المؤسسات المصرفية والجمركية، وكانت الاسكندرية من أهم موانى البحر الابيض المتوسطتنقل اليها التجارة الآتية من الشرق الى أوربا. أما فى البحر الاحمر فقد ازدادت أهمية القلزم التى تنتهى اليها تجارة الشرق الاقصى التى تريد عبور السويس الى البحر الابيض المتوسط.(١)

ثم عيذاب على الساحل العربى لهذا البحر، وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى ذلك الوقت، فكانت ترد اليها السفن الوافدة من الحبشة وزنجبار واليمن، وكانت البضائع تنقل من عيذاب على الأبل الى أسوان، ومنها تنقل الى القاهرة بالنيل.(٢)

وكانت مقصد الحجاج المصريين الذين يعبرون البحر الى جدة، وفى أقصى الجنوب عند مدخل البحر الاحمر وضحت أهمية عدن كنقطة ارتكاز بين

---

(١) - ابن خرداذبة، المسالك والممالك، المرجع السابق ص١٥٤

(٢) - ميتز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣١٩

الهند والصين ومصر، وكانت ترد اليها السفن التجارية المحملة بالسلع الآسيوية والأوربية، وقد أدى ذلك الى انتعاش التجارة وتدفق الأموال عليها، فقد ذكر المقدسى : «أن من الناس من دخلها بألف درهم فرجع بألف دينار، ومنهم من دخلها بمائة فرجع بخمسمائة»·(١)

وعلى الخليج العربى - فى الجزء الفارسى - ظهرت أهمية سيراف التى اصبحت أعظم الثغور المتاجرة مع الشرق الأقصى·(٢) وارتفع مستوى الدخل فيها بسبب تدفق الأموال فيذكر الاصطخرى أن أهل سيراف كانوا يبنون بيوتهم من طبقات عديدة، ويستعملون فى ذلك خشب الساج الغالى الثمن الذى كانوا يجلبونه من ساحل مالابار وبلاد الزنج، وبالغوا فى الانفاق على دورهم حتى ان أحدهم بنى بيتا كلفه ثلاثين الف دينار وكان التجار يفضلونها على البصرة·(٣)

ثم ظهرت أهمية ميناء البصرة، التى اصبحت باب بغداد الكبير(٤) والمنفذ الرئيسى للعراق، وأصبحت من أهم الموانى فاستقبلت السفن التجارية لحمل سلع العراق، ثم العودة فى نهاية المطاف بسلع التجارة الشرقية ايضا، وقد ازداد نشاطها التجارى نتيجة التوسع الزراعى والصناعى، وغدت تجارة البصرة تستند الى زراعة زاهرة وصناعة متقدمة، وأصبحت ميناء هاما لتجارة المواد الغذائية ومر كزا لحركة الاستيراد والتصدير، وقد اشتهرت فى ذلك حتى قال عنها الجاحظ : «وابعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وحميرى، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلابد أن يرى فيهما بصريا أو حميريا» ثم قال : «وليس فى الارض بلدة واسطة ولا بادية شاسعة، ولا طرف من أطراف الدنيا إلا وأنت واجد به البصرى»(٥)

---

(١) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص٤٢٦ -

(٢) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٤٣٢

(٣) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص٤٢٦

(٤) - الجاحظ، التبصر بالتجارة مقدمة المحقق حسنى عبدالوهاب، المرجع السابق ص٥

(٥) - الجاحظ، التبصر بالتجارة، المراجع السابق ص٦

وبناء على ما تقدم فقد أدت العلاقات الاقتصادية الخارجية، وحركة التبادل التجارى فى الدولة العباسية الى ازدهار كثير من الموانى والمدن الاسلامية فى ذلك الوقت - على نحو ماذكرنا - وكانت من نتيجة ذلك ظهور هذه الموانىء والمدن وزيادة الحركة التجارية فيها، والتى أثرت بالطبع على مستوى الدخول لافرادها وادت الى انتعاش الحياة الاقتصادية فيها.

ثانيا : ظهور المؤسسات المصرفية :

كان من آثار ازدهار العلاقات الاقتصادية الخارجية، والتبادل التجارى فى الدولة العباسية، أن ظهرت المؤسسات المصرفية، كما ظهرت اساليب مختلفة لها، وذلك تلبية لحركة التجارة المتزايدة والأموال المتدفقة بين الشرق والغرب، فوجد التجار وسائل للدفع مأمونة من الضياع خفيفة الحمل بعيدة عن اللصوص.(١)

فنشأ النظام المصرفى ولجأ كثير من الناس لأصحاب المصارف لحفظ أموالهم، وتيسير معاملاتهم التجارية بسبب ذلك النشاط التجارى الذى اسفر عن ظهور طبقة من التجار الأثرياء الذين امتد نشاطهم الى جميع الامصار الاسلامية كما لجأت طائفة أخرى من كبار الموظفين من الوزراء والكتاب الى التماس مكان أمين يحفظون فيه ودائعهم، وكانت هذه المصارف يديرها رجال ذوو خبرة ودراية يسمون بالجهابذة، وكانوا اما من كبار التجار أو من الصيارفه وقد ذكر ناصرخسروا أنه كان بسوق الصرافين بمدينة اصفهان مائتا صراف وكانوا جميعا يجلسون فى سوق واحد يسمى سوق الصرافين.(٢)

---

(١) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٧٣

(٢) - متيز، الحضارة الاسلامية، المرجع السابق حـ٢ ص٣٧٥، ناصر خسروا ترجمة يحيى الخشاب، سفر نامة دار الكتاب الجديد ص٢٥٤

وكانت الكوفة من اعظم المدن شهرة بالصيرفة وأمورها، وفى بداية العصر العباسى كان معظم الصيارفة من أهل الذمة، وقد اتخذوا مكانا خاصا بالكرخ وسامرا، وكان يطلق على هذا المكان سوق الجوهريين والصيارفة.(١)

وقد لعبت وسائل الدفع المختلفة فى ذلك الوقت دورا هاما فى حركة التجارة الخارجية ومن تلك الوسائل الهامة السفاتج والصكوك التى كان يحررها التجار كوسيلة من وسائل التسهيل التجارى، وكانت السفتجة تعنى : أن يحرر التاجر خطابا يذكر فيه قيمة معينة من المال قابلة للصرف فى أى مكان آخر لدى عملاء وجهابذة يتعامل معهم هذا التاجر فى البلاد الأخرى.

وكانت النقود المذكورة فى السفتجة تدفع فى أى بلد وكان من السهل أن يحملها التاجر عبر الطرق الطويلة، وهو آمن مطمئن، بل كانت أموال الجباية من الولايات ترسل الى العراق بهذه الوسائل أحيانا.

ومما يدل على تطور العلاقات التجارية بين الدولة الاسلامية فى تلك الفترة، وأوربا ان سفاتج التجار المسلمين كانت تصرف فى البلاد غير الاسلامية، الأمر الذى يدل على النظام المالى المستتب، والثقة التامة فى المعاملات الاسلامية، ولهذا صارت للسفاتج قيمة المال، واستخدمها الأفراد فى مبيعاتهم ومعاملاتهم الخاصة.

وكان الصك ؛ عبارة عن ورقة مالية تثبت فيها قيمة دين أو قرض أو استحقاق مالى له أجل معين.(٢) وكان الجهابذة يصرفون قيمة هذه الصكوك لأصحاب الأموال التى أودعوها عندهم لقاء رسم معلوم، وقد اشار ابن الأثير

---

(١) - حسن أحمد محمود، . أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى، المرجع السابق ص٢٠٧/٢٠٩

(٢) - . الدورى، تاريخ العراق الاقتصادى، المرجع السابق ص١٢٣/ ١٢٤

فى حوادث سنة ١٧٠هـ الى أن الهادى أمر لندمائه بثلاثين الف درهم وكتب صكا ليصرف من بيت المال.(١)

وقد كانت التجارة الخارجية - فى تلك الفترة - تجرى وفق تنظيمات معينة، فقد كانت العقود (بيعا وشراء) تتضمن شروطا معينة لتحديد السعر، وتحديد موعد الدفع اذا كان البيع نقدا، أو موعد الاقساط اذا كان الدفع مؤجلا، كذلك تحديد نوع البضاعة وصفتها، وتحديد الكمية المتعاقد عليها، فاذا تمت شروط الصفقة كان لا يجوز ان تلغى، اللهم إلا اذا تبين للمشترى وجود عيب فى السلعة، أو إنها غير مطابقة للمواصفات التى تضمنها العقد، أو كان المتعاقدان كانا قد اشترطا الخيار بينهما مدة من الزمن، وقد استخدمت العقود والسفاتج والصكوك فى شراء السلع، وكان من الجائز أن ينيب كل من البائع والمشترى عنه وكيلا عند كتابة العقد اذا تعذر على أطراف التعاقد الحضور.

وقد أدى ذلك كله الى نشاط ملحوظ بين الجهابذة واصحاب المصارف(٢)، كما أن الفقهاء فى ذلك العصر كان لهم جهد كبير فى تعريف التجار بالحلال والحرام، بفقه المعاملات فى شتى اساليب العمل التجارى، واذا نظرنا الى جهود فقهاء المسلمين فى تلك الحقبة من الزمن والتوسع الفكرى فى مجال المعاملات لتبينا مدى الحاجة الكبيرة التى دعتهم الى دراسة فقه المعاملات وافتراض الفروض فى كثير من المسائل الفقهية المتعلقة بالتجارة والمعاملات بشكل عام مما يعكس حركة ونشاط التبادل التجارى الدائب فى تلك الفترة الهامة من حياة المسلمين.

وقد كان من نتيجة هذا التبادل التجارة، أن تحسنت الاوضاع الاقتصادية للتجار والأفراد، وزادت حركة الاستثمارات داخل الدولة العباسية، واصبحت اكثر المدن الاسلامية اسواقا للتجارة الداخلية والخارجية.

---

(١) - ابن الأثير، الكامل، المرجع السابق حـ٦ ص٣٥

(٢) - د/ حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى، المرجع السابق ص٢١٠

ثالثا : زيادة ايرادات الدولة :

كان من نتيجة التبادل التجارى بين الدولة الاسلامية وغيرها من البلاد الأخرى، أن زادت حصيلة ايرادات الدولة عن طريق العشور التى كانت تحصل عند دخول اراضى الدولة - العباسية، وقد كان من الطبيعى أن تزداد حصيلة الدولة نتيجة لذلك، فكان التجار القادمون من الهند والصين يدفعون العشر.(١)

وكانت التعريفة الجمركية تختلف من بلد الى آخر فقد ذكر المقدسى أنه كان فى جدة - مثلا - يؤخذ عن كل حمل من الحنطة نصف دينار، وعلى سفط الثياب ثلاثين دينارا، وعلى سفط الدبيقى ديناران، وعلى حمل الصوف ديناران، وفى القلزم كان يؤخذ عن كل حمل درهم، وفى الاسكندرية كانت تفرض العشور على السفن القادمة من المغرب، ومن الفرما تحصل المكوس من السفن القادمة من الشام.(٢)

وكانت الرسوم الجمركية فى عدن، ربما اكثر ارتفاعا إذ كانت الدولة تجبى ثلث أموال التجار بسبب الارباح الطائلة التى كانوا يحصلون عليها.

وفى العراق اقيمت المراصد فى البر والبحر والنهر، وفى البصرة كان يجرى تفتيش دقيق حتى لقد كان يؤخذ على السلعة البسيطة أربعة دراهم.(٣)

وفى أصفهان كان يؤخذ على كل حمل يدخلها ثلاثين درهما، وفى ما وراء النهر يفرض على الحمل ستة دراهم اذا دخل أو خرج وعلى الرقيق اثنا عشر، وكانت الدولة تفرض رسوما على الصادرات.

---

(١) - اليعقوبى، تاريخ اليعقوبى، المرجع السابق ، حـ٣ ص٣٠٨

(٢) - المقدسى، احسن التقاسيم، المرجع السابق ص ١٠٤/٢١٣

(٣) - المرجع السابق ص١٣٣/١٣٤

وقد نصح أبو يوسف الرشيد أن يرفع الظلم على المارين بالمصالح وأن يحول دون جور العمال فى تحصيل مالا يجوز تحصيله، ولعل ملاحظات أبى يوسف كانت نتيجة للتوسع العظيم فى التجارة الدولية - آنذاك -، وهو توسع لم يقابل على ما يبدوا باصلاح دقيق للجهاز الجمركى، لهذا اقترح على الرشيد أن يولى العشور قوما من أهل الصلاح والدين، وأن يأمرهم بمعاملة الناس بالحسنى فلا يأخذون من الناس أكثر مما ينبغى، كما أشار عليه أن يتفقد أعمالهم، وأن يعزل الفاسد منهم، وكانت الدولة تحصل من المسلمين ربع العشر، ومن أهل الذمة نصف العشر، ومن أهل الحرب العشر.(١)

وقد أدى ذلك الى زيادة ايرادات الدولة العباسية، نظرا لتطور حركة التجارة والتبادل التجارى فى تلك الفترة.

رابعا : التضخم السكانى :

ومن الآثار التى ترتبت على التجارة الخارجية ظاهرة التضخم السكانى فى المدن الاسلامية فى ذلك الوقت، وقد كان السبب فى ذلك هو التوسع الزراعى والصناعى والتجارى، والذى جذب عناصر العمال من كل حدب وصوب طلبا للكسب.

وكان هذا التضخم السكانى ظاهرة فى كل المدن الاسلامية - تقريبا - فقد ازدحمت الفسطاط والقيروان وفاس وبغداد بالسكان ويشير الخطيب البغدادى الى أن السكان بغداد بلغوا نحوا من مليون ونصف مليون نسمة فكانت اعظم بلاد الدنيا احتشادا بالسكان، وكان ذلك يعزى الى تجارة الرقيق، وتدفق العمالة من مسلمين وغيرهم على بغداد وغيرها من المدن، فقد تضاعف عدد الأتراك فى عهد المعتصم حتى بلغ سبعين الفا، كما تضاعف عدد الزنوج فى الدولة العباسية وكان الناس يعتمدون عليهم فى الاعمال الزراعية، والاعمال

---

(١) - أبو يوسف، الخراج، المرجع السابق ص١٣٢، د. حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى، المرجع السابق ص٢١١/٢١٢

الشاقة المختلفة، وقد كثر عددهم الى حد كبير، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التى قاموا بها وهددوا بها الدولة العباسية ،اكثر من أربعة عشر عاما (٢٥٥هـ/٢٧٠هـ)، كما تضاعف عدد النصارى واليهود، الذين استخدمهم الخلفاء فى الدواوين المختلفة للحكومة ، أو ممن كانوا يجيدون مهنا مختلفة كالطب والحساب والكتابة، وقد زاد عدد اليهود الذين كانوا يعملون فى الجهبذة.(١)

كما وفد الى بغداد كثيرون من المجوس الذين كانوا يجيدون نقش الزجاج وتلوينه، وصنع السلاح. وزاد عدد العمال فى بغداد زيادة كبيرة، وكان منهم الحرفيون الذين يحترفون الصناعات اليدوية كالحدادين والخياطين والنجارين والخبازين والباعة وغيرهم.(٢)

وقد أدى هذا التضخم السكانى الى حركة دائبة داخل الدولة وخارجها نتيجة الهجرة المتلاحقة الى الداخل والخارج طلبا للرزق والكسب - كما سبق وأن أشرنا - الأمر الذى أدى الى انتقال كثير من السلع وتوفر كثير من فرص العمل الملائم لصاحب كل مهنة وتجارة وهو الأمر الذى ادى بالطبع الى دعم حركة التجارة الداخلية والخارجية بصفة عامة.

خامسا : نشر الاسلام :

كان للرحلات التجارية التى قام بها التجار المسلمون آثارها الاقتصادية المختلفة وفى نفس الوقت لا يمكن ان نتجاهل الآثار العقائدية التى نتجت عن هذه الرحلات، ذلك لأن هذه الرحلات أدت الى نشر الدين الاسلامى فى جهات مختلفة من بلاد العالم دون إراقة دماء وبفعل واحد هو أخلاق وتعاملات التجار المسلمين الذين دخلوا تلك البلاد، وتأكد للجميع أنه لا يمكن فصل

---

(١) - جرجى زيدان، تاريخ التمدن الاسلامى، المرجع السابق جـ٤ ص١٢٩

(٢) - حسن أحمد محمود، أحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى، المرجع السابق ص ٢٣٩

التجارة عن الاسلام، فالاسلام ينظمها ويضع لها التعاليم والقواعد التى بموجبها تسير فوق المنهج البشرى الذى ارتضاه الله عز وجل.

وكانت الطرق التجارية التى سلكها التجار هى نفسها الطرق التى دخل منها الاسلام، ففى افريقيا - مثلا - كان فى مقدمة قبائل الطوارق التى تعيش فى قلب الصحراء الكبرى، وأصبحت للآن من اشد المسلمين تعصبا لدينهم وايمانا به.(١)

وفى الحبشة استقرت اعداد كبيرة من التجار المسلمين فى المنطقة الساحلية وهذه الأعداد هى التى نشرت الاسلام بين الأهالى الذين أقبلوا عليه، ومن الساحل توغل المسلمون الى الداخل دون حرب.

وتبلغ نسبة المسلمين فى الصومال ١٠٠٪ مع أنه هذه المنطقة لم يدخلها جندى واحد، ولكن الاسلام بتعاليمه التى طبقها التجار دخل تلك المناطق وانتشر فيها وبدون حرب أو قتال.

وفى آسيا انتشر الاسلام مع التجار العرب القادمين من الجزيرة العربية والذين استقروا فى أجزاء مختلفة من جنوب آسيا وغربها، وقد وصل التجار المسلمون الى شواطىء الهند وجزر الهند الشرقية - أندونيسيا - والهند الصينية والصين يحملون معهم الأقمشة والسكر والقطن والعاج، ولكنهم حملوا معهم فى نفس الوقت ما هو أهم من ذلك كله وهو الدين الاسلامى.(٢)

وقد استقرت فئات كثيرة من التجار المسلمين فى مدينة خانفو وكانتون - كما سبق وأن ذكرنا - ونشروا معهم دين الاسلام، وقد كان ذلك بسبب الرحلات

---

(١) - محمد ابراهيم الصيحى، التجارة والاقتصاد عند العرب، المرجع السابق ص٦٥

(٢) - المرجع السابق ص ٦٧/٦٨

التجارية التى قام بها المسلمون، بفضل تمسكهم بدينهم وأخلاقه ومبادئه، والتى تحث على حسن التعامل فى المعاملات التجارية والصدق فى الحديث والأمانة فى البيع والشراء، واظهار العيوب اذا ما كنت هناك عيوب فى السلعة، وتحريم الربا، والغش والخديعة وكلها فضائل وتعاليم لا يمكن أن توجد إلا فى مجتمع مؤمن برب عظيم . وبالتالى فقد أدت التجارة الخارجية فى الدولة العباسية دورا عقائديا بجانب الدور الاقتصادى، وأكدت التلاحم التام بين الدين والمعاملات التجارية المختلفة وأن تعاليم وقواعد التجارة جزء من هذا الدين يثاب المسلم إذا صدق النية مع الله عز وجل فيها، كما أنه يعاقب اذا ما قصر أو خدع أو غش، أو فعل ما يضر بها فى أى جانب من الجوانب.

وبعد أن بينا العلاقات الاقتصادية الخارجية، وأوضحنا الدور الذى لعبته التجارة والأسواق ، وكذا حجم التبادل التجارى فيها، ومدى الأثر الذى أحدثه على المؤشرات الاقتصادية المختلفة فى المجتمع العباسى، يجدر بنا أن نستعرض بالمقارنة والتقويم ما احدثته مختلف الأنشطة الاقتصادية فى المجتمع العباسى بنظيرتها الأوربية فى تلك الفترة بشىء من التفصيل.

الفصل الرابع

الأنشطة الإنتاجية فى أوربا ومقارنتها بالأنشطة الانتاجية فى العصر العباسى الأول

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : الأوضاع السياسية والإجتماعية والتشريعية فى أوربا وأثرها على النشاط الاقتصادى .

المبحث الثاني : أسباب تدهور الأوضاع السياسية والإجتماعية والتشريعية الأوربية فى تلك الفترة

المبحث الثالث : السمات الأساسية للأنشطة الاقتصادية الأوربية فى تلك الفترة .

المبحث الرابع : مقارنة وتقويم لتطور الأنشطة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول بنظيرتها الأوربية فى تلك الفترة .

المبحث الاول

الأوضاع السياسية والاجتماعية، والتشريعية فى أوربا وأثرها على النشاط الاقتصادى

كان للأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية التى مرت بها أوربا فى تلك الفترة، انعكاساتها السيئة على الأنشطة الاقتصادية المختلفة وعلى المجتمع الأوربى بشكل عام - وإن كان من الخطأ التعميم على بلاد أوربا جميعا - إلا أن تشابه المجتمعات الأوربية، وسوء أوضاعها فى جميع المجالات السياسية والاجتماعية والتشريعية يجعلها ايضا تتشابه فى الآثار الاقتصادية التى عمت الحياة الأوربية فى تلك الفترة بشكل عام، ويقتضى منا هذا الأمر أن ندرس تلك الأوضاع فى مطلبين :

المطلب الأول : ونتحدث فيه عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية فى أوربا فى تلك الفترة.

المطلب الثانى : ونبين فيه أثر هذه الأوضاع على الأنشطة الاقتصادية المختلفة.

وفيما يلى توضيح ذلك بشىء من التفصيل.

المطلب الأول

الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية فى أوربا فى تلك الفترة

أولا : الأوضاع السياسية :

كانت السمة العامة للمجتمعات الأوربية فى تلك الفترة كما قال ادوار بروى : التفتت، والتشتت والانزواء، فانجلترا منقسمة على نفسها، متفسخة، تتقاسمها ممالك ضعيفة تتناحر وتتقاتل فيما بينها لأتفه الأسباب، كما كانت الكنيسة من الركاكة، والضعف بحيث تعجز عن مساندة ومعاضدة أى بعث سياسى فى البلاد.(١)

---

(١) - ادوار بروى، تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريدم دانمر، منشورات عويدات، بيروت/ باريس، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م حـ٣ ص١٤٤.

وايطاليا : ذكريات امجاد روما وأيامها لاتزال فى النفوس لكن النزاع بين أهل الحسب والنسب من الدوقة موصول مع نظام ملكى لا سند له ولا عماد، ومحاولات مستميته على الولايات البيزنطية.

ثم فتوح المسلمين فى الجنوب التى كادت أن تكتسح أوربا وتدخلها فى حظيرة الاسلام، ومثل ذلك ايضا فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية، بالاضافة الى الهوة الشديدة التى كانت بين الحكام والرعية فى أوربا فى تلك الفترة، مما كان له أثره على تردى الأوضاع السياسية، فلم يكن فى وسع حاكم أن يكون فى كل مكان، ولم يكن له من يمثله إلا بعض كبار الموظفين الذين كانوا - على الاجمال - دون المهمة الموكولة إليهم، يعاونهم قلة من العملاء يعملون فى الوظائف القضائية، يفتقرون كليا الى عدد كاف من صغار المساعدين ليتمكنوا من القيام بمهام الادارة فى دوائرهم.

وهؤلاء الاداريون هم أنفسهم من كبار الملاك، غير قابلين للعزل مبدئيا بعيدون عن الملك، ويعتمدون محليا على أنصارهم.(١)

ثم التبعية العمياء للأسياد الاقطاعيين والتى كان لها دورها ايضا فى تردى هذه الأوضاع، فبعض الأحرار من الناس - مثلا - كانوا يخضعون لسيدهم خضوعا تاما طلبا للحماية العسكرية أو للمنفعة المادية كاستحواذه على قطعة أرض اقطاعية ليستثمرها لحسابه الخاص.

ثم تدخل الكنيسة فى الأوضاع السياسية وسطوتها ومحاولتها المستمرة، فرض فكرها وتعاليمها السياسية على المجتمع الأوربى، فزعمت أن المسيح عليه السلام اعطى قيصر وحكمه مشروعية الوجود حين وضعت على لسانه هذه الكلمات : «اعطوا مالقيصر لقيصر، وما لله لله» وفسرتها عمليا بترك القانون الرومانى يحكم العالم المسيحى بدلا من شريعة الله. ورغم أن هذا التفسير خاطىء لدين الله المنزل على عيسى عليه السلام، فقد كان مقتضاه - المنطقى - أن تتفرغ الكنيسة لشئون الآخرة، وشؤون الروح، وتترك قيصر يحكم عالم الأرض،

---

(١) - ادوار بروى، تاريخ الحضارات العام، المرجع السابق حـ٣ ص١٥٤/١٥٥، الدوقة هى أول مرتبة من مراتب الشرف عند الإفرنج، انظر المعجم الوسيط حـ١ ص٣٠٤

وعالم البشر، ولكنها لم تكن منطقية مع ما تقوله بأفواهها وسلوكها، فقد ادعت لنفسها سلطة دنيوية وزمنية - كما يسمونها فى التاريخ الأوربى - نازعن بها الأباطرة والملوك وأخضعتهم لسلطانها.(١)

فشوهت بذلك دين الله، بفصل العقيدة عن الشريعة، وقدمته للناس عقيدة بلا تشريع - أى مسخا مشوها لا يمثل دين الله الحقيقى - ثم ادعت للناس أن هذا هو الدين وزرعت فى عقول الناس تصورا خاطئا بأن الدين علاقة بين العبد والرب محلها القلب، ولا علاقة له بواقع الأرض، فسهلت على الشياطين اقتلاعه من واقع الحياة، كما سهلت من ناحية أخرى فى افساد الأرض بتعطيل شريعة الله، والسماح للجاهلية الرومانية أن تحكم العالم المسيحى -فى صورة قوانين وتنظيمات - ومنعت الاصلاح الذى اراده الله للناس حين نزل عليهم الدين فنشأت عن ذلك مظالم سياسية واقتصادية واجتماعية تمثلت فى نظام الاقطاع الذى ساد العالم الأوربى فى ظل كنيسته اكثر من عشرة قرون، وسهل على الشياطين - فيما بعد - اقتلاع آثار الدين وتحطيمه باسم الاصلاح السياسى والاقتصادى والاجتماعى.(٢)

اضف الى ذلك ما كان من صراع دائم بين رجال الكنيسة والحكام، وظهور كثير من حركات التمرد بين البابا وبعض الملوك فقد تمرد الملوك والأمراء على سلطة البابا، واشتد آخرون فى حربهم للبابوات حتى أنهم كانوا يعزلون البابا أو ينفونه أو يسجنونه، ولكن الغلبة كانت فى النهاية للكنيسة، لأنها تستمد نفوذها من السلطان الروحى الطاغى على قلوب الناس، ومن جيوشها الكثيفة، من أموالها التى تضارع ما يملكه الملوك والأمراء الاقطاع.

---

(١) - ادوارد بروى، تاريخ الخضارة العام، المرجع السابق حـ٣ ص١٥٤/١٥٥

(٢) - / سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٣٨٥،
محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، المرجع السابق ص٤٣.

(٣) - محمد قطب، المرجع السابق ص٤٥.

فيروى «فيشر» قصة الصراع بين البابا هلد براند وهنرى الرابع امبراطور المانيا فيقول : (ذلك أن خلافا نشب بينهما «البابا والأمبراطور» حول مسألة «التعيينات» أو ما يسمى بالتقليد العلمانى فحاول الأمبراطور أن يخلع البابا ورد البابا بخلع الأمبراطور وحرمه وأحل اتباعه والأمراء من ولائهم له فعقد الأمراء مجمعا قرروا فيه أنه إذا لم يحصل الأمبراطور المغفرة لدى وصول البابا الى المانيا فانه سيفقد عرشه الى الأبد، فوجد الامبراطور نفسه كالاجرب بين رعيته، ولم يكن فى وسعه أن ينتظر وصول البابا، فضرب بكبريائه عرض الحائط وخرج مجتازا جبال الألب، وظل واقفا فى فناء القلعة ثلاثة أيام يبتغى المثول بين يدى البابا، وهو لباس الرهبان متدثرا بالجيش حافى القدمين عارى الرأس يحمل عكازه مظهرا كل علامات الندم وأمارات التوبة، حتى تمكن من الظفر بالمغفرة، والحصول على رضا البابا).(١)

كما يروى التاريخ الأوربى قصة مماثلة عن ملك انجلترا هنرى الثانى الذى اصدر دستورا يلغى فيه كثيرا من امتيازات رجال الدين الذين كانوا يملكون الكثير ولا يدفعون شيئا من الضرائب التى يدفعها الشعب بل يفرضون هم لأنفسهم ضرائب خاصة فحرمته الكنيسة فأصبح غريبا فى وسط شعبه لا يطاع له أمر فأعلن ندمه وتوبته وسار الى رئيس الاساقفة يسترضيه ومشى على الأرض الصلبة الثلاثة الأميال الأخيرة من رحلته حافى القدمين حتى نزف الدم منها وطلب من الرهبان، وقد استلقى على الأرض أن يضربوه بالسياط حتى يرضى عنه الغاضبون.

ولكن سلطان الكنيسة ظل يتداعى فى نهاية القرون الوسطى، حتى قام الملوك يعلنون أنهم هم الحكام فى الأرض بمقتضى «الحق الألهى المقدس» وأنه ليس للبابوات عليهم سلطان إلا السلطان الروحى وحده.

---

(١) - فيشر، تاريخ أوربا، المرجع السابق حـ١ ص٢٦٠، حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٧١١/٧١٢ .

فاستبدلت أوربا فى الحقيقة طغيانا بطغيان مع فارق واحد، أن الطغيان الجديد يبعد تدريجيا، ويبعد الناس معه عن سلطان الدين، وفضلا عن ذلك فقد كان انشقاق الملوك عن سلطان البابا يتخذ شكلا قوميا متزايدا، تسانده العوامل الأخرى السياسية والاقتصادية التى احاطت بأوربا وشجعت على ظهوره القوميات التى كان لها دور كبير فى بروز الصراعات الحادة فى أوربا أولا، ثم فى العالم كله فى صورة حروب استعمارية فيما بعد.(١)

وقد أدى هذا التشتت السياسى والهوة الشديدة بين الحكام والمحكومين، والتبعية السياسية العمياء والتسلط الكنسى الفكرى وغير الفكرى على الحكام والمحكومين وما تبع ذلك من فصل للعقيدة عن الشريعة ثم الصراعات الكثيرة والمتفرقة بين الملوك والبابوات كل ذلك وغيره، أدى الى وضع سياسى ممزق انعكس على كافة الأنشطة الاقتصادية المختلفة وتبعه انحطاط فى الزراعة والصناعة والتجارة ثم انحطاط فى مستوى الدخول، وتدهور فى مستوى المعيشة للأفراد، وخاصة غالبية الشعب الأوربى، الذى كانت تسوده حياة البؤس والحرمان، وبالتالى اقتصاد ممزق، ووضع اجتماعى غير لائق، وبمثل هذا الوضع السياسى كانت الأوضاع الاجتماعية عنه لا تقل سوءا عنها، وهو ما سوف نبينه فيما يلى .

ثانيا : الأوضاع الاجتماعية وانقسام المجتمع الى طبقات :

انقسم المجتمع الأوربى فى تكوينه الاجتماعى الى طبقات، وكان لكل طبقة منها حقوق والتزامات وتتلخص هذه الطبقات فى طبقتين، طبقة عبيد، وطبقة اشراف، ونحاول فيما يلى بيان هذه الطبقات بشىء من التفصيل :

أ - **طبقة العبيد** : كان يتمثل غالبية المجتمع الأوربى من طبقة العبيد وكان العبيد فيها نوعين : عبيد للأرض، وعبيد يباعون ويشترون، فعبيد الأرض كانت

---

(١) - محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، المرجع السابق ص٤٥/٤٧ .

لهم بعض الحقوق على الأرض التى يقومون على زراعتها فكانوا يشتغلون جزءا من الوقت لحسابهم الخاص،وكان لهم فى بعض البلاد - حق الهجرة من الضيعة فى مقابل ترك الأرض التى يقومون بزراعتها وكل ما يملكون، اما فيما عدا هذه الفوارق فعبيد الأرض كانوا فى كثير من الأحيان لا يفترقون عن العبيد الذين يتم شراؤهم بالمال.

وكان العبيد بصفة عامه خاضعين لنوعين من الالتزامات نتيجة منحهم الأرض، وهى نوعين : التزامات لهم نتيجة مركزهم الاجتماعى والتزامات نتيجة منحهم الأرض وفيما يلى شرح لهذه الالتزامات بشىء من التفصيل :

١ - التزامات العبيد نتيجة مركزهم الاجتماعى :

والمقصود من ذلك هو التزامات العبيد بحكم مولدهم الطبيعى كعبيد، وبعبارة أخرى فهذه الالتزامات ما هى إلا انعكاس لوضع العبيد الطبقى. فكان على العبيد وابنائهم أن يعملوا كخدم بمنزل السيد الذى كان له حق بيعهم، ولم يكن للعبيد حق الزواج من خارج الضيعة إلا باذن من السيد كما لم يكن من حقهم أن يصبحوا من الرجال الأحرار إلا بموافقة السيد، بل اكثر من ذلك فقد كان العبيد مرتبطون بالأرض ولا يستطيعون تركها إلا بموافقة السيد.

وقد اختلفت التزامات العبيد من بلد لآخر : فمثلا بينما نجد أن العبيد فى المانيا كانوا ملزمين بالخدمة فى منزل السيد حتى سن الخامسة والثلاثين، كان العبيد فى روسيا ملزمين بدفع جزية الى سادات الأقطاع بالاضافة الى ايجار الأرض.

أما الطبقات القادرة مثل الأشراف ورجال الكنيسة قد تهربوا من دفع الجزء الأكبر من الضرائب، وأصبحت الطبقات الفقيرة هى التى تتحمل عبأها.(١)

---

(١) - على لطفى، التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص٢٣.

٢ - التزامات العبيد نتيجة منحهم الأرض :

كانت الأرض الاقطاعية تنقسم الى قسمين - كما سبق وأن أشرنا - أرض تخص السيد الاقطاعى، وهى ما تعرف باسم «الدومين»، والأرض الباقية كان يتولى سادة الأقطاع تقسيمها وتوزيعها على المزارعين، والواقع أنه فى مقابل منح العبيد هذه الأرض كانت عليهم التزامات تتلخص فى السخرة أى التزام العبيد بالعمل فى أرض سادة الأقطاع بضعة أيام كل أسبوع، وقد اختلف عدد هذه الأيام باختلاف العادات والتقاليد من مكان لآخر، ففى بعض الأحيان كان العبد يخصص خمسة أيام كل أسبوع للعمل فى أرض سيده، وفى أحيان أخرى كان يعمل ثلاثة أيام أو يوما واحدا فقط فى الأسبوع، بالاضافة الى أنهم كانوا ملزمين ايضا باستخدام جميع حيواناتهم فى أرض الأسياد.(١)

ب - طبقة الأشراف

كان على طبقة الأشراف فى ظل النظام الاقطاعى عدة التزامات يمكن تلخيصها فيما يلى :-

١ - الاضطلاع بالمسئولية الادارية، فالشريف هو الحاكم المحلى للضيعة أو الاقطاعية فهو السلطة التنفيذية، والقضائية، وهو الذى يقضى بين العبيد فى المسائل المدنية، وأحيانا الجنائية.

٢ - المحافظة على الأمن داخل الاقطاعية، والدفاع عنها ضد أى اعتداء خارجى، وقد كان هذا الالتزام من الأسباب الرئيسية التى ساعدت على نشأة نظام الأقطاع حيث يتنازل الفلاحون عن أراضيهم للأشراف مقابل أن يتكلف هؤلاء بحمايتهم ولاسيما فى أوقات عجز الحكومات المركزية عن تحقيق هذا الهدف.

---

(١) - عاصم الدسوقى، دراسات فى التاريخ الاقتصادى، المرجع السابق ص٥٤/٥٥، على لطفى، التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص٢٤ .

٣ - مد العبيد برأس المال اللازم للزراعة، وقد فرضت ظروف المجتمع الاقطاعى عن هذا الالتزام، إذ ان العبيد كانوا طبقة معدمة، لا تملك من رؤوس الأموال شيئا، وبالتالى فقد كان من المستحيل أن تتملك الأرض، وحتى تتبين مدى أهمية هذا الالتزام من جانب طبقة الاشراف يكفى أن نذكر أن المزارع فى روسيا لم تكن لديه الامكانيات المالية اللازمة لحفر الآبار أو شراء الالآت، بل لم يكن فى استطاعته شراء الحبال اللازمة لرفع مياه الآبار.

٤ - ضمان توفير الغذاء لطبقة العبيد فى زمن المجاعات والكوارث.(١)

وقد أدى سوء الأوضاع الاجتماعية فى أوربا فى تلك الفترة وتسلط الاقطاعيين على الشعوب الأوربية الى وجود هوة كبيرة بين افراد المجتمع الأوربى حيث كان يسود المجتمع الأوربى نظام الرق بنوعيه (العبيد، وعبيد الأرض)، واصبح التمييز متوارثا بين الملاك والارقاء شأنه فى ذلك شأن نظام الكنيسة الذى أيد فكرة الطبقية، واعتبرها شيئا عاديا فى الحياة الدنيا، مما ساعد على انتشار الرق فى المجتمع الأوربى وخاصة أنه كان هناك طلبا متزايدا من البلاد الاسلامية على شراء الأرقاء واقتنائهم فى ذلك الوقت فنشط لهذه التجارة اليهود الذين اختصوا بها، فجمعوا منها الارباح الطائلة، حتى غدا عشرة بالمائة من المجتمع الأوربى عبيدا (يباعون ويشترون).

وكانت أوضاعهم الاجتماعية - كما تقدم - سيئة للغاية، فالاسياد يسومونهم العذاب ويكلفونهم التكاليف المالية والجسمانية، بل تدخلوا فى مسائلهم الشخصية، كمسائل الزواج وغيرها، فلا يستطيع أن يزوج أبنته من يريد بحجة انتقال ارض الاقطاعى لوريث آخر، فلابد من موافقته ومشورته قبل الموافقة على عملية الزواج - كما سبق وان اشرنا - زد على ذلك ما عاناه الفلاح الأوربى من الاحتكارات الكثيرة فكان مثلا لا يستطيع أن يطحن حبوبه إلا فى مطحنة سيده ولا أن يعصر إلا فى معصرته ايضا، برغم أنه كان يدفع لذلك أجرا

---

(١) - على لطفى، التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص٢٥ .

من قوته وقوت أولاده، وقد ظلت الطواحين فى المجتمع الأوربى حتى القرن الثالث عشر الميلادى رمزا للقسر والاستغلال، كما كان القائم عليها من ابغض شخصيات المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى بشكل عام.(١)

ثالثا : الأوضاع التشريعية

كانت الأوضاع التشريعية فى أوربا فى تلك الفترة لا تقل سوءا عما سبق من الأوضاع السياسية والاجتماعية حيث كانت أوربا تعيش فى ظل نظام الاقطاع وظلماته، وما أدراك ما ظلمات الاقطاع؟! فأمير الاقطاعية هو الحاكم المطلق فى اقطاعيته... لا قانون إلا قانونه هو السلطة التشريعية ، والسلطة القضائية، والسلطة التنفيذية، كلها فى آن واحد، هو المتحكم فى جميع السلطات، والباقون عبيد... اما عبيد له، واما عبيد للأرض، ولا نصيب لهم فى مجال التشريع على الاطلاق. وقد كان هذا الحق (سلطة التشريع) لملاك الأرض من النبلاء، ورجال الكنيسة ولم يكن لافراد الشعب الآخرين أى مشاركة فعلية لمجالات التشريع أو السياسة من قريب ولا بعيد مما نتج عنه عدم الحرية فى الرأى والفكر، وانغلاق المجتمع على أسياده من النبلاء ورجال الدين والكنيسة وكان لهذا الوضع السىء فى المجتمع الأوربى أثره على الأنشطة الاقتصادية المختلفة، فتقاعس الناس على العمل والانتاج .

وأصبح النشاط الاقتصادى منغلقا تماما على نفسه لا ينتج إلا ما يحتاجون اليه من مأكل ومشرب وملبس وتدهورت الصناعة بل لم يبق منها إلا القليل من الصناعات الصغيرة فى محيط الحاجة الاقطاعية، كما قلت التجارة ولم يبق منها إلا التجارات فى السلع الكمالية والترفيهية، وكانت مخصصة للأسياد ورجال الدين، فانعدمت الصادرات وقلت الواردات بحيث كانت فى محيط سلع الكنيسة ورجالها وما كان ذلك إلا لسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية التى سادت فى هذا المجتمع فى تلك الفترة، وفيما يلى عرض لآثار هذه الأوضاع على الأنشطة الاقتصادية المختلفة بشىء من التفصيل.

---

(١) - ول ديوارنت، قصة الحضارة، المرجع السابق حـ٤ ص٤١٠/٤١١، : عاصم الدسوقى، دراسات فى التاريخ الاقتصادى ص ٥٧ .

المطلب الثاني

أثر الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية فى أوربا على الأنشطة الاقتصادية المختلفة.

أولا : أثرها على الزراعة :

احتلت الزراعة المكانة الرئيسية فى أوربا فى تلك الفترة - كما سبق وان أشرنا - فقد شكلت المصدر الأساسى للدخل القومى، وكان غالبية السكان يمارسون هذه المهنة لكنها كانت لصالح الطبقة الاقطاعية. واتسم الانتاج الزراعى خلال تلك الفترة الزمنية ايضا بأنه كان انتاجا طبيعيا مغلقا، أى أنه لم يكن يخدم اهداف السوق بالدرجة الأولى، بل كان يستهلك من قبل ضيعة الاقطاعى التى كانت تتمتع بالاستغلال السياسى والاقتصادى، وكان على الفلاح أن يقوم بزراعة شرائح (اشرطة) متفرقة فى مناطق عديدة، وعلى هذا لم يسمح للفلاح أن يعمل فى قطعة معينة واحدة من الأرض، من أجل أن يتساوى الجميع فى العمل فى كل قطع الأراضى التى كانت تتباين فى خصوبتها وموقعها؛ على أن هذه الطريقة فى الزراعة كانت تعانى من انخفاض انتاجها لأن الفلاح كان يخسر جزءا مهما من وقته فى الانتقال من قطعة لأخرى، ناهيك عن الحيز الذى تشغله الممرات العديدة لغرض التنقل من قطعة الى أخرى، وبالاضافة الى ما ذكرنا، فقد كان من الصعوبة تغيير المحاصيل الزراعية، وادخال محاصيل جديدة حيث يتطلب مثل هذا التغيير موافقة الفلاحين السابقة فى تلك المنطقة، وملاك الأرض ايضا، وإلا فان نظام الدورة الزراعية الذى كان متبعا آنذاك سيخرق فى هذه الحالة.(١)

ومن هنا يتضح أن مثل هذه الطريقة فى الزراعة لا يمكن أن تفى بالغرض المطلوب منها، أما الطرق التى اتبعت فى الزراعة آنذاك فيمكن تقسيمها الى ثلاثة أنظمة رئيسية :

---

(١) - عبدالقادر يوسف الجبوى، التاريخ الاقتصادى، مطابع المؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد عام ١٩٨٠م ص ٦١/٦٢ .

١ - نظام الحقل الواحد : ويتلخص هذا النظام فى زراعة جميع المحاصيل فى حقل واحد عدة أعوام متتالية، فتقل انتاجية الارض نتيجة لنقص خصوبتها ، فيضطر المزارع الى الهجرة الى حقل آخر، ومن ثم تتكرر العملية السابقة.

٢ - ونظام الحقلين : ويقوم هذا النظام فى أساس تقسيم الأرض الى قسمين، يزرع أحدهما، ويترك الآخر دون زراعة، على ان يعكس الأمر فى العام التالى، ويهدف هذا النظام الى تجديد خصوبة الأرض بحيث لا يصبح المزارع مضطرا الى الانتقال الى مناطق جديدة كما هو الحال فى ظل نظام الحقل الواحد، ومما لاشك فيه أن هذا النظام كان أقل تبذيرا للأرض التى كانت تعتبر فى ذلك الوقت المورد الرئيسى للثروة والدخل القومى من نظام الحقل الواحد.

٣ - نظام الثلاثة حقول: وفى ظل هذا النظام كانت الأرض تقسم الى ثلاثة أقسام مستطيلة الشكل، يزرع اثنان منها فقط كل عام، على أن يترك الثالث دون زراعة ليسترد خصوبته. فاذا كان لدينا ثلاثة حقول (أ، ب،جـ) يكون نظام الزراعة كالآتى :

فى العام الأول - مثلا - يزرع(أ) قمحا، ويزرع (ب) شعيرا ويترك (حـ) بدون زراعة.

وفى العام الثانى : يزرع (أ) شعيرا ، ويزرع (حـ) قمحا ويترك (ب) بدون زراعة.

وفى العام الثالث : يزرع (ب) قمحا، ويزرع حـ شعيرا ، ويترك (أ) بدون زراعة وهكذا . ويمكن توضيح ذلك فى الجدول الآتى :

السنوات	الحقل أ	الحقل ب	الحقل جـ
السنة الأولى	يزرع قمحا	يزرع شعيرا	يترك بدون زراعة
السنة الثانية	يزرع شعيرا	يترك بدون زراعة	يزرع قمحا
السنة الثالثة	يترك بدون زراعة	يزرع قمحا	يزرع شعيرا

ولاشك أن هذه الطريقة للزراعة كانت أقل تبذيرا للأرض من سابقتها ولكنها برغم ذلك كانت تؤدى الى تبديد جزء من الأرض الزراعية يتمثل فى ثلث

الطاقة الانتاجية، ويرجع ذلك الى عدم استخدام المزارعين فى تلك الفترة من التاريخ طرق التسميد المختلفة، وأن ذكرت المصادر أن الأوربيين كانوا يستخدمون السماد الطبيعى، غير أن كمياته المحدودة لم تكن تكفى لتحقيق الغرض المطلوب.(١)

ولهذا ظهر النشاط الزراعى ضعيفا برغم أنه كان يعتبر من الأنشطة الرئيسية لغالب سكان أوربا، والمصدر الرئيسي للدخول، لكنه كان فى حالة ركود وانحطاط شديدين، فقد كانت الزراعة قليلة جدا، والأدوات المستخدمة بسيطة للغاية مثل المعول، والنورج، والمحراث الخشبى وغيرها من الأدوات البسيطة، حتى أن اكثر الزراعات انتشارا مثل زراعة الكروم كانت فى مرحلة بدائية.

كما أن انحطاط التجارة أدى فى نفس الوقت الى شدة هذا الركود ايضا وذلك لأن ضيق اسواق الاستهلاك لا يدعو غالبا الى الانتاج.

كما ساهمت المنازعات والحروب فى انهيار النشاط الزراعى حيث كانت تتعرض المحاصيل الزراعية والحيوانات للحرق والنهب، وكان المزارعون هم الذين يتحملون نتائج هذه الحروب وتلك المنازعات.

وساهم الوضع الاجتماعى السيء والمظالم المالية وغير المالية الملقاة على عاتق الفلاح فى انهيار الزراعة فى أوربا ايضا ولهذا كان من نتيجة ذلك أن القرنين العاشر والحادى عشر وهما من ضمن القرون الوسطى كانت تغص حولياتهما بكثير من المجاعات، واصبحت كلمة مجاعة تتردد دون انقطاع، حتى ذكر أن بعض البلاد وصل الغش فيها لدرجة أنهم كانوا يخلطون الخبز بالتراب الأبيض، وما لبث كثير ممن تغذوا به أن تورمت اجسادهم.(٢)

---

(١) - عاصم الدسوقى، دراسات فى التاريخ الاقتصادى، المرجع السابق ص٥٣، على لطفى، التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص٢٠/١٩

(٢) - نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص ٨٦٦/٨٦٥

ولم يكن هذا التردى فى النشاط الزراعى إلا نتيجة حقيقية لما كان يعيشه الفلاح من أوضاع سياسية واجتماعية وتشريعية ظالمة انعكست على النشاط الزراعى فأصابته بحالة من الركود والانحطاط برغم أنه كان النشاط الغالب لابناء المجتمع الأوربى - كما اسلفنا -.

وإذا ما أمعنا النظر فى المقابل الى الأوضاع الزراعية فى العصر العباسى الأول فى تلك الفترة فاننا نجد زراعة متطورة، ونشاط زراعى منفتح على جميع الأسواق الداخلية والخارجية، كما توفرت كافة السلع الغذائية فيه ايضا، وتطورت طرق التسميد، والزراعة، واستخدمت فيه سياسات زراعية عادلة وملائمة فى نفس الوقت، وما كان ذلك - بالطبع - إلا نتيجة للأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية المستقرة والمطبقة لمنهج الله عز وجل فى جميع شئون الدولة فسادت العدالة وتحقق الرخاء وازدهرت كافة الأنشطة الاقتصادية على قدم المساواة فيها.

ثانيا : أثرها على الصناعة :

تدل الوقائع التاريخية على تواضع الجانب الصناعى وتدهوره فى أوربا ابان تلك الفترة وفى العصور الوسطى بشكل عام، وذلك كان نتيجة للوضع الاقتصادى السائد من الاكتفاء الذاتى والاعتماد على الصناعات المحلية الصغيرة المتمثلة فى انتاج القرية وكانت نتيجة ذلك هى عدم الحاجة الى الصناعات إلا ما يتعلق منها بالحاجات اليومية أو الزراعية أو الترفية الكمالية، ومن هذه الصناعات النسيج، والصباغة وعمل المينا، والأسلحة، لأن البلاط الملكى والكنسى والأسياد كانوا يحبون الجواهر والألبسة الفاخرة والأسلحة المتينة والجميلة، ولكنها كانت بسيطة وقليلة، وتلبى حاجة البلاط الملكى والكنسى والأسياد وقد كان من الضرورى أن يوجد فى بعض المدن صباغ وصناع دروع ومطرزون وصناع ادوات الزراعة غير أن الطلب الاستهلاكى كان قليلا ومحدودا لا يكفى لاعاشة هؤلاء الصناع، وكان عملاء

هذه الصناعات هم الأسياد والنبلاء، والكنيسة ورجالها.(١)

وبالتالى فلم تعرف أوربا الصناعات الكبرى فى تلك الفترة، كما لم تعرف الصناعات الدقيقة والميكانيكية - أى ذات الدفع الذاتى - ولم تكن الصناعة إلا فى اطار (الدومين) فكان الأمير فى كل دومين يستخدم الفلاحين ممن لديهم بعض المهارات الفنية فى تحويل بعض المنتجات الزراعية الى صناعات كنسيج الأقمشة أو صنع الأدوات البدائية كالأدوات الزراعية وغيرها، ولم يكن عدد هؤلاء الصناع كثيرون أو متخصصون بل كانوا فى محيط الحدادة والنجارة وصناعة الأسلحة والدروع، والبناء والخياطة وغيرها من الصناعات التى يحتاجها الناس لحياتهم اليومية - كما سبق وان اشرنا - ، وبالتالى فقد كانت الصناعات فى محيط الزراعات الموجودة، وفى الغالب كان الفلاحون يجمعون بين النشاط الزراعى والصناعى، مما يعنى تضاءل الصناعات فى تلك الفترة، وأنها كانت فى محيط النشاط الزراعى، ولا يعنى هذا عدم وجود صناع مهرة - بل كان هناك بعض الصناع المهرة فى مجالات أخرى وغالبها منتجات العبادة كصناعة الصلبان والصينيات وحقات القربان، والثريات والصناديق الذهبية والفضية ، والنحاسية لحفظ المخلفات والنواقيس وما يتعلق بدور العبادة، وكبار الأمراء وكان عددهم قليل جدا.(٢)

ولا عجب أنه فى ظل انحطاط التجارة، وركود الزراعة أن تنمو الصناعة، فقد زالت كل تجارة تبادلية، وأصبح الاستهلاك محليا، ولم يبق موجب للاهتمام بجذب العملاء، كما تطلع الكبار الى البذخ والترف وصنوف الطعام والشراب، واقتصرت مشاغل الدومين على صنع الأشياء التى لا غنى عنها فى الحياة اليومية.(٣) - كما سبق أن أشرنا -

---

(١) - د/نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص١٠٨/١٠٩

(٢) - المرجع السابق حـ١ ص٢٧٨ . والدومين يطلق على الارض التى كفل السيد الاقطاعى .

(٣) - ، المرجع السابق حـ١ ص٨٦٠

ولاشك أن هذا الانحطاط فى المجال الصناعى كان بسبب التمزق السياسى والاجتماعى والتشريعى والبعد عن منهج الله وتعاليم دينه ، كسبب أساسى لهذا الانحطاط بالاضافة الى الأوضاع الأخرى من الانحطاط فى المجال الزراعى والتجارى وانغلاق أوربا التام على نفسها، ولهذه الأسباب وغيرها كان انحطاط النشاط الصناعى فى أوربا فى تلك الفترة.

وفى مقابل هذا لو نظرنا الى المجتمع العباسى لوجدنا ازدهارا فى مجال الصناعة فاق كل التصورات، فازدهرت الصناعات المختلفة وظهرت الصناعات الدقيقة والميكانيكية، وصدرت الدولة العباسية كثيرا من صناعاتها الى كثير من بلدان العالم آنذاك - كما سبق وأن أشرنا - بما فيها بلاد أوربا وملأت صناعاتهم أسواق العالم، وذلك بسبب تمسكهم بدينهم، واستقرار أوضاعهم السياسية والاجتماعية والتشريعية، واتباعهم لمنهج الله.

ثالثا : أثرها على التجارة

لم تكن التجارة بأفضل من سابقتيها، ولم يكن النشاط الاقتصادى المغلق لتنمو فيه تجارة كبيرة أو أسواق مزدهرة، صحيح أن بعض المصادر المعاصرة تكشف لنا عن وجود بعض التجار والأسواق فى أوربا لكن هذا النشاط التجارى كان ضعيفا جدا، وقد اقتصرت فيه التجارة على السلع الفاخرة، والمنتجات المستوردة لتلبية طلب فئة اجتماعية صغيرة غنية من النبلاء ورجال الدين.

كما كانت هناك بعض الأسواق فى المدن والقرى يأتى اليها الفلاحون كل اسبوع يبيعون فيها السلع الغذائية، لكنها لم تكن ذات أهمية كبيرة، ولم يكن التجار سوى باعة جوالين يحملون بضاعة قليلة القيمة، وينتقلون من مدينة لأخرى، ومن دير لآخر فى عهد شارلمان ولويس الثانى.

وكان من أهم السلع التجارية فى ذلك الوقت، والتى كانت غالبا تقدم للبلاط الكنسى، الأقمشة الحريرية، والتوابل، والعاج، والبضائع الأخرى

النادرة والثمينة، فقد كان يعيش بالقرب من بعض الأساقفة أو فى جوار بعض الأديرة تجار يجهزون الكنائس بالبخور والعطور والحرائر، والحلى والجواهر، وكانت تستورد فى الغالب عن طريق أسبانيا والبندقية.

وكانت من الندرة بشكل يجعل الناس يحرصون عليها، كما أنها كانت تعتبر من الهدايا الفاخرة التى تقدم للشخصيات الممتازة والأصدقاء فى شكل مثاقيل من الفلفل والعقاقير والعطور، والكمون والبخور وغيرها، على أمل أن تتلقى بالمقابل بعض النباتات الطبية أو قليلا من العطر أو قطعة حرير، وهذه المبادلات المجانية تدل - بلاشك - على قلة العلاقات التجارية ايضا.(١)

وبالاضافة الى ما تقدم وجدت بعض التجارات الأخرى، وكان من أهمها تجارة الرقيق، وقد اختصت به البندقية.

وكان التجار البنادقة يأتون بالرقيق من المناطق السلافية فيبيعونها فى بلاد الاندلس والبلاد الاسلامية الأخرى.

كما اختصت اليهود بهذه التجارات - كما سبق وان اشرنا - على أن التجارة بشكل عام فى أوربا قد شهدت تأخرا كبيرا، ويرجع البعض السبب فى ذلك الى أن الملاحة العربية وسيطرة المسلمين على البحر المتوسط قد اضعفت الملاحة فى أوربا - وان كان ذلك لا يخلو من المعارضة - فقد كانت هناك أسباب أخرى ساهمت بشكل مباشر فى اضعاف التجارة فى أوربا ومن ذلك ما يلى :

١ - سوء الطرق الأوربية التى لم تكن سوى الطرق الرومانية القديمة، ولم يكن فيها أى عناية كما لم يوجد ما يشير الى أى رسم لطرق جديدة فى أوربا فى تلك الفترة.(٢)

---

(١) حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٢٧٤ .

(٢) حاطوم، المرجع السابق حـ١ ص٢٧٦/٢٧٧

٢ - تعرض التجارة لكثير من الاخطار، فالسلع مهددة بالسرقة والنهب، والتجار مهددون بالقتل وكان عليهم أن يواجهوا هذه الأخطار باقامة رابطة فيما بينهم، حتى يحموا أنفسهم من تلك الأخطار فكانوا يسافرون فى شكل قوافل تجارية مسلحة لمواجهة هذه الأخطار، وكان ذلك يكلفهم الكثير من الوقت والجهد والمال.

٣ - كما أن غالب التجار كانوا من العناصر الأجنبية عن البلاد، مما ترتب عليه حاجتهم الى كثير من المتطلبات والخدمات إذ من الضرورى أن يكون التاجر يعرف كثيرا من الطرق واللغات الأجنبية وله عدد كبير من المستودعات، والعلاقات العامة فى الموانى وأماكن النقل وخاصة فى مجال التجارة الخارجية، حتى يستطيع أن يقوم بأى عمل تجارى.(١)

٤ - وجود كثير من المنازعات السلالية والاضطرابات والثورات فى كثير من بلاد أوربا فى المانيا وايطاليا وفرنسا، الأمر الذى هدد الاستقرار والأمن الداخلى، وكان من الخطر على التاجر المغامرة على الطرق الكبرى، ففى كل وقت معرض للمهاجمة والنهب والسرقة - كما اسلفنا -.

٥ - وقد ساعد على تدهور التجارة ايضا كثرة الضرائب الى كانت تؤخذ على الطرق، ففى الطرق البرية تدفع رسوم للحركة والغبار المثار، أما الملاحة البحرية فتدفع ضريبة تسمى ضريبة الجسر والضفة والميناء، حتى ولو لم توجد جسور للعبور، وقد توسع الأمراء فى جباية الرسوم التجارية على السفن التى لا ترسو، وزادت الرسوم وبلغ نسبا مفرطة، فلا عجب إذن أن تقل اعداد التجار والتجارات فى أوربا وأن تتدهور بشكل حاد، وقد امتد هذا التدهور الى أواخر القرن الحادى عشر.(٢)

---

(١) - المرجع السابق حـ١ ص ١٠٤

(٢) - حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، المرجع السابق حـ١ ص٨٥٨/٨٥٩

وبهذا يتضح أن تدهور التجارة الخارجية فى أوربا فى تلك الفترة لم يكن سببه الأساسى هو سيادة المسلمين على البحار وإنما تشكلت مجموعة من الأسباب - كما اشرت - تسببت فى ذلك التدهور وان سيطرة المسلمين على البحر المتوسط كانت مجرد سببا من الأسباب.

وإذا كان حال التجارة - كما ذكرنا - من انغلاق للسوق فى أوربا، مع عدم العناية بالطرق ومسالكها، وزيادة كبيرة فى الضرائب بحق وبدون حق ثم ما صاحب ذلك كله من عدم الاستقرار وتدهور الأمن الداخلى وحاجة التاجر الى خدمات وعلاقات عامة كثيرة كانت تكلفه الكثير، فان تلك الأسباب وغيرها لابد وأن تؤدى الى تدهور حاد فى مجال التجارة، ولابد أن تكون المحصلة النهائية - بلاشك - هى التدهور والانحطاط وهو ما حدث بالفعل.

وحين نستعرض سوء هذه الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية وما ترتب عليها من تدهور فى الأنشطة الاقتصادية المختلفة فاننا لا نستغرب حدوث مثل هذا التدهور، تلك الأوضاع المليئة بالمخازى والخطايا والأخطاء، والطغيان السياسى والاجتماعى والاقتصادى، والانحراف عن منهج الله، ومساندة الظلم فى جميع الوانه، وتخذيل المصلحين وتحذير المظلومين والصد عن سبيل الله، وتشويه صورة الدين، هل نعجب من النهاية التى وصلت الأمور اليها من انسلاخ الناس فى أوربا من ذلك الدين ونفورهم منه وثورتهم على رجاله وابعادهم له عن كل مجالات الحياة.

ان الفطرة البشرية لتثور على الظلم وتمجه، ولو احتملت عدة قرون، فبدأت الثورة على الكنيسة، ورجال الدين، بل وعلى الدين المزيف نفسه الذى قدمته الكنيسة، بدأ ذلك منذ عصر النهضة وبدأ الكتاب يتمردون على سلطان الكنيسة الطاغى، ويهاجمون رجال الدين، ويهاجمون كذلك خرافات هذا الدين الكنسى ومعمياته، وأنشطة هذا المجتمع الاقتصادية، ولكنها كانت أصواتا متناثرة، فبذلت الكنيسة جهدها فى محاولة اسكات هذا الأصوات، مستخدمة فى

ذلك نفوذها على قلوب الناس وعقولهم وأرواحهم، وسلطانها «التقليدى» الذى كانت تأمر به فتطاع، وينظر الى كلماتها على أنها موضع التقديس، لكن الانفجار كان سريعا فكانت الثورة الفرنسية بكل ما تضمنته من الوان العنف والبطش والقتل واسالت الدماء، فاكتسحت ما كان قد تراكم من المظالم خلال الف وأربعمائة عام، وأزالت الطبقتين الحاكمتين الطاغيتين المتحالفتين رجال الاقطاع ورجال الدين.(١)

وقد أدى ذلك - بالطبع - الى صحوة الأنشطة الاقتصادية وبعثها من جديد فى ظل اصلاح اقتصادى لم يظهر بين ليلة وضحاها، لكنه استمر يكافح حتى ازدهرت الحياة الاقتصادية، وطويت صفحة تلك العصور المظلمة.

وبالمقابل فى تلك الفترة كانت الدولة الاسلامية (العباسية) تعيش أيام الرخاء والازدهار فى شتى المجالات الزراعية والصناعية والتجارية بفضل تمسكها بمنهج الله ورسوله وتحققيها العدالة فى مجالات الحياة المختلفة، وهنا يبدو واضحا العلاقة الوطيدة بين ازدهار الحياة الاقتصادية فى شتى انشطتها الزراعية والصناعية والتجارية، واتباع منهج الله وأثر ذلك فى كلا المجتمعين فظهر المجتمع الاسلامى بأحسن صورة وأروع مثال، بينما ظهر المجتمع الأوربى فى أسوأ فتراته التاريخية عبر العصور.

---

(١) - محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، المرجع السابق ص٧٨.

المبحث الثانى

أسباب تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية الأوربية فى تلك الفترة

شهدت أوربا فى تلك الفترة تدهورا كبيرا فى الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية، وقد كان لهذا التدهور أسباب كثيرة ومتعددة لعل من أهمها ما يلى :

أولا : الانحراف عن منهج الله :

كان من أهم الأسباب التى أدت إلى تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية فى أوربا فى تلك الفترة، هو انحراف المجتمع الأوربى عن منهج الله عز وجل وعدم التمسك بدينه وبتعاليم المسيح عليه السلام، إذ لم تعرف أوربا دين الله المنزل على حقيقته الربانية التى نزلت على عيسى عليه السلام، إنما عرفت صورة محرفة ومشوهة من صنع رجال الدين والكنيسة الأوربية لا صلة لها بالاصل المنزل الذى ارسل المسيح عليه السلام ليبلغه لبنى إسرائيل ، قال تعالى : ﴿ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم﴾(١).

وأذا استثنينا افرادا قلائل متناثرين على طول التاريخ المسيحى من بعثة عيسى عليه السلام الى بعثة الرسول ﷺ، فان الجماهير الأوربية ظلت تستقى دينها من رجال الدين من البابوات وشراح الأناجيل المحرفة وتعتبرهم مرجعا لا يرقى اليه الشك، ولا يجوز أن يناقش فاتخذوهم أربابا من دون الله قال تعالى : ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا الها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾(٢).

---

(١) - سورة آل عمران الآية رقم ٤٩ .

(٢) - سورة التوبة الآية رقم ٣١.

ففى القرون الثلاثة الأولى من ميلاد المسيح عليه السلام، كان الأباطرة وثنيين لا يؤمنون بدين منزل، فكانوا يضطهدون النصارى من صح اعتقاده منهم، فيسومونهم سوء العذاب ويشردونهم فى الأرض، حتى اتخذ فريق منهم الأديرة والملاجىء فى اطراف الأرض فرارا من العذاب.(١)

وفى القرن الرابع الميلادى اعتنق الامبراطور قسطنطين المسيحية وفرضها على أمبراطوريته، ولكن الدين الذى فرضه هو باعتراف المؤرخين، والمفكرين الغربيين أنفسهم شىء آخر غير الدين الذى بشر به المسيح عليه السلام.

يقول د/ درابر الأمريكى فى كتابه «الدين والعلم» : [ودخلت الوثنية والشرك فى النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة، ومناصب عالية فى الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحفلون بأمر الدين، ولم يخلصوا له يوما من الأيام].(٢)

وقد شهد كثير من مؤرخى الغرب ومفكريه على تحريف المسيحية وانحراف المسيحيين عن منهج الله عز وجل على أن التحريف الذى وقع فى العقيدة من جعل الاله الواحد ثلاثة اقانيم(٣)، وتأليه عيسى عليه السلام وادعاء بنوته لله تعالى، وتأليه مريم، وروح القدس جبريل عليه السلام، واختراع قصة الصلب والفداء، وعبادة الصليب وعبادة التماثيل... الخ، هذا التحريف على بشاعته لم يكن هو التحريف الوحيد الذى ادخلته الكنيسة، والمجامع المقدسة على دين الله المنزل بل أضافت الكنيسة انحرافا آخر لا يقل سوءا ولا تشويها للدين المنزل من عندالله، وذلك بعزل العقيدة عن الشريعة واتخاذ الدين عقيدة فقط، وترك القانون الرومانى يحكم الحياة مع العلم بأن الدين المنزل من عندالله كان دائما عقيدة وشريعة فى ذات الوقت،

---

(١) - محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة ،دار الشروق، بيروت/ القاهرة عام ١٩٨٣م/١٤٠٣١هـ ص ٩/١٠، والدير: هو دار الرهبان والراهبات لغير المسلمين، المعجم الوسيط حـ١ ص٣٠٦.

(٢) - نقلا عن : محمد قطب ، المرجع السابق ص ١٠، أبو الحسن الندوى، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص

(٣) - الاقانيم: لفظ يستعمل عند النصارى العرب للدلالة على الثالوث المقدس عندهم وهى الأب والابن وروح القدس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، راجع المعجم الوسيط حـ ١ ص/٢٢ حـ٢ ص٧٦٣

فهو عقيدة لأنه يقرر توحيد الله، وشريعة لأنه ينظم حياة الناس فى الأرض فى اطار أوامر الله ونواهيه، وفى اطار مقتضيات الزمن الذى نزلت فيه، ومقدار ما يحتاج اليه الناس من تشريع، حسب الأحوال والأزمان والأقوام الذين أرسل اليهم الرسول، والانحرافات الخاصة بهم ، ووقعوا فيها حتى اكتمل الدين على يد نبينا محمد ﷺ(١)، قال تعالى : ﴿**اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا**﴾.(٢)

وخلاصة القول : أن النصارى قد حرفوا الدين المسيحى وأن أوربا اتبعت هذا الدين على هذه الصورة المحرفة والمشوهة، وأن هذا التحريف كان سببا اساسيا فى تدهور أوضاعهم السياسية والاجتماعية والتشريعية، ومن ثم انعكس ذلك على الأوضاع الاقتصادية، وكافة الأنشطة الاقتصادية الأخرى، إذ من الثابت أن الانحراف عن منهج الله دائما ينتج عنه الضعف فى جميع المجالات الاقتصادية وغير الاقتصادية وان ظهرت فى بعض الأحيان قوية، فما تلبث بمرور الوقت أن تضعف وتتدهور. وأن ما وصل إليه المسلمون اليوم من ضعف فى شتى المجالات السياسية والاجتماعية والتشريعية والاقتصادية، كان بسبب الانحراف عن منهج الله، وعدم تطبيقهم لشرعه - برغم أنهم يملكون جميع القوى المادية والبشرية التى تؤهلهم لأن يكونوا أقوياء - ، وبالتالى فان البعد عن منهج الله كان دائما سببا أساسيا فى تدهور الأمم قديما وحديثا، وهذا ما حدث فعلا ابان فترة الدراسة التى نحن بصددها، فقد كانت الدولة الاسلامية (العباسية) على درجة كبيرة من الازدهار الزراعى والصناعى والتجارى بفضل تمسكهم بشرع الله ونهجه، بينما تعيش أوربا فى ظلام دامس بسبب انحرافهم عن منهج الله ودينه، وعدم اتباعهم لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومحاربة دعوة الإسلام.

<u>ثانيا : خلو التعاليم النصرانية من الضوابط الشرعية التى تحكم الأنشطة الاقتصادية المختلفة :</u>

كان من ضمن الأسباب التى أدت الى تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية، والاقتصادية، خلو التعاليم النصرانية من الضوابط

---

(١) - محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، المرجع السابق ص١٣

(٢) - سورة المائدة الآية رقم ٠٣

المختلفة والتى يتم بها تنظيم الأنشطة الاقتصادية، إذ أن الديانة المسيحية مرت فى تشريعها - حسب ما يقوله النصارى - بأطوار مختلفة كثيرة، وان كانت هذه الأطوار فى رأى الباحث لا تخرج عن مرحلتين : -

المرحلة الأولى : وهى المرحلة التى بلغ فيها عيسى عليه السلام قومه بما يطلق عليه بـ «العهد القديم»، وهى عبارة عن تعاليم التوارة، وأسفار الأنبياء السابقين والوصايا العشر التى كانت عند اليهود، وبالتالى فان عيسى عليه السلام لم يأت بجديد، وكل ما أهتم به هو الوعظ والوصية والتسامح. ثم جاء ببعض المواعظ المختلفة والتى يعتبرها النصارى مرحلة أخرى وان كانت - كما يرى الباحث، وبعض الباحثين(١) - لم تكن تشريعا ولم تكن انتقالا الى مرحلة جديدة، ولكنها كانت فى الغالب الوانا من التسامح والعظات، وليس فيها أى تعديل فى التشريع على الأطلاق، وكان من جملة هذه العظات :

طوبى للمساكين بالروح فان لهم ملكوت السموات، طوبى للحزان فانهم يعزون

طوبى للودعاء فانهم يرثون الأرض.

طوبى للجياع والعطاش الى البر فانهم يشبعون.

طوبى لانقياء القلوب يعاينون الله. - على حد قولهم -

وقد عقد النصارى لذلك التحليلات والمقارنات بين هذه العظات وهو ما يسمى عندهم بـ «العهد الجدد»، وبين العظات السابقة والتى تعد عندهم مرحلة أخرى من التشريع - وان كانت لم تكن مرحلة أخرى - وان هذه العظات وتلك ما كانت إلا مجرد وصايا وعظات فى بعض الأمور التى تتعلق بالعقيدة والأخلاق والأمور الأخرى كعدم السرقة والزنا والقتل وشهادة الزور والوصية باكرام الأب والأم... الخ. ولم تكن تتعلق بأى مجال من المجالات السياسية أو الاجتماعية، أو الاقتصادية التى تمس المعاملات والأنشطة الاقتصادية المختلفة.(٢)

---

(١) - أحمد شلبى، مقارنة الأديان، المسيحية - الطبعة السادسة ١٩٧٨م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة حـ٢ ص٢٢٨ .

(٢) - أحمد شلبى، مقارنة الأديان، المرجع السابق حـ٢ ص٢٢٨/٢٣٠

المرحلة الثانية : وهى مرحلة ما بعد عيسى عليه السلام، من الرسل الروحانيين والباباوات - على حد زعمهم - فقد اتضح لقادة المسيحية أن التشريع اليهودى شق على الاتباع الجدد وبخاصة غير بنى اسرائيل، وكان الختان من أهم ما شق على هؤلاء، فأخذوا يقللون من التكاليف وحصروها فى الزنا وأكل المخنوق، وأكل ما ذبح على الأوثان فأباحوا الخمر، ولحم الخنزير، والربا، وهى محرمة فى التوارة. ثم قام بولس بدور كبير فى التشريع المسيحى، فتارة يشرح ما روى عن عيسى عليه السلام، وتارة يقترح من عنده هو فلما تسلم الروحانيون التشريع من الرسل ومن بولس، وظلوا يباشرون التشريع حتى انتقل حق التشريع الى المجامع التى لم تكتف بالتقنين حول أمور الدنيا بل راحت تخلق الآلهة وتقرر حق الغفران وعصمة البابا. ومن ثم انتقل حق التشريع الى البابا كرأس للكنيسة، ومصدر ولايتها والحارس على قوانينها ونظمها وعقائدها، ومعلم اتباعها المعصوم من الخطأ - على حد زعمهم- كما أنه أصبح نائبا عن المسيح، لأنه يستمد سلطته من تعيين المسيح له مباشرة، ولا عجب فقد اصبح البابا رأس الجهاز السياسى ايضا فى أوربا فى العصور الوسطى حتى اعتبره المعاصرون ملك الملوك وأمير الأمراء.

ومن هنا أخذت البابوية تنظم سياستها على أسس اقطاعية أكثر فعالية مما جعل التطابق محكما بين الكنيسة، والجهاز السياسى فى أوربا. وهكذا باشرت الكنيسة سلطاتها التشريعية ولا تزال تباشرها برغم غلوها وبعدها عن منهج الله، غير أننا إذا نظرنا الى التشريع المسيحى فان مراحله المختلفة تؤكد أن تشريعات الديانة المسيحية بعيدة كل البعد عن الضوابط المختلفة، وأنها لم تكن تعنى إلا بالروحانيات والأخلاقيات - التى سبق وأن أشرنا اليها - وأن ما وجد حديثا من تدخل فى المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ما كان إلا من صنع رجال الدين والكنيسة.(١)

---

(١) - أحمد شلبى، مقارنة الاديان، المرجع السابق حـ٢ ص٢٣٢/٢٣٣، رسالة بولس الى أهل رومية، الاصحاح الثالث من كتاب العهد الجديد، دار الكتاب المقدس، القاهرة ١٩٨٣م ص ٢٤٩، وبولس هو: كما حسبته الكنيسة المسيحية من الرسل الاثنى عشر عندهم - على حد قولهم - وقد ادعى بذلك لنفسه فى رسائله ايضا كان يهوديا يونانيا أو هيلانيا- أى مولود خارج فلسطين - وقد ولد كما يقول بعض المؤرخين فى طرطوس، ولا يعرف بالتحقيق تاريخ ولادته واكثر المؤرخين على أن ولادته كانت سنة ٣٨ للميلاد، انظر بطرس البستانى، دائرة المعارف حـ٥ ص٦٩٩.

ثالثا : إساءة استخدام السلطة الكنيسة :

احتفظت الكنيسة بسلطة قوية ابان العصور الوسطى فى أوربا -بشكل عام - ولئن كان الأمبراطور يمثل السلطة الدنيوية، فان الكنيسة كانت تمثل السلطة الدينية أو الروحية، وليس معنى ذلك أن السلطتين كانتا على قدم المساواة فى ذلك، وأن اختلف نطاق كل منهما، لكن الحقيقة أن الكنيسة كانت من الناحية النظرية على الأقل هى السلطة العليا، لأن كل شىء بما فى ذلك الحكم وما يرتبط به من سلطة دنيوية، كان يجب أن يكون خاضعا للدين، والكنيسة هى التى كانت تمثل هذا الدين.

وعلى أية حال فقد بقيت الكنيسة خلال مدة طويلة من العصور الوسطى جزءا أساسيا من النظام تدافع عنه وتقويه، فارتبطت مصالحها بذلك مع مصالح النظام نفسه، ودافعت عنه بكل الوسائل.(١)

وقد خضع النشاط الاقتصادى بشكل عام لكثير من مظاهر التسلط الكنسى، حيث كان مالك الضيعة أحيانا اسقفا أو رئيس دير، كما كان كثير من الرهبان والأديرة والكنائس تنال حظها من أموال العشور التى تجبى، وكانت المؤسسات الكنسية تأتيها كثير من الهبات والهدايا من الملوك والأشراف حتى أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الاراضى بل من أكبر السادة الأقطاعيين فى أوربا فى تلك الفترة، فقد كان ديرفلدا مثلا يمتلك ١٥،٠٠٠ قصرا صغيرا من قصور الريف، وكان دير سانت جول يمتلك ألفين من رقيق الأرض، وكان ألكوين - لقب من القاب الأقطاع - فى تورسيدا سيدا لعشرين الفا من أرقاء الأرض.

وهكذا أصبحت الكنيسة جزءا لا يتجزأ من النظام الأقطاعى، فألفت لنفسها منظمة سياسية واقتصادية، وحربية لا منظمة دينية فحسب، حتى قال صاحب قصة الحضارة: «...وبالتالى كانت املاكها -الكنيسة- المادية وحقوقها،

---

(١) - عاصم الدسوقى، دراسات فى التاريخ الاقتصادى، الطبعة الأولى عا١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الكتاب الجامعى، القاهرة

والتزاماتها الأقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى مستمسك بدينه، وسخرية تلوكها ألسنة الخارجين عن الدين، ومصدرا للجدل العنيف بين الأباطرة والباباوات وهكذا أصبحت الكنيسة جزءا لا يتجزأ من نظام الأقطاع»(١).

وكان من نتيجة ذلك أن وجد بالبلاط الباباوى ادارة مالية قائمة بذاتها للنظر فى شئون الايرادات والمصروفات، أما عن الايرادات فكانت هناك عدة موارد تغذى الادارة البابوية بالأموال اللازمة، أولها الممتلكات الواسعة فى ايطاليا التى حرص حكام الفرنجة منذ شارل مرتل حتى شارلمان عل تثبيت حقوق البابوية فيها، ومساعدتها فى الدفاع عنها.

ومن الواضح أن هذه الممتلكات هيأت للبابوية دخلا ثابتا جعلها من الناحية العملية فى غنى عن أى حاكم، وفى نفس الوقت احرزت البابوية حقوقا اقطاعية واسعة عادت عليها بدخل منتظم حتى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى، ذلك أنه وجد فى ذلك العصر عدد كبير من الافراد والهيئات التى دانت للبابوية بضرائب معينة، مثل بعض المؤسسات الكنيسة والديرية التى أحاطت بها ظروف صعبة جعلتها تدخل تحت حماية البابوية مباشرة مقابل دفع أتاوة منتظمة، بالضبط كما كان الحال بشأن الضرائب الاقطاعية التى كان يدفعها الأقنان للسيد الاقطاعى مقابل حمايتهم والذود عنهم، على أن هذه الحماية الاقطاعية للبابوية لم تقتصر على المؤسسات والهيئات الدينية، وانما امتدت فى العصور الوسطى الى بعض الحكام أنفسهم فظهر من الأمراء والملوك من أحس بضعفه، وحاجته الى حماية البابوية، فسلم أراضيه وممتلكاته للبابوية على أن يعود فيتسلمها من البابا كاقطاع، وفى هذه الحالة يصبح الأمير فصلا أقطاعيا للبابا(٢) يتمتع بحمايته مقابل بعض الالتزامات الاقطاعية التى يؤديها الفصل لسيده، هذا عدا الضرائب التى كانت تجمعها

---

(١) - ول ديورانت، قصة الحضارة، المرجع السابق حـ٤ ص٤٢٨/٤٢٩.

(٢) - فصلا اقطاعيا للبابا: أى يدين له بالتبعية والاخلاص والمساعدة الحربية، انظر فيشر، تاريخ أوربا، المرجع السابق حـ١ ص١٦٣

البابوية من بعض الاديرة نظير تحريرها من ولاية الاسقفية التى يقع الدير ضمن دائرتها، أو تجمعها من بعض الاسقفات مقابل تحزيرها من ولاية رئيس الاساقفةالتى تقع الاسقفة داخل منطقة نفوذه.

وهكذا صار للبابوية ايراد ضخم من هذه الموارد المختلفة، الأمر الذى تطلب عام ١١٩٢م تعيين مسجل خاص للخزانة البابوية، لحصر مختلف الهيئات التى تداينها البابوية بضرائب منتظمة فى كافة بلدان غرب أوربا كانجلترا والبرتغال وبولندا وغيرها، وبيان المبلغ المستحق على كل منها.(١)

ويشير أحد الباحثين(٢) : الى هذا التسلط المالى فيقول : (أصبحت - الكنيسة - بفضل الهبات والاتاوات والعشور والهدايا والغصب والنهب والتدليس وغير ذلك من الوسائل من ذوات الاقطاع بل كانت املاكها فى بعض الأوقات تفوق املاك الاباطرة وأمراء الاقطاع، ومن ثم فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فوقفت فى صف الظلم تسانده وتذود عنه وتحارب الاصلاح، وكانت فى ذلك منطقية مع وضعها باعتبارها من كبار الملاك، فهل كان يمكن - عقلا - أن تحارب الاقطاع وهى جزء منه، بل من أكبر ممثليه؟».(٣)

وبلغ من التسلط الكنسى ايضا أنها كانت تطبق نظام السخرة، فقد كانت تفرض على رعاياها العمل يوما واحدا فى الاسبوع بالمجان فى أراضى الكنيسة الواسعة فيعمل التعساء ستة أيام فى الأسبوع ليجدوا خبز الكفاف لهم ولاسرهم ثم يعملون اليوم السابع يوم الراحة سخرة فى أراضى الكنيسية لكى توفر الأخيرة أجور العمال التى كان المفروض أن تدفعها لقاء زراعة أقطاعياتها الواسعة وجنى حاصلاتها وتزداد بذلك اكتنازا وضراوة

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٢٢٢/٢٢٣ .

(٢) - محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، المرجع السابق ص٧٠

(٣) - محمد قطب، المرجع السابق ص٧٠

فى طلب المزيد من المال، ولقد كان من السهل على الكنيسة ذلك الطغيان المالى وهى تملك ذلك أن تصدر الأمر فيطيع العبيد صاغرين.(١)

اضف الى ذلك التسلط السياسى ايضا الذى كانت تقوم به على الحكام أنفسهم واستخدامهم كوسيلة لتحقيق ما تريد - مما سيأتى تفصيله - كل ذلك أدى بالطبع الى تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وخاصة إذا ما علم أن الكنيسة كانت تمثل الملاذ الدينى للمجتمع الأوربى فاذا ما ظهر منه هذا التسلط وذلك الانحراف فلا يمكن أن تكون النتيجة إلا مزيدا من التدهور والإنحراف فى كافة المجالات.

رابعا : سوء النظام الاقطاعى الأوربى :

أدى سوء النظام الاقطاعى فى أوربا فى تلك الفترة، وفى العصور الوسطى بشكل عام الى تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد ظهر سوء هذا النظام فى عدة نواحى لعل من أهمها ما يلى :

أ - سوء نظام ملكية الأراضى :

فقد كان الاقطاع للاسياد والنبلاء، وللكنيسة ورجالها، وكان هؤلاء الملاك يتمتعون بمكانة سامية فى المجتمع الأوربى، فهم الذين لهم حق التملك والبيع والشراء والهبة وغيرها من التصرفات المالية، بينما الضعفاء، وصغار الفلاحين كانوا يعيشون عيشة البؤس والحرمان فلا يستطيعون تملك أرض أو عقار أو آلة من الآلات ليستخدمونها فى مجال عملهم، أو حتى فى مجال معيشتهم العامة كما كان لنظام الملكية القائمة للسيد فى تلك الفترة ايضا أثره فى تدهور الأوضاع الاقتصادية فى أوربا حيث تحول الاقطاع الى منحة وراثية، يتحكم فيه السيد، فاذا مات صاحب الاقطاع يرثه ابنه الأكبر بشروط معينة، يشترطها الاقطاعى منها ولاء الابن وتبعيته التامة لهذا السيد تبعا لملكية

---

(١) - محمد قطب، المرجع السابق ص٤٣ .

الأرض، مما يعنى ملكية الأرض وفلاحيها وورثتهم بصفة دائمة لهذا الاقطاعى.(١)

لكن الأخطر من ذلك هو أن هذه الملكية من الناحية الفكرية مرت فى العصور الوسطى بمراحل مختلفة، فقد كانت تعاليم الكنيسة تقبح الملكية وتعتبر أن السعى اليها شيء يتعارض مع المسائل الروحانية تعارضا لا يقبل التوفيق برغم أنه لم يكن هناك انكار للملكية الخاصة، إلا أن الآباء المسيحيين اعتقدوا أن السعى وراء الثروة أو الغنى يعرض النفس للهلاك، فقد نقل أحد كتاب الفكر الاقتصادى عن القديس جيروم قوله : الغنى : ظالم، أو وارث ظالم، كما أن القديس أوجستين خشى ان تصرف التجارة الناس عن السعى الى الله، وقد كان لمثل هذه التعاليم أثرها الكبير على السعى لتكوين الثروة أو زيادة الملكية الخاصة فى بداية العصور الوسطى، إلا أنها لم تستمر على هذا الحال حتى منتصف هذه العصور ثم تعرضت للهجوم الشديد فى نهاية العصور الوسطى، فقد كان من الواضح تعارض هذه التعاليم الكنسية مع الفطرة الانسانية التى خلق الله الناس عليها من حب التملك، والضرب فى الأرض واصلاحها واستثمارها.

وظهر من المسيحيين أنفسهم من كان يميل الى التوفيق بين مطالب الحياة الاقتصادية من جهة والمطالب الروحية من جهة أخرى كتوماس الاكوينى الذى دافع عن الملكية الخاصة مستندا فى حججه الى آراء ارسطو وشرعيتها من الناحية الاخلاقية، ثم أبرز توماس الاكوينى أهمية وضرورة استخدام الملكية الخاصة من أجل المصلحة الجماعية، واستطاع بذلك أن يدافع عن النظام الاقتصادى القائم على الملكية الخاصة لكن فى الحدود التى لا تخرج عن التعاليم المسيحية، فهو لم يدافع عن الملكية فى حد ذاتها، وإنما دافع عنها بصفتها وظيفة اجتماعية أى تدار لصالح الجماعة.

---

(١) - سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق جـ٢ ص٢٦٠ ، انظر عبدالرحمن يسرى أحمد، تطور الفكر الاقتصادى، الطبعة الثانية، دار الجامعات المصرية، الأسكندرية، عام ١٩٨٧م ص٢٥ .

ب - سوء الأوضاع القانونية للنظام الاقطاعي :

ومما أدى الى سوء نظام الاقطاع فى أوربا أيضا، سوء الأوضاع القانونية لهذا النظام، فقد كان العاملون فى الأرض تابعين لها ولصاحبها، فهم فيها كالآلات الزراعية وكحيواناتها، ينتقلون مع الأرض اذا بيعت أو وهبت أو طرأ عليها ما يؤدى الى انتقالها لشخص آخر، فلا يستطيعون الانتقال الى أرض أخرى أو لمالك آخر، ولصاحب الأرض الجديد الحق المطلق فى كل شيء، ومما زاد الأمر سوءا أن الكنيسة كانت راضية عن ذلك - بما كان لها من سلطة - حيث تمتعت هذه الحقوق للسيد بالصبغة الشرعية والتى كانت مكفولة للكنيسة آنذاك.

وأصبحت هذه الحقوق والالتزامات - والتى سيأتى ذكرها - على الفلاحين والارقاء بمثابة قانون ثابت دارت حوله الحياة العامة فى تلك الفترة، مما ترتب عليها كثير من المشكلات القانونية، ومن ضمن هذه المشكلات فى القانون الاقطاعى حينئذ، مشكلة تعدد السادة الاقطاعيين للفلاح الواحد تلك المشكلة التى أدت الى الفوضى القانونية فى أوربا آنذاك لاسيما عندما يجد أحد أرقاء الأرض أثنين من سادته الاقطاعيين قد التحما فى حرب، فيتطلب منه الأمر تقديم المساعدة الى الطرفين المتنازعين جميعا، وللتخلص من هذه المشكلة اصبح رقيق الأرض لا يقدم ولاءه الشخصى إلا لسيد واحد يختصه بكل خدماته الشخصية، فى حين يكتفى بتقديم بقية الالتزامات المادية - غير الشخصية - لبقية سادته الاقطاعيين - ان وجدوا -.

ولاشك أن هذا التعقيد الذى أصاب العلاقات الاقطاعية أدى لكثير من الفوضى فى أوربا فى العصور الوسطى بشكل عام.(١) وكانت هذه الحقوق والالتزامات متنوعة فأحيانا تكون مادية، وأحيانا حربية أو اجتماعية أو سخرة حتى دخلت تلك الالتزامات القانونية فى أخص الخصوصيات الاجتماعية عندما

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق جـ٢ ص٢٧٠ .

يريد الفلاح تزويج ابنته، فان عليه ان يأخذ موافقة سيده ؛ لأن ذلك قد يترتب عليه انتقال جزء من اقطاع والد الزوجة الى زوجها مما يجعل أمر موافقة السيد أمرا ضروريا لازما فى عقد الزواج.(١)

٣ - سوء الأوضاع الاجتماعية لهذا- النظام :

أدى نظام الاقطاع - بشكل عام - الى تدهور الأوضاع الاجتماعية ايضا فى تلك الفترة، وذلك من خلال ما وجد من فوارق طبقية كبيرة حيث كان المجتمع مقسم الى طبقتين : طبقة الاسياد وطبقة العبيد (ارقاء، ورقيق للارض)، وكان الاسياد من نبلاء ورجال الدين والاقطاع يعيشون عيشة الترف والبذخ ويتمتعون بكافة الحقوق والامتيازات بينما كان الارقاء، وعبيد الارض يعيشون عيشة الاكواخ، والحياة البائسة فى المأكل والملبس والمسكن - كما سيأتى - ومما زاد الأمر سوءا الكنيسة كانت تقر هذه التفرقة الطبقية وتحبذها إذ أن التعاليم النصرانية كانت تعتبر الناس جميعا ابناء لأب واحد ومن ثم فهم أخوة وكل انسان انما يتكون اساسا من روح خالدة لا تفنى - على حد قولهم -. وهذه الروح متساوية فى الجميع، ولذلك فالأخوة كلهم متساوون، وكان مقتضى ذلك أن يتحطم التقسيم الطبقى للمجتمع الاقطاعى الذى يقوم على أسياد وعبيد، لكن ذلك لم ينادى به المفكرون النصارى فى القرون الوسطى، بل على العكس قبلوا وحبذوا هذا التقسيم بحجة أن الدار الدنيا فترة انتقال وتحضير للآخرة الدائمة الباقية، وبالتالى فان كل ما فى الدينا - فى نظرهم - يفقد أهميته ويبدو ضئيلا اذا ما قيس بما يجب فعله لتحقيق النعيم فى الدار الآخرة الباقية.

---

(١) - عبدالله المصلح، الملكية الخاصة، المرجع السابق ص٢٥، ول ديوارنت، قصة الحضارة، المرجع السابق حـ٤ ص٤١٠، د. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص٢٦٤ .

وبهذه الحجة قبلوا نظام التقسيم الطبقى، بما يقوم عليه من تمييز بعض الناس وشقاء الآخرين يجب ان ينظر اليه، على أنه شىء عابر، لأنه متعلق بالحياة الدنيا التى يتضاءل ما فيها إذا ما قيس بما يجب أن يكون للحياة الآخرة.

وهكذا برغم أنهم اعتبروا الناس جميعا أخوة ومتساوون إلا أنهم أجازوا التقسيم الطبقى على أساس أن الحياة الدنيا إنما هى حياة عابرة فسوغوا التقسيم الطبقى الاقطاعى تسويغا عقليا أو شبه عقلى، وأصبح هذا التسويغ بعد ذلك - برغم خطئه - هو النظرية السائدة كما أشار الى ذلك المؤلف الانجليزى "تاونى" برغم ما فيه من قسوة ومساوىء(١).

وبناء على ما تقدم فان الكنيسة قد ساهمت مساهمة فعلية فى ترسيخ هذا النظام الطبقى وتأكيده وتطبيقه، واصبحت الطبقة نظاما اجتماعيا عاما مقبولا بتقرير الكنيسة له.

وقد أدت هذه المساوىء وغيرها إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والتشريعية لهذا النظام، وقبل المجتمع الأوربى مساوىء هذا الاقطاع الذى سادته ملكية جائرة، وأوضاع قانونية غير سليمة ولا ملائمة، وتفرقة طبقية اذلت النفوس، فكلت الهمم وتقاعس الناس عن العمل والانتاج، وجنى المجتمع الأوربى المسكين مساوىء هذا النظام العقيم.

---

(١) - لبيب شقير، تاريخ الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص٦٨/٦٩، عاصم الدسوقى، دراسات فى التاريخ الاقتصادى، المرجع السابق ص٥٩/٦٠

المبحث الثالث

السمات الأساسية للأنشطة الاقتصادية الأوربية في تلك الفترة

بعد أن استعرضنا الأوضاع السياسية والاجتماعية والتشريعية وأثرها على الأنشطة الاقتصادية المختلفة-الأوربية فى تلك الفترة، فقد ظهر لنا أن هذه الأنشطة قد اتسمت ببعض السمات الأساسية فى فترة هذا البحث، وفى فترة العصور الوسطى ايضا - بشكل عام - ونحاول فيما يلى عرض هذه السمات بشىء من التفصيل.

أولا : مشروعية التقسيم الطبقى :

من السمات الأساسية للنشاط الاقتصادي الأوربى فى تلك الفترة مشروعية التقسيم الطبقى لهذا المجتمع، فقد سلمت بهذا التقسيم الغالبية العظمى من الأفراد معترفة بالتفاوت الطبقى بين الانسان وأخيه فى الحياة الدنيا - كمبدأ عام - وعلى أساس أنه تعبير عن ارادة الخالق - على حد زعمهم - ولذا حددت نشاطات كل فرد وواجباته وامتيازاته طبقا لمرتبته الاجتماعية. وقامت الكنيسة بدور فعال فى ترسيخ هذا المفهوم بين الناس بما كان لديهم من قوة روحية ومادية فى ذلك الوقت وقد كان أهم ما يميز الغالبية العظمى من مفكرى الكنيسة فى العصور الوسطى، هو تبشيرهم بعدم الاكتراث بضروب الشقاء فى هذه الدنيا وموافقتهم على نواحى التفاوت فى المراتب الاجتماعية والاقتصادية، بيد أن هذا لم يمنعهم احيانا من استنكار بعض أنواع الاستغلال الاقتصادى الذى كانت تعانى منه الطبقات الدنيا فى المجتمع الأوربى(١)، لكن تبقى السمة العامة للعلاقة بين الأفراد فى مجال الأنشطة الاقتصادية على أساس التفاوت الطبقى والتمييز بين افراد المجتمع الأوربى، بحيث ظل لكل طبقة اجتماعية حقوق وامتيازات، وواجبات حددت بعناية كما سبق وأن أشرنا.

---

(١) عدنان عباس، تاريخ الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص٢٨/٢٩.

ثانيا : الزراعة هي النشاط الغالب في المجتمع الأوربي :

كانت الزراعة هى النشاط الغالب، والانتاج المسيطر على كافة الأنشطة الاقتصادية فى تلك الفترة، ولا تكاد تعرف اقتصاديات أوربا - فى تلك الفترة - من عناصر الثروة غير الأرض، فقد كانت الأرض هى أساس كل حياة اقتصادية واجتماعية وسياسية وتشريعية فقد كانت السلطة لمن يمتلك الأرض ولذلك فان الأرض كانت أساس النظام الأقطاعى والنشاط الاقتصادى فى تلك الفترة.(١)

فقد شغلت الزراعة المركز الأول بين أوجه النشاط الأقتصادى المختلفة فى أوربا فى العصور الوسطى فى الفترة من سقوط الأمبراطورية الرومانية وحتى نجاح الثورة الصناعية فى بلدان أوربا الغربية.

وبالتالى فقد ظل ناتج الأرض طيلة هذه العصور المصدر الوحيد تقريبا لاشباع الحاجات الانسانية وقد استوعبت الأعمال الزراعية النسبة الغالبة من السكان (الفلاحون ، والعبيد)، كما تركزت نظم الملكية الزراعية، وطرق الزراعة وادارتها فيما عرف «بنظام الضيعة» كأساس اجتماعى واقتصادى وسياسى، لنظام الاقطاع فى أوربا فى تلك الفترة.(٢)

ثالثا : ملكية العمل والانتاج للأسياد

ومن سمات النشاط الاقتصادى السائد فى تلك الفترة فى أوربا أن قوة العمل والانتاج كانت مملوكة للسيد أو النبيل الذى يملك أراضى الضيعة ومن عليها، وبمعنى آخر، كان هناك فصل بين قوة العمل وملكية ادوات الانتاج.

كما أن العلاقة بين قوة العمل ، ورب العمل لم تكن علاقة تعاقدية تحكمها شروط معينة، بل كانت علاقة عملية الزامية، تلقائية معا فى جانب واحد هو العامل، وتتمثل هذه العلاقة فى الحقوق التى ثبتت وتأكدت للسيد فى مواجهة العاملين من صغار الفلاحين، وذلك حين تنازل هؤلاء له عن ممتلكاتهم وحرياتهم مقابل الدخول فى حوزته وحمايته العسكرية.(٣)

---

(١) - اسماعيل، مذكرات فى التطور الاقتصادى، المرجع السابق ص٣٧.

(٢) - اسماعيل هاشم، مذكرات فى التطور الاقتصادى، دار الجامعات المصرية الاسكندرية عام ١٩٧٥م، المرجع السابق ص٣٨/٣٩.

(٣) - .. اسماعيل هاشم، المرجع السابق ص٣٧ .

رابعا : سيادة الملكيات العقارية الكبرى :

لقد انتشر نظام الملكية العقارية الكبرى منذ العصر الرومانى وأصبح فى القرن الثامن والتاسع سمة عامة للمجتمع الأوربى فى مجال الملكية، ومما لاشك فيه أن الملكية الصغيرة لم تزل تماما، لأن المصادر تذكر لنا وجود ملاك متواضعين منتشرين هنا وهناك فى غرب أوربا، لكن الملكية العقارية السائدة كانت شيوع الملكيات الكبيرة، ونذكر منها على سبيل المثال ملكيات أبوية القديس جرومان دوبريه تقارب مساحتها فى أوائل القرن التاسع الميلادى ٣٣،٠٠٠ هكتار، كما كانت العقارات الكبرى على العموم شكلا سائدا للنظام العقارى فى أوربا، وهناك عدد كبير من البيانات المفصلة، وخاصة الدومينات الكنسية، وتحتوى على وصف كامل لأموال وواردات الأبويات (الأديرة) والابرشيات واكثر هذه الوثائق أهمية وتفصيلا تلك المتعلقة بأبوية القديس جرمان دوبريه التى وضعها الأب ايرمينون فى آخر حكم شارلمان وأول حكم خلفه.(١)

وكانت هذه الملكيات اضخم وأوسع من أن يستطيع صاحبها تشغيلها واستثمارها وحده، فهى تحتاج بالنظر لما كانت عليه وسائل الزراعة إذ ذاك الى عدد كبير من المزارعين والشغيلة، غير أن ندرة النقدين فى أيدى الناس، كثيرا ما حالت دون اكتراء ما يلزم لها من اليد العاملة. كذلك كان من المرهق والمرزح معا لصاحب الاملاك الواسعة استخدام أو تشغيل عدد كبير من الأرقاء والعبيد إذ ليس من السهل ايجادهم أو توفيرهم، ولاسيما أن نتيجة العمل لم تكن مشجعة، ولهذا فضل أصحاب العقارات الكبيرة استثمارهم قسما من أملاكهم هذه على يد عبيدهم أو بعض الأحرار المزارعين على أن يوفروا لهم أودهم وأود ذويهم وحمايتهم العسكرية ايضا.(٢)

---

(١) - نور الدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، المرجع السابق حـ١ ٢٦٩/٢٧٠ والابرشيات هى المنطقة التى تخضع لسلطة الأسقف، انظر، المعجم الوسيط حـ١ ص٢

(٢) - اداور بروى، تاريخ الحضارات العام، المرجع السابق حـ٣ ص١٥١.

خامسا : سيادة الاكتفاء الذاتى (الاقتصاد المغلق).

من السمات الاقتصادية الأساسية لأوربا فى تلك الفترة سيادة الاكتفاء الذاتى، بمعنى أنه اصبحت الضيعة وحدة اقتصادية قائمة بذاتها، ولا ترتبط مع غيرها بروابط تجارية، وكان على أهلها أن يعتمدوا على سواعدهم فى كل ما يحتاجون اليه، وكانت الضيعة بذلك أشبه ما يكون بمملكة صغيرة يحكمها سيد يتمتع بسلطة شبه مطلقة، ويمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتى، بحيث يشبع انتاج الضيعة السيد والمسودين جميعا، وكانت ايضا تكفى نفسها بنفسها الى حد كبير، وتنتج جميع المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك اهلها، ماعدا بعض الكماليات كالتوابل التى يمكن لصاحب الضيعة أن يستوردها.

أما الصوف فكانت النساء تعتمد بصباغته وغزله فى حين يقوم الرجال بدبغ الجلود وصناعة النعال والسروج وغيرها من المنتجات لغرض الاستهلاك المحلى، وبالتالى كان لكل ضيعة حدادوها ونجاروها ...الخ وإذا كان غالبية رقيق الأرض قد اشتغلوا بفلاحة الأرض، فان هناك جزءا من هؤلاء قد اشتغلوا لسد حاجة الضيعة فى مختلف المصنوعات اليدوية، وظلت الصناعة ايضا مقصورة على حاجة السوق المحلية وفى محيط الضيعة. وهكذا كانت الضيعة فى أوربا فى تلك الفترة، وفى العصور الوسطى بشكل عام تتبع نظام الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية، بمعنى انها ظلت، حتى القرن الثانى عشر الميلادى على الأقل فى غير حاجة ملحة الى شىء من التبادل التجارى مع العالم الخارجى، الأمر الذى ترتب عليه عدم وجود أسواق كبرى للمنتجات القروية فى ذلك العصر.

كما أن سياسة الاكتفاء الذاتى التى اتبعتها الضيعة تطلبت من أهلها أن ينصرف بعضهم الى توفير مطالب الغذاء والكساء، والمأوى فى حين انصرف البعض الآخر للنواحى الدفاعية والادارية والروحية.(١)

واصبح الاكتفاء الذاتى سمة من سمات تلك الفترة فى أوربا فى جميع الأنشطة الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية، غير أن هذا الاكتفاء لم يكن حسنة من حسنات النظام الاقتصادى فى أوربا فى تلك الفترة، بل كان يعتبر سيئة من مساوئه إذ ساهم هذا الاكتفاء فى ركود الزراعة والتجارة والصناعة فتوقفت الأسواق الكبرى والصناعات المختلفة لغرض التصدير ومن ثم توقفت عمليات التبادل التجارى مع العالم الخارجى مما قلل من دوافع الانتاج والاستثمار لغرض تحقيق الربح فى المجتمع الأوربى.

---

(١) - د. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوربا الوسطى، المرجع السابق جـ٢ ص٢٨٣/٢٨٥، عدنان عباس على ، تاريخ الفكر الاقتصادى، المرجع السابق ص٢٧، سانت ل.ب موسى، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبدالعزيز توفيق جاوير ومراجعة . السيد الباز العرينى مطبعة دار الاتحاد العربى للطباعة ونشر، عالم الكتب، القاهرة عام ١٩٦٧م، ص ٣٧٨

المبحث الرابع

مقارنة وتقويم لتطور الأنشطة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول بنظيرتها الأوربية فى تلك الفترة

سبق أن بينا أن الأنشطة الاقتصادية - الزراعية والصناعية والتجارية- قد شهدت تطورا كبيرا فى الدولة العباسية، كما أنها فى المقابل شهدت تدهورا وانحطاطا فى أوربا فى تلك الفترة - بشكل عام - .

ونحاول فيما يلى عقد مقارنة وتقويم بين تلك الأنشطة الاقتصادية فى الدولة العباسية ونظيرتها الأوربية.

أولا : المقارنة والتقويم فى مجال النشاط الزراعى :

كانت الزراعة - بشكل عام - تعتبر المصدر الأساسى للدخل القومى فى كل من الدولة العباسية، والمجتمع الأوربى فى تلك الفترة كما أن النشاط الزراعى كان غالب نشاط السكان، إذ كان غالبية السكان فى المجتمعين يعملون فى النشاط الزراعى، كما أن الملكيات العقارية الكبرى قد سادت فى كلا المجتمعين، لكنه بالرغم من ذلك فقد كانت هناك فروق جوهرية فى مجال التطبيق العملى لهذا النشاط فى كل من المجتمعين، ونحاول فيما يلى بيان هذه الفروق بشىء من التفصيل :

أ - من حيث مكانتها فى الدخل القومى :

كانت الزراعة مصدرا أساسيا للدخل القومى فى الدولة العباسية - كما أسلفنا - لكنها لم تكن المصدر الوحيد للدخل القومى، إذ ان كثيرا من أبناء المجتمع العباسى كانوا يعملون فى أنشطة أخرى غير الزراعة كالصناعة والحرف والتجارة وغيرها، وقد كان من يعمل فى الأنشطة الأخرى يمثلون قطاعا عريضا من المجتمع العباسى .

فقد أشارت الكثير من المصادر الى أعداد كبيرة من العمال كانوا يعملون فى الحرفة الواحدة وفى المدنية الواحدة فى الدولة العباسية[1] ايضا.

---

(١) - لمزيد من التوضيح راجع ص٢٥٣/٢٥٦ من هذا البحث

ب - من حيث الملكية ونظامها :

كان للملكية دور هام فى تطور النشاط الزراعى فى الدولة العباسية، فقد سادت الملكيات الكبيرة وتنوعت، واتسع نطاقها، وكان كل ذلك ناتج من واقع المجتمع العباسى المسلم، ولذلك فقد أدت الملكية دورها، وحققت اهدافها المرجوة وفيما يلى توضيح هذه الفروق بشىء من التفصيل :

١ - من حيث سيادة الملكية الكبيرة : ذكرنا فيما تقدم أن الملكيات الكبيرة قد سادت فى كلا المجتمعين، لكنها لم تمنع من وجود ملكيات صغيرة فى المجتمع العباسى، ولم تختص الملكية الكبرى بمجموعة من الناس دون غيرهم كما كان الحال فى أوربا، وانما تساوى الجميع فى مجال الملكية فكان من حق أى فرد أن يمتلك، ودون محدودية لتلك الملكية كما أن الدولة نفسها كانت تمارس عمليات التمليك للناس عن طريق الاقطاع وغيره، أما فى أوربا فكانت الملكيات الكبيرة للنبلاء وكبار رجال الدين والدولة، ولم يكن للفلاح الصغير نصيب منها، إلا القليل، وقد يقول قائل بأن المجتمع العباسى كان الفلاحون الصغار فيه، يلجئون اراضيهم الى كبار رجال الدولة ويتخلصون من ملكية الأرض لعدم استطاعتهم حمايتها(١).

نقول : صحيح أنه قد وجدت بعض هذه الانحرافات فى المجتمع العباسى لكنها لم تكن الصورة العامة، كما أن خلفاء الدولة العباسية لم يقفوا مكتوفى الأيدى تجاه تلك المشكلة كما أن رجال الفقه والفكر تصدوا بشجاعة لهذا الانحراف ونصحوا خلفاءهم بالعلاج اللازم لحل تلك المشكلة، وقد ظهر ذلك جليا من موقف أبى يوسف - رحمه الله - مع الرشيد حين نصحه بضرورة الأخذ على يد العابثين وأن يولى أهل الصلاح والدين وأن يعامل الناس بالحسنى فلا يأخذ منهم أكثر مما ينبغى، وأن يتفقد أعمالهم، ويعزل غير الصالح منهم(٢)، كما قام بعض الخلفاء باصلاحات عملية لمواجهة المشكلات

---

(١) - أوردنا فيما تقدم صور كثيرة ومتعددة لحالات الالجاء فى المجتمع العباسى راجع ص ١١٠ وما بعدها من هذا البحث.

(٢) - راجع ص١٥٢/١٥٣/ ٤٤٩ من هذا البحث

الزراعية المختلفة والتى بسببها ظهرت مثل هذه الانحرافات منها ما ذكرته بعض المصادر من أن المنصور أنكر على عبدالوهاب بن ابراهيم والى فلسطين عسفه فى جباية الخراج فعزله من الولاية.(١)

كما أن المهدى قرر العدول عن نظام المساحة الذى اعتمد عليه فترة كبيرة كنظام للجباية، والذى كان بمقتضاه تقدر الدولة خراجا معينا على مساحة الأرض دون النظر الى حالة المحصول أو اسلوب الزراعة، فغير المهدى ذلك بتطبيق نظام المقاسمة بدلا من نظام المساحة، وأصبحت الدولة تقاسم المزارعين وفق نسب معينة دون نظر لمساحة الأرض وذلك لمراعاة حال الزراع، وظروف المحصول من ناحية الوفرة أو عدمها كما خفف الرشيد عبء الجباية ايضا بالغاء العشر الذى كان يجبى من أهل العراق بالاضافة الى نسبة النصف المقررة بحكم نظام المقاسمة، وبالتالى فقد حرص الخلفاء فى الدولة العباسية على علاج المشكلات التى كان من شأنها يلجأ صغار الزراع لعمليات الالجاء.(٢)

٢ - من حيث تنوع الملكية وأساليبها :

تنوعت الملكيات فى الدولة العباسية، فقد كانت هناك ملكيات عامة وخاصة، كما تنوعت ايضا نظم واساليب التملك فهناك تمليك بالاقطاع وبالضياع وبالوقوف وغيرها - كما سبق أن أشرنا - مما كان له أثره على تطور النشاط الزراعى وزيادة الحافز على الانتاج، ولم تمثل هذه الأساليب وحدة اقتصادية قائمة بذاتها، كما كان الحال فى أوربا، حيث كانت الضيعة أو الاقطاعية تمثل وحدة اقتصادية قائمة بذاتها فى أوربا، أتسمت بالاكتفاء الذاتى والانغلاق على نفسها، وكان السيد فيها يتمتع بسلطات شبه مطلقة، ويتملك جميع مقومات الاكتفاء الذاتى بحيث كان انتاجها يشبع كلا الطرفين دون الحاجة الى الخروج خارج هذه الدائرة، وقد كان لتنوع الملكية وكذا تنوع أساليبها فى الدولة العباسية أهمية بالغة، جعلها تخطو خطوات واسعة الى الامام.

---

(١) - الجهشيارى، الوزراء، المرجع السابق ص١٧٣

(٢) - حسن أحمد محمود، وأحمد ابراهيم الشريف، العالم الاسلامى فى العصر العباسى، المرجع السابق ص١٩٢

فقد كان توسيع نطاق الملكية وتفتيت الاراضى وتوزيعها على كافة ابناء المجتمع مشروطا بمقدرة الشخص على العمارة والاستغلال، فكان لا يملك من تعجز قدراته نهائيا عن العمارة والاحياء، وهو الامر الذى أكده فعل عمر رضى الله عنه مع بلال بن الحارث حين اعطاه ما يستطيع عمارته وأمره برد الباقى.

بخلاف ما كان عليه الحال فى أوربا حيث كان نطاق الملكية متسعا للأسياد والنبلاء والكنيسة ورجالها، يملكون ما يشاءون دون اعتبار لمقدرتهم على عمارتها واستغلالها، مما نتج عنه انحطاط فى النشاط الزراعى برغم أنه كان النشاط الغالب ،كما أن الدولة العباسية بالاضافة الى أنها كانت توسع نطاق الملكية كانت ايضا تكفل وسائل الحماية لها فى ظل قواعد الشريعة وأهدافها العامة التى تهدف الى تحقيق العدالة فى المقام الأول.

وهناك أمثلة كثيرة فى العصر العباسى الأول على حماية املاك الناس وضياعهم منها : أن الهادى جلس يوما للمظالم فحضر رجل من جملة المتظلمين يدعى أن عمارة بن حمزة قد غصب ضيعة له، فامر الهادى عمارة بالجلوس معه للمحاكمة، فقال يا أمير المؤمنين ان كانت الضيعة له فما أعارضه فيها ، وان كانت لى فقد وهبتها له، وما أبيع موضعى من مجلس أمير المؤمنين.(١)

ومنها أن المأمون جاءته امرأة تشكو اليه ابتزاز ضيعتها فقال لها انهبى واحضرى خصمك يوم الاحد - وكان يجلس للمظالم يوم الاحد - فانصرفت وحضرت يوم الأحد فى أول الناس ، فقال لها المأمون من خصمك؟ فقالت : القائم على رأسك، العباس بن امير المؤمنين، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن اكثم، وقيل لوزيره أحمد بن ابى خالد اجلسها معه وانظر بينهما، فأجلسها معه ونظر بينهما بحضرة المأمون، وجعل كلامهما يعلو، فزجرها بعض حجابه فقال المأمون دعها فان الحق أنطقها، والباطل اخرسه، وأمر برد ضياعها عليها.(٢)

---

(١) - الماوردى، الأحكام السلطانية، المرجع السابق ص٩٠

(٢) الماوردى، المرجع السابق ص٨٤/٨٥

وهذا يدل على أن خلفاء الدولة العباسية كانوا يحمون الملكية ويحترمونها فى الوقت الذى كانت فيه أوربا، لا تعرف إلا حقوق الأسياد والنبلاء فقط دون النظر الى الضعفاء من الناس، بل وتزيد عليهم الزامهم بشتى الالتزامات - والتى سبق أن اشرنا الى بعض منها - .

ولاشك أن حماية الملكية شىء هام فى الحياة الاقتصادية، إذ توفر الأمن والاستقرار للنشاط الاقتصادى بصفة عامة، كما أن توفير الأمن والاستقرار يدفع الى زيادة الانتاج واستغلال الموارد استغلالا أمثل مما يترتب عليه زيادة الانتاج على المستوى الكلى فى المجتمع.

ومما زاد من اهمية نظام الملكية فى الدولة العباسية أن نظم التملك والاستغلال للأراضى الزراعية نبع من واقع المجتمع العباسى وتعاليم دينه، فكانت النتائج ايجابية، أما فى أوربا فقد اقتبست نظمها مما كان موجودا فى الدولة الرومانية، فانعكس ذلك على أوضاعها الاقتصادية ونتج عنه اقتصاد مغلق ممزق غير ملائم لأبناء المجتمع، وقد ظهرت الهوة فيه واسعة بين واقع المجتمع، وما طبق فيه من نظم، فكانت النتيجة هى سوء الأوضاع الاقتصادية بشكل عام فى جميع الأنشطة الاقتصادية لأوربا، كما كان التمسك بمنهج الله فى الدولة العباسية وتطبيق القواعد الاسلامية فى التملك والاستغلال وغيرها له أثره الايجابى على ازدهار النشاط الزراعى وغيره من الأنشطة فشملت العمارة كل الأنشطة، وكل الموارد البشرية والطبيعية، كما تحققت رغبات المجتمع بأسره حكاما ومحكومين.

حـ - من حيث طرق وأساليب الزراعة وسياسة تنميتها :

أما من حيث طريقة وأساليب الزراعة وسياسة تنميتها، فقد تمتع الفلاح فى ظل الدولة العباسية باختيار الطرق المختلفة للزراعة، واساليب تطويرها فعرف التسميد الطبيعى وتفنن فيه ابناء المجتمع، كما تفننوا فى طريقة الزراعة فعرفوا فن التكبيس والتركيب (التطعيم) والتقريض أو التقليم،

وأساليب مكافحة الحشرات والهوام الزراعية - كما سبق وأن اشرنا- كما كانت الدولة تقدم المساعدات المادية والعلمية للنهوض بالزراعة، واتخذت فى ذلك السياسات الملائمة للنهوض بها، فطبقت السياسات الخاصة بتنمية الموارد الزراعية وتمويلها، وحصرت الأرض القابلة للزراعة ووزعتها وفق خطة شبه قومية.(١)

كما اقامت السدود والقنوات وحفرت الآبار وتحملت نفقات الرى، واهتمت بالموارد البشرية وتنميتها، فاستقدمت أهل الخبرة من المهندسين، وذوى الكفاءات العالية، وقدمت الاعانات والمساعدات المالية فى حالات الكوارث والمحن التى كانت تواجه المزارعين، وتدخلت فى بعض الأحيان للتأثير فى مستوى الأسعار، والسيطرة عليها، وبصفة خاصة فى حالات الأزمات والكوارث.(٢)

وفى المقابل كان الفلاح الأوربى يعانى أوضاعه السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتدهورة، ولا يتمتع بتلك المزايا، إذ كان عليه أن يعمل فى حقل سيده، وبالطريقة التى يريدها سيده، فيقوم بزراعة اشرطة متفرقة فى مناطق عديدة، وبالتالى أدى ذلك الى انخفاض فى انتاجية الأرض، والتى كانت تفقد جزءا كبيرا من انتاجها بسبب التنقل من قطعة الى أخرى، أو بسبب الممرات الكثيرة بين القطع المختلفة، كما كان من الصعب على الفلاح أن يختار المحصول الذى يريد، اذ كان عليه أن يحصل على موافقة ملاك الأرض، والفلاحين الذين من حوله، مما أدى الى ضرورة البحث عن طرق أخرى للزراعة ، فكان نظام الحقل الواحد، ونظام الحقلين، والثلاثة حقول - والتى سبق ان اشرنا اليها-(٣) لكنها جميعا لم تف بالمطلوب.

---

(١) - لمزيد من التفصيل راجع ص ٢٠٤ من هذا البحث.

(٢) - راجع ص ٢١٠/٢١٤ من هذا البحث.

(٣) - لمزيد من التفصيل راجع ص٤٢٤/ ٤٢٥ من هذا البحث.

كما لم تكشف المصادر التاريخية عن وجود سياسات زراعية من شأنها تحسين الانتاج الزراعى وتطويره فى أوربا - فى تلك الفترة - فاصيب الانتاج الزراعى - كما اسلفنا - بحالة من الركود والانحطاط، برغم أنه كان النشاط الغالب لابناء المجتمع الأوربى فى تلك الفترة(١)، وذلك بسبب العلاقة السيئة بين الملاك والمزارعين، والأوضاع الاجتماعية المتدهورة من خلال النظام الطبقى الجائر والمظالم المالية وغير المالية التى سادت المجتمع الأوربى آنذاك، والتى انعكست على كافة الأنشطة الاقتصادية ومنها النشاط الزراعى، ومما زاد الأمر سوءا أن الانتاج الزراعى فى أوربا كان يتجه لصالح الطبقات الاقطاعية بالدرجة الأولى، كما أنه لم يكن يخدم أهداف السوق بل كان يلبى حاجة كبار رجال الدولة والدين الاستهلاكية والترفيهية دون النظر الى عامة المجتمع.

أما الانتاج الزراعى فى الدولة العباسية، فقد كان يتجه لصالح افراد المجتمع - كما اسلفنا - دون تفرقة بين ابناء المجتمع.

واتسم الانتاج الزراعى فى الدولة العباسية بالانفتاح على السوق ولبى حاجة المستهلك فى الداخل والخارج، مما كان له أبلغ الأثر فى زيادة حصيلة ايرادات الدولة، وتحرك أنشطتها الاقتصادية المختلفة.(٢)

ثانيا : المقارنة والتقويم فى مجال النشاط الصناعى :

شهدت الصناعة فى الدولة العباسية تطورا كبيرا، كما شهدت تدهورا جسيما فى أوربا فى ذلك الوقت وإذا ما حاولنا أن نعقد مقارنة وتقويم لما كان عليه الحال فى كلا المجتمعين فى تلك الفترة، فاننا سنجد تفوقا كبيرا فى مقومات النشاط الصناعى، من حيث العمالة والصناعات التى وجدت فى ذلك العصر، ومن حيث الفن الانتاجى المصاحب لتلك الصناعات، وهو الأمر الذى يعكس حال النشاط الصناعى فى كلا المجتمعين، وفيما يلى محاولة لتوضيح ذلك بشىء من التفصيل :

---

(١) - راجع ص١٢١ ومابعدها من هذا البحث.

(٢) - راجع ص١٥٧ من هذا البحث.

أ - من حيث العمالة :

أسهمت التركيبة السكانية - التى سبقت الاشارة اليها - والتى تشكلت من عناصر متعددة من الشعوب المختلفة فى تطور النشاط الصناعى فى الدولة العباسية فى تلك الفترة، فانتجت نموذجا اسلاميا فريدا فى شكله وصفاته، بحيث انصهرت جميع العناصر، من عرب وعجم، عبيد واحرار، مسلمين وغير مسلمين فانشأت مزيجاً جديداً من الحرف والصناعات لها طابعها الخاص، ولونها المميز، حتى ولو كان صانعها فى بعض الأحيان غير مسلم فان موطنها الاسلامى جعلها تصبغ بصبغة جديدة مستوحاة من تعاليم الاسلام وأحكامه، ولاشك أن هذه التركيبة قدأسهمت فى تطور النشاط الصناعى بشكل عام، إذ استفاد الصانع فى الدولة العباسية من خبرات هذه البلاد، كما دخلت صناعات أخرى لم تكن موجودة كضرب النقود وسكها... وغيرها.

كذلك تأثرت هذه الصناعات وغيرها بتعاليم الدولة الاسلامية فاضفت عليها لونا جديدا، وجد مع وجود المجتمع المسلم.

وقد زاد من تطور نظام العمالة فى الدولة العباسية وجود التنظيمات الحرفية التى نشأت نتيجة تحسن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولم تظهر نتيجة الظلم والقهر والحرمان - كما كان الحال فى أوربا - فى تلك الفترة - كما لم تعرف هذه التنظيمات تفرقة بين أهل دين وآخر ولا بين فئة وأخرى.

لكننا إذا نظرنا الى أوضاع العمل الصناعى فى أوربا، فاننا سنجد الأمر على النقيض، برغم أن أوربا تكونت من شعوب مختلفة حيث هاجرت اليها قبائل متعددة عرفت بحضارتها، وتطورها الصناعى، لكن ذلك لم يحقق لها نتائج ايجابية، فاضطربت البلاد، وكثر التنازع القبلى والطائفى، وتسلط كبار رجال الدولة والدين، وانغلق النشاط الاقتصادى على نفسه، وقلت الأسواق، فقلت الصنائع، واعتمدت على الصناعات المحلية الاستهلاكية والكمالية لتلبية حاجة رجال الدولة والكنيسة، والتى كانت بالطبع فى محيط الاقطاعية أو الضيعة،

وانعكس ذلك بالتالى على التركيب المهنى للعمال، فقلت العمالة الماهرة ، وان وجدت العمالة الماهرة، فانها كانت تستغل فى الغالب لصالح رجال الاقطاع والكنيسة - كما سبق وان اشرنا -(١) ، وبالتالى لم ينشط إلا العمل الزراعى، وبرغم ذلك فانه كان متدهوا ايضا - كما اسلفنا -.

أما فى ظل الدولة العباسية فقد تنوع التركيب السكانى والمهنى للعمال، فوجد العمال الزراعيون، وكان منهم من يعمل فى أراضى الدولة ، ومنهم من يعمل فى أرضه الخاصة، ومنهم من يعمل فى أراضى الغير بشتى أنواع المعاملات والعقود الاسلامية - كالمزارعة، والمساقاة - والاجارة... بالاضافة الى العمالة فى مجال التجارة والحرف العامة والتى كان لها دورها فى تطور الصناعة، وبناء عليه فان العمالة فى المجتمع الاسلامى، من حيث التركيب السكانى والمهنى - فى تلك الفترة - قد أدت دورها فى تطور الصناعة ، وكافة الأنشطة الأخرى، وذلك بسبب ما يتمتع به العامل فى الدولة العباسية من حقوق وواجبات وتشجيع فى كل المجالات، وهو الأمر الذى اختلف تماما عما كان عليه الحال فى أوربا - فى تلك الفترة - من اهدار للحقوق، وتسلط لا مثيل له، وبعد عن منهج الله، فكانت النتيجة الطبيعية فى أوربا هى انحطاط العمالة، من ثم انحطاط الصناعة، كانحطاط غيرها من الأنشطة الأخرى.

ب - من حيث الصناعة والفن الانتاجى :

صحب التركيب السكانى والمهنى المتميز فى الدولة العباسية، تطورا فى مجال الصناعة وتطورا فى الفن الانتاجى المتعلق بها، ويرجع ذلك الى اهتمام رجال الفكر والفقه بالأنشطة الاقتصادية، وقضية العمل - بشكل عام - فوجد من الفقهاء، ورجال الفكر من كان يهتم بتقسيم الأنشطة الاقتصادية، وقضية التخصص وتقسيم العمل، امثال هؤلاء ممن عاشوا فترة الدولة العباسية

---

(١) - راجع ص٦٩> من هذا البحث.

الأولى، محمد بن الحسن الشيبانى والجاحظ، فقد اهتم الشيبانى رحمه الله - بتقسيم الأنشطة الاقتصادية، وقضية المفاضلة - كما سبق وأن أشرنا - وقسمها الى أربعة أقسام زراعة وتجارة وصناعة واجارة، حيث انه كان يعتبر الاجارة نشاطا مستقلا، اذ يندر أن لا يعتمد اى نشاط اقتصادى دون أن يكون للاجارة فيه أى دور، كما أن الأنشطة الاقتصادية تتساوى فى الأفضلية عنده، وعند اكثر الفقهاء وبذلك يكون التقسيم الفنى للأنشطة الاقتصادية للشيبانى اسبق تاريخيا عما ظهر فى أوربا من تقسيم حيث ان رجال الفكر الاقتصادى الأوربى، لم يهتموا بهذا التقسيم إلا فى القرن الخامس عشر، كما أنهم ظلوا يعتقدون بأن الصناعة والتجارة أنشطة غير نظيفة وعقيمة اقتصاديا حتى القرن الثامن عشر.

كما أهتم - رحمه الله - كما اهتم غيره من رجال الفكر والأدب كالجاحظ وغيره بقضية التخصص وتقسيم العمل وأهميتها فى تطور النشاط الصناعى.(١)

واعتبر الشيبانى - رحمه الله - أن التخصص وتقسيم العمل ضرورة اقتصادية والزام دينى وعقائدى، إذ انه وسيلة لتوفير المتطلبات الاقتصادية للجماعة ككل، كما أنه وسيلة للحصول على الثواب والاجر من الله، لأن الصانع بذلك يكون فى عون أخيه المسلم.(٢)

كما لاحظ مفكروا الدولة العباسية وفقهاءهم - بشكل عام - تطور العملية الانتاجية فى الصناعة، وتدرجها من طور الى طور وحاجة الصنعة الواحدة الى عدة مصانع.(٣) وقد تعددت الصنائع والحرف فى المجتمع العباسى وكان لها آثارها الاقتصادية على مختلف المؤشرات الاقتصادية.

---

(١) - لمزيد من التفصيل راجع ص٢٣٧ ومابعدها من هذا البحث.

(٢) - راجع ص٢٤١ من هذا البحث

(٣) - راجع نص الشيبانى والجاحظ فى ص٢٤٠/٢٤١ من هذا البحث

وقد أشرنا فيما سبق الى كثير من هذه الصنائع وتلك الحرف بالتفصيل(١)، وصحب هذا التطور الصناعى تطورا كبيرا فى مجال الفن الانتاجى لها، فوجدت التخصصات المتعددة لكل صناعة وكل حرفة، ففى مثل صناعة السيف هناك من اختص بإذابة الحديد، ومن اختص بصياغته، ومده، ومطله، وتسوية متنه وسنه... الخ(٢)،

والخياطون لهم اختصاصات مختلفة فمنهم الرفاؤون والقصارون والدقاقون، وصناع القلانس، والطرازون... الخ

ومما زاد فى تطور الصناعة فى الدولة العباسية، سياسة الدولة الصناعية، واهتمامها بالنشاط الصناعى، فقد كان من الواجبات الملقاة على عاتق العامل فى ظل نظام الدولة العباسية ما يلى :

١ - اجادة العمل واتقانه، ومعرفته معرفة دقيقة، واظهاره بالمظهر اللائق، كما أن الاهتمام بنوعية المنتج ودرجة اتقانه كانت من المبادىء الهامة فى العملية الصناعية، وأن رداءة المنتج من الأمور التى يعاقب عليها(٣)، وكانت مهمة مراقبة ذلك والاشراف عليه، هى من المهام الرئيسية للمحتسب - كما سبق وان أشرنا -.

٢ - حفظ اسرار المهنة فلا يكشف من اسرارها إلا لابناء الأمة الاسلامية أما غيرها من البلاد غير الاسلامية فلا يكشف سر المهنة، وقد ظلت صناعة الزجاج - مثلا - سرا برع فيه أهل الشام، ولم ينقل الى فرنسا إلا فى نهاية العصور الوسطى.

٣ - لا يجوز التصرف فى المواد الأولية التى يحتاجها مصنع من المصانع، أو حرفة من الحرف، إلا بعد أن تتوفر لأهل الحرف والصنائع ما يحتاجون اليه منها، وبخاصة إذا كانت هذه المادة الخام من المواد النادرة.

---

(١) - راجع المبحث المتعلق بأهم الصناعات والحرف ص٢٧٢وما بعدها.

(٢) - راجع نص الجاحظ ص ٢٤٣من هذا البحث

(٣) - راجع ص٢٥٧/٢٥٨ من هذا البحث

٤ - نظافة السلع المنتجة، ونظافة وسائل الانتاج وحوانيت العمل، وتعتبر تلك الأمور الضرورية، كما سبق وأن أشرنا، من مهام المحتسب عليه أن يراقبها، ويحث عليها ويعاقب على تركها أو الاهمال فيها.

وبالطبع لم تكن مثل هذه الأمور موجودة فى أوربا فى تلك الفترة، يدل على ذلك ما ذكرته المصادر من كثرة الأوبئة والأمراض التى انتشرت فى أوربا - فى تلك الفترة - وقد اشرنا الى بعض منها.(١)

ويمكن القول بأن النشاط الصناعى فى الفترة العباسية الأولى قد اتسم بعدة سمات لعل من أهما مايلى : .

أ - استقلالية الصناعة الاسلامية :

فقد نتج عن ازدهار النشاط الصناعى فى تلك الفترة وغيرها من الفترات المتعاقبة استقلالية الصناعات الاسلامية عن صناعات البلاد الأخرى غير الاسلامية فى شكلها، وفنها ومظهرها العام، ولذا من يراها يعرفها بمجرد رؤيتها، اذ منعت الدولة - مثلا - الكتابات غير الاسلامية على النقود والورق كما لم توجد رسوم آدمية أو حيوانية على الصناعات الاسلامية - فى تلك الفترة - كما انها اكتسبت خبرات وفنون البلاد المفتوحة مع صبغتها الصبغة الاسلامية وفق مبادىء الشريعة وأهدافها العامة الأمر الذى جعلها تكتسب استقلالية خاصة.

٢ - اعتمدت الصناعة الاسلامية على النشاط الزراعى غالبا :

اعتمدت الصناعة على النشاط الزراعى - غالبا - فقد وفرت الزراعة رؤوس الأموال اللازمة للصناعة ، كما وفرت المواد الخام لكثير من الصناعات كالسكر والنسيج والورق وغيرها، ولم تكن المواد الخام الزراعية المستوردة معوقا للنشاط الصناعى، فمثلا برغم أن صناعة الأخشاب كانت تعتمد على انواع

---

(١) - راجع ص٢٦٤ وما بعدها من هذا البحث

من الخشب المستورد - كما سبق أن أشرنا - إلا أنها لم تكن معوقا للنشاط الصناعى، فقد ازدهرت صناعة الأخشاب فى الدولة العباسية، فازدهرت صناعة السفن والمراكب والمشربيات والمحاريب والمنابر وآرائك العلماء برغم أن المادة الخام لهذه الصناعات كانت فى الغالب مستوردة من خارج الدولة العباسية، وهذا يدل على همة الصانع فى الدولة العباسية، وعدم تأثره من عدم وجود المادة الخام لديه. وأن الصناعة كانت تسير سيرا واحدا، سواء أكانت المادة الخام من داخلها أو من خارج البلاد.

٣ - مراعاة المواصفات الصحية وغير الصحية :

روعى فى جميع الصناعات التى كانت موجودة، كافة النواحى الصحية من جودة الصنعة ومكونات المصنوع، وعدم الغش ومراعاة النظافة والصحة العامة.

كما روعيت راحة الناس، فكانت الحرف المزعجة، والمقلقة للراحة توضع فى أماكن خاصة كمدابغ الجلود، حيث الرائحة الكريهة تزعج الناس، فكانت توضع فى اطراف المدن، كما اشترط فى بعض الصناعات الأخرى شروطا صحية - سبق أن أشرنا الى بعض منها - ، ومن الحرف الأخرى التى خضعت لمثل ذلك الجصاصون والقصابون والخبازون وغيرهم.

٤ - تطور الصناعات الاسلامية واسبقيتها التاريخية :

ظهر من خلال الدراسة للنشاط الصناعى لكثير من الصناعات الاسلامية كصناعة النسيج والورق والسكر... الخ تطور الصناعات الاسلامية بشكل عام فى المجتمع الاسلامى وسبقها لصناعة الأوربيين لها بقرون عديدة، كما ظهر أن بعض الصناعات قد نقلت الى أوربا بنفسها وبأسمائها، التى عرفت بها فى البلاد الاسلامية، وذلك يعنى تأثر أوربا بتلك الصناعات الاسلامية - كما سبق وأن أشرنا -.(١)

---

(١) - راجع ص٨٢، ٨٣ من هذا البحث.

على أن الوثائق التاريخية تؤكد على تواضع النشاط الصناعى فى أوربا - بصفة عامة - فى تلك الفترة وذلك كان نتيجة الوضع الاقتصادى السائد فى ذلك الوقت، حيث اعتمدت أوربا على الصناعات المحلية، وانغلقت على نفسها، وساد الاكتفاء الذاتى أوضاعها الاقتصادية، ولم تهتم إلا بالصناعات التى يحتاج اليها الناس فى حياتهم اليومية، أو ما اختص بالنشاط الزراعى كأدوات الزراعة، أو صناعة السلع الترفيهية والكمالية، التى كانت تلبى حاجة البلاط الملكى والكنسى وحاجة النبلاء من رجال الدولة والدين.

وبالتالى فلم تعرف أوربا الصناعات الدقيقة أو الميكانيكية كما قل التخصص الحرفى، ولم تعرف إلا بعض الحرف البسيطة كالدروع والأسلحة، والخياطة وغيرها مما يحتاجه الناس - كما سبق وأن اشرنا -.

أما الدولة العباسية، فقد عرفت فيها الصناعات الدقيقة كما ظهرت فيها بوادر الصناعات الميكانيكية، وتطور فيما النشاط الحرفى، وكانت من نتيجة ذلك اتساع الأسواق وكثرتها وانفتاحها على العالم الخارجى، كما لبت الصناعة حاجة المستهلك الداخلية، بل ولبت أهداف التصدير، ونهضت نهوضا عظيما وذلك بسبب التمسك بمنهج الله، وأحكام شرعه، وتحقيق العدالة الاجتماعية التى كان يضمنها هذا الدين ويحث عليها، وارتبط التطور الاقتصادى لهذا المجتمع بعقيدته وظهر كحلقة واحدة لاتنفك. وهذا يؤكد ارتباط تطور المجتمع وازدهار أنشطته الاقتصادية، بمدى تمسك الأمة بمنهج الله وشريعته.

ثالثا : المقارنة والتقويم فى مجال العلاقات الاقتصادية والتبادل التجارى :

سبق أن بينا أن العلاقات الاقتصادية الخارجية للدولة العباسية، قد ازدهرت وأن حركة التبادل التجارى بين الدولة العباسية وغيرها من الدول قد تطورت مع كثير من البلاد كبلاد الصين والهند وأفريقيا وأوربا.(١)

---

(١) - راجع من ص٣٨٢ الى ص ٤٠٠ من هذا البحث.

كما أحدثت هذه العلاقات تأثيرات كثيرة على المؤشرات الاقتصادية المختلفة للدولة العباسية.

وكان ذلك نتيجة طبيعية لتطبيق القواعد الاسلامية التى تحكم مجال العلاقات الدولية، والتى كانت فى مجملها تؤكد على احترام آدمية البشر، وعدم التفريق بينهم، والاحترام المتبادل بين مختلف الشعوب وحسن الجوار، والمعاملة بالمثل فى جميع المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بينما كانت بلاد أوربا تحكمها شريعة الغاب، فكانت النتيجة الطبيعية هى الفوضى السياسية والاجتماعية والاقتصادية فيها، إذ اصبحت أوربا أشبه بالغابة المغلقة التى لا يستفيد منها إلا اللئام.

وإذا ما أردنا أن نضع العلاقات الاقتصادية الخارجية، والتبادل التجارى موضع المقارنة، فاننا ينبغى أن نقارن بين مظاهر تطور التجارة الدولية وما أحدثته من تطور فى الدولة العباسية، وحال تلك المظاهر فى أوربا وما نتج عنها من تخلف، ومن ثم تتضح لنا صورة هذه العلاقات وذلك التبادل التجارى فى كل من الجانبين .

وفيما يلى محاولة لشرح ذلك بشىء من التفصيل :

مظاهر تطور التجارة فى الدولة العباسية

تطورت العلاقات الاقتصادية فى الدولة العباسية تطورا كبيرا، وقد ظهر ذلك فى كثير من المجالات والأنشطة الاقتصادية المختلفة، كما أثرت تلك العلاقات فى حركة التبادل التجارى بين الدولة العباسية وغيرها من البلاد الأخرى، وفيما يلى توضيح لبعض مظاهر ذلك التطور الاقتصادى، والمقارنة بينها وبين حالها فى بلاد أوربا فى ذلك الوقت بشىء من التفصيل.

أ - فى مجال المدن والموانىء الساحلية:

سبق أن أشرنا الى اهتمام خلفاء الدولة العباسية بالمدن والموانىء الساحلية فقد اعطوها اهتماما بالغا من حيث الموقع من الناحية العسكرية

والتجارية، وسهولة الاتصال بها، وقد كانت المدن تمثل سوقا تجاريا للدولة، كما كانت السفن التجارية تجوب البحار شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وقد شجع ذلك على حركة التصدير والاستيراد على نطاق واسع، وكان من أهم هذه المدن والموانىء الاسكندرية على البحر الأبيض المتوسط، وعلى البحر الأحمر القلزم وجدة، وعيذاب وعدن، وعلى الخليج العربى سيراف والبصرة.

وقد ساهمت هذه المدن وغيرها فى زيادة حركة التجارة فى الدولة العباسية وارتفع مستوى الدخل فيها .

فيذكر المقدسى أن أهل سيراف كانوا يبنون بيوتهم من طبقات عديدة ويستعملون فى ذلك خشب الساج الغالى الثمن الذى كانوا يجلبونه من ساحل مالابار، وبلاد الزنج، وبالغوا فى الانفاق على دورهم حتى أن أحدهم بنى بيتا كلفه ثلاثين الف دينار.(١)

أما وضع المدن فى أوربا فقد كان على النقيض من ذلك، فلم تكن هناك ثمة علاقة تربط المدينة الأوربية فى العصور الوسطى بالمدن القديمة التى عرفت فى العصر الرومانى، والتى بلغت أقصى درجات التقدم والنشاط فى القرنين الأول والثانى الميلادى، ذلك أن المدن القديمة أصابها الذبول نتيجة الأخطار التى تعرضت لها الأمبراطورية الرومانية، فتناقصت مساحتها، وقلت أهميتها، ولم تعد منذ القرن الخامس مركزا للنشاط الاقتصادى فى أوربا، وأصبحت اهميتها تنحصر فى الدور الذى قامت به فى التنظيم الكنسى بعد أن فقدت مكانتها فى التنظيم الادارى، كما أصبح أهالى المدن اقنانا(٢)، وان استمر كثير منهم يعملون كعمال وصناع وبخاصة فى الأديرة، ولم تعد المدينة اكثر من مركز دينى، لا تمتلك من آثار النشاط التجارى أو الصناعى إلا القدر الذى يكفى حاجة المؤسسات الدينية، ورجال الدين واتباعهم.

---

(١) - المقدسى، أحسن التقاسيم، المرجع السابق ص ٤٢٦

(٢) - اقنان: مر بيان معنى القن فى ص١٣٣ من هذا البحث

ومن الثابت - كما تقدم - أن الاقتصاد الأوربى اتخذ طابعا زراعيا بحتا خلال العصور الوسطى، فأصبحت الأرض المصدر الرئيسى للثروة، واعتمد جميع طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات، وبذلك انعدمت التجارة أو كادت تنعدم، واصبحت الأرض وحدها الأساس الذى قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية فى أوربا، من ثم فقدت المدينة أهميتها الاقتصادية فى المجتمع الأوربى فى تلك الفترة.(١)

ب - فى مجال الأسواق :

ازدهرت الأسواق فى الدولة العباسية ازدهارا عظيما وكان ذلك نتيجة اهتمام الخلفاء بها، فقد اهتم الخلفاء بالأسواق وظهر هذا الاهتمام فى ادارتها ومراقبتها وتنظيمها، وتشييدها، وقد كانت عملية التشييد والتقسيم الفنى لها، من اعظم مظاهر التطور فى ذلك العصر ، فقد خصصت لها أماكن خاصة، وأصبحت لكل تجارة أو صناعة سوق خاصة بها - كما سبق وأن أشرنا- وروعى فى أماكنها أن تكون على مقربة من السواحل حتى تكون قريبة من تصريف المنتجات لتسهل حركة التصدير والاستيراد، فكانت الأسواق فى الغالب فى المدن الساحلية القريبة من البحر حيث كان البحر من أهم وسائل المواصلات فى ذلك الوقت، كما روعى ايضا عند انشاء الأسواق ظروف التجارات المختلفة فلا يوضع تجار العطور - مثلا - بجوار اصحاب التجارات أو الحرف ذات الروائح الكريهة، كما قسمت الأسواق الى أسواق رئيسية، وأخرى فرعية.

وقد أدت هذه العناية بالأسواق الى تنشيط الحركة التجارية داخليا وخارجيا، وقد لوحظ ذلك فى توفر السلع المختلفة فى الاسواق كما توفرت المنافسة بين الصناع، واصحاب الحرف مما انعكس على جودة السلع

---

(١) - سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق جـ٢ ص٣٠٠/٣٠١

وتوفرها بأسعار معقولة فى المجتمع العباسى، كما كان لتجمع الأسواق وتنظيمها أثره الاجتماعى حيث ولد ذلك نوعا من التعاون بين أصحاب المهن، فوجدت صور كثيرة من المشاركة الجماعية بين أصحاب الحرف والصنائع، ،التى لا يمكن أن توجد إلا في مجتمع اسلامى تحكمه مبادىء الاسلام وأخلاقياته.(١)

وإذا نظرنا الى وضع الأسواق فى أوربا فى تلك الفترة، فسيتضح أن أوربا لم تعرف اسواقا تجارية كبرى، إذا استثنينا بعض الأسواق ذات الشهرة الدينية مثل سوق سانت دنيس قرب باريس، وقد كانت هذه الأسواق تجتذب اليها عددا كبيرا من العملاء الذين يفدون اليها من مختلف البلاد النصرانية بقصد الزيارة والتبرك، ثم البيع والشراء، وفيما عدا هذه الأسواق ذات الصبغة الدينية، لم تعرف أوربا سوى أسواق محلية اسبوعية يذهب اليها أهل المنطقة لبيع بضع دجاجات أو بيضات أو قطع صغيرة من النسيج، ومن الواضح أن المعاملات التجارية التى كانت تتم فى تلك الأسواق ظلت على نطاق ضيق وفى حدود مبالغ صغيرة، ولكفاية اغراض ومجتمعات محدودة.(٢)

حـ - فى مجال الطرق :

نشطت حركة التجارة نشاطا عظيما فى الدولة العباسية بفضل ما كان بها من طرق برية وبحرية - كما سبق وان أشرنا - وقد اثرت بطبيعة الحال هذه الطرق فى زيادة حركة التجارة ونموها وازدهارها - استيرادا وتصديرا - ، وكان الاهتمام بالطرق من الأنشطة الهامة التى اشرفت عليها الدولة، وقد تمثل هذا الاشراف فى حراسة الطرق، وتأمينها وانشاء أماكن ليستريح المسافرون فيها، وأوصلت المياه اليها، كما أنشأت مصانع لبناء السفن وصناعتها ، وكانت تقوم باقامة الأربطة على طرق المسافرين، وكانت مهمة تلك الأربطة القيام على خدمة المسافرين وتقديم يد العون لهم.

---

(١) راجع ص٣٥٢ من هذا البحث.

(٢) سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق حـ٢ ص ٣٢٣.

وقد ساهمت شبكة الطرق التى وجدت ابان تلك الفترة فى الدولة العباسية فى زيادة حركة الاستيراد والتصدير، مما نتج عنه زيادة حركة التجارة الداخلية والخارجية، والتى ساهمت بدورها فى توفير السلع والخدمات، كما ساهمت فى خفض اسعارها وجعلها فى متناول ايدى المستهلكين، وحققت زيادة فى دخل الدولة وايراداتها العامة.(١)

وإذا نظرنا الى وضع الطرق فى أوربا فى تلك الفترة، فقد كان وضعها سيئا للغاية، حيث اختفت الطرق ومقوماتها برغم أن أوربا ورثت شبكة قوية وضخمة من الطرق الرومانية، فانهارت الجسور المقامة على الأنهار نتيجة الاهمال الذى تعرضت له كافة المرافق العامة عند انهيار الأمبراطورية الرومانية، ولم تكن الطرق التى عرفتها أوربا العصور الوسطى اكثر من سبل بدائية غير ممهدة، تكسوها الأتربة الكثيفة التى سرعان ما تتحول الى أوحال عند هطول الأمطار، زيادة على مايعترضها من حفر خطيرة جعلت المشى عليها ليلا أمرا محفوفا بالمخاطر، أما الجسور فغدت قليلة ونادرة الأمر الذى تطلب من المسافر فى كثير من الحالات أن يخوض فى الماء بنفسه أو يبحث عن مركب ليعبر النهر، وفى ظل هذه الظروف لم يجد تجار العصور الوسطى وسيلة لنقل بضائعهم سوى استخدام البغال والخيل ، فى حين اضطر صغار التجار الى حمل بضائعهم على ظهورهم والتنقل بها سيرا على الأقدام من مكان الى آخر.(٢)

وفى ظل هذه الظروف وما سبق أن أشرنا اليه لا يمكن أن تزدهر تجارة أوربا فى تلك الفترة، ونظرة الى هذه الأوضاع، واوضاع الطرق فى الدولة العباسية نجد بونا شاسعا وفرقا هائلا فى مستوى الخدمات العامة التى كانت تقدم للمسافرين بشكل عام وللتجار بصفة خاصة، مما أدى الى النتيجة التى سبق وأن أشرنا اليها من ازدهار حركة التجارة فى الدولة العباسية، وانحطاطها فى أوربا - فى تلك الفترة - وهو يعتبر وضعا طبيعيا فى ظل تلك الأحول التى أشرنا اليها.

---

(١) - راجع ص٤٧١/٦٩١/٦٩٦ من هذا البحث.

(٢) - د. سعيد عبدالفتاح عاشور، أوربا العصور الوسطى، المرجع السابق جـ٢ ص٣١٨

د - مقومات ازدهار التجارة:

بالاضافة الى ما تقدم من مظاهر التجارة فى العصر العباسى فقد كانت هناك مقومات أخرى أدت الى حدوث هذا التطور ونموه إذ كان للأمن الذى تمتع به التجار داخل الدولة العباسية، والسياسات التى اتخذتها الدولة لحماية التجار فى تجاراتهم من حماية البلاد، وحماية الطرق المختلفة لها -برية وبحرية - ومختلف وسائل الأمن الضرورية لتحقيق سلامة التجار وتجاراتهم كان لذلك كله دور أساس فى نمو التجارة وازدهارها، فى الوقت الذى كان لا يستطيع التجار فى أوربا حماية أنفسهم وبضائعهم إلا فى ظل الخروج فى جماعات وقوافل تجارية لتحقيق تلك الحماية.(١) ومع ذلك لم تكن تجدى فى كثير من الأحيان.

وفى ظل النشاط التجارى فى الدولة العباسية ظهرت المؤسسات المصرفية التى كان لها دور بارز فى زيادة حركة التجارة ونموها، كما ظهرت أساليب مختلفة لها، لتلبية هذه الزيادة فى التجارة والأموال التى تدفقت عليها من مختلف البقاع، فوجد التجار وسائل للدفع مأمونه من الضياع، خفيفة الحمل، بعيدة عن اللصوص، مما أدى الى تيسير المعاملات التجارية.(٢)

وقد أدى الفقه الاسلامى دورا كبيرا فى هذا المجال، فوضح للتجار الحلال والحرام، وأساليب العمل التجارى البعيد عن الربا وشبهه، كما كان لفقهاء المسلمين فى تلك الحقبة جهود كبيرة فى مختلف المسائل الفقهية التى اعترضت التجارة، نتيجة التوسع التجارى فى تلك الفترة، ففصل الفقهاء أحكام الشركات، وميزوا أنواعها، من شركة اباحة أو ملك أو عقد، ومن شركات أشخاص أو أموال، وتوسع الفقهاء فى بيان ما يباح منها وما لا يباح ... ولم تلزم الدولة الناس بأن يتقيدوا برأى فقيه معين، وانما تركت الناس

---

(١) - لمزيد من التفصيل، راجع ص٤٧٢/٤٧٣ من هذا البحث.

(٢) - راجع هذه الأساليب فى ص ٤٦١وما بعدها.

يتعاملون متبعين فى ذلك رأى من يفتيهم من المجتهدين أو المقلدين لرأى امام معين مما اعطى مجالا لتطور الفكر الاقتصادى الاسلامى مع واقع المجتمع الجديد فى اطار قواعد الشريعة وأهدافها وضوابطها العامة.(١)

بينما تشير المصادر التاريخية الى عدم وجود مثل هذه المؤسسات المصرفية فى أوربا فى تلك الفترة، يؤكد ذلك أن الشركات لم تتطور فى أوربا إلا فى القرن الرابع عشر الميلادى، ثم ازداد هذا التطور عندما اهتم التشريع بالشركات فى أوربا فى القرن السادس عشر الميلادى كما أن النشاط التجارى كان ينظر اليه على أنه نشاط عقيم، وغير طيب، ولم تزداد أهمية التجارة فى أوربا إلا فى القرن الخامس عشر الميلادى.(٢)

اضف الى ذلك أن الدولة العباسية قد اتخذت من السياسات الاقتصادية العامة والسياسات التجارية ما شجع التجارة وأدى الى نهوضها سواء فى ذلك سياسات الحرية التجارية أو الحماية لسلعها الوطنية، وأن المعاملة بالمثل كانت الأساس لهذه السياسات فى المجال الخارجى، مع العلم بأن مثل هذه السياسات فى أوربا لم تظهر إلا مع بداية القرن الخامس عشر الميلادى، إذ أن سياسة الحماية مثلا لم تبدأ فى أوربا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى - فى عهد التجاريين - وبالتالى فان السياسات التجارية فى الاسلام كانت أسبق زمنا، وهى حقيقة تاريخية يجب التنبيه عليها.

كما أن الدولة العباسية فى مجال السياسات العامة لم تفرض قيودا على الهجرة سواء الى داخل الدولة، أو خارجها مما شجع على جذب كميات كبيرة من العمال من جهات متعددة للعمل داخل الدولة العباسية كما أن كثيرا من أبناء الدولة العباسية خرجوا للتجارة خارج الدولة وكونوا جاليات اسلامية فى كل من بلاد الصين والهند - كما سبق وأن أشرنا -.

---

(١) - الخياط، الشركات فى الشريعة الاسلامية، المرجع السابق حـ١ ص٢٨

(٢) - على حسن يونس، الشركات التجارية، المرجع السابق ص٢٦٦، أبو زيد رضوان، الشركات التجارية فى القانون الكويتى، المرجع السابق ص٦/٣

وأدى ذلك بالطبع الى ازدهار حركة التجارة ونموها بينما كان الحال فى أوربا - وان لم تفرض قيود على الهجرة فيها - هو انحطاط التجارة وتقلص نشاطها وذلك بسبب سوء الأوضاع الأمنية داخلها وخوف كثير من التجار من التحرك بتجاراتهم الى خارج البلاد، وقد كان ذلك بمثابة فرض قيود على حركة التجارة وعلى هجرة ابناء المجتمع الأوربى مما زاد من انحطاط حركة التجارة وانكماشها بل تقويضها ايضا.

والخلاصة :

ومع ما رأينا من ازدهار حركة التجارة فى الدولة العباسية بفضل تلك المظاهر والمقومات التى سبقت الاشارة اليها، فان هذا الوضع لا يمكن أن نقول بأنه كان الصفة الدائمة لحركة التجارة فى الدولة العباسية، إذ ان الفترة العباسية كغيرها من فترات التاريخ قد مرت بمعوقات للنشاط الاقتصادى بصفة عامة والنشاط التجارى بصفة خاصة، وقد كان من ضمن هذه المعوقات، تلك الاضطرابات والفتن التى كانت تحدث بين الحين والآخر، فقد كان لهذه الدولة مناهضون، كما كان فيها من يرى نفسه أحق بالخلافة من غيره، وقد كانت ولاية العهد من المسائل التى أدت الى كثير من الاضطرابات داخل الدولة العباسية.

وكان لها تأثيرها المباشر بلا شك على الأوضاع الاقتصادية، كما كان لظهور الفرق الضالة، والحركات الخارجة، وتسلط كثير من رجالات الدولة كالبرامكة وغيرهم مثلا، أثر كبير فى تعويق التجارة فى الدولة العباسية ولا شك أن تلك الظروف قد أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر على الأوضاع الاقتصادية، فتأثرت أسعار السلع مثلا - ارتفاعا وانخفاضا - كما سبق وأن أشرنا - لكن هذه الأحوال لم تكن الصورة العامة للدولة العباسية، وكانت فى غالب الأحيان وقتية، كما أن الدولة لم تقف مكتوفة الأيدى حيالها، بل كانت تحاول

حل تلك المشكلات، وتقوم بالاصلاحات اللازمة وبالشكل المناسب.(١)

ونخلص من ذلك الى أن حركة التبادل التجارى للدولة العباسية كانت أحيانا فى صالح الدولة (كما كان الحال مع بلاد الصين) وأحيانا أخرى فى غير صالحها (كما كان الحال مع بلاد الهند وشمال افريقيا) إلا أنه يمكن القول أن حركة التبادل التجارى بين الدولة العباسية وغيرها من البلاد الأخرى كانت فى جميع الأحوال فى صالح الدولة العباسية، اما بصفة مباشرة كما فى حالة التصدير عن طريق الاستفادة من عائدات هذا التصدير. وبما توفره من سلع لتلبية حاجات المجتمع فى حالات الاستيراد، واما بصفة غير مباشرة إذ كانت الدولة العباسية فى كل الأحوال هى وسيط التجارة الخارجية مع البلاد الأخرى، من خلال ما توفره من وسائل النقل، وبالتالى فقد وفرت لنفسها ايرادات عينية ونقدية كبيرة، من رسوم استخدام وسائل نقلها ، وعبور بحارها وانهارها، كما أنها وفرت فى كل الأحوال لنفسها مختلف السلع التى يحتاجها المجتمع عن طريق النقل، كما أن تلك الوسائل المختلفة للنقل كانت تمثل نشاطا تجاريا كبيرا فى داخل أراضى الدولة، ومجالا كبيرا للعمل والتشغيل لأبناء المجتمع مما يعنى أن حركة التبادل التجارى بشكل عام، كانت فى صالح الدولة العباسية.

أما فى أوربا فان التبادل التجارى كان متواضعا، واتسم بالانحطاط إذ لا يمكن أن يزدهر تبادل تجارى فى ظل اقتصاد مغلق على نفسه وفى ظل ضعف كبير فى مختلف الأنشطة الأخرى - الزراعية ، والصناعية - إذ هما المحركان الأساسيان لعمليات الاستيراد والتصدير.

---

(١) - راجع ص٣٧١ ومابعدها من هذا البحث

ويمكن القول بأن التجارة والتبادل التجارى فى أوربا قد شهد تأخرا كبيرا، وقد ذكرنا أسبابه المتعددة منها سوء حال الطرق والأسواق، وعدم توفر الأمن مما يعنى مخاطر كثيرة يتعرض لها التجار فى تجاراتهم، كما أن التجارة كانت فى الغالب تعتمد على العناصر الأجنبية، التى كانت تحتاج الى كثير من المتطلبات والخدمات التى تكلف الكثير من الجهد والمال، ثم المنازعات العرقية، وما تبع ذلك من اضطرابات، وثورات وفتن، سببت فى اعاقة التجارة، أضف الى ذلك ما كان يتحمله التاجر من عبء ضريبى قد أشرنا الى بعض منه(١)، ثم الأوضاع الاجتماعية المتردية، وما تبعها من ظلم كل هذه الظروف وتلك أدت الى تقويض حركة التجارة والتبادل التجارى فى أوربا فى تلك الفترة.

وبهذا يتضح لنا مدى التطور الهائل الذى حدث فى مختلف الأنشطة الانتاجية (الزراعية والصناعية والتجارية) فى الدولة العباسية كما تبين لنا من خلال ما سبق الفارق الواضح بين الأنشطة الانتاجية فى كلا المجتمعين. واذا كانت أوربا قد شهدت تأخرا وانحطاطا فى مختلف الانشطة الاقتصادية فان ذلك ايضا يرجع الى تدهور اقتصاديات الدولة فيها وهو الأمر الذى يتطلب منا القاء الضوء على اقتصاديات الدولة فى كل منهما لتتضح معالم النشاط الاقتصادي فيهما بصفة عامة ويحاول الباحث فيما يلى ابراز ذلك بشىء من التفصيل:-

---

(١) - راجع ص٤٦٧ وما بعدها من هذا البحث.